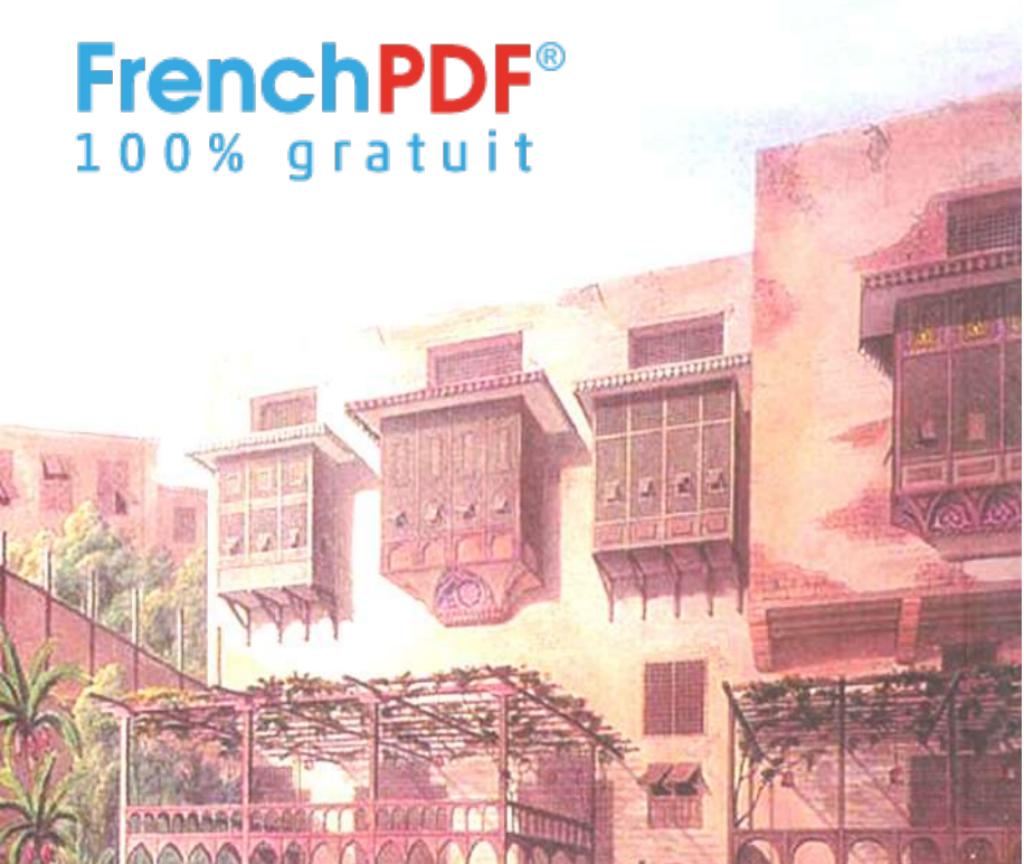


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِحِفْظٍ مُجَبِّدٍ

أَوْلَادَ حَاتِنَا

FrenchPDF®
100% gratuit



نجيب محفوظ

أولاد حاتم

FrenchPDF®
100% gratuit

دار الشروق

FrenchPDF®
100% gratuit

أولاد حاتم

أولاد حارتنا

نجيب محفوظ

إخراج ولوحات الغلاف : حلمي التونسي

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٦

الطبعة الثالثة عشرة ٢٠١٤

تصنيف الكتاب: أدب / روايات

FrenchPDF®
100% gratuit

© دار الشروق

شارع سبزية المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تلفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

www.shorouk.com

رقم الإبداع ٢٠١١/١٧٥٣٦

ISBN 978-977-09-1534-9

المحتويات

أولاد حارتنا

٧	افتتاحية
١١	أدهم
١٢٠	جبل
٢٢٢	رفاعة
٣٢٢	قاسم
٤٦٦	عرفة

ملحق

٥٨٢	هذه الشهادة
٥٨٥	حول «أولاد حارتنا»

افتتاحية

هذه حكاية حارتنا، أو حكايات حارتنا وهو الأصدق. لم أشهد من واقعها إلا طوره الأخير الذي عاصرته، ولكنني سجلتها جميماً كما يرويها الرواة وما أكثرهم. جميع أبناء حارتنا يرثون هذه الحكايات، يرويها كلُّ كما يسمعها في قهوة حيَّة أو كما نقلت إليه خلال الأجيال، ولا سند لي فيما كتبت إلا هذه المصادر. وما أكثر المناسبات التي تدعو إلى ترديد الحكايات! كلما ضاق أحد بحاله، أو ناء بظلم أو سوء معاملة، أشار إلى البيت الكبير على رأس الحارة من ناحيتها المتصلة بالصحراء وقال في حسرة: «هذا بيت جدنا، جمیعاً من صلبه، ونحن مستحقو أوقافه، فلماذا نجوع؟ وكيف نضام؟!». ثم يأخذ في قص القصص والاستشهاد بسير أدهم وجبل ورفاعة وقاسم من أولاد حارتنا الأمجاد. وجدنا هذا الفز من الألغاز. عمر فوق ما يطمع إنسان أو يتصور حتى ضُرب المثل بطول عمره. واعتزل في بيته لكرهه منذ عهد بعيد، فلم يره منذ اعتزاله أحد. وقصة اعتزاله وكبره مما يغير العقول، ولعل الخيال أو الأغراض قد اشتركت في إنشائها. على أي حال، كان يدعى الجبلاوي وباسميه سميت حارتنا. وهو صاحب أوقافها وكل قائم فوق أرضها والأحكار المحيطة بها في الخلاء. سمعت مرة رجلاً يتحدث عنه فيقول: «هو أصل حارتنا، وحارتنا أصل مصر أم الدنيا، عاش فيها وحده وهي خلاء خراب، ثم امتلكها بقوة ساعده وبنزليته عند الوالي. كان رجلاً لا يجود الزمان بمثله، وفتواه تهاب الوحش ذكره».

وسمعت آخر يقول عنه: «كان فترة حمّا، ولكن لم يكن كالفترات الآخرين، فلم يفرض على أحد إتاوة، ولم يستكبر في الأرض، وكان بالضعفاء رحيمًا». ثم جاء زمان فتناولته قلة من الناس بكلام لا يليق بقدرها ومكانته، وهكذا حال الدنيا. وكنت ومازالت أجد الحديث عنه شائقاً لا يمل. وكم دفعني ذلك إلى الطواف بيته الكبير لعلى أفوز بنظرة منه ولكن من دون جدوى. وكم وقفت أمام بابه الضخم أرنو إلى التمساح المحيط المركب أعلاه، وكم جلست في صحراء المقطم غير بعيد من سوره الكبير، فلا أرى إلا رءوس أشجار التوت والجميز والنخيل تكتنف البيت، ونوافذ مغلقة لا تنم على أي أثر للحياة. أليس من المحزن أن يكون لنا جدًّا مثل هذا الجد دون أن نراه أو يرانا؟ أليس من الغريب أن يختفي هو في هذا البيت الكبير المغلق وأن نعيش نحن في التراب؟! وإذا تسألت عما صار به وبينا إلى هذا الحال سمعت من فورك القصص، وترددت على أذنيك أسماء أدهم وجبل ورفاعة وقاسم، ولن تظفر بما ييل الصدر أو يريح العقل.

قلت إن أحدها لم يره منذ اعتزاله. ولم يكن هذا بذى بال عند أكثر الناس، فلم يهتموا منذ بادئ الأمر إلا بأوقافه وشروطه العشرة التي كثُر القيل والقال عنها، ومن هنا ولد النزاع في حارتنا منذ ولدت، ومضي خطوه يستفحّل بتعاقب الأجيال حتى اليوم، والغد. ولذلك فليس أدعى إلى السخرية المريءة من الإشارة إلى صلة القربي التي تجمع بين أبناء حارتنا. كنا ومازلنا أسرة واحدة لم يدخلها غريب. وكل فرد في حارتنا يعرف سكانها جميعاً نساء ورجالاً. ومع ذلك فلم تعرف حارةٌ حدة الخصوم كما عرفناها، ولا فرق بين أبنائها النزاع كما فرق بيننا، ونظير كل ساع إلى الخبر تجد عشرة فتوّات يلوحون بالنبايت ويدعون إلى القتال. حتى اعتاد الناس أن يشتروا السلامة بالإتاوة، والأمن

بالخضوع والمهانة، ولاحقتهم العقوبات الصارمة لأدنى هفوة في القول أو في الفعل بل الخاطرة تخطر فيشى بها الوجه.

وأعجب شيء أن الناس في الحالات القريبة منا كالعاطف وكفر الزغاري والدراسة والحسينية يحسدوننا على أوقاف حارتانا ورجالنا الأشداء، فيقولون: حارة مبنية وأوقاف تدر الخبرات وفتوات لا يغلبون. كل هذا حق، ولكنهم لا يعلمون أننا بتنا من الفقر كالمتسولين، نعيش في القاذورات بين الذباب والقمل، نقنع بالفتات، ونسعى بأجساد شبه عارية. وهؤلاء الفتوات يرونهم وهم يتبعثرون فوق صدورنا، فيأخذهم الإعجاب، ولكنهم ينسون أنهم إنما يتبعثرون فوق صدورنا، ولا عزاء لنا إلا أن نتطلع إلى البيت الكبير ونقول في حزن وحسرة: «هنا يقيم الجبلاوى، صاحب الأوقاف، هو الجد ونحن الأحفاد».

شهدت العهد الأخير من حياة حارتانا، وعاصرت الأحداث التي دفع بها إلى الوجود «عرفة» ابن حارتانا البار. وإلى أحد أصحاب عرفة يرجع الفضل في تسجيل حكايات حارتانا على يديه، إذ قال له يوماً: «إنك من القلة التي تعرف الكتابة، فلماذا لا تكتب حكايات حارتانا؟ إنها تروى بغير نظام، وتتخضع لأهواء الرواة وتحزّبائهم، ومن المفيد أن تسجل بأمانة في وحدة متكاملة ليحسن الانتفاع بها، وسوف أملك بما لا تعلم من الأخبار والأسرار». ونشطت إلى تنفيذ الفكرة، افتتاعاً بوجاهتها من ناحية، وحجاً فيمن اقترحها من ناحية أخرى.

وكنت أول من اتخذ من الكتابة حرفةً في حارتانا على رغم ما جرّ ذلك علىّ من تحقيير وسخرية. وكانت مهمتي أن أكتب العرائض والشكواوى للمظلومين وأصحاب الحاجات. وعلى كثرة المظلومين الذين يقصدوننى فإن عملي لم يستطع أن يرفعنى عن المستوى العام

للمتسولين في حارتنا، إلى ما أطلعني عليه من أسرار الناس وأحزانهم حتى ضيق صدرى وأشجن قلبى . ولكن مهلاً، فإننى لا أكتب عن نفسى ولا عن متابعينى، وما أهون متابعينى إذا قيست بمتابع حارتنا! حارتنا العجيبة ذات الأحداث العجيبة. كيف وجدت؟ وماذا كان من أمرها؟ ومن هم أولاد حارتنا؟

أدهم

١

كان مكان حارتنا خلاء . فهو امتداد لصحراء المقطم الذي يربض في الأفق . ولم يكن بالخلاء من قائم إلا البيت الكبير الذي شيده الجبلاوي كأنما ليتحدى به الخوف والوحشة وقطع الطريق . كان سورة الكبير العالى يتخلق مساحة واسعة ، نصفها الغربى حدائق ، والشرقى مسكن مكون من أدوار ثلاثة .

و يوماً دعا الواقف أبناءه إلى مجلسه بالبهو التحتانى المتصل بسلاملك الحديقة . وجاء الأبناء جمبيعاً ، إدريس و عباس و رضوان و جليل وأدهم ، فى جلابيبهم الحريرية ، فوقفوا بين يديه و هم من إجلاله لا يكادون ينظرون نحوه إلا خلسة . وأمرهم بالجلوس فجلسوا على المقاعد من حوله ، و راح يتفحصهم هنئه بعيشه النافذتين كعنى الصقر ، ثم قام متوجهًا نحو باب السلاملك . و وقف وسط الباب الكبير ينظر إلى الحديقة الترامية التى تزحمتها أشجار التوت والجميز والنخيل ، و تعرش فى جنباتها الخاء والياسمين ، و تثبت فوق غصونها مزقفة العصافير . ضجت الحديقة بالحياة والفناء على حين ساد الصمت بالبهو . و خيل إلى الإخوة أن فتوة الخلاء قد نسيهم ، وهو يبدو بطوله وعرضه خلقاً فوق الأدميين كأنما من كوكب هبط . و تبادلوا نظرات متسائلة . إن هذا شأنه إذا قرر أمراً ذا خطر ، وما يقلقهم إلا أنه جبار فى البيت كما هو جبار فى الخلاء وإنهم حياله لا شيء . التفت الرجل نحوهم دون أن يبرح مكانه

وقال بصوت خشن عميق تردد بقعة في أنحاء البهو الذي توارت جدرانه
العالية وراء ستائر وطناس:

- أرى من المستحسن أن يقوم غيري بإدارة الوقف . . .

وتفحّص وجههم مرة أخرى، ولكن لم تنم وجوههم عن شيء.
لم تكن إدارة الوقف مما يغري قوماً استحبوا الفراغ والدعة وعربدة
الشباب. وفضلاً عن هذا فإن إدريس الأخ الأكبر هو المرشح الطبيعي
للمنصب، فلم يعد أحد منهم يتسائل عما هنالك. وقال إدريس لنفسه:
«يا له من عبء! هذه الأحكام لا حصر لها، وهؤلاء المستأجرون
المناكيد!». أما الجبلاوي فاستطرد قائلاً:

- وقد وقع اختياري على أخيكم أدهم ليدير الوقف تحت إشرافي . . .
عكست الوجوه وقع مفاجأة غير متوقعة، فتبعدت النظارات في
سرعة وانفعال، إلا أدهم فقد غض بصره حياء وارتباكاً، وولاهم
الجبلاوي ظهره وهو يقول في عدم اكتراث:
- لهذا دعونكم . . .

تفجر الغضب في باطن إدريس، فبداكا ثملاً من شدة مقاومته،
ونظر إليه إخوه بحرج، ودارى كل منهم - عدا أدهم طبعاً - غضبه
لكرامته باحتجاجه الصامت على تخطي إدريس، الذي كان تخطياً
مضاعفاً لهم. أما إدريس فقال بصوت هادئ كأنما يخرج من جسم
آخر:

- ولكن يا أباى . . .

فاطعه الأب بيرود وهو يلتفت نحوهم:

- ولكن؟!

فغضوا الأبصار حذراً من أن يقرأ ما في نفوسهم، إلا إدريس فقد
قال بياصرار:

- ولكتنى الأخ الأكبر ..

فقال الجبلاوى مستاء :

- أظن أننى أعلم ذلك ، فأنما الذى ألمتكم.

فقال إدريس وحرارة غضبه أخذة فى الارتفاع :

- للأخ الأكبر حقوق لا تهضم إلا لسبب ..

فحodge الرجل بنظره طويلة كأنما يمنحه فرصة طيبة لتدبر أمره وقال :

- أؤكد لكم أنى راعيت فى اختيارى مصلحة الجميع ..

تلقي إدريس اللطمة بصبر ينفرد . إنه يعلم كم يضيق أبوه بالمعارضة ، وإن عليه أن يتوقع لطمات أشد إذا تمادى فيها ، ولكن الغضب لم يدع له فرصة لتدبر العواقب ، فاندفع خطوات حتى كاد يلاصق أدهم ، وانتفع كالديك المزهو ليعلن للأبصار فوارق الحجم واللون والبهاء بينه وبين أخيه ، وانطلق الكلام من فيه كما ينطلق نثار الرريق عند العطس بغير ضابط :

- إنى وأشقاءى أبناء هام من خبرة النساء . أما هذا فابن جارية سوداء ..

شحب وجه أدهم الأسمر دون أن تندعنه حركة ، على حين لوح الجبلاوى بيده قائلا بنبرات الوعيد :

- تأدب يا إدريس ..

ولكن إدريس كانت تعصف به عواصف الغضب المجنونة فهتف :

- وهو أصغرنا أيضًا ، فدلنى على سبب يرجحنى به إلا أن يكون زماننا زمان الخدم والعبيد ..

- اقطع لسانك رحمة بنفسك يا جاهم ..

- إن قطع رأسى أحب إلىّ من الهوان ..

ورفع رضوان رأسه نحو أبيه وقال برقة باسمة:
ـ نحن جمِيعاً أبناءُكَ، ومن حقنا أن نحزن إذا افتقدنا رضاكَ عنا،
والأمر لكَ على أي حال.. . وغاية مرامتنا أن نعرف السبب.. .
وعدل الجبلاوي عن إدريس إلى رضوان، مروضاً غضبه لغاية في
نفسه، فقال:

ـ أدهم على دراية بطبع المستأجرين، ويعرف أكثرهم بأسمائهم، ثم
إنه على علم بالكتابة والحساب.. .

وعجب إدريس من قول أبيه كما عجب إخوه. متى كانت معرفة
الأوشاب ميزة يفضل من أجلها إنسان؟! ودخول الكتاب، فهو ميزة
أخرى؟! وهل كانت أم أدهم تدفع به إلى الكتاب لو لا يأسها من فلاحه
في دنيا الفتونة؟! وتساءل إدريس متوكماً:

ـ أنكفى هذه الأسباب لتبرير ما يراد بي من مذلة؟

فأشار الجبلاوي نحوه بضمجر وقال:

ـ هذه إرادتني ، وما عليك إلا السمع والطاعة.. .

والتفت الرجل التفاتة حادة صوب أشقاء إدريس وهو يسأل:
ـ ما قولكم؟

فلم يتحمل عباس نظرة أبيه، وقال وهو واجم:

ـ سمعاً وطاعة.. .

وسرعان ما قال جليل وهو يغض طرفه:

ـ أمرك يا أبي.. .

وقال رضوان وهو يزدرد ريقه الجاف:

ـ على العين والرأس.. .

عند ذاك ضحك إدريس ضحكة غضب تقلصت لها أساريره حتى
تبخت وجهه وهتف:

- يا جبناه، ما توقعت منكم إلا الهزيمة المزرية. وبالجبن يتحكم فيكم
ابن الجارية السوداء..

فصاح الجبلاوي مقطعاً عن عينين تتغایر منها النذر:
- إدريس!

ولكن الغضب كان قد اقتلع جذور عقله فصاح بدوره:
- ما أهون الأبوة عليك، خلقت فتوة جباراً فلم تعرف إلا أن تكون
فتوة جباراً، ونحن أبناءك تعاملنا كما تعامل ضحاياك العديدين..
اقرب الجبلاوي خطوتين في بطء كالتوثب، وقال بصوت منخفض
وقد أندثرت أسارييه المنقبضة بالشر:
- اقطع لسانك!

ولكن إدريس واصل صياغه قائلاً:
- لن ترعبني. أنت تعلم أننى لا أرتعب، وأنك إذا أردت أن ترفع ابن
الجارية علىَّ فلن أسمعك لحن السمع والطاعة.
- ألا تدرك عاقبة التحدى يا ملعون؟
- الملعون حقاً ابن الجارية..

فعكلت نبرات الرجل واخشوشت وهو يقول:
- إنها زوجتى يا عربيد، فتأدب وإلا سوت بك الأرض..
وفزع الإخوة وأولهم أدهم لدرايتهم بيطش أبيهم الجبار، ولكن
إدريس كان قد بلغ من الغضب درجة لم يعد يدرك معها خطراً كأنه
مجنون يهاجم ناراً مندلعة، فصاح:

- إنك تبغضنى، لم أكن أعلم هذا، ولكنك تبغضنى دون ريب، لعل
الجارية هي التي بغضتنا إليك، سيد الخلاء وصاحب الأوقاف
والفتوة الرهيب، ولكن جارية استطاعت أن تعبث بك، وغداً
يتحدث عنك الناس بكل عجيبة يا سيد الخلاء.

- قلت لك اقطع لسانك يا ملعون .

- لا تسبني من أجل أدهم ، طوب الأرض يأبى ذلك ويلعنه ، وقرارك الغريب سيجعلنا أحذون الأحياء والخواري ..

فصاح الجبلاوي بصوت صك الأسماع في الحديقة والحرير :

- اغرب بعيداً عن وجهي ..

- هذا بيتي ، فيه أمي ، وهي سيدة دون منازع .

- لن ثری فيه بعد اليوم ، وإلى الأبد ..

واكفهر الوجه الكبير حتى حاكى لونه النيل في احتدام فيضانه ، وتحرك صاحبه كالبنيان ، مكوراً قبضة من صوان . وأيقن الجميع أن إدريس قد انتهى . ما هو إلا مأساة جديدة من المأسى التي يشهدها هذا البيت صامتاً . كم من سيدة مصونة تحولت بكلمة إلى متسللة تعيسة . وكم من رجل غادره بعد خدمة طويلة متزحجاً يحمل على ظهره العاري آثار سياط حملت أطرافها بالرصاص والدم يطفع من فيه وأنفه . والرعاية التي تحوط الجميع عند الرضا لا تشفع لأحد وإن عزّ جانبه عند الغضب . لهذا أيقن الجميع أن إدريس قد انتهى . حتى إدريس بكرى الواقف ومثيله في القوة والجمال قد انتهى . وتقدم الجبلاوي خطوتين آخرين وهو يقول :

- لا أنت ابني ولا أنا أبوك ، ولا هذا البيت يبيتك ، ولا أم لك فيه ولا أخ ولا نابع ، أمامك الأرض الواسعة فاذهب مصحوباً بغضبي ولعنتي ، وستعلمك الأيام حقيقة قدرك وأنت تهيم على وجهك محرومًا من عطفى ورعايتها !

فضرب إدريس البساط الفارسي بقدمه وصاح :

- هذا بيتي ، ولن أغادره ..

فانقض عليه الأب قبل أن ينتقبه ، وقبض على منكبه بقبضة

كالمعصرة، ودفعه أمامه والآخر يتراجع متقهقرًا، فعبرًا بباب السلاملك، وهبطا السلم وإدريس يتعرّض، ثم اخترق به غرًّا تكتنفه شجيرات الورد والحناء مفروشًا بالياسمين حتى البوابة الكبيرة فدفعه خارجًا وأغلق الباب. وصاحت بصوت سمعه كل من يقيم في البيت:

- الهلاك لمن يسمع له بالعودة أو يعيشه عليها..

ورفع رأسه صوب نوافذ الحرير المغلقة وصاحت مرة أخرى:
- وطالقة ثلاثة من تخترى على هذا..

٢

منذ ذلك اليوم الكثيف وأدهم يذهب كل صباح إلى إدارة الوقف في المنظرة الواقعة إلى يمين باب البيت الكبير: وعمل بهمة في تحصيل أجور الأحكار وتوزيع أنصبة المستحقين وتقديم الحساب إلى أبيه. وأبدى في معاملة المستأجرين لباقة وسياسة، فرضوا عنه على رغم ما عرف عنهم من مشاكل وفظاظة. وكانت شروط الواقف سرا لا يدرى به أحد سوى الأب، فبعث اختباراً لأدهم للإدارة الخوف أن يكون هذا مقدمة لإيشارته في الوصية. والحق أنه لم يهد من الأب قبل ذلك اليوم ما ينم عن التحيز في معاملته لأبنائه. وعاش الإخوة في وئام وانسجام بفضل مهابة الأب وعدالته. حتى إدريس - على قوته وجماله وإسرافه أحيانًا في اللهو - لم يسع قبل ذلك اليوم إلى أحد من إخوهه. كان شاباً كريماً حلو العشر حائزًا الود والإعجاب. ولعل الأشقاء الأربع كانوا يضمرون لأدهم شيئاً من الإحساس بالفارق بينهم وبينه، ولكن أحداً منهم لم يعلن هذا ولا اشتتم منه في كلمة أو إشارة أو سلوك. ولعل

أدهم كان أشد إحساساً منهم بهذا الفارق، ولعله قارن كثيراً بين لونهم المضيء ولونه الأسمر، بين قوتهم ورقته، بين سمو أمهم ووضاعة أمه، ولعله عانى من ذلك أسى مكتوماً وألمادفيناً، ولكن جو البيت المعيق بشذا الرياحين، الخاضع لقوّة الأب وحكمته، لم يسمح لشعور سين بالاستقرار في نفسه، فنشأ صافى القلب والعقل.

وقال أدهم لأمه قبيل ذهابه إلى إدارة الوقف:

- باركيني يا أمي، فما هذا العمل الذي عهد به إلى إلا امتحان شديد لي ولك..

فقالت الأم بضراوة:

- ليكن التوفيق ظلك يا بني، أنت ولد طيب والعقبى للطبيبين ..

ومضى أدهم إلى المنظرة ترمقه العيون من السلاملك والحدائق ومن وراء النوافذ، وجلس على مقعد ناظر الوقف وبدأ عمله. وكان عمله أخطر نشاط إنسانى يزاول فى تلك البقعة الصحراوية ما بين المقطم شرقاً والقاهرة القديمة غرباً. واتخذ أدهم من الأمانة شعاراً، وسجل كل مليم فى الدفتر لأول مرة فى تاريخ الوقف. وكان يسلم إخوته رواتبهم فى أدب ينسفهم مرارة الحنق ثم يقصد آباء بمحصيلة الأموال. وسأله أبوه يوماً:

- كيف تجد العمل يا أدهم؟

فقال أدهم بخشوع:

- ما دمت قد عهدت به إلى فهو أعظم ما فى حياتى.

نشاعت في الوجه العظيم البشائة، إذ إنه على جبروته كان يستخفه طرب الثناء. وكان أدهم يحب مجلسه. وإذا جلس إليه احتلس منه نظرات الإعجاب والحب. وكم كان يسعده أن يتبع أحاديثه وهو يروى له ولإخوته - حكايات الزمان الأولى، ومخامرات الفتوة والشباب، إذ

هو ينطلق في تلك البقاع ملوحاً بنبوته المخيف غازياً كل موضع تطأه قدماه . وبعد طرد إدريس ظل عباس ورضوان وجليل على عادتهم من الاجتماع فوق سطح البيت ، يأكلون ويشربون ويقامرون . أما أدهم فلم يكن يطيب له الجلوس إلا في الحديقة . كان عاشقاً للحدائق منذ درج ، وكان عاشقاً للنار . ولازمه تلك العادة بعد اضطلاعه بشؤون الوقف وإن لم تعد تستأثر بجل وقته . فكان إذا فرغ من عمله في الوقف افترش سجادة على حافة جدول ، وأسند ظهره إلى جذع نخلة أو جميز ، أو استلقى تحت عريشة الياسمين ، وراح يرتوى إلى العصافير وما أكثر العصافير ! أو يتبع اليمام وما أحلى اليمام ! ثم ينفع في النار محاكياً الزفة والهديل والتغريد وما أبدع المحاكاة ! أو يمد الطرف نحو السماء خلال الغصون وما أجمل السماء ! ومر به أخوه رضوان وهو على تلك الحال فرمقه بنظرة ساخرة وقال :

- ما أضيع الوقت الذي تنفقه في إدارة الوقف !

فقال أدهم باسماً :

- لولا إشفاقي من إغضاب أبي لشكوت ..

- فلنحمد نحن المولى على الفراغ !

فقال أدهم ببساطة :

- هنيئاً لكم ..

فسأل رضوان وهو يدارى الامتعاض بالابتسام :

- أتود أن تعود مثلنا ؟

- خير ما تمضي الحياة في الحديقة والنار ..

فقال رضوان بمرارة :

- كان إدريس يود أن يعمل ..

فغض أدهم بصره وهو يقول :

- لم يكن عند إدريس وقت للعمل، ولاعتبارات أخرى غضب، أما السعادة الحقة ففي هذه الحديقة تجدها..

ولما ذهب رضوان قال أدهم لنفسه: «الحديقة، وسكانها المغرون، والماء، والسماء، ونفسى الشوى، هذه هي الحياة الحقة. كأنى أجد فى البحث عن شئ . ما هذا الشئ؟ الناي أحيانا يكاد يجيئ . ولكن السؤال يظل بلا جواب . لو تكلمت هذه العصفورة بلغتى لشفت قلبي باليقين . وللنجمون الظاهرة حدث كذلك . أما تحصيل الإيجار فنشاز بين الأنقام».

وقف أدهم يوما ينظر إلى ظله الملقى على المشى بين الورود، فإذا بظل جديد يمتد من ظله واشياً بقدوم شخص من المنعطف خلفه. بدا الظل الجديد كأنما يخرج من موضع ضلوعه . والتفت وراءه فرأى فناة سمراء وهى تهم بالتراجع عندما اكتشفت وجوده، فأشار إليها بالوقوف فوققت، وتغضبت ملائيا، ثم سألتها برقة:

- من أنت؟

فأجابت بصوت ملائم:

- أميمة..

إنه يذكر الاسم، فهو بخارية، قريبة لأمه، وكما كانت أمه قبل أن يتزوج منها أبوه.

ومال إلى محادثتها أكثر، فسألها:

- ماذا جاء بك إلى الحديقة؟

فأجابت مسللة الجفنيين:

- حسبيتها حالية...

- لكن ذلك محرم عليكن..

فقالت بصوت لم يكدر بسمع:

وتراجعت حتى توارت وراء المنعطف، ثم ترami إلى أذنيه وقع أقدامها المسرعة، وإذا به يغمغم متأثراً: «ما أملحك!». وشعر بأنه لم يكن قط أدخل في خلائق الحديقة منه في هذه اللحظة. وإن الورد والياسمين والقرنفل والعصافير والبیمام ونفسه نغمة واحدة. وقال لنفسه: «أميمة مليحة، حتى شفتاها الغليظتان مليحتان، وجميع إخواتي متزوجون عدا إدريس المتكبر، وما أشبه لونها بلوني! وما أجمل منظر ظلها وهو مفروش في ظلى كأنه جزء من جسدي المضطرب بالرغبات! ولن يسخر أبى من اختيارى وإلا فكيف جاز له أن يتزوج من أمى؟!».

٣

رجع أدهم إلى إدارة الوقف بقلب مفعم بجمال غامض كالعبير. وحاول كثيراً أن يراجع حساب اليوم، ولكنه لم ير في صفحة عقله إلا السمراء. ولم يكن عجيباً أن يرى أميمة اليوم لأول مرة، فالحرير في هذا البيت كالأعضاء الباطنية يعرفها صاحبها على نحو ويعيش بفضلها ولكنه لا يراها. واستسلم أدهم إلى تيار أفكاره الوردية حتى انتزع منه على صوت مرعد قريب كأنما انفجر في المظرة نفسها وهو يصبح: «أنا هنا، في الخلاء يا جبلاوي، أعن الكل، اللعنة على رهوسكم نساء ورجالاً، وأتحدى من لم تعجبه كلماتي، سامعني يا جبلاوي؟!». وهتف أدهم: «إدريس!» وغادر المنظرة إلى الحديقة فرأى أخيه رضوان متوجهًا نحوه في اضطراب ظاهر، ويادره قائلاً:

ـ إدريس سكران، رأيته من النافذة مختل التوازن من السكر، أى فضائح تخبي الأقدار لأسرتنا؟

فقال أدهم وهو يغضى ألمًا:

- قلبي يتقطع أسفًا يا أخي ..

- وما العمل؟! إن كارثة تهددنا!

- ألا ترى يا أخي أنه يجب علينا أن نحدث أبانا في الأمر ..؟

فقطب رضوان قائلاً:

- أبوك لا يراجع في أمر، وحال إدريس هذه لا شك ضاعفت من غضبه عليه ..

فغمغم أدهم في كآبة:

- ما كان أغنانا عن هذه الأحزان!

- نعم، النساء يبكين في الحرير، عباس وجليل معتكfan من الكدر، وأبونا وحده في حجرته لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه ..

فتساءل أدهم في قلق وهو يشعر بأن ملابسات الحديث تدفعه إلى مأزق:

- ألا ترى أنه ينبغي أن نعمل شيئاً؟

- يبدو أن كل واحد منا يود أن يلوذ بالسلامة، ولا يهدد السلامة مثل طلبها بأى ثمن، غير أنى لن أجازف بمركزى ولو انطبقت السماء على الأرض، أما كرامة أسرتنا فستمرغ الساعة في التراب في ثوب إدريس ..

لماذا قصدتني إذن؟! بين يوم وليلة انقلب أدهم غراب بين ينعف! وتنهد قائلاً:

- إنى برىء من كل هذا، ولكن لن تطيب لى الحياة إن سكت ..

فقال رضوان وهو يهم بالذهاب:

- لديك من الأسباب ما يوجب عليك العمل ..!

ومضى راجعاً . ولبث أدهم وحده وأذناء ترددان هذه العبارة :
«الديك من الأسباب ..». نعم . إنه المتهم دون ذنب جناه . كالقلة التي تسقط على رأس لأن الريح أطاحت بها . وكلما أسف أحد على إدريس لعن أدهم . واتجه أدهم نحو الباب ففتحه في رفق ومرق منه . رأى إدريس غير بعيد يترنح دائراً حول نفسه ، يقلب عينين زائفتين ، وقد تشعث رأسه وانحرس جيب جلبابه عن شعر صدره . ولما اعترت عيناً على أدهم توبت للانقضاض كأنه قطة لاحت فأرًا ، ولكن أعجزه السكر فمال نحو الأرض وملاً قبضته تراباً ورمى به أدهم فأصاب صدره وانتشر على عباءته . وناداه أدهم برقة :
ـ أخى ..

فزمجر إدريس وهو يترنح :

ـ اخرس يا كلب يا ابن الكلب ، لا أنت أخى ولا أبوك أبي ، ولا دكتَنَ هذا البيت فوق رءوسكم ..

فقال أدهم متودداً :

ـ بل أنت أكرم هذا البيت وأبله ..

ففهمه إدريس من فيه دون قلبه وصاح :

ـ لماذا جئت يا ابن الجارية ؟ عد إلى أمك وأنزلها إلى بدرورم الخدم ..

فقال أدهم دون أن تتغير مودته :

ـ لا تستسلم للغضب ، ولا توصد الأبواب في وجه الساعين
لخيرك ..

فلوح إدريس بيده ثائراً وصاح :

ـ ملعون البيت الذي لا يطمئن فيه إلا الجبناء ، الذين يغمدون اللقمة في ذل المحنوع ، ويعبدون مذلهم . لن أعود إلى بيت أنت فيه رئيس ، فقل لأبيك إنني أعيش في الخلاء الذي جاء منه ، وإنني

عدت قاطع طريق كما كان، وعربيداً أنيماً عاتباً كما يكون،
وسيشرون إلى في كل مكان أعيش فيه فساداً ويقولون: «ابن
الجبلاوي»، بذلك أمر غكم في التراب يا من تظنون أنفسكم سادة
وأنتم لصوص.. .
وتوسل أدهم قائلاً:

- أخى أفق، حاسب نفسك على كل كلمة توجب اللوم، ليس
الطريق مسدوداً في وجهك إلا أن تسده بيديك، وإنى أعدك بأن
يعود كل شيء طيب إلى أصله.. .

فخطا إدريس نحوه خطوة بصرعية كأن ريحًا ترجعه وقال:
- بأى قوة تعلمني يا ابن الجارية؟
فقال وهو يرمي بحذره:
- بقوة الأخيرة.

- الأخوة؟! قذفت بها في أول مرحاض صادقني.. .
فقال أدهم متائلاً:

- ما سمعت منك من قبل إلا الجميل.. .
- طغيان أبيك أنطقني بالحق.. .

- لا أحب أن يراك الناس على هذه الحال.
فأرسل إدريس ضحكة معربدة وصاح:

- وسيرونني على أسوأ منها كل يوم، العار والفضيحة والجريمة
ستحلّ بكم على يدي، طردني أبوك دون حباء فليتحمل
العواقب.. .

ورمى بنفسه نحو أدهم فتنحنح هذا عن موقفه دون تردد، فكاد
إدريس يهوى على الأرض لو لا أن استند إلى الجدار، ولبث يلهث
حانقاً، وينظر في الأرض مفتشاً عن حجر، فتراجع أدهم بخفة إلى

الباب ودخل . واغرورقت عيناه من الحزن . وكان صباح إدريس ما زال صاحبًا . وحانَت منه التفاته نحو السلاملك فلمع أباه خلال الباب وهو يعبر البهو ، فمضى نحوه وهو لا يدرى ، متغلبًا على خوفه بحزنه . ونظر إليه الجبلاوى بعينين لا تفصحان عن شيء . وكان يقف بقامته المديدة ومنكبيه العريضين أمام صورة محراب نقشت على جدار البهو خلفه . وأحنى أدهم رأسه قائلاً :

- السلام عليكم ..

فتفحصه الجبلاوى بنظرة عميقـة ، ثم قال بصوت نفذ إلى أعماق قلبه :

- صرّح بما جئت من أجله ..

فقال أدهم بصوت مهموس :

- أبي ، إن أخي إدريس ..

فقطأطعه الأب بصوت كضربة الفاس في الحجر :

- لا تذكر اسمه أمامي ..

ثم وهو يمضي إلى الداخل :

- اذهب إلى عملك !

٤

توالى مشرق الشمس ومجيئها على هذه البقعة الخلاء وإدريس يتردى في مهاوى الشقاوة . في كل يوم يسجل في كتابه حماقة جديدة . كان يدور حول البيت ليقذفه بأقذع الشتائم . أو يجلس على كثب من الباب ، عاريًا كما ولدته أمه كائناً يشمس ، وهو يترنم بأفخشن الأغانى .

وكان يتجول في الأحياء القرية في خياله الفتوات، يتحدى كل عابر بنظرات هجومية، ويتحرش بكل من يتعرض سببه، والناس يتحاشونه كاظمين، وهم يتهمونه: «ابن الجبلاوي!». ولم يحمل لغذائه هما، فكان يمد يده بكل بساطة إلى الطعام حيث وجده، في مطعم أو على عربة، فيأكل حتى يكثف ثم يمضى دون شكر من ناحيته أو محاسبة من الآخرين. وإذا ثافت نفسه إلى العربدة مال إلى أول حانة تصادفه، فتقدم إليه البوظة حتى يسكت، ثم ينطلق لسانه كالنانفورة بأسرار أسرته وأعاجيبها، وتقاليدها السخيفة وجبنها المهيمن، منهاً بثورته على أبيه، جبار هذه الأحياء جميعاً، ثم يدخل في قافية ليغرق في الضحك، ويغنى إذا لزم الحال ويرقص، وتنتاهي مسرته إذا ختمت السهرة بمعركة، ثم يذهب مشياً بالتحيات.

وفي كل مكان اشتهر بهذه السيرة، فتحاماه الناس ما استطاعوا، ولكنهم سلموا بأمره كأنه مصيبة من مصائب الدهر. ونال الأسرة من ذلك ما نالها من القم والكرب. وغلب الحزن أم إدريس فشلت واحتضرت. وجاء الجبلاوي ليودعها فأشارت نحوه يدها السليمة محتاجة وفاضت روحها في أسى وغضب. وخيم الحزن على الأسرة كخيوط العنكبوت، فتوقف سمر الإخوة فوق السطح، وسكت ناي أدهم في الحديقة.

ويوماً تفجر الأب عن ثورة جديدة كانت ضحيته تلك المرة امرأة. إذ تعالى صوته الجهير وهو يلعن نرجس الخادمة ويطردها من البيت. وعلم في نفس اليوم أن أعراض الحمل ظهرت على المرأة، فقررت حتى أفترت بأن إدريس اعتدى عليها قبل طرده. وغادرت نرجس البيت وهي تصوت وتلطم خديها. وهامت على وجهها سحابة النهار حتى عثر عليها إدريس فألحقها برتاباته دون ترحيب، ودون جفاء كذلك، إذ لم تكن تخلو من نفع عند الحاجة.

على أن كل مصيبة وإن جلت لابد يوماً أن تُولف . لذلك أخذت الحياة تعود إلى مجريها المألوف في البيت الكبير كما يعود السكان إلى ديارهم عقب زلزال أكرههم على الفرار منها . عاد رضوان وعباس وجليل إلى ندوة السطع ، كما عاد أدهم إلى سهرة الحديقة ينادي الناي فيناجيه . ووْجَدْ أميمة تضيّع خواطره وتدفع مشاعره ، وصورة ظلها المعانق لظله ترنس بوضوح في مخيلته ، فقصد مجلس أمه في حجرتها حيث كانت تطرز شالاً ، فأفضى إليها بذات نفسه ، إلى أن قال :

ـ إنها أميمة يا أمي ، قرينته ..

فابتسمت أمه ابتسامة باهتة دلت على أن فرحة الخبر لم تستطع التغلب على عناء مرضها وقالت :

ـ نعم يا أدهم ، إنها فتاة طيبة ، تصلح لك كما تصلح لها ،
وستسعدك بمشيئة المولى ..

ولما رأت تورد البهجة في وجهه استدركت قائلة :

ـ لا ينبغي أن تدللها يا بني حتى لا تفسد حياتك ، وسأخاطب أباك في الأمر لعلى أنعم برؤية ذريتك قبل أن يدركني الموت ..

وعندما دعا الجبلاوي إلى مقابلته وجده يتسم ابتسامة لطيفة حتى قال لنفسه : «لا شيء يعادل شدة أبي إلا رحمته». وقال الأب :

ـ ها أنت ذا تطلب زوجة يا أدهم ، ما أسرع الزمن ! وهذا البيت يحتقر المساكين ، ولكنك باختيار أميمة تكرم أمك ، لعلك تنجيب ذرية صالحة . لقد ضاع إدريس ، وعباس وجليل عقيمان ، ورضوان لم يعش له ولد حتى اليوم ، وجميعهم لم يرثوا عنى إلا كبرياتي ، فاماًلاً هذا البيت بذرتك ، وإلا ذهب عمري هباء .

وكانت زفة أدهم التي لم يشهد لها الحى نظيرًا من قبل . و حتى اليوم يجري ذكرها مجرى الأمثال فى حارتنا . تدللت ليتلذاك الكلوبات من غصون الأشجار ومن فوق سور حتى بدا البيت بحيرة من نور وسط الخلاء المظلم . وأقيم سرادق فوق السطح للمغتنين والغنيات . وامتدت موائد الطعام والشراب فى البهو والحدائق والخلاء المتصل بمدخل البيت الكبير . وبدأت زفة أدهم من أقصى الجمالية عقب متصف الليل . سار فيها كل من يحب الجبلاوي أو يخافه حتى انتظمت الجميع . وخطر أدهم فى جلباب حريري ولاسة مزركشة بين عباس وجليل ، أما رضوان فسار فى المقدمة ، وعلى اليمين وعلى اليسار حاملو الشموع والورود ، وتقدم الموكب مجموعة ضخمة من المنشدين والراقصين ، وتعالى الغناء ، وتبعته تأوهات المطربين وتحيات المعجبين بالجبلاوي وأدهم ، حتى استيقظت الحى ودوت الزغاريد . وسار الموكب من الجمالية فالعطوف ثم كفر الزغارى والمبيضة ، ينهال عليه الترحيب حتى من الفتوات ، وخطب من خطب ، ورقص من رقص ، وزاعت الحانات البوظة مجاناً فس克ر حتى الغلمان ، وتهادت الجوزة من جميع الغرز فى طريق الموكب هدية للمختلفين فعقب الجو بحسن كيف والهندى .

وفجأة لاح إدريس كمارد انشقت عنه الظلمة فى آخر الطريق . لاح عند المنعطف المفضى إلى الخلاء على ضوء الكلوبات التى تقدم الموكب فتوقف حاملو الكلوبات عن السير وانتشر التهامس باسم إدريس . ولمحته أعين المنشدين فاعتراض الخوف حناجرهم ففكفت عن الغناء ، ورأء الراقصون فجمدت أوساطهم . وسرعان ما سكتت المزامير وخرسـت الطبول ، وغافت الضحـكات . وتساءلـ كثيرون عم يفعلـون ، فـهم إن استـ كانواـ مـ يـ أـمـنـواـ الأـذـىـ وإن ضـرـيـواـ مـ يـ ضـرـيـواـ إـلاـ ابنـ الجـبـلـاـوىـ . ولـوحـ إـدـرـىـسـ بـبـنـوـتـهـ وـهـوـ يـصـبـعـ :

ـ مـنـ الزـفـةـ يـاـ حـالـةـ الجـبـنـاءـ؟ـ

فساد الصمت واشرأبت الأعناق نحو أدهم وأخوته، وعاد إدريس

يتساءل:

- متى كتم لاين الجارية أو لأبيه أصدقاء؟

عند ذاك تقدم رضوان خطوات وهتف قائلاً:

- أخي، من الحكمة أن تدع الزفة تمر..

فصاح إدريس مقطباً:

- أنت آخر من يتكلّم يا رضوان، أنت أخي خائن وابن جبان، وذليل يشتري رغد العيش بالكرامة والأخوة..

فقال رضوان يأشفّاق:

- لا شأن للناس باختلافاتنا..

فقهه إدريس قائلاً:

- الناس يعلمون بخزيكم، ولو لا جبنهم العريق ما وجدت هذه الزفة زامراً أو منشداً..

فقال رضوان بعزم ثابت:

- أبوك عهد إلينا بأخيك، ولا بد أن نحفظه..

فعاد إدريس يقهقه وهو يتساءل:

- أرأيت أنك تدافع عن نفسك لا عن ابن الجارية؟

- أين رشادك يا أخي؟ بالحكمة وحدها تعود إلى بيتك.

- إنك كاذب، وأنت تعلم أنك كاذب..

فقال رضوان في حزن:

- لن ألومك فيما يخصني، ولكن دع الزفة تمر بسلام..

فكان جوابه أن انقض على الموكب كالثور الهائج. وأخذ نبوته يرتفع وبهوى فتحطم الكلوبات وتتصدع الطبول وتبعثر الورود؛ وراح

الناس يولون مذعورين كالرمال أمام العاصفة . وتكافف رضوان
وعباس وجليل أمام أدهم فتضاعف غضب إدريس :

- يا أندال ، تدافعون عن تكرهون خوفاً على الطعام والشراب ..
وهجم عليهم ، فتلقوها ضرباته ببابيتهم دون أن يردوا عليها وهم
يتراجعون . وإذا به يرمي بنفسه فجأة بينهم فيشق سبيلاً إلى موقف
أدهم ، فعلا الصوات في النوافذ ، وهتف أدهم وهو يتحفظ للدفاع عن
نفسه :

- إدريس ، لست عدوا لك فارجع إلى عقلك .
ورفع إدريس نبوته . وهنا صاح صالح : « الجبلاوي ! ». وصاح
رضوان مخاطباً إدريس :
- أبوك قادم ..

فوثب إدريس إلى جانب الطريق والتفت إلى الوراء فرأى الجبلاوي
قادماً وسط هالة من الخدم يحملون المشاعل . وغض إدريس على أسنانه
ثم هتف ساخراً :

- سأهبك عما قريب حفيداً من الزنى تقرّ به عينك .
واندفع نحو الجمالية والناس توسع له على الجانبين حتى ابتلعته
الظلمة . وبلغ الأب موقف الإخوة وهو يتظاهر بهدوء تحت آلاف
الأعين المحدقة فيه ، ثم قال بلهجة آمرة :
- ليعد كل شئ إلى أصله ..

ورجع حملة الكلويات إلى مواقعهم ، ودققت الطبول ، وعزفت
المزامير ، ثم غنى المنشدون ، ورقص الراقصون ، واستأنفت الزفة
مسيرها ..

وسهر البيت الكبير حتى الصباح في طرب وشراب وغناء . وعندما
دخل أدهم حجرته المطلة على خلاء المقطم وجداً أمينة واقفة إلى جانب

المرأة والنيل الأبيض لا يزال يغطي وجهها. كان مخموراً مسطولاً لا تكاد قدماه تحملانه، فاقترب منها وهو يبذل جهداً شديداً ليتمالك أعصابه. ورفع النقاب عن وجهها الذي طالعه في أحسن رواء، وهو برأسه حتى لشم شفتيها المكتنزيتين، ثم قال بلسان مخمور:

- لن亨 الهموم جميعاً ما دامت حسن الختام ..

وأتجه نحو الفراش، يستقيم خطوة ويترنح خطوة، حتى استلقى على عرض السرير باللامسة والمرکوب، وكانت أميمة تنظر إلى صورته المنعكسة على المرأة وهي تبسم في إشراق وحنان ..

٥

ووجد أدhem في أميمة سعادة لم يعرفها من قبل. ولبساطته أعلن عن سعادته بأقواله وأحواله حتى تذر به إخوته. وعند ختام كل صلاة كان يبسيط يديه هاتفًا: «الحمد لصاحب المزن؛ على رضا أبي الحمد له، على حب زوجتي الحمد له، على المنزلة التي أحظى بها دون من هم أجدر مني بها الحمد له، على الحديقة الغناء والنافع الرفيق الحمد له». وقالت كل امرأة من نساء البيت الكبير: إن أميمة زوجة واعية، فهي ترعى زوجها كأنه ابنها، وتتودّد حماتها وتخدمها حتى أسرتها، وتولى مسكنها العناية التامة كأنه قطعة من جسدها .. أما أدhem فكان زوجاً متربع القلب بالمحبة وحسن المعاشرة. وكما شغلته إدارة الوقف عن جزء من ملاهيـه البريئة في الحديقة من قبل، فقد شغل الحب بقية يومه، واستبد به حتى نسى نفسه.

وقالت أيام هائنة، وامتدت فوق ما قدر رضوان وعباس وجليل

الساحرون، ولكنها ارتطمت في النهاية بذلك الهدوء الحكيم كما تنتهي مياه الشلال المتتدفة الراغبة المزبدة في النهر الرصين. وعاد التساؤل يحتل مكانه في قلب أدهم، فشعر بأن الزمن لا يمر في غمضة عين، وأن النهار يعقبه الليل، وأن المناجاة إذا تواصلت إلى غير نهاية فقدت كل معنى، وأن الحديقة ملهاة صادقة لا يجرد به أن يهجرها، وأن شيئاً من هذا لا يعني بحال أن قلبه تحول عن أميمة، فلا تزال في صميمه، ولكن للحياة أطواراً لا يخبرها المرء إلا يوماً يوم. وعاد إلى مجلسه عند القناة، وأجال بصره في الأزهار والعصافير ممتداً ومنتراً. وإذا بأمية تلحق به مشرقة بالبهجة، فجلست إلى جانبه وهي تقول:

ـ نظرت من النافذة لأرى ما أحرّك، لماذا لم تدعني معك؟
فقال باسماً:

ـ خفت أن أتعبك..

ـ تعبني؟ طالما أحببت هذه الحديقة، أتذكر أول لقاء لنا هنا؟ وأخذ يدها في يده، وأسند رأسه إلى جذع النخلة مرسلأً طرفه إلى الغصون، وإلى السماء خلال الغصون، وعادت هي تؤكد له حبها للحديقة، وكلما أمعن في الصمت أمعنت في التوكيد، إذ إنها كانت تكره الصمت بقدر ما تحب الحديقة، وكان حديث حياتها أطيب حديث. ولا يأس بالوقوف بعض الوقت عند أهم الأحداث في البيت الكبير، وبخاصة ما يتعلق بزوجات رضوان وعباس وجليل، ثم تغير صوتها مائلاً نحو العتاب وهي تقول:

ـ أنت تغيب عنى يا أدهم..!

فابتسم إليها قائلاً:

ـ كيف وأنت ملء القلب؟!

ـ ولكنك لا تصغي إلى..!

هذا حق. ومع أنه لم ير حب بقدمها فإنه لم يصدق به. ولو همت بالرجوع لأمسك بها صادقاً. والحق أنه يشعر بأنها جزء لا يتجزأ منه. وقال كالمعتذر:

- إنني أحب هذه الحديقة، لم يكن في حياتي الماضية أطيب من جلستها، وتکادأشجارها الباسقة ومباهتها المفضضة وعصافيرها المزفزة تعرفني كما أعرفها، وأود أن نقاسمي حبها. أرأيت إلى السماء كيف تبدو خلال الغصون؟

فرفعت عينيها مقدار لحظة ثم نظرت إليه باسمة وقالت:

- إنها جميلة حقاً، وجديرة بأن تكون أطيب ما في حياتك.

فأنس من قولها العتاب دون إفصاح، وبادرها قائلاً:

- بل كانت كذلك قبل أن أعرفك..

- والآن؟

فضسيط على يدها بحنو قائلاً:

- لا يتم جمالها إلا بك..

فقالت وهي تحدّ بصرها نحوه:

- من حسن الحظ أنها لا تؤاخذك على انصرافك عنها إلى..

فضسيط أدهم وجذبها نحوه حتى التصق خدتها بشفتيه، ثم سألاها:

- أليست هذه الأزهار أجدر بالتفاتنا من الكلام عن زوجات إخواتي؟!

فقالت أميمة باهتمام:

- الأزهار أجمل، ولكن زوجات إخواتك لا يكفين عن الحديث عنك.. إدارة الوقف، دائمًا إدارة الوقف، وثقة أبيك فيك، يُدين ويعُدّن في هذا..

وقطب أدهم غائباً عن الحديقة، وقال بحدة:

- لا شيء ينفعهن!

- الحق أنني أخاف عليك العين ..

فهتف أدهم غاضباً:

- لعنة الله على الوقف، أرهقني وغير القلوب على وسلبني راحة

البال، فليذهب في داهية ..

فوضعت أصبعها على شفتيه وهي تقول:

- لا تكفر بالنعمة يا أدهم، إن إدارة الوقف شأن خطير، وقد تجر
وراءها نفعاً لا يخطر بالبال ..

- جرت حتى الآن المتابعة .. وحسبنا مأساة إدريس ..

فابتسمت، لكن ابتسامتها لم تنمّ عن بهجة وإنما دارت بها اهتماماً
جدياً تجلّى في نظرة عينيها، وقالت:

- انظر إلى مستقبلنا كما نظر إلى الغصون والسماء والعصافير ..

وواظبت أميمة على مشاركته جلسته في الحديقة. ولم تكن تعرف
الصمت إلا في النادر. لكنه اعتادها، كما اعتناد الإصغاء بنصف انتباه أو
من دون ذلك، وعند الحاجة يتناول الناي ليتفتح فيه ماشاء له الطرب.
واستطاع أن يقول في رضا تام إن كل شيء طيب. حتى شقاوة إدريس
باتت شيئاً مألوفاً. لكن المرض اشتد على أمه. وعانت آلاماً لم تعرفها
من قبل تقطع لها قلبها. وكانت تدعوه إلى جانبها كثيراً فتسمع عليه أكرم
الدعاء. ومرة قالت له بتسلل حار: «ادع ربك دائمًا أن يقبلك الشر
ويهديك سوء السبيل». ولم تدعه يذهب. وظللت تراوح بين الأنين
وبين مخاطبته وتذكريه بوصيتها حتى فاضت روحها بين يديه. وبكماء
أدهم، وبكتها أميمة، وجاء الجبلاوي فنظر في وجهها مليئاً سجاحها
بااحترام وقد تجلّت في عينيه الحادتين نظرة كثيبة مليئة بالشجن.

وما كاد أدهم يعود رويداً إلى مأْلَفِ الْحَيَاةِ حتى ارْتَطَمَ بِنَفْغِير طارئ على أميمة لم يعرف له علة. بدأ بانقطاعها عن مجلسه في الحديقة، فلم يسر بذلك كما كان يتوهّم أحياناً. وسأّلها عن سر انقطاعها فأعانت بأعذار شتى كالعمل أو التعب. ولا حظ أنها لم تعد تقبل عليه بالاندفاع المعتاد، فإذا أقبل هو عليها لاقته دون عاطفة حقيقة، كأنما تجامله، وكأنما مجاملته عناء. وتساءل عما هنالك! لقد مر بشيء شبيه بهذا، ولكن جبه صمد له وتغلب عليه. وكان بوسعي أن يقصو عليها، وود أحياناً لو يفعل ذلك ولكن منه انكسارها وشحوبها ومغالاتها في التأدب معه. أحياناً تبدو حزينة، وأحياناً تبدو حائرة، ومرة بااغت في عينيها نظرة نافرة حتى ركب الغضب والجزع معاً. وقال لنفسه: «فلا صبر عليها قليلاً، إما ينصلح حالها أو فلتذهب في ألف داهية!». وجلس إلى أبيه في مخدع الرجل ليعرض عليه حساب الشهر المختامي. وتفحصه الأب دون أن يعني بثابته وسألة:

- مالك؟

فرفع أدهم رأسه نحوه في دهش وقال:

- لا شيء يا أبي ..

فضيق الرجل عينيه وتمتم:

- خبرني عن أميمة ..

فانخذلت عيناه تحت نظرة أبيه النافذة وقال:

- بخير، كل شيء طيب.

فقال الجبالاوي بضمجر:

- صارحنى بما عندك.

فصمت أدهم ملياً، وهو يؤمّن بأن أبيه قادر على معرفة كل شيء، ثم قال معترقاً:

- تغيرت كثيراً، وتبعد كالنافرة .
فتجلت في عيني الأب نظرة غريبة وقال :
- هل وقع بينكم خلاف ..?
- أبداً .
فقال الجبلاوي في ارتياح وهو يبتسم :
- يا جاهل ، ترقص بها ، لا تقترب منها حتى تدعوك ، سوف تكون أباً
عما قريب .

٦

جلس أدهم في إدارة الوقف يستقبل مستأجري الأحكار المجددة ،
واحداً بعد آخر ، وقد وقفوا طابوراً ، أوله أمامه وأخره في نهاية المنظرة
الكبيرة . ولما جاء آخر المستأجرين سأله أدهم دون أن يرفع رأسه عن
دفتره في عجلة وضجر :
- اسمك يا معلم؟

فجاءه صوت يقول :
- إدريس الجبلاوي .

فرفع أدهم رأسه في فزع فرأى أخاه واقفاً أمامه ، ثم وقف متوتباً
للدفاع عن نفسه وهو ينظر نحوه بحذر . لكن إدريس بدا في مظهر جديد
لا عهد لأحد به . بدارث الهيئة ، هادئاً ، متواضعاً ، حزين الطرف ،
مأمون الجانب ، كالشوب النشى بعد نقعه في الماء . ومع أن هذا المنظر
استل من نفس أدهم كل حنق قديم إلا أنه لم يطمئن إلى السلامة كل
الاطمئنان ، فقال في تحذير مشوب بالرجاء :

إدريس!

فأحنى إدريس رأسه قائلاً في رقة عجيبة:

- لا تخف، لست إلا ضيفك في هذا البيت إذا وسعني كرم
أخلاقك.

أهذا الكلام اللطيف يصدر عن إدريس حقا؟! هل أدبه الآلام؟ الحق
إن خشوعه محزن كفجوره. وألا تعد استضافته له تحدياً للأب؟ لكنه
جاء دون دعوة منه. ووجد نفسه يشير إليه بالجلوس على مقعد قريب
من مقعده، فجلسا معاً وهم يتبادلان النظر في غرابة حتى قال إدريس:
- اندسست في جموع المستأجرين لأنك من الانفراد بك.

فتساءل أدهم في قلق:

- ألم يرك أحد؟

- لم يرني أحد من البيت، اطمئن إلى هذا، لم أجئ لأكدر صفوتك،
ولكنني أجا إلى لطف أخلاقك.

فغضض أدهم عينيه متائراً وقد تصاعد الدم إلى وجهه، فقال إدريس:
- لعلك تعجب لما غيرني، لعلك تسأله أين ذهب تكبره وصلفة؟
فاعلم أنني قاسبت آلاماً لا يقدر عليها أحد، وعلى رغم هذا كله
فإإنني لا أقف موقفى هذا من أحد سواك إذ إن مثلى لا ينسى
كرياهه إلا حال الخلق اللطيف.

فغمغم أدهم قائلاً:

- خفف الله عنك وعننا، فكم نغض مصبرك حباتي وكدرها.
- كان ينبغي أن أعرف هذا من أول الأمر، ولكن الغضب جنتي،
وفتكثت الخضر بكرامتى، ثم أجهزت حياة التشرد والبلطجة على
الرمق الأخير من إنسانيتى، أعهدت مثل ذاك السلوك فى أخيك
الأول؟!

- أبداً، كنت خيراً أخ وأنبل إنسان !
- فقال إدريس بصوت المتوجع :
- حسراً على تلك الأيام، لست اليوم إلا شقياً أخطب في الخلاء جاراً ورائى امرأة حبلى، أشيع في كل مكان باللعنة، وأشتري رزقى بالمنكر والعدوان.
- إنك تُعزق قلبي يا أخي .
- معذرة يا أدهم، لكن هذه هي طويتك التي خبرتها منذ قديم ، ألم أحملك صغيراً على يدي؟ ألم أشهد صباك ويفاعتك وأمس فيهما نيلك وسجايak الحميـدة؟ لعن الله الغضب حينما احترق.
- لعنة أبدية يا أخي .
- وتنهد إدريس وهو يقول وكأنما يخاطب نفسه :
- شدّ ما أسأت إليك، إن ما حاقد بي من شر وما سيحقق لهـو دون ما أستحق من جـاءـه .
- خفـفـ الله عنكـ، أتـدرـى أـنـتـى لمـ أـيـاسـ أـبـداـ منـ عـودـتـكـ؟ حتىـ فـيـ إـيـانـ غـضـبـ أـيـيـناـ جـازـفـ بـمـخـاطـبـتـهـ فـيـ شـائـكـ .
- فابتسم إدريس عن أسنان علاها الأصفرار والقذارة وقال :
- هذا ما حدثـنيـ بـهـ نفسـيـ، قـلتـ إنـ يـكـنـ ثـمـةـ رـجـاءـ فـيـ مـرـاجـعـةـ أـبـيـ فـلنـ يـتـأـتـيـ عـنـ سـيـيلـ سـواـكـ .
- فلمـعـتـ عـيـنـاـ أـدـهـمـ وهوـ يـقـولـ :
- إـيـنـ أـلـسـ الـهـدـاـيـةـ فـيـ روـحـ الـكـرـيمـ، أـلـاـ تـرـىـ أـنـ قـدـ آـنـ الـأـوـانـ لـكـ نـخـاطـبـ وـالـدـنـاـ فـيـ الـأـمـ؟
- فهزـ إـدـرـيسـ رـأـسـهـ الأـشـعـثـ فـيـ يـأسـ وـقـالـ :
- أـكـبـرـ مـنـكـ بـيـوـمـ يـعـرـفـ أـكـثـرـ مـنـكـ بـسـتـةـ، وـأـنـاـ أـكـبـرـكـ بـعـشـرـ سـنـوـاتـ لـاـ

بستة واحدة، فاعلم أن أباًنا يغفر كل شيء إلا أن يهينه أحد. لن
يعفو عن أبيك بعد ما كان، ولاأمل لى في العودة إلى البيت
الكبير.

لا شك فيما قاله إدريس، وهذا مازاده حرجاً وضيقاً، وقتم في
كابة:

- ماذا في وسعي أن أفعل من أجلك؟

فابتسم إدريس مرة أخرى قائلاً:

- لا تفك في مساعدات مالية، فإني واثق من أمانتك كمدير للوقف،
واعلم أنك إذا مددت لي يد المعونة فسيكون من حر مالك وهو ما
لا أقبله، إنك اليوم زوج وغداً أب، وأنا لم أجئك مدفوعاً بفقرى،
ولكنى جئت لأعلن لك ندمي عما فرط مني في حقك، ولأسترد
مودتك، ثم إن لي رجاء.

فطلع إليه أحدهم باهتمام وتساءل:

- قل يا أخي ما رجاؤك؟

فأدلى إدريس رأسه من أخيه كائناً يخشى أن تسمعه الجدران وقال:
- أريد أن أطمئن على مستقبلي بعد أن خسرت حاضرى. سأكون أباً
مثلثك، فما مصير ذريتى؟

- ستجلدى رهن إشارتك في كل ما أستطيع ..

فربت إدريس كتف أحدهم بامتنان وقال:

- أريد أن أعرف هل حرمى أبي حقى في الميراث؟

- كيف لي بمعرفة هذا؟! ولكن إن سألتني عن رأى ..

فقطاطعه إدريس قلقاً:

- إنى لا أسألك عن رأيك ولكن عن رأى أبيك ..

- إنه كما تعلم لا يصارح أحداً بما يدور في رأسه ..
- ولكنه دون شك قد سجله في حجة الوقف ..
- فهز أدهم رأسه دون أن ينبس، فعاد إدريس يقول:
- كل شيء في الحجة ..
- لا علم لي بها، وأنت تعلم أن أحداً في بيتنا لا يدرى عنها شيئاً،
وعملى في الإداره يسير تحت إشراف أبي الكامل ..
- فحذجه إدريس بنظرة حزينة وقال:
- الحجة في مجلد ضخم، وقد لاحته مرة في صبائى وسألت أبي عما فيه - وكنت وقتذاك قرة عينه - فقال لي إنه يضم كل شيء عنا، ولم نعد إلى الحديث عنه، ولم يسمح لي بذلك حين بدا لي أن أسأل عن بعض ما جاء فيه، ولا أشك الآن في أن مصيرى قد تقرر فيه ..
- فقال أدهم وهو يشعر بأنه ينحصر في ركن ضيق:
- الله أعلم.
- إنه في الخلوة المتصلة بمخدع أبيك، ولا شك في أنك رأيت بابها الصغير في نهاية الجدار الأيسر. وهو باب مغلق دائماً، لكن مفتاحه مودع في صندوق فضي صغير في درج الخوان القريب من الفراش، أما المجلد الضخم فعلى تراييزه في الخلوة الضيقة ..
- فرفع أدهم حاجبيه الخفيفين في اتزاعاج وتم:
- ماذا تريدين؟
- فقال إدريس متهدداً:
- إن كان ثمة راحة بال باقية لي في هذه الدنيا فهي رهن بمعرفتي ما سجل في الحجة عنى ..
- فقال أدهم في ارتياع:
- أهون على أن أسأله عما في الشروط العشرة صراحة!

-لن يجib ، وسيغضب ، وربما أساء بك الظن ، أو خمن الدافع
الحقيقى وراء سؤالك فثار سخطه ، وكم أكره أن تخسر ثقة أبيك
جزاء إحسانك إلى ، وهو لا شك لا يريد أن يذيع شروطه العشرة ،
ولو أراد ذلك لعرفناها جميعاً ، فلا سبيل مأموناً إلى الحجة إلا
السبيل الذى وصفته لك ، وهو ميسور جداً عند الفجر حين يتوجول
أبوك في الحديقة ..

فامتنع وجه أدهم وهو يقول :

-ما أفعى ما تدعونى إليه يا أخي !

فدارى إدريس خيته بابتسامة شاحبة وقال :

-ليس جريمة أن يطلع ابن على ما يخصه فى حجة أبيه .

-لكنك تطلب إلى سرقة سر يحرص أبونا على صونه ..

فنهى إدريس بصوت مسموع وقال :

-قلت لنفسي عندما قررت اللجوء إليك : «ما أصعب أن أقنع أدهم
بعمل يعتبره مخالفًا لإرادة الأب !» ، ولكن داعبني أمل قوى
فقلت : «العله يقدم إذا لمس مدى حاجتي إلى معونته» ، وليس في
الأمر جريمة ، وسيمر السلام ، وستجد أنك انتشتلت روحًا من
الجحيم دون أدنى خسارة ..

-ليحفظنا المولى من الأخطاء ..

-أمين ، لكنني أتوسل إليك أن تتقذنى من العذاب ..

نهض أدهم في جزع واضطراب ، فنهض إدريس في أثره ، وابتسم
بابتسامة دلت على تسليمه باليأس ، وقال :

-أزعجتك حقاً يا أدهم ؛ من أمارات نعاشتى أنتي لا ألقى شخصاً
حتى تدركه المتاعب على وجه أو آخر . بات إدريس لعنة
سافرة ..

- كم يعذبني عجزى عن مساعدتك ، إنه عذاب ما بعده عذاب ..
فدنا منه حتى وضع يده على منكبه فى رقة ، ثم لثم جبينه فى عطف ،
وقال :

- لا يسأل عن تعاستى إلا نفسي ، لماذا أحملك فوق ما تطيق ؟ دعني
أتركك بسلام وليفعل الله ما يشاء ..
قال إدريس ذلك ثم ذهب ..

▼

دبت الحيوية فى وجه أميمة لأول مرة منذ عهد غير قصير ، فسألت
أدهم باهتمام :

- ألم يحدثك أبوك عن الحجارة من قبل ؟
كان أدهم متربعاً على الكتبة ، ينظر من النافذة إلى الخلاء الغارق فى
الظلمة . فأجابها :

- لم يحدث أحداً عنها قط ..
- لكن أنت ..

- لست إلا أحد أبنائه الكثيرين ..

فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت :

- لكنه اختارك أنت لتدير الوقف ..

فالتفت نحوها قائلاً بحدة :

- قلت إنه لم يحدث أحداً عنها قط ..

فابتسمت مرة أخرى كأنما تتلطف حدته ، ثم قالت بمحنة :

- لا تشغل بالك، إدريس لا يستحق ذلك، إن إساءاته لك لا تُنسى أبداً ..

فحوال أدهم رأسه نحو النافذة، وقال بحزن: - إدريس الذي جاعني اليوم غير إدريس الذي أساء إلىّ، إن منظره النادم الحزين لا يبرح مخيالي ..

فقالت بارتياح ظافر:

- هذا ما أدركته من حديثك، وهو سر اهتمامي بالأمر، ولكنك تبدو ضيق الصدر بخلاف عادتك ..

كان ينظر إلى ظلام الليل الكثيف، لكن رأسه المشغول لم يستجب له، فقال:

- لا فائدة ترجى من الاهتمام ..

- لكن أخاك النادم يسألوك الرحمة ..

- العين بصيرة واليد قصيرة ..

- يجب أن تحسن علاقتك به، وباخوته، وإلا وجدت نفسك يوماً وحيداً أمامهم ..

- إنك تهتمين بنفسك لا بإدريس ..

فهزت رأسها كأنما تزير عن نتاب المكر وقالت:

- من حقى أن أهتم بنفسي، ومعنى هذا أن أهتم بك وبما في بطني ..
ماذا تريدى المرأة؟ وهذا الظلام ما أشد كثافته! حتى المقطم العظيم قد ابتلعه. وأراح نفسه بالصمت. وإذا بها تسأله:

- ألا تذكر أنك دخلت الخلوة أبداً؟

فأجاب خارجاً من صمته القصير:

- أبداً، أحبيبتي في صبائِي أن أدخلها فممنعني أبي، ولم تكن أمني تسمح لي بالاقتراب منها ..

- لا شك في أنك كنت تمني دخولها ..
ما حادثها في الأمر إلا وهو يتضرر أن تدفعه عنه لا أن تجذبه إليه . كان
بحاجة إلى من يؤكد له صواب موقفه من أخيه . كان بحاجة ماسة إلى
ذلك ولكنه كمن كان ينادي في الظلام خفيراً فيخرج إليه قطاع الطريق .
وعادت أميمة تأسلاه :

- والخوان الذي به الصندوق الفضي هل تعرفه ؟
- كل من دخل الحجرة يعرفه ، لماذا تسألي عنـه ؟
ترحزحت من مجلسها على الكتبة مقتربة منه وسألته بإغراء :
- بربك ألا تود أن تطلع على الحجة ؟
فأجاب بحدة :
- كلا ، لماذا أود ذلك ؟
- من ذا يقاوم الرغبة في الاطلاع على المستقبل ؟
- تعنين مستقبلك أنت ؟!
- مستقبلي ومستقبلك ، ومستقبل إدريس الذي حزنت عليه على
رغم ما سبق منه ضلوك !
المرأة تعرّب عما في نفسه . وهذا ما يشير حنقه . ومدرّسه نحو
النافلة كأنما يهرب منها وهو يقول :
- لا أود ما لا يود أبي ..
فرفعت حاجبيها المزججين متسائلة :
- لماذا يخفى هذا الأمر ؟
- ذلك شأنه ، ما أكثر أسئلتك الليلة !
فقالت وكأنما تخاطب نفسها :
- المستقبل ! نعرف مستقبلنا ونقدم إحساناً كبيراً إلى إدريس التعيش ،

لن يكفينا هذا كله إلا قراءة ورقة دون أن يدري أحد، وأنحدى أي صديق أو عدو أن يثبت علينا سوء نية في عملنا هذا أو أنه يمس من قريب أو من بعيد والذك المحبوب !
وكان أدهم يراقب نجماً فاق الأنجم بضيائه اللامع فقال متوجهلاً قولها :

- ما أحجمل السماء ! لو لا رطوبة الليل لخلست في الحديقة أراقبها من خلل الفصون ..

- لا شك في أنه ميز البعض في شروطه ..
فنهض أدهم :

- ما أزهدني في امتياز لا يجر وراءه إلا المتاعب ..
فقالت متنهدة :

- لو كنت أعرف القراءة لذهبت بنفسي إلى الصندوق الفضي ..
تمني لو كان ذلك كذلك . وتضاعف حنقه عليها وعلى نفسه . بل شعر بأنه قد وقع في المحظور فعلًا وأنه يفكر فيه كحدث مضى . وتحول نحوها مقطبًا فبدأ وجهه على ضوء المصباح المرتعش بالنسيم التسلل من النافذة مهتمًا ، ضعيفًا على رغم تجهمه وقال :

- لعنت حين أفضيتك إليك بالخبر !

- لا أريد بك شرًا ، ومحبتي لوالذك مثل محبتك له ..

- دعيك من هذا الحديث المتعب ، في هذه الساعة تستحب الراحة .

- يبدو أن قلبي لن يرتاح قبل الإقدام على هذا العمل السهل ..
ففتح قائلًا :

- اللهم أرجع إليها عقلها !

فرمقته بنظرة المتحفظ ثم سأله :

- ألم تخالف أباك باستقبالك إدريس في المنظرة؟!

فاتسعت عيناه دهشة وقال:

- وجدته أمامي فلم يسعني إلا استقباله..

- هل أخبرت والدك بنبأ زيارته؟

- ما أنقلتك الليلة يا أميمة!

فقالت بصوت الظافر:

- إذا جاز لك أن تخالفه فيما قد يضرك فكيف لا تخالفه فيما يفيضك
ويغدو أخاك ولا يضر أحداً..؟!

بوسعه أن يقطع الحديث لو شاء. ولكن المنحدر كان شديد الانحدار. والحق أنه لم يتركها تسلل في حديثها إلا لأن جزءاً من نفسه كان بحاجة إلى تأييدها. وتساءل فيما يشبه الغضب:

- ماذا تعنين؟

- أعني أن تسهر حتى الفجر، أو حتى يخلو المكان لنا..

فقال بامتعاض:

- ظنت الحمل قد أفقدك عاطفتك وحدها، ولكنها هو ذا يفقرك عقلك أيضاً..

- أنت مقتنع بما أقول وحق من خلق الروح في بطني، ولكنك خائف، والخوف لا يليق بك..

فاكفر وجهه اكفره رأياً منقطع الأسباب بالتراثي السارى في داخله

وقال:

- سنذكر بهذه الليلة أول زعل فرق بيننا.

فقالت برقة عجيبة:

- أدهم، دعنا نفكك جادين في الأمر..

- لن نجني خيراً ..

- هذا قولك ولكنك سترى ..

شعر بوجه النار وهو يقترب منها . قال لنفسه : «إذا احترقت فلن تُجدى دموعي في إخمامها» . وحول رأسه إلى النافذة فخيل إليه أن سكان ذلك النجم اللامع سعداء لبعدهم عن هذا البيت . وتم بصوت ضعيف :

- لم يحب أحد أباه كما أحبه ..

- ما أبعدك عما يسيئه .

- أميمة ، ما أحوجك إلى النوم !

- أنت الذي طيرت النوم عن عيني ..

- أملت أن أسمع عندك صوت العقل ..

- ما أسمعتك غيره ..

وسائل نفسه بصوت منخفض كالهمس :

- ترى هل أندفع نحو الخراب ؟!

فربت يده الملقاة على مسند الكتبة وقالت بتعاب :

- مصيرنا واحد يا ناكر الحب !

فقال في استسلام دل على أنه اتخاذ قراره :

- ولا هذا النجم يدرى ما مصيرى !

فقالت بانطلاق :

- ستقرأ مصيرك في الحجة ..

و مدّ بصره نحو النجوم الساهرة ، وقطع السحاب المستضيئ بنورها الهادئ ، وخيل إليه أنها مطلعة على نجواه فغمغم : «يا لطف السماء !» .

ثم سمع أميمة وهي تقول في نبرات مداعبة :

- أنت علمتني حب الحديقة ، دعني أرد إليك الجميل ..

وعند الفجر غادر الأب حجرته قاصداً الحديقة. كان أدهم بأقصى الردة يترقب وأميماً خلفه ممسكة بكتفه في الظلام. تابعاً وقع الأقدام الثقيل المتزن ولكنهما لم يتبيباً اتجاهها في الظلام، وكان من عادة الجبلاوي أن يسير في هذه الساعة دون حاجة إلى ضوء أو رفيق. وسكت الصوت فالتفت أدهم نحو زوجه هاماً:

- ألا يحسن بنا أن نعود؟

فدفعته وهي تهمس في أذنه:

- على اللعنة إن كنت أضمر سوءاً للإنسان.

فتقدم بخطوات حذرة، في اضطراب أليم، ويده قابضة على شمعة صغيرة في جيبيه، يجعل يتحسن الجدار حتى مست يده مصراع الباب. وهمست أميماً:

- سأبقى هنا لأقرب المكان، اذهب مصحوباً بالعناية.

ومدت يدها فدفعت الباب حتى انفتح ثم تراجعت. ومضى أدهم نحو الحجرة بخطواته الحذرة فتلقي من داخلها رائحة مسكية شديدة النفاد. ورد الباب وراءه ووقف يحملق في الظلام حتى تبين له خصائص النوافذ المطلة على الخلاء وهي تنضح بنور الفجر. شعر أدهم بأن الجريمة - إن كان ثمة جريمة - قد وقعت بدخوله الحجرة وأن عليه أن يتم عمله. سار مع الجدار الأيسر، مر تلقياً أحياناً بالمقاعد، مارأها في طريقه بباب الخلوة، حتى بلغ نهايته، ثم مال مع الجدار الأوسط، وما لبث أن عشر على الخوان. جذب الدرج، وتحسس ما بداخله حتى وجد

المندوق، ثم شعر بحاجته إلى الراحة لأخذ نفسه. ورجع إلى باب الخلوة، ففتح عن ثقبه، ثم وضع فيه المفتاح وأداره، وفتح الباب، وإذا به يتسلل إلى الخلوة التي لم يدخلها أحد قبله إلا الأب.

رد الباب، وأخرج الشمعة، ثم أشعلها، فرأى مربعاً ذات سقف عالٍ لا منفذ فيه إلا الباب، مفروش الأرض بسجادة صغيرة، وعند ضلعه الأربع ترايزة أنيقة عليها المجلد الكبير الذي ثبت في الجدار بعلاقة من صلب. ازدرد أدهم ريقه الجاف بشيء من الألم لأن وعكة أصابت اللوزتين، وغض على أسنانه، كأنما يعصر الخوف السارى في أوصاله والمرعش للشمعة في يده. واقترب من الترايزة وهو يحملق في غلاف المجلد المزخرف بخطوط مموهة بالذهب، ثم مد يده ففتحه. وجد مشقة في تركيز ذهنه ونفض الاضطراب عنه. وبدأ يقرأ بالخط الفارسي «باسم الله...».

لكنه سمع الباب وهو يفتح بفترة. انجدب رأسه نحو الصوت بقوّة ومن دونوعي لأن الباب شده إليه وهو يفتح. رأى الجبلاوي على ضوء شمعته يسد الباب بجسمه الكبير ملقياً عليه نظرة باردة قاسية. حملق أدهم في عينيه في صمت وجmod، وتخللت عنه قوى الكلام والحركة والتفكير. وأمره الجبلاوي قائلاً:

- آخر.

لكن أدهم لم يستطع حراكاً. بقي في موقفه كالحمداد إلا أن الحمداد لا يشعر بالقنوط. وهتف الأب:

- آخر.

أيقظه الرعب من تجمده فتحرك، وتخلى الأب عن الباب، فغادر أدهم الخلوة والشمعة لا تزال تحترق في يده. ورأى أميمة واقفة وسط الحجرة صامتة، والدموع ينحدر تباعاً من مقلتيها. وأشار له الأب أن يقف إلى جانب زوجته ففعل، ثم خاطبه بصرامة قائلاً:

- عليك أن تخيب عن أستلتى بالصدق.

فقط أسريره بالامثال . وسأله الرجل :

- من الذى أخبرك بالكتاب؟

فقال أدهم دون تردد كوعاء تحطم فسأل ما فيه:

- إدريس .

- متى؟

- صباح الأمس .

- كيف تم اللقاء بينكم؟

- اندس بين المستأجرین الجدد وانتظر حتى انفرد بي .

- لماذا لم تطرده؟

- عز على طرده يا أبي .

فقال الجبلاوى بحدة:

- لا تخاطبني بالأبوة .

فاستجمع أدهم قواه قائلاً:

- إنك أبي على رغم غضبك وعلى رغم حماقتي .

- أهو الذي أغراك بفعلتك؟

وأجابت أميمة دون أن يوجه إليها السؤال :

- نعم يا سيدى .

فهتف الجبلاوى :

- اخرسى يا حشرة .. (ثم موجها الخطاب إلى أدهم) .. أجب !

- كان يائساً حزيناً نادماً وود لو يطمئن على مستقبل ذريته .

- وفعلت هذا من أجله!

- كلا .. اعتذر له عن عجزي .

- وماذا غيرك؟

فتنهى أدهم يائساً وتم:

- الشيطان!

فأله ساخراً:

- هل أخبرت زوجتك بما جرى بينك وبينه؟

هنا انتحبت أميمة فنهرها الجبلاوى أن تخرس ، وحث أدهم على الإجابة بإشارة من أصبعه ، فقال:

- نعم.

- وماذا قالت لك؟

لاذ أدhem بالصمت كى يزدرد ريقه فصاح به:

- أجب ياوضيع.

ووجدت بها رغبة في الاطلاع على الوصبة وظلت أن ذلك لن يضر أحداً.

فحذجه باحتقار شديد وقال:

- وهكذا انصعت إلى خيانة من فضلك على من هم خير منك.

قال أدhem بصوت كالأنين:

- لن يسعفي دفاع عن ذنبي ، لكن مغفرتك أكبر من الذنب والدفاع.

- تتأمر على مع إدريس الذى طرده إكراماً لك؟

- لم تتأمر مع إدريس ، لقد أخطأت ، ولا نجاة لى إلا بعفarti.

وهتفت أميمة بتوصيل:

- سيدى ..

فقطاعتها قائلًا:

- اخرسى يا حشرة.

وجعل يردد عينيه بيتهما عابسًا ، ثم قال بصوت رهيب:

- اخرجا من البيت.

وهتف أدhem:

- أبي ..

فقال الرجل بصوت غليظ :

- غادرا البيت قبل أن تلقيا خارجاً.

٩

فتح باب البيت الكبير ليشهد هذه المرة خروج أدهم وأمية مطرودين . خرج أدهم يحمل بقحة ملابس ، وتبعته أمية حاملة بقحة ثانية وأطعمها خفيفة . خرجا ذليلين حزينين باكين بلا أمل . وعندما سمعا صوت الباب وهو يغلق خلفهما ارتفع صوتاهما بالتحبيب .
وقالت أمية وهي تنشد :

- الموت دون ما أستحق من جراء !

فقال أدهم بصوت متهدج :

- لأول مرة تصدقين ، ولكن الموت دون ما أستحق كذلك !
وما كادا يبتعدان قليلاً عن البيت حتى دوت ضحكة ساخرة مخمرة ، فنظران نحو مصدرها ، فرأيا إدريس أمام كونه الذي بناء من الصفائح والأخشاب وقد جلس امرأته نرجس وهي تغزل صامتة . كان إدريس يضحك في سخرية وشماتة حتى ذهل أدهم وأمية فوقا يحملقان فيه . وراح إدريس يرقص ويفرقع بأصابعه حتى ضجرت نرجس فأوْت إلى الكوخ . تابعه أدهم بعينين محمرتين من البكاء والغضب . أدرك في لحظة المكر الذي مكره فتكتشف له عن حقيقته الخبيثة المجرمة . وأدرك أيضاً مدى حمقه وغباءه الذي يرقص له المجرم شماتة وفرحاً . هذا هو إدريس الذي استحال شرّاً مجسداً . وغلى دمه

حتى فار فأغرق مخه . وبغض على حفنة من تراب ورماء بها وهو يصبح بصوت مختنق بالغضب :

- يا قدر ، يا العين ، إن العقرب بالقياس إليك حشرة مستأنسة !
فأجاب إدريس بمزيد من حرکاته الراقصة ؛ هز رقبته بمنة ويسرة ، ولعّب حاجبيه وما زال يفرقع بأصابعه . وتضاعف غضب أدهم فصاح :

- الفساد والدناءة والوضاعة هذه هي صفات المخادعين الكاذبين .

فراح إدريس يهز وسطه بمثل الرشاقة التي هز بها رقبته ويرسم بفيه ضحكة صامتة قبيحة ، فصاح أدهم دون التفات إلى أميمة التي حاولت أن تدفعه إلى المسير :

- حتى الدعاية تجربها يا أقدر من خلق !

فمضى إدريس يهز عجيزته وهو يدور حول نفسه في بطء ودلل فأعمى الغضب أدهم فرمى بالبقطة أرضاً ودفع أميمة التي همت بالتعلق به وجرى نحوه حتى قبض على عنقه وشد عليه بكل قوته . لم يجد على إدريس أنه تأثر بالتنقض ولا بقبضته . وواصل الرقص وهو يتأنق في تأوهه . وجن جنون أدهم فانهال على إدريس ضرباً ولكن إدريس ازداد عيناً وراح يغنى بصوت كريه :

حطة بابطة يادقن القطة

وتوقف بفترة وهو يزمح ، ثم دفع أدهم في صدره دفعة قوية تقهقر على أثراها يتربع ثم احتل توازنه فسقط على ظهره . وهرعت إليه أميمة صارخة فساعدته على النهوض وأخذت تنفض الغبار عن ثوبه وتقول :

- مالك أنت وهذا الوحش ؟! فلنبعذ عنه ..

وتناول البقطة صامتاً ، وحملت زوجه بقجيتها وابتعدا حتى طرف

البيت الآخر ، وكان الإعياء قد نال منه فرمى بالبقة وجلس عليها وهو يقول : « النسترح فليلاً ». فجلست المرأة قبالته وقد رجعت تبكي . وإذا بصوت إدريس يتراهمى إليهما قوياً كالرعد وصاحب يقف ناظراً إلى البيت الكبير نظرة التحدى ويصيغ :

- طردنى إكراماً لأحقر من أنجحت ، أرأيت كيف كان سلوكه نحوك ؟! ها أنت ذات مرمي بنفسك إلى التراب . عقاب بعقاب والبادى أظلم ، كى تعلم أن إدريس لا يقهر ، فلتبق وحدك مع أبنائك العقماء الجبناء . لن يكون لك حفيد إلا من يسعنى في التراب ويتقلب في القاذورات . غداً يسر حون بالبطاطة واللب ، غداً يتعرضون لصفعات الفتوات في العطوف وكفر الزغارى ، غداً يمترز دمك بأحقر الدماء ، وتقيع أنت وحيداً في حجرتك تبدل وتغير في كتابك كيف شاء لك الغضب والفشل ، وتعانى وحدة الشيخوخة في الظلام ، حتى إذا جاء الأجل فلن تجد عيناً تبكىك .

ثم التفت صوب أدهم وواصل صياغه الجنوني :

- وأنت أيها الضعيف كيف تلقى الحياة وحدك ؟! لا قوة فيك تؤيدك ولا قوىًّا لديك تعتمد عليه ، وماذا تفيدك مبادئ القراءة والحساب في هذا الخلاء ؟! ها .. ها .. ها ..

ولم تزل أميمة تبكي حتى ضاق بها أدهم فقال في فتور :

- كفى عن البكاء .

فقالت وهي تخجف عينيها :

- سأبكي كثيراً ، أنا الآئمة يا أدهم .

- لست دونك إثماً ، لو لم تلقى مني ضعيفاً نذلاً ما وقع الذي وقع .

- الذنب ذنبي وحدى .

فهتف بغيظ :

- إنك تحملين على نفسك لتنقى حملتى عليك ..

فباخت حميتها فى اتهام نفسها وأخذت رأسها مليأً، ثم عادت تقول

بصوت ضعيف :

- لم أكن أنصور أن تبلغ قسوة هذا الحدا

- إنى أعرفه ولا عذر لي .

فترددت قليلاً ثم قالت :

- كيف أعيش هنا وأنا حبل؟!

- في هذا الخلاء نعيش بعد البيت الكبير، ليت للدموع جدوى ،

ولكن ليس أمامنا إلا أن نقيم كوخا لنا.

- أين؟

نظر فيما حوله، ووقف نظره قليلاً صوب كوخ إدريس، ثم قال

بقلق :

- لا يجوز أن نبتعد كثيراً عن البيت الكبير ولو اضطررنا إلى البقاء غير

بعيد من كوخ إدريس ، وإلا هلكنا وحدنا في أطراف هذا الخلاء .

فكترت أميمة قليلاً ثم قالت بوجه مال إلى الاقتناع برأيها :

- نعم ، ولكن نبقى على مرمى بصره لعله يرق خالنا .

فتأنوه أدهم قائلًا :

- الحسراة تقتلنى ، ولو لاك لتوهمت ما بي كابوساً ، هل يجفونى قلبه

إلى الأبد؟ لن أطأول عليه كإدريس ، هيئات ، لست كإدريس في

شيء ، فهل ألقى المعاملة نفسها؟

قالت أميمة في حنق :

- لم تعرف هذه الأحياء أبا مثل أبيك .

فتساءل بعينين حادتين:
- متى يتوب لسانك؟!
فانفعلت قائلة:

- والله ما ارتكبت جريمة ولا إنتما، خبّر من تشاء بما فعلت و بما نلت
جزاء ما فعلت وأراهنك على أنه سيفسر كفأتكف، والله ما
عرفت الأبوة أباً كأبيك.

- ولا عرفت الدنيا رجلاً مثله، هذا الجبل وهذه الصحراء وهذه
السماء تعرفه، ومثله يُعجن عند التحدى.

- بهذا الجبروت لن يبقى في البيت أحد من أبنائه.
- نحن أول الخارجين فتحن شر من فيه.

قالت بامتعاض:

- لست كذلك، لسنا كذلك.

- الحكم الصحيح لن يكون إلا عند الامتحان.

لاذ كلها بالصمت. لم يكن بالخلاء حتى يُرى، إلا بعض العابرين
عن بعد عند سفح الجبل. وكانت الشمس ترسل أشعة حامية من سماء
صادفة فتغمر الرمال المترامية حيث يلمع الحصى أو قطع الزجاج
المتناثرة. ولم يكن من قائم إلا الجبل في الأفق، وصخرة كبيرة في
الشرق للبيت الكبير ينغرس في الأرض متهدلاً بهيشه الزرية. كان الجلو
كله ينذر بالشقاء والتعب والخوف. وتنهدت أمنية بصوت مسموع
وقالت:

- مستعب كثيراً حتى تيسّر لنا الحياة.

فرنا أدهم إلى البيت الكبير وقال:

- ومستعب أكثر حتى يفتح لنا هذا الباب مرة أخرى.

شرع أدهم وأميماً في إقامة كوخ لهما عند الطرف الغربي للبيت الكبير. كانا يجيتان بالأحجار من المقطم، ويجمعان الصفائح من سفح الجبل، ويلتقطان الأخشاب من مشارف العطوف والجمالية وباب النصر. وتبين لهما أن بناء الكوخ سيستغرق وقتاً أطول مما قدرنا، وصادف ذلك نفاد الزاد الذي حملته أميماً من البيت من جبن وبيس وعسل أسود، فقرر أدهم أن يبدأ بالسعى في سبيل رزقه. ورأى أن يبيع بعض ثيابه الشنية ليشتري بثمنها عربة يد لبيع البطاطة والملانة والخيار وغيرها على حسب الموسم. وعندما أخذ في جمع ثيابه أجهشت أميماً في البكاء من شدة التأثر، ولكنها لم يستجب لعواطفها، فقال وهو بين السخط والسخرية:

- لم تعد هذه الشياب تناسبني، أليس من المضحك أن أسرح ببطاطة وأنا متلعم بعبادة مزركشة من وبر الجمل؟!

ثم شهد المخلاء وهو يدفع عربته نحو الجمالية، الجمالية التي لم تنس بعد زفتها، وانقبض قلبها وانحبس صوتها فكف عن النداء، وكادت تغزو رق عيناه. واتجه نحو الأحياء البعيدة متهرباً. وكان يوازن على المشي والنداء من الصباح إلى المساء حتى كلت يداه والجerd نعلاه وسررت الأرجل في قدميه ومقاصله. وكم كان يشق عليه مساومات النسوان، أو أن يضطره الإعياء إلى افتراش الأرض لصق جدار، أو أن يقف في ركن ليفك حصره. بدت الحياة غير حقيقة، وأيام الحديقة وإدارة الوقف والمخدع المطل على المقطم كالأساطير. وجعل يقول لنفسه: «لا شيء حقيقياً في هذه الدنيا، هي البيت الكبير، هي الكوخ الذي لم

يتم، هي الحديقة، هي عربة اليد، هي الأمس واليوم والغد، لعلى
أحسنت صنعاً بالإقامة قبالة البيت حتى لا أفقد الماضي كما فقده
الحاضر والمستقبل، وهل من عجب أن أحسر الذاكرة كما خسرت أبي
وكمَا خسرت نفسي؟!». فإذا عاد أول الليل إلى أميمة فليس إلى الراحة
بعود، ولكن ليواصل العمل في بناء الكوخ.

ومرة جلس في حارة الوطاويط عند الظهر ليستريح فتعس.
واستيقظ على حركة فرأى غلماً يسرقون عربته فنهض مهداً. ورأه
غلام فبه أقرانه بصفير ودفع العربية ليشغلها بها عن مطاردتهم فاندلق
الخبار على الأرض على حين تفرق الغلمان مسرعين كالجراد. وغضب
أدهم غضباً شديداً حتى قذف فوه المهدب بسيل من أقذع الشتايم، ثم
انكب على الأرض يجمع الخبر الذي لوث بالطين. وتضاعف غضبه
دون أن يجد له متنفساً فراح يقول بتأثير وانفعال: «لماذا كان غضبك
كالنار تحرق بلا رحمة؟ لماذا كانت كبر ياؤك أحب إليك من لحمك
ودمك؟ وكيف تنعم بالحياة الرغيدة وأنت تعلم أننا نandas بالأقدام
كالحشرات؟ والعفو واللين والتسامح ما شأنها في بيتك الكبير أيها
الجبار؟!». وقبض على يدي العربية وهو يدفعها بعيداً عن الحارة
اللعنة، وإذا بصوت يقول متهمكاً:

ـ بكم الخبر يا عم؟

رأى إدريس واقفاً يبتسم ابتسامة ساخرة، رافلاً في جلباب مقلم
بألوان زاهية، وعلى رأسه لاسة بيضاء. رأه باسماً ساخراً لا ثائراً ولا
هائجاً فضاقت لنظره الدنيا في عينيه على رغم ذلك. ودفع العربية
لبذهب، ولكن إدريس اعترض سبيله وهو يقول في دهشة:

ـ ألا يستحق زيون مثلى حسن المعاملة؟

فارتفع رأس أدهم في عصبية وهو يقول:

- دعني وشأنى .

فأمعن إدريس في السخرية متسائلاً :

- ألم تجد خيراً من هذه اللهجة تخاطب بها أخاك الأكبر؟

فقال أدهم بلهجة المتصبر :

- يا إدريس أما كفاك ما فعلت بي؟ لا أريد أن تعرفني أو أن أعرفك!

- كيف يتأتي هذا ونحن في حكم الجيران؟!

- ما أردت جوارك ولكنني قصدت أن أبقى قريباً من البيت الذي ..

فقطاعده هازئاً :

- الذي طردت منه!

فسكت أدهم وقد تجلى الضيق في شحوب وجهه ، فاستطرد الآخر

قائلاً :

- النفس تتعلق بالمكان الذي تطرد منه ، أليس كذلك؟

فلم يخرج أدهم عن صمته ، فقال الآخر :

- إنك تطمع في العودة إلى البيت يا ماكر ، إنك ضعيف حقاً ولكنك مليء بالمكر . ألا فاعلم بأنني لن أسمع لك بالعودة وحدك ولو انطبقت السماء على الأرض .

فتساءل أدهم ومن خراه يتعرج كان من الحقن :

- ألم يكفك ما فعلت بي؟

- ألم يكفك أنت ما فعلت بي؟ من أجلك طردت و كنت كوكب
البيت المنير .

- بل طردت بسبب نفسك المتعجرفة .

فقهه إدريس قائلاً :

- وطردت أنت بسبب نفسك الضعيفة ، فلا مكان في البيت الكبير

للقوة وللضعف! فانظر إلى استبداد أبيك. إنه لا يسمح
باجتماع القوة والضعف في نفس إلا نفسه هو، إنه القوى لحد
الفتك بفلذات كبده، الضعيف لحد التزوج من أم كأمك.

فقطب أدهم غاضباً وقال بتهدج:

- دعني أذهب، وغرضي إذا شئت بقوى مثلك.
- أبوك يتحرش بالأقوباء والضعفاء.

فصمت أدهم وازداد وجهه عبوساً فقال إدريس هازئاً:

- لا تريد أن تتورط في تحريره! هذا مكر من مكرك، ودليل على
أنك ما زلت تحلم بالعودة.

ثم تناول خياره وأخذ ينظر إليها باشمئزاز ثم قال:

- كيف سولت لك نفسك أن تسرح بهذا الخيار الملوث؟! ألم تجد
عملاً أشرف من هذا؟
- إنني راض عنه!

- بل اضطررت الحاجة إليه، على حين ينعم أبوك بالعيش الرغيد.
فكّر قليلاً في الأمر، أليس من الأكرم لك أن تنضم إلى؟!

فقال أدهم في ضجر:

- لم أخلق لحياتك!

- انظر إلى جلبابي! كان صاحبه يرفل فيه أمس دون وجه حق!
فلاح التساؤل في عيني أدهم وقال:

- وكيف حصلت عليه؟

- كما يفعل الأقوباء!

أسرق أم قتل؟! وقال بحزن:
- لا أصدق أنك أخى إدريس!

فقال وهو يقهقه:

ـ لا تعجب ما دمت تعلم أننى ابن الجبلاوي!

نهتف أدهم فى نفاذ صبر:

ـ هلا أوسعت لى الطريق؟

ـ كما تشاء لك حماقتك!

وملا جيبه بالأخبار، وألقى عليه نظرة ازدراء، ثم بصر على العربية
ومضى.

ووقفت أميمة تستقبله وهو يقترب من الكوخ. كانت الظلمة تغشى
الخلاء. وفي داخل الكوخ شمعة تحترق كأنها رمق في صدر محضر.
أما في السماء فالنجوم تزهر، وعلى ضوئها يبدو البيت الكبير كشبح
عملاق. أدركت أميمة من صمته أنه على حال يستحسن معها تجنبه.
قدمت إليه كوز ماء ليغسل أطراقة وجاءته بجلباب نظيف. وغسل وجهه
وقدمه وبدل جلبابه ثم جلس على الأرض ومد ساقيه. واقتربت منه في
حدن فجلست وهي تقول بلهجة الاسترضاء:

ـ ليتنى أتحمل عنك بعض تعبك.

وكأنها حكت أجرب فصاح:

ـ اخرسى يا أصل الشر والتعاسة.

فترحزحت بعيداً عنه حتى كادت تخفي، ولكنه صاح:

ـ إنك خير من يذكرني بغفلتى وحماقتى، ملعون اليوم الذى
رأيتكم فيه.

فجاءه فى الظلام انتسابها ولكنه ضاعف من غضبه فقال:

ـ سحقاً لدموعك! إن هى إلا عرق الخبث الذى يمتلىء به جسنك.

فجاءه صوتها الباكى قائلاً:

- كل قول يهون بالقياس إلى عذابي .
- لا تسمعني صوتك ، وابعدى عن وجهى .
وكور ثوبه المخلوع ورماها به ، فتأوهت قائلة : « بطنى ! ».
وسرعان ما برد غضبه ، وأشفق من العواقب . وأنست هى من صمتها
تراجعاً فقالت بصوت المتوجع :
- سأذهب بعيداً كما تريده .
وقامت فمضت تبتعد حتى صاح بها :
- هل ترين الوقت مناسباً للدلال ؟
ثم تحفز للقيام وهو يصبح :
- ارجعى لا رجعت إليك الراحة .
وأخذ بصره في الظلام حتى رأى شبحها يعود فأسدل ظهره إلى جدار
الковخ ورفع رأسه نحو السماء . وود لو يطمئن على بطنها ولكن أبى
كبرياؤه . أجل ذلك إلى أجل قريب . ثم مهد له بقوله :
- أغسلى بعض الخيار للعشاء .

١١

مجلس لا يخلو من الراحة . لأنب فيه ولا ماء ، ولا عصافير تزقزق فوق الغصون ، لكن أرض الخلاء الجرداء المشاكسة تكتسى في الليل حلقة غامضة يخالها الحالى ما يشاء . وفوق قبة السماء المرصعة بالنجموم والمرأة داخل الكوخ ، والوحدة ناطقة ، والحزن كالجمر المدفون تحت الرماد .
وسور البيت العالى يعاند المشتاق ، وهذا الأب الجبار كيف السبيل إلى إسماعه أنينى . ومن الحكمة نسيان الماضي ، لكن ليس لنا من زمن غيره ،

لذلك كرهت ضعفي ولعنت نذالى ورضيت الشقاء رفياً وسأله
أبناء . والعصفورة التي لا تتصدّها قوة عن الحديقة أسعد من أحلامي ،
وعيناي احترقتا شوقاً إلى المياه الجاربة بين شجيرات الورد ، وأين عبر
الحناء والياسمين ؟ أين ؟ أين خلو البال والنوى ؟ أين أيها القاسي ؟ مضى
نصف عام فمتي يذوب ثلج قسوتك !

ومن بعد ترامى صوت إدريس مغنىًّا بصوت كريه : « عجائب والله
عجباب ». وإذا به يوقد ناراً أمام كونه فاشتعلت كأنها شهاب هوى
فانغرس في الأرض ، وكانت زوجه تذهب وتتحجى ببطئها التدلى لتقدم
طعاماً أو شراباً . ولطمته موجة سكر فصاح في السكون موجهًا الخطاب
إلى البيت الكبير : « هذا أوان الملوخية والفراخ المحمرة ، اطفحواها سما
يا أهل البيت ! ». ثم عاد إلى الغناء .

وقال أدهم لنفسه متأسفاً : « كلما خلوت إلى نفسي في الظلام جاء
الشيطان فأشعل ناره وعربد فأفسد على خلوني ! ». وظهرت أمية عند
باب الكوخ فعلم أنها لم تنم على خلاف ظنه . وكانت من العمل في
إعباء ، ومن الجهد والفقر على حال لاتسر . وقالت برقة وإشراق :
ـ ألا تنام !

فقال في ضجر :

ـ دعني للساعة الوحيدة التي تطيب فيها الحياة ..

ـ ستسعى بعربيك مع الصباح الباكر ، فما أحوجك إلى الراحة !
ـ في وحدتى أرتدى سيداً أو شبه سيد ، أتأمل السماء وأتذكر الأيام
الخالية .

فتنهدت بصوت مسموع وقالت :

ـ أود لو رأيت أباك ذاهباً من البيت أو راجعاً إليه أن أرمي بنيفسي
تحت أقدامه وأن أستغفره .

فقال أدهم في جزع :

- قلت لك مراراً أن تقلع عن هذه الأفكار، فليس بهذه الوسيلة يمكن أن تسترد عطفه.

فصمتت مليأ، ثم قالت همساً :

- إني أفكر في مصير الشيء الذي في بطني.

- ولا شغل لي إلا هذا على رغم أنني لم أعد إلا حيواناً قذراً.

فتمتنع بحزن :

- والله إنك خير الرجال جميعاً.

فضحك أدهم ساخراً وقال :

- لم أعد إنساناً، فالحيوان وحده هو الذي لا يهمه إلا الغذاء.

- لا تحزن، كم من رجل بدأ مثلك، ثم تيسر له العيش الرغيد،

فملك الدكاكين والبيوت!

- أراهن على أن أوجاع الجبل قد بلغت رأسك!

فقالت بإصرار :

- ستكون رجلاً ذا شأن، وسينشأ وليدنا في أحضان النعيم..

فضرب أدهم كفاف بكت وتساءل ساخراً :

- أبلغ ذلك بالبواطة أم بالخشيش؟

- بالعمل يا أدهم.

فقال في سخط :

- العمل من أجل القوت لعنة اللعنات، كنت في الحديقة أعيش، لا

عمل لي إلا أن أنظر إلى السماء أو أنفع في الناي، أما اليوم فلست

إلا حيواناً، أدفع العربية أمامي ليل نهار في سبيل شيء حقير نأكله

مساء ليلفظه جسمى صباحاً، العمل من أجل القوت لعنة

اللعنات، الحبأة الحقة في البيت الكبير، حيث لا عمل للقوت،
وحيث المرح والجمال والغناء.

وإذا بصوت إدريس يقول:

- نطق بالحق يا أدهم، العمل لعنة، وهو ذل لم نعتده، ألم أغرض
عليك الانضمام إلى؟!

التفت أدهم نحو الصوت فرأى شبح إدريس واقفاً على قرب منه.
هكذا يتسلل في الظلام دون أن يشعر به فينصلت إلى الحديث ماشاء له
الإنصات، ويشترك فيه إذا حللا له ذلك. ووقف أدهم منفعلاً وهو
يقول:

- عد إلى كوكخ.

فقال إدريس بلهجة جدية مفتولة:

- إنى مثلك أقول إن العمل لعنة لا تليق بكرامة الإنسان.
- إنك تدعونى إلى الباطلجة وهي أقدر من اللعنة.

- إذا كان العمل لعنة والباطلجة قذارة فكيف يعيش الإنسان?
فلم يرتع إلى محادثته فصممت، وانتظر إدريس أن يتكلم فلم يتكلم،
فقال:

- لعلك تريد رزقاً بلا عمل؟ ولكن ذلك سيكون حتماً على حساب
الآخرين!

وثابر أدهم على صمته فعاد الآخر يقول:

- ألم لعلك تريد رزقاً بلا عمل دون أن يضار به أحد؟!

وضحك ضحكة كريهة وقال:

- هذه فزوره يا ابن المغاربة!

وصاحت أميمة بغضب:

- عد إلى كوكب وانحر الشيطان .
ونادته امرأته بحدة ، فرجع من حيث أتى وهو يترنّم : « عجائب والله
عجبائب » .

وتوسلت أميمة إلى زوجها قائلة :

- تخنب الاشتباك معه بأى ثمن .
- إنى أجدّه فجأة فوق رأسى دون أن أدرى كيف جاء .
وساد صمت اتخذا منه مسكنًا لانفعالهما . وعادت أميمة تقول
برقة :

- قلبي يحدثنى بأننى سأجعل من كوكبنا بيئاً شبّهها بالبيت الذى طردنا
منه ، لن تنقصه الحديقة ولا البلايل ، وسيلقى وليدنا فيه كل راحة
ومتعة .

فوقف أدهم وهو يبتسم ابتسامة لم ترها في الظلام ، وقال ساخراً
وهو ينفض التراب عن جلبابه :

- الخيار القشطة ! .. الخيار السكر ! والعرق يتصلب من جسدي
والغلمان يتسلون بمعاكسٍ ، والأرض تأكل قدمي ، في سبيل
ملاليم ..

ودخل الكوخ فتبعته وهي تقول :

- لكن سيأتي يوم المرح والغناء .

- لو كنت تشقين ما وجدت وقتاً للأحلام .

ورقد كل منهما على خبضة محسنة بالقش ، وهي تقول :
- أليس الله ب قادر على أن يجعل من كوكبنا بيئاً كالبيت الكبير الذى
طردنا منه .. ؟ ..

فقال أدهم وهو يتاءب :

- أمنيتي أن أعود إلى البيت الكبير .
ثم وهو يثاءب بدرجات أعلى :
ـ العمل لعنة !

فقالت بصوت هامس :
ـ ربما ، ولكنها لعنة لا تزول إلا بالعمل !

١٢

و ذات ليلة استيقظ أدهم على تأوهات عميقة . ولبث وهو بين النوم واليقظة حتى تبين صوت أمينة وهي تتوجه هاتفة : «آه يا ظهرى . . . آه يا بطنى » ، فجلس من فوره وهو يحملن صوبها ، ثم قال :
ـ هذا حالك هذه الأيام ثم ينجلن عن لا شيء ، أشعلى الشمعة .

فقالت وهي تشن :
ـ أشعلاها بنفسك ، هذه المرة جدّ .

فقام يتحسس موضع الشمعة بين أدوات الطهي حتى عثر عليها ، فأشعلاها ، وثبتتها على الطبلية ، فبدت أمينة على الضوء الخافت جالمة متكتكة على ساعديها ، تشن ، وترفع رأسها لتتنفس بصعوبة ظاهرة . وقال الرجل بقلق :

ـ هذا ما تظنينه كلما شعرت بوجع .

فقالت بوجه متقلص :
ـ كلا ، أنا متأكدة أن هذه المرة جدّ .

وساعدها حتى أستد ظهرها إلى جدار الكوخ ، ثم قال :

- هو شهرك على أي حال. تجلّد حتى أذهب إلى الجمالية لأحضر لك الداية.

- صحبتك السلامة. ما الوقت الآن؟

مضى أدهم خارج الكوخ، وجعل ينظر إلى السماء، ثم قال:
- الفجر قريب، لن أغيب إلا مسيرة الطريق.

واندفع يسير على عجل نحو الجمالية. ثم عاد يشق الظلام وهو قابض على يد الداية العجوز ليهديها السبيل. وعند اقترابه من الكوخ ترجمى إليه صراخ أميمة الذي مزق السكون، فخفق قلبه وأوسع خطاه حتى تشكت الداية. ودخل الكوخ معًا، فخلعت المرأة ملائتها وهي تقول لأمية ضاحكة:

- جاء الفرج، وما بعد الصبر إلا الراحة.

وسألهما أدهم:

- كيف حالك؟

فقالت في صوت كالأنين:

- أكاد أموت من الألم، جسمى يتفكك، وعظامى تتكسر، لا تذهب.

فقالت الداية:

- بل يتظر في الخارج سلام.

وغادر أدهم الكوخ إلى العراء فلمح شبحًا واقفًا عن قرب، عرفه قبل أن يتبيّنه، فانقبض صدره، ولكن إدريس قال مصطفى لهجة الأدب:

- جاءها الطلاق؟ مسكنة، مرت زوجي بهذه الحالة كما تعلم منذ زمن قصير، إنه ألم كاذب لا يلبث أن يزول، ثم تلقى نصيبك من عالم الغيب كما تلقيت هند. إنها طفلة ساحرة ولكنها لا تكف عن التبول والبكاء، تجلّد.

فقال أدهم على مضض وضيق:
ـ الأمر لصاحب الأمر.

تصدرت عن إدريس ضحكة خشنة وتساءل:
ـ جئت لها بداية الجمالية؟
ـ نعم.

ـ امرأة قذرة، وطماعة، جئت بها أيضاً فغالت في تقدير أتعابها
فطردتها، ولا تزال تدعى على كلما رأته مارا بيته.
فقال أدهم بعد تردد:

ـ ما ينبغي أن تعامل الناس هكذا.

ـ يا ابن الأكابر، علمني أبوك أن أعامل الناس بالفظاظة والقسوة.
وارتفع صوت أميمة بصراخ كأنما هو صدى للتمزق الذي يقع في
جوفها، فانطبقت شفتي أدهم على ما هم بقوله، واقرب من الكوخ
قلقاً، وهتف بصوت رقيق:
ـ شدى حيلك.

فردد إدريس قوله بصوت مرتفع:
ـ شدى حيلك يا امرأة أخرى.

فأشفق أدهم من سماع زوجه هذا الصوت، لكنه دارى حنقه قائلاً:
ـ يحسن بنا أن نقف بعيداً عن الكوخ.
ـ تعال بنا إلى كوخى أقدم لك الشاي، وترى هند وهي تنفط في
النوم.

لكن أدهم ابتعد عن كوخه دون أن يتوجه نحو كوخ الآخر، وهو يلعله
غم سره في غيظ مكتوم، فتبעה إدريس وهو يقول:
ـ ستكون أباً قبل طلوع الصبح. إنه تغير خطير، من فوائده أن تشعر
بالرابطة التي يمزقها أبوك في يسر وبلادة.

نفس أدهم عن ضيقه بقوله:

- هذا الكلام يضايقني.

- ربما، لكن لا هم لنا غيره.

فسكت أدهم متربداً، ثم قال بشيء من الإشراق:

- إدريس، لماذا تتبعنى وأنت تعلم ألا مودة بيتنا؟!

ففقهه إدريس عالياً وقال:

- ياللك من طفل قليل الحباء! لقد أيقظنى صراخ زوجك من أحلى نومة فلم أسمح لنفسى بالغضب، وعلى العكس جئت لأقدم لك المعونة إن كنت فى حاجة إليها، وإن أباك ليسمع الصراخ كما سمعته ولكنه عاود النوم كمن لا قلب له.

فقال أدهم فى ضجر:

- حسبنا ما كتب لنا من مصير، ألا تستطيع أن تتجاهلى كما أتجاهلك؟

- إنك تكرهنى يا أدهم لا لأننى كنت السبب فى طردك، ولكن لأننى أذكرك بضعفك. إنك تكره فى نفسك الآثمة، أما أنا فلم يعد لي من مبرر لكراهيتك؛ بل أنت اليوم عزائى وتسلية، ولا تنس أننا جيران، وأول من سكن هذا الخلاء من الأحياء، وسيدب عليه أولادنا جنباً إلى جنب.

- إنك تتلذذ بتعدىبي.

فصمت إدريس ملياً حتى منى أدهم نفسه بالخلاص، ولكنه عاد بسؤال بلهجة جدية:

- لماذا لا تتفق؟

فقال أدهم وهو يتنهد:

- لأنني يباع على قد حالي وأنت رجل هو اتيك الضرب والاعتداء .
وعاد صراغ أمية يعلو ويشتند فرفع أدهم رأسه متوسلاً، فأدرك من
نوه أن كثافة الظلم قد خفت ، وأن الفجر تسلق الجبل . وهتف أدهم :
ـ ما أعن الألم !

فقال إدريس ضاحكاً :

- ما أجمل الرقة ! خلقت لإدارة الوقف والنفح في الناي .
ـ اسخر ما شئت ، إنني متألم .

- لماذا ؟ حسبت امرأتك هي المتألمة !
ـ نصاح أدهم من فرط جزعه :
ـ دعنى وشأنى .

فتساءل الآخر في هدوء مغيبظ :
ـ أتريد أن تصير أبي بلا ثمن ؟

فلزم أدهم الصمت وهو ينفح فقال إدريس متعطفاً :
ـ أنت حكيم ، وقد جئت أعرض عليك عملاً تستعين به على إسعاد
المخلوقات القادمة ، إن هذا الذي نسمع مقدمات تشريفه الأول
وليس الأخير ، فإن شهواتنا لا تقنع إلا بأن تبني فوقنا تلاً من الذرية
الصاخبة ، ما رأيك ؟

ـ الضياء يلوح فاذهب لستوفي نومك .
وتعالى الصراغ ، متتابعاً متواصلاً حتى ضاق أدهم ب موقفه فرجع إلى
الكورخ الذي شف عنه الظلم ، وبلغه وأمية ترسل تنهيدة عميقة مثل
ختام أغنية حزينة . اقترب من باب الكورخ وهو يتساءل :
ـ كيف الحال عندكم ؟

فجاءه صوت الدایة وهو يقول : «انتظر». تحفز قلبه للارتفاع عندما

خبل إليه أن الصوت يوحى بالظفر . وما لبث أن لاحت المرأة في الباب
وهي تقول :

- رزقت بذكرين !

- توءمين ؟

- فليرزقك الله برزقهما .

وصكت أذنيه ضحكة إدريس من وراء ظهره وسمعه يقول :

- إدريس الآن أب لأنثى وعم لذكرين .

ومضي نحو كوخه وهو يعني : «البحث والقسمة فين يا دى الزمان
قوللى ». وعادت الداية تقول :

- ترحب الأم في أن يسميا قدرى وهمام .

فراح أدهم يغمغم وقد استخفه السرور :

- قدرى وهمام ، قدرى وهمام .

١٣

قال قدرى وهو يجفف وجهه بذيل جلبابه :

- فلنجلس لتناول طعامنا .

فقال همام وهو ينظر نحو الشمس المائلة للغروب :

- نعم ، سرقنا الوقت .

تربيعا على الرمال تحت سفح المقطم . وحل همام عقدة المنديل
الأحمر المخطط فكشف عن خبز وطعمية وكراث ، وراح يأكلان ،
وينظران بين حين وأخر نحو أغناهما ، التي هام بعضها على وجهه ،

وقد البعض ليجتر فى راحة وسلام . لم يكن ثمة ما يميز بين الشقيقين فى الملامع والسمات ، غير أن نظرة الصائد المجلية فى عينى قدرى أضفت على سحته حلة ميزة بطبع خاص . وعاد قدرى يقول وهو يطعن الطعام المحشى فى فيه :

- لو كان هذا الخلاء لنا دون شريك لرعينا أغنامنا مرتاحى البال .
فقال همام باسماً :

- ولكن هذا الخلاء مقصد الرعاة من العطوف وكفر الزغارى والحسينية ، ومن الحكمة أن نصادهم فتتقى شرهم .
فضحك قدرى ضحكة هارئة انطلقت من فيه مع فتات من طعامه
وقال :

- هذه الحوارى عندها جواب واحد لمن ينشد صداقتها هو الصفعات .

- لكن ..

- لا لكن يا ابن أبي ، إنى أعرف طريقة واحدة ، وهى أن أجذب الرجل من جلبابه وأنطحه فى جبيه فيقلب على وجهه أو على قفاه .

- لذلك لا نكاد نخصى أعداءنا .

- ومن كلفك يا حصانهم !؟

وتتابع همام جدياً أو غل فى الابتعاد فراح يصرفر له حتى توقف ودار عائداً فى صمت الحكيم . وانتقى عوداً من الكراث ومسحه بأصابعه فدفعه فى فيه متلذاً ، ثم قال وهو يتمطرق :

- لذلك تجدنا وحدنا ، ويمضى الوقت الطويل دون أن نتكلم .

- وما حاجتك إلى الكلام وأنت تغنى طوال الوقت ؟!
فنظر همام إليه بشقة وقال :

- يخيل إلى أنك تضيق بهذه الوحدة أحياناً.

- سأجد دائمًا علاً للضيق، الوحدة أو غيرها.

وساد صمت وضح فيه التمطق. ولاحت عن بعد جماعة عائدة من الجبل نحو العطوف، تسير على غناء منشد كالحادي والآخرون يرددون ..

فقال همام :

- هذه الناحية من المخلاف امتداد لحينا، ولو ذهنا شمالي أو جنوبيا
فأغلب الظن أننا لن نعود.

فضحك قدرى ضحكة مجلجلة وقال :

- ستتجد في الشمال وفي الجنوب أناساً يودون قتلى، ولكنك لن تجد واحداً يجرؤ على منازلتي.

فقال همام وهو ينظر نحو الأغnam :

- لا يمكن إنكار شجاعتك، ولكن لا تنس أننا نعيش بفضل اسم جدنا وسمعة عمنا المخيفة على رغم ما بيننا وبينه من خصام.

فعقد قدرى ما بين حاجبيه احتجاجاً، ولكنه لم يجهر بمعارضته.

وأتجه بصره نحو البيت الكبير الذي لاح عن بعد في الغروب هيكلأ ضخماً مطموس المعالم، وقال :

- هذا البيت! لم أشهد له مثيلاً، في خلاء يكتنفه من جميع النواحي، وعلى مقربة من حوار وأزقة اشتهرت بالجبروت والشاكسة. صاحبه جبار بلا جدال، هذا الجد الذي لم ير أحفاده وهم على بعد أذرع منه!

فأتجه بصر همام ناحية البيت، ثم قال :

- إن أبانا لا يذكره إلا مصحوبًا بالإجلال والإكبار.

- وعمنا لا يذكره إلا مصحوبًا باللعنة.

فقال همام يا شفاق :

- هو جدنا على أى حال .

- وما جدوى ذلك يا غلام؟ إن أباانا يكدرح وراء عربته، وأمنا تكدر طوال النهار وشطراً من الليل، ونحن نعاشر الأغnam حفاة شبه عراة. أما هو فقابع وراء الأسوار، بلا قلب، متمتعاً بنعم لا يخطر على بال.

فرغا من الطعام. نفض همام المنديل ولفه ثم دسه في جيبه، واستلقى على ظهره متوسداً ذراعيه، مرسلاً ناظريه إلى السماء الصافية، وهي تقتصر هدوء المغيب، والحدائق تولى في الأفق. ونهض قدرى فانتحرى جانبأ ليبول، وقال:

- يقول أبونا إنه كان يخرج كثيراً في الماضي فيمر بهم في ذهابه وإيابه، أما اليوم فلا يراه أحد، وكأنما يخاف على نفسه.

قال همام بنبرات حملة:

- كم ثنيت أن أراه.

- لا تحلم بأن ترى شيئاً خارقاً، ستتجده شبهاً بأبينا أو بعمينا، أو لكليهما معماً، إنى أعجب لوالدى كيف لا يذكره إلا بالإجلال على رغم ما ناله على يديه.

- الظاهر أنه كان شديد التعلق به، أو أنه آمن بعذالة ما نزل به من عقاب.

- أو أنه ما زال يطمع في عفوه!

- إنك لا تفهم أباانا، إنه رجل ودود حلوا العشر.

وعاد قدرى إلى مجلسه وهو يقول:

- إنه لا يعجبنى، وأنت لا تعجبنى. أؤكد لك أن جدنا شخص شاذ

لا يستحق الاحترام، ولو كانت به ذرة من خير ما جفأ لحمه هذا
البغفاء الغريب، إنني أراه كما يراه عمنا، لعنة من لعنات الدهر.

فقال همام باسمًا:

—لعل أرذل ما فيه هو ما تتباهى به أنت، أعني القوة والبطش.

فقال قدرى بحدة:

—لقد نال هذه الأرض هبة بلا عناء ثم طغى واستكبر.

—لا تنكر ما اعترفت به منذ قليل، إن الوالى نفسه لم يكن بوسعي أن
يعيش وحده فى مثل هذا الخلاء.

—وهل تجد فى الحكاية التى رويت لنا مسوغًا حقال الغضب على
والدينا؟

—إنك تجد أهون منها سببًا كافياً للبطش بالناس!

تناول قدرى الكوز ومضى يشرب حتى روى، ثم تجساً وقال:

—ما ذنب الأحفاد؟ إنه لا يدرك ما راعى الغنم، سحقًا له! أود لو
أعرف وصيته، وماذا أعدّنا!

فتنهد همام وقال بصوت حالم:

—ثروة تريع من العنا، كى يفرغ المرء لقلبه، ويمضي العمر فى يسر
وطرب.

—إنك تردد قول أبينا، نشقى فى التراب والطين ونحلم بالنای فى
ظل حديقة غناه. الحق أقول إنني أعجب بعمى أكثر من أبي.

فجلس همام وهو يتاءب ، ثم نهض يتمطرى ، وقال:

—على أى حال صرنا شينا ، لنا مأوى يسعنا ، ورزق يحفظ علينا
الحياة ، وأغنام نرعاها ، نبيع لبنها ونسمنها لنبيعها أيضًا ، ومن
شعرها تغزل أمينا الكساء .

- والنای والحدیقة؟

فلم يجحب ، واتجه نحو الأغnam بعد أن تناول عصاہ الملقاء عند قدميه .

وقف قدرى ، وصاح موجها خطابه إلى البيت الكبير في عبث :

- أسمحت بأن نرثك ، أم ستعاقبنا في موتك كما عاقبتنا في حياتك؟

أجب يا جبلاوي .

وردد الصدى : «أجب يا جبلاوي !» .

١٤

ورأيا عن بعد شخصاً يتوجه نحوهم لم تتضح معالمه . ومضى القادر يقترب رويداً حتى تبيناه ، فانتصبت قامة قدرى بحركة تلقائية وشعت عيناه الجميلتان نور ابتهاج . ولحظ همام أخاه باسماً ، ثم نظر إلى الأغnam في غير مبالغة وهمس بلهجة تنبية :

- الظلام غير بعيد .

فهتف قدرى باستهانة :

- فليأت الفجر إذا شاء .

وخطا خطوات نحو الأمام ملوحاً بذراعيه في ترhab الفتاة . وأخذت تدنى من موقفهما ، مجدهدا من المشي ، لطول المسافة من ناحية ولقاومة الرمال لتشبيها من ناحية أخرى ، متطلعة نحوهما ببصر لامع يعكس مع فتنة العينين الخضراوين جرأة . وبدت ملتفة علاءتها اللف حتى الكتفين ، مطلقة الرأس والعنق عاريين فعبث الهواء بضفيرتها . وارتفع صوت قدرى بسرور مسع عن وجهه أمارات الحدة :

- أهلا بهند .

فأجابت بصوت رقيق:

- أهلاً بك (ثم مخاطبة همام) مساء الخير يا ابن عمى .

قال همام باسماً :

- مساء الخير يا بنت العم ، كيف حالك؟

وتناول قدرى يدها وسار بها نحو الصخرة الكبيرة القائمة على بعد أمتار من موقفهما ، ودارا حول الصخرة حتى ضلعها المواجه للجبيل فصارا فى منعزل عن الخلاء ومن فيه . وجذبها نحوه فأحاطتها بذراعيه ، ثم قبل ثغرها قبلة طويلة حتى غاست ثنایاهما وغابت الفتاة فى لحظة استسلام مذهله . واستطاعت أن تخلص من ذراعيه ، وأن تقف مضطربة الأنفاس فتحكم لف ملائتها ، وتتلقى نظرته المهاجمة بنظرة باسمة . ولكن الابتسامة اختفت كأنما خاطرة خطرت ، ونقوست الشفتان فى تبرم ، ثم قالت :

- جئت بعد معركة ، أف ، هذه الحياة لا تطاق .

فقطب قدرى لإدراكه ما تعنى وقال بحدة :

- لا تبالي بشيء ، إننا أبناء الحمق . أبي الطيب رجل غبي ، وأبوك الشرس لا يقل عنه غباء ، إنهم يودان أن يورثانا الكراهة ، فيا للغباء !
خبريني كيف تيسر لك المجيء ؟

ففتحت وقالت :

- مضى اليوم كال أيام السابقة فى نقار متواصل بين أبي وأمى ، وصفعها مرة أو مرتين فصرخت تلعنه وصبت غضبها على قلة فحطمتهما ، ولكن غضبها اليوم وقف عند هذا الحد . إنها كثيراً ما تمسك بخناقه متهدية لطمانته ، وتدعوه عليه إذا غلبته على أمرها ، أما إذا غلبته الخمر فلا سلام إلا بالبعد عن وجهه . كثيراً ما أشعر برغبة فى الهرب ، وبكراهية شديدة لهذه الحياة ، ولكنى أروح عن

نفسى بالبكاء حتى تؤلمى عينى . ما علينا ، انتظرت حتى ارتدى ثيابه وذهب ، فتناولت الملاعة ولكن أمى تعرضت لى تحاول منع كالعادة ، ولكنى تخلصت منها ومضيت إلى الخارج .

تناول قدرى يدها بين يديه وتساءل :

- ألا تخمن أين تذهبين ؟

- لا أظن ، لا يهمنى ، إنها على أى حال لا تجرو على إخبار أبي ..

فضحك قدرى ضحكة مقتضبة وسألها :

- ماذا تظنينه يفعل لو عرف ؟

فرددت ضحكته فى حيرة ، ولكنها قالت :

- إنى لا أخشاه على رغم شدته ، بل أقول لك إنى أحبه ، وهو يحبنى فى سذاجة لا تتفق وحدة طبعه ؛ ولا يبالى أن يقول إننى أغلى شيء فى دنياه ، ولعل هذا هو أصل متاعبى .

جلس قدرى على الأرض أسفل الصخرة ودعاهما إلى الجلوس بأن ربت الموضع جانبه ، فجلست وهى تتخفف من حبكة الملاعة ، ومال نحوها فلشم خدتها ، ثم قال :

- ييدو أن غزو أبي أيسر من غزو أبيك ، ومع ذلك فشدّ ما ييدو فظا إذا جاء ذكر لأبيك . إنه ينكر عليه صفات .. .

فضحكت قائلة وهى تذكر ما تردد عن ذكره :

- بنى آدم ! .. كذلك ينكر أبي عليه .

فحذحها بنظر استكثار ، فقالت :

- أبوك ينكر على أبي فظاظته ، وأبى ينكر على أبيك طيبته ، والمهم أنهما لم يتتفقا على شيء .

فندت عن رأس قدرى حركة كأنما ينطح الهواء . وقال بتحدى :

- لكتنا ستفعل ما نشاء .

فقالت هند وهي تنظر نحوه بعطف وإشفاق:

- أبي يستطيع أن يفعل ما يشاء كذلك!

- وأنا قادر على أشياء كثيرة، ماذا يريد لك هذا العم السكير؟

فضحكت على رغبها، وقالت بلهجة تشى بالاحتجاج والمداعبة معاً:

- تكلم عن أبي بأدب.

وواصلت الكلام وهي تقرصه في أذنه:

- طالما سأله نفسى عما يريدلى ، فخيل إلى أحيانا أنه يكره أن يزوجنى من أحد.

فحملق فيها منكراً فعادت تقول:

-رأيته مرة يرمى بيت جدنا بنظرة غاضبة ويقول: «إذا كان قد رضى لأبنائه وأحفاده بالهوان فهل يرضى به حفيده؟ لا مكان لائق بهند إلا هذا البيت المغلق». ومرة قال لأمى إن فتوة كفر الزغارى يرغب فى الزواج منى ، ففرجحت أمى فصاح بها حانقاً: «ياوضيعة... يا خسيسة ، من يكون فتوة كفر الزغارى هذا؟ إن أحقر خادم فى البيت الكبير أشرف منه وأنظف». فسألته أمى فى حسرة: «فمن تراه الجدير بها؟». فصاح: «علم ذلك عند الطاغية المتوارى خلف أسوار بيته ، إنها حفيديثه ، وليس فى الأرض من هو أهل لها! أريد لها زوجاً مثلى أنا». فقالت أمى على رغبها: «أتريدها أن تكون تعيسة مثل أمها؟!». فهجم عليها كالوحش وراح يركلها بشدة حتى جرت خارج الكوخ!

- هذا هو الجهنون بعينه.

- إنه يكره جدنا ، وبلعنه كلما ذكره ، لكنه فى أعماقه يتبه إجلالاً بأبوته .

فكور قدرى قبضته وجعل يضرب بها فخله ويقول:
ـ لعلنا كنا نكون أسعد حالاً لو لم يكن ذلك الرجل جداً لنا ..
فقالت بمرارة:
ـ لعلنا.

فجذبها إلى صدره بشدة تناسب الحدة في قوله وضمها إليه بقوة.
 واستيقاها هكذا بين يديه ريثما تمر فترة الانتقال بين الشواغل المتعبة وبين
الهياق الموعود، وقال:
ـ أعطيني فالك.

عند ذاك تراجع همام من موقفه عند الصخرة، واتجه بخفة نحو
الأغنام وهو يبتسم في حياء وأسى. خيل إليه أن الهواء يشمل بأنفاس
الحب، وأن الحب يتذر بالملائكة. لكنه قال لنفسه: «صفا وجهه ورق، لا
يرى على هذا الحال إلا خلف الصخرة، فمن لنا بقصوة هذا الحب
السحرية لتزييل متابعينا؟». هذا والسماء تشحّب في استسلام، وأنفاس
المغرب تتردد في خمول، والسمّرة تزحف كنفحة وداع وانية، وهناك
تيس يشب على عنزة. وعاد همام يحدث نفسه: «ستفرج أمي يوم تلد
هذه العenze؛ ولكن ميلاد إنسان قد يجيء بالکوارث، فوق رءوسنا لعنة
من قبل أن نولد، وأعجب عداوة هي التي لا تجد لها من مبرر إلا أنها
بين أخويين. إلى متى نعاني من هذه الكراهيّة؟! لو نسي الماضي لابتعد
الحاضر، ولكننا ستظل تتطلع إلى هذا البيت الذي لا عزة لنا إلا به ولا
تعasse إلا بسبب منه». وعلقت عيناه بالتيس فابتسم. ومضي يدور حول
الغنم وهو يصفر ويلوح بعصاه. وحانّت منه التفاتة نحو الصخرة الكبيرة
الصادمة فبدت في وقوتها كأنها لا تبالي شيئاً في الوجود.

استيقظت أميمة كعادتها عندما لم يبق في السماء إلا نجمة واحدة. ونادت أدهم حتى استيقظ متأوهًا. ونهض الرجل فغادر غرفته مثلا بالنعايس إلى غرفة خارجية متصلة بها حيث ينام قدرى وهمام فأيقظهما. ويدا الكوخ فى مظهره الجديد ناماً ممتداً كأنه بيت صغير، وأحاط به سورٌ ضم إليه فراغاً خلفياً لإيواء الأغنام. وانتشرت على السور أفرع اللبلاب فلطفت من جفاء منظره، ودللت على أن أميمة لم تيأس بعد من تحقيق حلمها القديم بأن تهذب ما استطاعت كوكخها على مثال البيت الكبير. واجتمع الرجال في الفناء حول صفحة مملوقة بالماء، فغسلوا وجوههم، وارتدوا جلابيب العمل، وحمل الهواء من داخل الكوخ رائحة احتراق خشب، وبيكاء الإخوة الصغار.

وأخيراً جلسوا حول الطبلية أمام مدخل الكوخ يأكلون من حلة فول مدمس. وكان جو الخريف رطيباً مائلاً للبرودة في هذه الساعة المبكرة ولكنه لاقى أجساماً قوية صمدت حيال نزواته. وعن بعد بدا كوخ إدريس وقد كبر وامتد كذلك. أما البيت الكبير فقام في صمت منطرياً على ذاته كأنما لا يربطه سبب بهذا العالم الخارجي. وجاءت أميمة تحمل كوز لبن محلوب لتوجه فوضعته على الطبلية وجلست. وعند ذلك سألها قدرى بسخرية:

- لماذا لا تبعين اللبن إلى بيت جدنا الموقر؟

فالتفت إليه أدهم برأسه الذي وخط المشيب فوديه وقال:

- كل وأنت ساكت، السكوت غایة ما نرجو عندك من خير.

وقالت أميمة وهي تطعن ما في فيها:
ـ آن لنا أن نخلل الليمون والزيتون والقلفل الأخضر، كنت ياقدرى
تبتهج فى أيام التخليل وتشترك فى حشو الليمون.
فقال قدرى بمرارة:
ـ كنا نبتهج ونحن صغار حتى بلا سبب.
فسأله أدهم وهو يعيد الكوز إلى موضعه:
ـ وماذا يشقيك اليوم يا أبا زيد الهلالى؟
فضحك قدرى ولم يجب. أما همام فقال:
ـ يوم السوق قريب، ينبغي أن نفرز الأغنام.
فهزت الأم رأسها بالإيجاب، على حين وجّه الأب خطابه إلى
قدرى قائلاً:

ـ يا قدرى لا تكون فطا، لا أقابل شخصاً يعرفك إلا شباك إلى،
أخشى أن تعيد سيرة عمك في هذه الحياة.
ـ أو سيرة جدى!
فانقدت عيناً أدهم استياء وقال:
ـ لا نذكر جدك بسوء، هل سمعتني أفعل ذلك؟ ثم إنه لم يسأ
إليك.

فقال قدرى باستنكار:
ـ أساء إليانا ما دام أساء إليك.
ـ اسكت، نقطتنا بسكوتك.
ـ بسيبه كتبت علينا هذه الحياة، وهي أيضاً مصير بنت عمنا.
فقال أدهم في عبوس:
ـ مالنا وما لها، أبوها علة الكارثة.

فهتف قدرى:

- أعنى أنه ما كان يصح أن تنشأ نساء من دمنا فى الخلاء والعراء، ثم خبرنى أى رجل ستتزوج هذه الفتاة؟
- ليكن الشيطان نفسه، لا شأن لنا بها، لا شك فى أنها مفترسة مثل أبيها.

ونظر نحو زوجه كأنما ينشد تأييداً فقالت أميمة:

- نعم، مثل أبيها.

فبصق أدهم قائلاً:

- ملعونة هي وأبوها!

فتساءل همام:

- ألا يفسد هذا الحديث علينا طعامنا؟

فقالت أميمة برقه:

- لا تبالغ.. إن أسعد الأوقات وقت اجتماعنا.

هنا ترامى إليهم صوت إدريس كالهدير وهو يلعن ويسب، فقال أدهم بتغزز:

- بدأت صلاة الصبح!

وتناول آخر لقمة ونهض، ثم اتجه نحو عربته وراح يدفعها أمامه وهو يقول: «تركتكم بعافية»، فردوا عليه: «مع السلامة». ومضى الرجل مبتعداً صوب الجمالية. وقام همام فمضى نحو الحظيرة من ممشى جانبي، وما لبث أن تعلى ثغاء الأغنام ووقع أظلافها فملأت الممشى فى طريقها إلى الخارج. ونهض قدرى كذلك فتناول عصاه ولوح لأمه مودعاً ولحق بأخيه. وعندما اقتربا من كوخ إدريس تصدى لهما فتساءل ساخراً:

- بكم الرأس يا جدع؟

فحدجه قدرى بنظرة حب استطلاع على حين تجذب همام النظر إليه.

وعاد إدريس يتساءل في إنكار:

- ألا يتفضل أحدكم بالجواب يا أبني بيع الخيار؟

فقال قدرى بحده:

- إذا أردت الشراء فاذهب إلى السوق.

فتساءل إدريس مقهها:

- وإذا قررت الاستيلاء على إحداها؟

وجاء صوت هند من الداخل وهي تقول:

- أبني، لا نريد فضائح.

فأجابها مداعباً:

- اهتمي بشأنك أنت، ودعيني لسلامة الجواري!

فقال همام:

- نحن لا ن تعرض لك فلا تتعرض لنا.

- آه، صوت أدهم، كان ينبغي أن تكون بين الأغنام لا وراءها.

فقال همام محتدماً:

- أمرنا أبى بألا تنجيب على تحريشك بنا.

فقهه إدريس عالياً وقال:

- جزاء الله كل خير، لو لا أمره هذا لكنتُ من الهالكين! (نم بلهجة

خشنة).. إنكما تعيشان عزيزين بفضل اسمى، لعنة الله عليكم

جميعاً، غوراً من وجهى.

وواصلـا سيرهما وهما يلوحان من حين إلى حين بعصوبيهما، ولبثـ

همام ممتعق اللون من الانفعال فقال لقدرى:

- هذا الرجل مقىٰت، ما أقدرُه! حتى في هذه الساعة المبكرة تنفس
أنفاسه رائحة الخمر.

فقال قدرى وهمَا يوغلان وراء الأغنام في الخلاء:
- إنه يتكلم كثيراً، ولكنه لم يمد لنا يداً بأذى.

فقال همام محتاجاً:

- بل استولى أكثر من مرة على بعض أغنامنا.

- إنه سكير، وهو للأسف عمنا، لا مهرب من الإقرار بذلك.

وساد الصمت قليلاً وهمَا يتجهان نحو الصخرة الكبيرة، وفي
السماء سحب متفرقة، والشمس ترسل أشعتها فتغمر الرمال المترامية.
وضاق همام بكتمان ما يود قوله فقال:

- ستخطئ خطأً كبيراً إذا وصلت أسبابك بأسبابه.

فاشتعلت عيناً قدرى بنظرة غاضبة وهتف:

- لا تخاول نصحي، حسبي أبوك.

فقال همام وهو لم يفق بعد من إهانات إدريس:

- حياتنا موفورة المتاعب فلا تزدها.

فصاح قدرى:

- فلتتحققكم المتاعب التي تخلقونها بأنفسكم، أما أنا فأفعل ما
أشاء.

وكان قد بلغاً الموضع الذي يسرحان عنده الأغنام فالتفت همام نحو
أخيه وتساءل:

- أتظن أنك ناج من عواقب أفعالك؟!

فقبض قدرى على منكبٍ بقبضته وصاح:

- ما أنت إلا حسود.

فدهش همام. دهمه قول أخيه الذي لم يتوقعه. ولكنك كان متعدداً من ناحية أخرى على مفاجأته ومفرق عاته. ورفع يده عن منكبها وهو يقول:

- اللهم احفظنا.

فشبك قدرى يديه على صدره وهو يهز رأسه ساخراً فقال همام:
- خير ما أفعل أن أتركك لنفسك حتى تندم، لن تقرب خطأ، ولن تقر به إلا بعد فوات الفرصة.

وأولاده ظهره متوجهًا نحو جانب الصخرة الظليل. ووقف قدرى مكفهر الوجه تحت الأشعة الحامية.

١٦

جلست أسرة أدهم أمام الكوخ تتناول عشاءها في ضوء النجوم الخافت. وإذا بحدث يقع لم يشهد له الخلاء مثيلاً منذ طرد أدهم. فتح باب البيت الكبير وخرج منه شبح حاملاً مصباحاً. وتطلعت الأعين إلى المصباح في دهشة انعقدت لها الألسنة، وتابعته وهو يتحرك في الظلام ككوكب أرضي، وعندما توسط المسافة بين البيت والكوخ تركزت الأبصار على الشبح لتتبينه على ضوء المصباح المنعكس حتى همس أدهم: «هذا عم كريم بباب البيت». وتضاعفت الدهشة عندما أيقنا من أنه يقصدهم فوقعوا جميعاً، بعضهم اللقمة في يده وبعض اللقمة في فيه بلا حرراك. وبلغ الرجل موقفهم فوق رافعاً يده وهو يقول:

- مساء الخير يا سيدي أدهم:

ارتجمف أدهم لدى سماعه الصوت الذي انقطع عنه منذ عشرين

عاماً، فدعاه من أعماق ذاكرته نبرات الأب العميقه وشذا الياسمين والحناء وحنينا وأشجارنا، فمادت به الأرض . وقال وهو يقاوم دموعه :

- مساء الخير يا عُمَّ كريم .

فقال الرجل بتأثير غير خاف :

- لعلك أنت وأهلك بخير .

- الحمد لله يا عُمَّ كريم .

فقال الرجل برقه :

- أود أن أغرب لك عما بنفسى ، ولكنى كلفت فقط بأن أبلغك بأن سيدى الكبير يدعو ابنك همام إلى مقابلته فوراً .

وساد الصمت ، فتبادلوا النظرات ، ولفتهم الحيرة ، وإذا بصوت يتسائل :

- همام وحده؟

والتفتوا ساخطين نحو إدريس الذى بدا عن كثب وهو يصفعى ، غير أن عُمَّ كريم لم يجب ، ورفع يده تحية ورجع صوب البيت الكبير تاركاً الجميع فى ظلام . وتغفظ إدريس منه فصاح به :

- أتركتنى بلا جواب يا ابن اللثيمه؟

وأفاق قدرى من ذهوله فتساءل غاضباً :

- لماذا همام وحده؟

فرد إدريس تساؤله :

- نعم ، لماذا همام وحده؟

فقال له أدهم ، ولعله وجد فى مخاطبته متنفساً عن أزمته :

- عد إلى كوكبك ودعنا فى سلام .

-سلام؟ إني أقف حيث أشاء.

وتطلع همام إلى البيت الكبير صامتاً، وقلبه يخفق بشدة خيل إليه
معها أن المقطم يردد صدأه. وقال له أبوه بتسليم:

-اذهب يا همام إلى جدك مصحوباً بالسلامة.

فالتفت قدرى إلى أبيه يسأله بحده وتحده:

-وأنا؟ ألسن ابنك مثله؟

- لا تتكلم كما يتكلم إدريس يا قدرى، إنك ابني مثله بلا أدنى
ريب، ولا لوم على فلست أنا الداعي.

فقال إدريس محتاجاً:

-ولكن بوعك أن تمنع تميز أخي عن أخيه.

-هذا شأن لا يعنيك (ثم مخاطباً همام) يجب أن تذهب، وسيأتي
دور قدرى، إني واثق من ذلك.

فقال إدريس وهو يهم بالذهاب:

-إنك أب ظالم مثل أبيك، مسكين قدرى، لماذا يعاقب دون ذنب؟
لكن اللعنة تنزل أول ما تنزل في أسرتنا بالمتازين، ألا لعنة الله
على هذه الأسرة المجنونة!

ومضى فابتلعته الظلمة. وعند ذاك هتف قدرى:

-إنك تظلمني يا أبي.

-لا تُعد أقواله، تعال يا قدرى، واذهب يا همام.

فقال همام بحرج:

-وددت لو كان معى أخي.

-سيتحقق بك.

فصاح قدرى بعنق:

- أى ظلم هذا؟! لماذا آثره على؟ إنه لم يعرفه كمالٌ يعرفنى، فلماذا يختصه بالدعوة؟

فدفع أدهم همام قائلاً:

- اذهب.

فارأى همام، وهمسَتْ أميمة:

- تحفظك العناية.

واحتضنت قدرى باكية، ولكنه تخلص من ذراعيها ومضى في أثر أخيه فصاح به أدهم:

- عدى يا قدرى ولا تقامر بمستقبلك.

فقال قدرى بغضب:

- لن ترجعنى قوة على الأرض.

وعلا صوت أميمة بالبكاء، وبكى الصغار في الداخل. وأوسع قدرى خطاه حتى لحق بأخيه، وعلى كثب منه في الظلام رأى شبح إدريس يسير عسكراً ييد هند. ولما بلغوا باب البيت دفع إدريس قدرى إلى يسار همام وهند إلى يمينه وتراجع خطوات وهو يصبح:

- افتح يا عم كريم، جاء الأحفاد للقاء جدهم.

وفتح الباب وظهر على عتبته عم كريم وبيده المصباح، وقال بأدب:

- فليفضل سيدى همام بالدخول.

فهتف إدريس:

- وهذا أخوه قدرى، وهذه هند وهي صورة مكررة من أمى التي ماتت باكية.

فقال عم كريم بأدب:

- أنت تعلم يا سيدى إدريس أنه لا يدخل هذا البيت إلا من يؤذن له.

وأشار إلى همام فدخل ، وتبعه قدرى آخذًا يد هند ولكن علا
صوت من الحديقة عرفه إدريس وهو يقول بصرامة :
ـ اذهب يا عاركما أيها الملوثان .

تسمرت أقدامهما . وأغلق الباب . وانقض إدريس عليهما فقبض
على منكبيهما بقبضتيه وتساءل بصوت متهدج من الغضب :
ـ أى عار يعنى ؟

وصرخت هند ألمًا ، على حين تحول قدرى فجأة نحو إدريس ورفع
يديه عنه وعن هند ، فأفلتت هند وولت هاربة في الظلام . وتراجع
إدريس بخفة إلى الوراء ، ثم وجه إلى قدرى لكتمة فتحملها الشاب على
رغم قوتها ووجه إليه لكتمة أشد . واندفعا يتبدلان الضرب والركل
بقسوة ووحشية تحت سور البيت الكبير . وصاح إدريس :
ـ سأقتلك يا ابن العاهرة .

فصاح قدرى :

ـ سأقتلك قبل أن تقتلنى .

وبتبادل الضربات حتى سال الدم من فم قدرى وأنفه . وجاء أدhem
جريًا كالملجنون وصاح بأعلى صوته :

ـ اترك ابني يا إدريس .

فصاح إدريس بحقد :

ـ سأقتله بجريمته .

ـ لن أدعك تقتله ، ولن أدعك تعيش إن قتله .

وجاءت أم هند مولولة وهى تصيح :

ـ فرّت هند يا إدريس ، أذركها قبل أن تختفى .

ورمى أدhem بنفسه بين إدريس وقدرى ، وصاح بأخيه :

- أفق، إنك تقاتل بلا سبب، بتك طاهرة لم تمس، لكنك أرعبتها
ففرت، أدركها قبل أن تخنقني.

ووجذب قدرى إليه، ورجع به مسرعاً وهو يقول:
- أسرع.. تركت أمك في حالة إغماء.

أما إدريس فانطلق في الظلام وهو يصرخ بأعلى صوته: «هند..
هند..».

١٧

تبع همام عم كريم فاجتازا المشي تحت عريشة الياسمين متوجهين نحو السلاملك. بدا الليل في الحديقة شيئاً جديداً، لطيفاً رطباً مترعاً بنحوات الأزهار والرياحين فانسكب بروعته في أعماق روحه. وامتلا الشاب بشعور جلال وافتتان، وحنين مودة عميقه للمكان، وبأنه مقبل على أجل لحظات عمره. وتراثت لعينيه أنوار وراء شيش بعض النوافذ، ونور قوى ينبعث من باب البهو فارشاً على أرض الحديقة تحت شكلأً هندسياً، فخفق قلبه وهو يتخيّل الحياة خلف النوافذ وفي الأبهاء، كيف تكون؟ ومن يحيّاها؟ وزاد قلبه حفقاتاً حينما تمثلت خاطره هذه الحقيقة العجيبة وهي أنه مخلوق من سلالة هذا البيت ونقطة من هذه الحياة، وأنه جاء ليلقاها وجهها لوّجه في جلباب أزرق بسيط وطاقية باهتة، منتعلاً أديم الأرض. ورقياً في سلم السلاملك، فملا إلى جناح الشرفة الأيمن نحو باب صغير، ففتح على سلم فصعداه في صمت لا ينم عن حياة، حتى بلغرا دهه طوبلة مضاءة بمصباح يتذلّى من سقف مزركس، واتجهها نحو باب كبير مغلق يتوسط الردهة. وقال همام لنفسه في تأثر باللغ: «في موضع من هذه الردهة، لعله هذا الموضع عند

رأس السلم، وقفت أمي منذ عشرين عاماً لتراقب الطريق، أى ذكرى
تعيسة؟!». ونفر عم كريم على الباب الكبير مستأذناً للقادم، ثم دفعه
برقة وتنحى لهمام جانبًا وهو يشير له بالدخول.

ودخل الشاب في أناة وأدب ورهبة، فلم يسمع صوت الباب وهو
يغلق وراءه، ولم يشعر إلا شعوراً غامضاً بالنور المضيء في السقف
والأركان، أماوعيه كله فقد الجذب نحو الصدارة حيث تربع الرجل
على ديوان. لم يكن رأى جده من قبل، ولكنه لم يشك في هوية
الجالس أمامه، فمن يكون هذا الهائل إن لم يكن جده الذي سمع عنه
الأعاجيب؟ واقترب من مجلسه وهو يتلقى من عينيه الكبيرتين نظرة
استلت من ذاكرته جميع ما فيها، ولكنها بثت في قلبه في الوقت نفسه
طمأنينة وسلاماً. وانحنى حتى كادت جبهته تمس طرف الديوان، ومد
يده، فأعطاه الآخر يده، فلثمها من الأعمق، وقال بشجاعة غير
متوقعة:

- مساء الخير يا جدِّي.

فجاءه الجواب من صوت جهوري لم يخل من أنقام رحمة:

- أهلا بك يا بني، اجلس.

واتجه الشاب نحو مقعد إلى يمين الديوان وجلس على حافته فقال
الجلالوي:

- خذ راحتك في مجلسك.

فتزحزح همام إلى الداخل وقلبه يرتوى من المسرة، وتحركت شفتيه
بشكر مهوس ثم ساد الصمت. ولبث ينظر في نقوش السجادة تحت
قدميه، وهو يشعر بموقع النظرة المسددة نحوه كما نشعر بموقع الشمس
من دون أن نراها. وإذا بذهنه يتوجه فجأة نحو الخلوة القائمة إلى يمينه،
فلحظ بابها بخوف وكابة، وإذا بالرجل يسأله:

- ماذا تعرف عن هذا الباب؟

فارتجفت أوصاله ، وعجب كيف يرى كل شيء ، وقال بخشوع:

- أعرف أنه فائحة مأماتنا.

- وماذا ظنت بجلدك لدى سماعك الحكاية؟

وفتح فاه ليتكلم فبادره الرجل:

- أصدقني القول.

فأثرت به اللهجة إلى حد أنه قال فيما يشبه الصراحة:

- بدارى تصرف والديه خطأ كبيراً، كما بدارى عقابهما صارماً شديداً.

فابتسم الجبلاوي قليلاً:

- هذا هو شعورك على وجه التقرير، إنى أمقت الكذب والخداع، ولذلك طردت من بيتي كل من لوث نفسه.

فاغرورقت عينا همام. فقال الجد:

- بدارى أنك شاب نظيف، ولذلك استدعيتك.

فقال همام بصوت رطبته الدموع:

- شكرأ يا سيدى.

فقال الجد بهدوء:

- رأيت أن أعطيك فرصة لم تتع لأحد من في الخارج، وهى أن تعيش فى هذا البيت، وأن تتزوج به، وأن تبدأ حياة جديدة فيه.

فتتابع دقات قلب همام فى نشوة من الأفراح، ولبث يتضرر أنغاماً جديدة يستكمل بها هذا اللحن البديع كالسميع الذى يتضرر الجواب بعد أن طرب للقرار، ولكن الرجل لا ذ بالصمت. وتردد همام قليلاً، ثم قال:

- الشكر لك على نعمتك
- إنك تستحقها.

واختلج نظر الشاب بين جده وبين السجادة، ثم تساءل في إشراق:

- وأسرتني؟

فقال الجبلاوي في عتاب:
- قلت ما أريد بوضوح.
فقال همام باستعطاف:

- إنهم يستحقون رحمتك وعفوك.
فتساءل الجبلاوي بشيء من البرود:
- ألم تسمع ما قلت؟

- بلـى، ولكنـهم أمـي وأـبـي وإـخـوتـي، إنـأـبـي رـجـلـ...

- ألم تسمع ما قلت؟

وشي الصوت بالضجر فغلـب الصمت. وإذا بالرجل يقول إيدـانـاـ
باتـهـاءـ الـحـدـيـثـ:

- ارجع إليـهم لـتـسـأـذـنـ، ثمـ عـدـ.

وقام همام فلـثمـ يـدـ جـدـهـ وـمـضـىـ. وجـدـ عـمـ كـرـيمـ يـتـظـرـ، فـتـحرـكـ
الـرـجـلـ وـتـبـعـهـ الشـابـ فـيـ سـكـونـ. ولـماـ اـنـتـهـيـاـ إـلـىـ السـلـامـلـكـ، رـأـيـ هـمـامـ
فتـاةـ فـيـ مـنـطـقـةـ الضـوءـ بـأـوـلـ الـحـدـيـقـةـ، وـقـدـ سـارـعـتـ إـلـىـ الـاخـتـفـاءـ. غـيرـ أـنـهـ
لـمـ
وـهـوـ يـقـولـ: «أـنـ تـعـيـشـ فـيـ هـذـاـ الـبـيـتـ وـأـنـ تـزـوـجـ بـهـ». بـفـتـاةـ كـهـذـهـ الفتـاةـ.
وـعـيـشـةـ خـبـرـهـاـ أـبـيـ. كـيـفـ هـانـتـ عـلـيـهـ المـقـامـةـ؟ وـكـيـفـ وـبـأـيـ قـلـبـ تـحـمـلـ
الـحـيـاتـ بـعـدـ ذـلـكـ وـرـاءـ عـرـبـةـ الـيـدـ؟ وـهـذـهـ الـفـرـصـةـ السـعـيـدةـ كـأـنـهـ جـلـمـ. حـلـمـ
أـبـيـ مـنـذـ عـشـرـيـنـ عـامـاـ.

عاد همام إلى الكوخ فوجد أسرته جالسة تترقب عودته . وأحاطوا به مستطعرين وسأله أدهم بلهفة :

- ماذا وراءك يا بنى ؟

ولاحظ همام أن قدرى معصوب العين فقرب رأسه من وجهه ليتحقق من الأمر فقال أدهم بأسى :

- نشب معركة حامية بين أخيك وبين ذلك الرجل .

وأشار بيده نحو كوخ إدريس الذى بدا غارقاً في الظلمة والصمت على حين قال قدرى بغضب :

- كل ذلك بسبب التهمة الخبيثة الكاذبة التى قذفت بها من داخل البيت .

وأشار همام نحو كوخ إدريس وتساءل فى قلق :

- ماذا يحدث هنا لك ؟

قال أدهم بحزن :

- الرجل وزوجه يبحثان عن ابتهما الهاوية .

فصاح قدرى :

- من المسئول عن ذلك إلا الرجل الفظ اللعين ؟ !

فتوسلت أميمة قائلة :

- أخفت من صوتك .

فصاح قدرى فى حق :

- ماذا تخافين ؟ .. لا شيء إلا الطمع فى عودة لن تتحقق . صدقينى

إنك لن تغادرى هذا الكوخ حتى الممات .
فاحتد أدهم قائلًا :
ـ كفى هذيانا ، أنت مجنون وحق خالق الكون ، ألم تكن ت يريد أن
تلحق بالفتاة الهايرية ؟
ـ وسأحلق بها .
ـ اسكت ، لقد ضفت بحمماقاتك .
ـ وقالت أميمة بجزع :
ـ لن تطيب لنا الحياة بجوار إدريس بعد اليوم .
ـ والتفت أدهم نحو همام وسأله :
ـ قلت : ماذا وراءك ؟
ـ فقال همام بصوت لا أثر للسرور فيه :
ـ دعاني جدي إلى الإقامة في البيت الكبير .
ـ وترقب أدهم بقية للحديث فلما لم ينبس الشاب تسأله في يأس :
ـ ونحن ؟ ماذا قال عنا ؟
ـ فهز همام رأسه في حزن وهمس :
ـ لا شيء .
ـ فضحك قدرى ضحكة كلدغة عقرب وسأله في سخرية :
ـ وماذا جاء بك ؟
ـ نعم ماذا جاء بي ؟ لا شيء إلا أن السعادة لم تخلق لينعم بها
ـ أمثالى . وقال بحزن :
ـ لم أقصُّ في تذكرة بكم .
ـ فقال قدرى بحنق :
ـ شكرًا ، ولكن ماذا جعله يؤثرك علينا ؟

- أنت تعلم ألا شأن لى فى ذلك.

وقال أدهم وهو ينتهد:

- لا شك فى أنك يا همام خيرنا جميعاً.

فهتف قدرى ببرارة:

- وأنت يا أبي الذى لم تذكره إلا بخير لا يستحقه!

فقال أدهم:

- أنت لا تفهم شيئاً.

- هذا الرجل أسوأ من ابنه إدريس.

فتولست أميمة قائلة:

- إنك تقطع قلبي، وتغلق أبواب الأمل فى وجهك.

فصاح قدرى باستهانة:

- لا أمل إلا فى هذا الخلاء، أدركوا هذا وأريحو أنفسكم، ا Yasوا

من هذا البيت اللعين، أنا لا أخاف هذا الخلاء، حتى إدريس نفسه

لا أخافه، وبوسعى أن أكيل له من الضربات أضعاف ما يكيل لى.

ابصقوا على هذا البيت وأريحو أنفسكم.

وساءل أدهم نفسه: «أيمكن أن تمضي هذه الحياة على هذا النحو إلى

الآبد؟ ولماذا أبقطت يا أبي طموحنا إليك قبل أن ترتضى العفو لنا؟ وأى

شيء يمكن أن يلiven قلبك إذا كان ذلك الزمن الطويل لم يلنه؟ وما

جدوى الأمل إذا كان ذلك العذاب كله لم يزكنا لرحمة من نحب؟».

وقال الرجل بصوت كالغروب:

- خبرنى يا همام عما لديك.

فقال همام في حياء:

- قال لي اذهب فاستأذن ثم عذر.

وشي الظلام بمحاولة فاشلة من أميمة لكتم انتخابها ، وتساءل قدرى
في خبث :

- وماذا يؤخرك ؟

فقال أدهم في حزم :

- اذهب يا همام مصحوباً بالسلامة والبركات .

وقال قدرى بلهجة جدية كاذبة :

- اذهب يا شهم ولا تلق بالاً إلى أحد .

فصاح أدهم :

- لا تهزأ بأخيك الطيب .

فقال قدرى ضاحكاً :

- إنه شرنا جميعاً .

فهتف همام بحدة :

- إذا قررت البقاء فلن يكون هذا إكراماً لك أنت .

فقال أدهم بقوه :

- بـل اذهب دون تردد .

وقالت أميمة خلال دموعها :

- نعم .. اذهب بالسلامة .

فقال همام :

- كلا يا أمي ، لن أذهب .

فتساءل أدهم :

- أجبنت يا همام ؟

- كلا يا أبي ، الأمر يحتاج إلى تفكير ومشاورة .

- لا حاجة بك إلى ذلك، ولا تحملنى ذنبًا جديداً.

فقال همام بعزم وهو يشير نحو كوخ إدريس:

- يخيل إلى أن أحداثاً ستقع.

فقال قدرى ساخراً:

- إنك أضعف من أن تدفع شرًا عن نفسك فضلاً عن الآخرين.

فقال همام بازدراء:

- خير ما أفعل أن أتجاهل ما تقول.

فعاد أدهم يقول برجاء:

- اذهب يا همام.

فأتجه همام نحو الكوخ وهو يقول:

- سأظل إلى جانبك.

١٩

لم يبق من الشمس إلا الشفق، وانقطعت الساقية، وانفرد بالخلاء

قدري وهمام والأغnam. مر النهار فلم يتبدل لا طواله إلا ما تقتضيه

ضرورة الشركة في العمل. وغاب قدري شطراً كبيراً من النهار فخمن

همام أنه يت sham أخبار هند، ولبث وحده في ظل الصخرة على كثب من

الأغnam. وفجأة، وفي شيء من التحدى، سأله قدري همام:

- خبرني عما انتويت من ذهابك إلى جنك أو عدولك؟

فقال همام بامتعاض:

- هذا شأن يخصنى وحدى.

فاحتدم الغيظ في قلب قدرى، ولاحت بوادره في وجهه كطلاع
الظلام فوق المقطم، وتساءل:

- لماذا بقيت؟ .. ومتى تذهب؟ .. متى تجد الشجاعة لإعلان نيتك؟

- بل بقيت لأن تحمل نصبي من العناء الذي خلقته فضائحك.

فضحك قدرى ضحكة كاسرة وقال:

- هكذا تقول لتدارى حسدك!

فهز همام رأسه كالمتعجب وقال:

- إنك تستحق الرثاء لا الحسد.

فاقترب قدرى منه وأطراقه ترتجف من الحنق وقال بصوت مخنوق
بالغضب:

- ما أبغضك حين تظاهرة بالحكمة.

فحodge همام بنظرة احتقار دون أن ينبس ، فعاد الآخر يقول :

- يجب أن تخجل الحياة لانتساب أمثالك إليها.

فلم يغض همام من بصره تحت النظرات المتقدة التي تنصب عليه
وقال بشبات:

- أعلم أننى لا أخافك.

- هل وعلك البلطجي الأكبر بالحماية؟

- إن الغضب يجعل منك شيئاً حقيراً تعافه النفس.

وفجأة لطمه قدرى على وجهه . لم تدهمه اللطمة فرداًها بأشد منها
وهو يقول:

- لا تتماد في جنونك.

وانحنى قدرى بسرعة فاللتقط حجرًا وقذف به أخيه بكل ما أوتي من
قوة . وبادر همام ليتفادى الحجر ولكنه أصاب جبينه . ندت عنه آفة

وحمد في موقفه والغضب يشتعل في عينيه. وإذا بالغضب يختفي منهما فجأة كأنه شعلة ردمت بتراب كثيف. وإذا بفراغ قاتم يحل فيهما. فبدت العينان وكأنهما تنظران إلى الداخل. وترنح ثم انكفا على وجهه.

وتبدل قدرى حالاً بعد حال، فزايده الغضب، وتركه حديداً بارداً بعد انصهار، وركبه الخوف. ترقب بهفة أن ينهض المنكفين أو أن يتحرك ولكنه لم يرحم لهفته. وانحنى فوقه، ومد إليه يده يهزه في رفق ولكنه لم يستجب. وسواء على ظهره ليخلص أنفه وفاه من الرمال فاستلقى الآخر محملاً العينين ولا حراك به. وركع قدرى إلى جانبه، وراح يهزه، وبذلك صدره ويديه، وينظر بفزع إلى الدم المتذبذب بغزاره من جرحه. وناداه بر جاءه فلم يجب. وبذا صمته كثيفاً عميقاً كأنه جزء لا يتجزأ من كيانه. كجموده الذي بدا غريباً عن المحي والجماد معاً. لا إحساس ولا افعال ولا اهتمام بشيء. كأنما ألقى إلى الأرض من مكان مجهول فلم يمت إليها بسبب. عرف قدرى الموت بفطرته فراح يشد شعر رأسه في يأس. ونظر فيما حوله خائفاً، ولكن لم يكن هناك من حي إلا الأغنام والحيشات. وجميعها انصرفت عنه دون اكتتراث.

سيتشر الليل ويستحكم الظلام.

وقام بعزم، فجاء بعصاه، واتجه إلى موضع بين الصخرة الكبيرة وبين الجبل، وراح يحفر الأرض ويرفع التراب بيديه، ويواصل العمل بعناد، وهو يتصلب عرقاً وترتجف منه الأوصال. وهرع نحو أخيه. هزه وناداه للمرة الأخيرة دون أن يتوقع جواباً. وقبض على أسفل ساقيه وجره حتى أودعه الحفرة. وألقى عليه نظرة وهو يتهدى، وتردد ملياً، ثم أهال عليه التراب. ووقف يجفف عرق وجهه بكم جلبابه. وكلمات رأى بقعة دم في الرمال غطتها بالتراب. وارتسمت على الأرض من شدة الإعياء. وشعر بقوته تتخلل عنه، وبرغبة في البكاء، ولكن الدموع استعصت عليه. وقال: «غلبني الموت». لم يدعه ولم يقصده ولكنه

يجيء كما يحلو له . ولو أنه انقلب تيساً لغاب في الأغنام . أو ذرة من رمال لاختفي في الأرض . ما دمت لا أستطيع أن أرد الحياة فلا يجوز أن أدعى القوة أبداً . وهيئات أن تمحي تلك النظرة من رأسي أبداً . إن الذي دفته لم يكن من الأحياء ولا من الجماد ، ولكنه من صنع يدي !

٢٠

عاد قدرى إلى الدار يسوق الأغنام ، ولم تكن عربة أدهم بموقفها . وجاء صوت أمه من الداخل وهي تسأله :
ـ لماذا تأخرتما عن موعدكم؟

ـ فدفع الأغنام إلى المشي المفضى إلى حظيرتها وهو يقول :
ـ غلبني النوم ، ألم يحضر همام؟

ـ رفعت أميمة صوتها ليعلو على أصوات الأطفالين قائلة :
ـ كلا ، ألم يكن معك؟
ـ فاز درد ريقاً جاقاً وقال :

ـ غادرني منذ الظهر دون أن يخبرني أين هو ذاهب . فظننته رجع إلى هنا .

ـ فتساءل أدهم وكان قد وصل ومضى يدخل العربية إلى الفناء :
ـ هل تشاجرتما؟
ـ أبداً .

ـ أظنك كنت السبب في ذهابه ، ولكن أين هو؟
ـ خرجت أميمة إلى الفناء ، على حين أغلق قدرى باب الحظيرة وراح

يغسل وجهه ويديه من ماء طشت تحت الزير . لا بد من مواجهة الموقف .
الدنيا تغيرت ولكن اليأس قوة . وانضم إلى والديه في الظلم وهو
يحفف وجهه بطرف جلابيه . وتساءلت أميمة :

- أين ذهب همام؟ لم يغب كهذه المرة من قبل .

فوافقها أدهم قائلاً :

- نعم ، خبرنا كيف ولماذا ذهب؟

وارتعد قلب قدرى لصورة خطرت برأسه ، لكنه قال :

- كنت جالساً في ظل الصخرة فلاحت مني التفاة فرأيته يتعد صوب
حياناً وهمت أن أناديه ولكنى لم أفعل .

فقالت أميمة فى حسرة :

- ليتك ناديته ولم تستسلم لزعلك .

ونظر أدهم حائراً في الظلم حوله ، فرأى ضوءاً خافتًا خلال كوة في
كونخ إدريس دلت على أن الحياة دبت فيه من جديد ، ولكنه لم يأبه
لذلك ، وثبت بصره على البيت الكبير وتساءل :

أتراه ذهب إلى جده؟

فقالت أميمة بإنكار :

- لا يفعل ذلك دون إخبارنا .

فقال قدرى بصوت شاحب :

- لعل الحياة منعه !

فسدد أدهم نحوه نظرة ارتياش منقبض الصدر خلو صوته من
السخرية والعدوان وقال :

- دفعناه إلى الذهاب فأبى .

فقال قدرى في إعياه :

- تخرج من القبور أمامنا .

- ليس هذا من خلقه ، وأنت مالك كالمريض ؟ !

فقال قدرى بحدة :

- حملت عبء العمل وحدى .

فهتف أدهم فى ضيق المستغيث :

- الحق أقول إن قلبي غير مطمئن .

فقالت أميمة بصوت مبحوح :

- سأذهب إلى البيت الكبير لأسأل عنه .

فهز أدهم منكبيه فى يأس وقال :

- لن يردد عليك أحد ، ولكنى أؤكد لك أنه لم يذهب .

فتفتحت أميمة فى كرب وقالت :

- رياه ، لم يضطرب هكذا قلبي من قبل ، افعل شيئاً يا رجل !

فتنهد أدهم بصوت مسموع فى الظلام وقال :

- فلنفترش عنه فى كل ناحية .

فقال قدرى :

- لعله فى الطريق إلينا .

فهتفت أميمة :

- لا ينبغي أن ننتظر .

ثم مستدركة فى جزع وهى تنظر صوب كوخ إدريس :

- أىكون إدريس قد صادفه فى طريقه ؟

فقال أدهم بامتعاض :

- غريم إدريس قدرى لا همام .

- إنه لا يتردد عن القضاء على أىٰ منا ، إنى ذاهبة إليه ؟

فحال أدهم بينها وبين الذهاب وهو يقول :

- لا تزیدي أمورنا تعقیداً، أعدك إذا لم نعثر عليه أن أذهب إلى إدريس، وأن أذهب إلى البيت الكبير.

وتحج شیع قدری بنظره قلقة. ما باله واجماً؟! أليس عنده أكثر مما قال؟ وأین أنت يا همام؟!

واندفعت أميمة لتغادر الفناء فمال أدهم نحوها وأمسك بمنكبها.

وإذا بباب البيت الكبير يفتح، فتطلعوا نحوه. وبعد قليل لاح شیع عم کریم وهو يقترب منهم فخرج إليه أدهم وهو يقول : «أهلاً بك يا عم کریم». فحياه الرجل وقال :

- سیدی الكبير يسأل عما آخر همام؟

فقالت أميمة بیأس :

- لا ندری أین هو حتى ظنناه عندکم.

- سیدی يسأل عما آخره ..

فهتفت أميمة :

- أعود بالله من أوهام قلبي.

وذهب عم کریم . وأخذت أميمة تحرك رأسها في اضطراب ينذر بالانفجار، فساقها أدهم أمامه إلى حجرتهمما الداخلية حيث علا بكاء الصغيرين ، وصاح بوحشية :

- لا تغادرى الحجرة، سأعود به ، ولكن إياك أن تغادرى الحجرة.

وعاد إلى الفناء فعثر على قدری جالساً على الأرض فانحنى فوقه هاماً :

- خبرنى ماذا تعرف عن أخيك؟

فرفع رأسه نحوه بشدة ولكن شيئاً منعه من الكلام فعاد الرجل يسائله :

- خبرَنِي يا قدرِي ماذا فعلت بأخيك؟
فقال الشاب بصوت لا يكاد يسمع:
لا شيء.

وارتد الرجل نحو الداخل ثم رجع بمصباح فأشعّله ووضعه على عربته فسقط نوره على وجه قدرى فتفحصه الرجل ببريبة وقال:
وجهك ينذر بالشقاء.

وجاء صوت أميمة من الداخل مختلطًا بأصوات الطفلين ليقول
كلامًا لم يميزه أحد فصاح أدهم:
اسكتني يا ولية، موتي إن شئت ولكن في صمت!
وعاد إلى تفحص ابنه. وبغتة ارتعدت أطرافه. وأمسك بطرف كمه
وقال في فزع:
دم! ما هذا؟ دم أخيك؟!

فحملق قدرى في كم جلبابه ثم انكمش بحركة لا إرادية، وحنى رأسه في يأس. وأطرق قدرى بحركته اليائسة فجذبه أدهم حتى أقامه، ثم دفعه إلى الخارج. دفعه بقصوة لم يعهد لها من قبل، وغضى عينيه ظلام فوق الظلام المحيط.

٢١

دفعه نحو الخلاء قائلًا:
- سنبيل نحو خلاء الدراسة كيلا غر أمام كوخ إدريس.
وأوغلا في الظلام، وقدرى يسير كالمرنح تحت قبضة أبيه الناشبة في منكبها. وتساءل أدهم وهو يجدّ في السير بصوت أدركه الهرم:

- خبرُنِي هل ضربته؟ بأى شئ ضربته؟ وعلى أى حال تركته؟
 لم يجب قدرى. كانت قبضة أبيه شديدة ولكنها لم يكدر يشعر بها.
 وكان ألمه شديداً ولكنها لم يفصح عنه، وود أن الشمس لا تطلع أبداً.
 - أرحمنى وتكلم، ولكنك لم تعرف الرحمة، وقد قضيت على
 نفسي بالعذاب يوم أخبرتك، أنا الذى تطاردى اللعنات منذ عشرين
 عاماً، وهـ أنا إذا أطلـ الرحـمة منـ لا يـعرفـها.

فانفجر قدرى باكياً حتى ارتجف منكـه فى قبـضة أدـهم القـاسـية، وظلـ
 يـرـجـفـ حـتـىـ سـرـتـ عـدـواـهـ إـلـىـ أدـهـمـ،ـ لـكـنـهـ قـالـ:
 - أهـذاـ جـوـابـكـ؟ـ لـمـاـذـاـ يـاـ قـدـرـىـ؟ـ لـمـاـذـاـ؟ـ كـيـفـ هـاـنـ عـلـيـكـ؟ـ اـعـتـرـفـ فـىـ
 الـظـلـامـ قـبـيلـ أـنـ تـرـىـ نـفـسـكـ فـىـ ضـوءـ النـهـارـ.

فـهـتـفـ قـدـرـىـ:

لا طـلـعـ النـهـارـ!

- نـحنـ أـسـرـةـ الـظـلـامـ،ـ لـنـ يـطـلـعـ عـلـيـنـاـ نـهـارـ!ـ وـكـنـتـ أحـسـبـ الشـرـ
 مـقـيـماـ فـيـ كـوـخـ إـدـرـىـ،ـ فـإـذـاـ بـهـ فـيـ دـمـنـاـ نـحـنـ.ـ إـنـ إـدـرـىـ يـقـهـقـهـ
 وـيـسـكـرـ وـيـعـرـبـدـ،ـ أـمـاـ نـحـنـ فـيـقـتـلـ بـعـضـنـاـ الـبعـضـ،ـ رـبـاهـ..ـ هـلـ قـتـلتـ
 أـخـاـكـ؟ـ

- أـبـداـ!

- فـأـبـينـ هوـ؟

- ما قـصـدتـ قـتـلهـ؟

فصـاحـ أدـهـمـ:

ـ لـكـنـهـ قـتـلـ!

وـأـجـهـشـ قـدـرـىـ فـيـ الـبـكـاءـ وـاشـتـدـتـ قـبـضةـ أـبـيهـ.ـ إـذـنـ قـتـلـ هـمـامـ،ـ زـهـرةـ
 الـعـمـرـ وـحـبـيـبـ الـجـدـ،ـ كـأـنـهـ لـمـ يـكـنـ،ـ لـوـلاـ الـأـلـمـ المـفـرـسـ مـاـ صـدـقـتـ.

وبلغا الصخرة الكبيرة فسأله أدهم بصوت غليظ :

- أين تركته يا مجرم؟

فسار قدرى نحو الموضع الذى حفره لأخيه ووقف عنده فيما بين الصخرة والجبل . وتساءل أدهم :

- أين أخوك؟ لا أرى شيئاً.

فقال قدرى بصوت لا يكاد يسمع :

. هنا دفنته.

فصاح أدهم :

! دفنته؟

وأخرج من جيئه علبة ثقاب وأشعل عوداً تفحص الموضع على ضوءه حتى رأى قطعة من الأرض قلقة المستوى كما رأى مسحب الجثة الذى انتهى عندها . تأوه أدهم من الألم . وراح يزير التراب بيدين مرتعشتين . وواصل عمله فى جو رهيب حتى مست أصابعه رأس همام . وغرز يديه إلى ما تحت إبطيه وسحب الجثة فى رفق . وجثا على ركبتيه إلى جانبها واضعاً يديه على رأسه ، مغمض العينين ، مثلاً للتعاسة والخيبة . وزفر من أعماقه ، ثم غمم :

. إن حياة أربعين عاماً من العمر تبدو سخفاً سقيناً أمام جثتك يا بني .

وقام بغتة ، ونظر نحو قدرى وهو يقف أمام الجثة من الناحية الأخرى ، فعانى لحظات كراهية عمياً ، وقال بصوت غليظ :

. سيعود همام إلى الكوخ محمولاً على عنقك .

فجفل قدرى متراجعاً ، ولكن الرجل سارع إليه دائراً حول الجثة ثم قبض على منكبه وهتف :

- احمل أخاك !

فقال قدرى بصوت كالأنين:

- لا أستطيع.
- إنك استطعت قتله.
- لا أستطيع يا أبي.
- لا تقل «أبي»، قاتل أخيه لا أب له، لا أم له، لا أخ له.
- لا أستطيع.

فسد قبضته عليه وقال:

على القاتل أن يحمل ضحيته.

حاول قدرى أن يفلت من قبضة أدهم، ولكن أدهم لم يمكنه، وانهال في عصبية على وجهه بالكلمات فلم يتقاد من لعنة أو يتاؤه من ألم. وكف الرجل، ثم قال:

لا تضيع الوقت، أملك تنتظر.

وارتعد قدرى لدى ذكر أمه، فقال برجاء:

- دعني أختضى.

فجذبه نحو الجثة وهو يقول:

هل نحمله معاً.

تحول أدهم إلى الجثة ووضع يديه تحت إبطى همام، وانحنى قدرى واصعاً يديه تحت الساقين. رفعا الجثة معاً، وسارا في بطء نحو خلاء الدراسة. أوغل أدهم في مشاعره الأليمة حتى فقد أى شعور بالألم أو بسواء. ولبث قدرى يعاني المما من خفقان قلبه وارتجاف أطرافه. وامتلا أنفه برائحة ترابية نفاذة على حين سري من الجثة من يديه إلى أعماقه. وكان الظلام غليظاً بينما نضع الأفق بأنوار الأحياء الساهرة. وشعر قدرى باليأس يكتم آخر أنفاسه فتوقف قائلاً لأبيه:

- سأحمل الجثة وحدي .
ووضع ذراعاً تحت الظهر وأخرى تحت الفخذين ، وسار يتبغه أدهم .

٤٤

وعندما اقتربا من الكوخ جاءهما صوت أميمة متسائلاً في جزع :
- هل وجدهما ؟

فصاح أدهم بصوت أمر :
- اسبقيني إلى الداخل .

وبسبق قدرى إلى الكوخ ليتأكد من اختفائهما . ووقف قدرى عند مدخل الكوخ لا يريد أن يتحرك . وأشار له أبوه بالدخول فامتنع قائلاً في صوت هامس :

- لا أستطيع أن ألقاها .
فهمس الأب حانقاً :
- استطعت ما هو أفعى .

فتشبث قدرى ب موقفه وهو يقول :
- كلا ، هذا أفعى .

ودفعه أدهم أمامه بحزم فاضطر إلى التحرك حتى بلغ الحجرة الخارجية . وانقض أدهم على أميمة بسرعة فكتم براحته الصرخة التي أوشكت على الإفلات من فيها ، وقال بقوسة :

- لا تصرخي يا ولية ، لا ينبغي أن نلتفت الأسماع إلينا حتى نتدبر الأمر ، فلنقاوم المقدور ضمائرين ، ولتحمل الألم صابرين ، الشر من بطنك ومن صلبي خرج ، واللعنة حلت علينا جميعاً .

وسد فاها بقوة. وحاولت التخلص من يده عبئاً. أرادت أن تعصها فلم تتمكن. اضطربت أنفاسها وخارت قواها فسقطت مغشيا عليها. ولبث قدرى واقفا يحمل الجثة فى صمت وخزى مركزاً بصره على المصباح ليتجنب النظر إليها. واتجه أدهم نحوه، فساعدته على وضع الجثة على الفراش، ثم سجأها برفق. ونظر قدرى إلى جثة أخيه المسجاة على الفراش الذى اقتسماه طوال العمر، فشعر بأنه لم يعد له مكان فى الدار. وحركت أميمة رأسها، ثم فتحت عينيها فبادر أدهم إليها وهو يقول بحزن:

- إياك أن تصرخى.

وأرادت أن تنهض فساعدتها على النهوض وهو يحذرها من إحداث صوت. وهمت بالارتفاع على الفراش فحال الرجل دون ذلك، فوقفت مغلوبة على أمرها واندفعت نفس عن كرها بشد شعرها بقسوة فانتزعت منه خصلات بعد خصلات. ولم يبال الرجل بما تفعل، وقال بغلظة:

- افعلى ما يريحك ولكن فى صمت.

فقالت بصوت مبحوح:

- ابني! .. ابني ..

فقال أدهم فى ذهول:

- هذه جثته، لم يعد ابنته ولا ابني، وهذا هو قاتله، اقتلية إن شئت.

ولطممت أميمة خديها وقالت لقدرى بوحشية:

- إن أحط الوحوش تبراً من فعلتك!

فحنى قدرى رأسه فى صمت على حين قال أدهم بوحشية:

. هل تذهب هذه الروح هدرًا؟ لا ينبغي أن تخينا، هذه هي العدالة.

فنهفت أميمة:

- كان أمناً مملاً مشرقاً، فلنا له اذهب فأبى، ليته ذهب، لو لم يكن
كريماً بليلٍ رحيمًا للذهب، أيكون جزاء هذا القتل؟! كيف هان
عليك يا صخري القلب! لست ابنى ولست أمك!
لم ينبع قدرى لكنه قال لنفسه: «قتلته مرة وهو يقتلى مرة كل
ثانية، لست حياً، من قال إننى حي؟!». وسأل أدهم بفظاظة:
ـ ماذا أفعل بك؟
ـ فقال قدرى بهدوء:
ـ قلت إنه لا ينبغي أن أحيا.
ـ فهتفت أميمة:
ـ كيف سوت لك نفسك قتيلاً؟!
ـ فقال قدرى في يأس:
ـ لا جدوى من النوح، إنى مستعد للعقاب، والقتل أهون مما أعاني.
ـ فقال أدهم بحنق:
ـ لكنك جعلت حياتنا أيضاً أفعى من الموت.
ـ وهبت أميمة هاتفة وهي تلطم خديها:
ـ لن أحب هذه الحياة، ادفنوني مع ابنى، لماذا لا تدعنى أصوات؟
ـ فقال أدهم ببرارة وسخرية:
ـ ليس شفقة على حنجرتك، ولكنني أخشى أن يسمعنا الشيطان.
ـ فقال قدرى باستهانة:
ـ فليس مع كيف شاء، لم أعد أكتثر للحياة.
ـ وإذا بصوت إدريس يعلو قريباً من مدخل الكوخ:
ـ أخي أدهم! تعال يا مسكين!
ـ فسررت الرعدة فيهم جميعاً، غير أن أدهم صاح به:

- عد إلى كونك، واحذر أن تستفزنى.

فقال إدريس بصوت قوى:

- شر أهون من شر، مصيبةكم بختكم من غضبى، ولكن لندع هذا الحديث، كلانا مصاب، أنت فقدت العزيز الغالى، وأنا ضاعت ابنتى الوحيدة، كان الأبناء عزاءنا فى منفانا ولكنهم ذهبوا، تعال يا مسكين نتبادل العزاء.

إذن ذاع السر! كيف ذاع؟! ولأول مرة يخاف قلب أميمة على قدرى. وقال أدهم:

- لا تهمنى شماتتك، من يدق ألمى تهن عليه الشماتة!

فجاء صوت إدريس مستنكراً:

- شماتة؟! ألا تدرى أننى بكى عندما رأيتكم تسحب الجثة من الحفرة التي حفرها قدرى؟!

فصاح أدهم بغضب:

- تخسيس حقير!

- لم أبك على القتيل وحده ولكن على القاتل أيضاً! وقلت لنفسى: يا لك من مسكين يا أدهم، فقدت شابين فى ليلة واحدة! وصوت أميمة دون اكتئاث لأحد، واندفع قدرى خارج الكوخ بفترة. وجرى أدهم وراءه. وصرخت أميمة:

- لا أريد أن أفقد الاثنين!

أراد قدرى أن يشب على إدريس، ولكن أدهم دفعه بعيداً عنه ثم وقف أمام الرجل متهدياً وهو يقول:

- احذر أن تتعرض لنا!

فقال إدريس بهدوء:

أنت أحمق يا أدهم، لا تفرق بين الصديق وبين العدو، ت يريد أن
تعارض أخاك دفاعاً عن قاتل ابنك.
ـ اذهب عنى.

فقال إدريس ضاحكاً:

ـ كما تشاء، تقبل عزائى والسلام عليكم.
غاب إدريس في الظلام. وتحول أدهم نحو قدرى فوجد أميمة واقفة
تساءل عنه، فجزع الرجل وراح ينظر في الظلام ويصبح بأعلى صوته:
ـ قدرى.. قدرى.. أين أنت؟!

وجاءه صوت إدريس وهو يصبح بقوه:
ـ قدرى.. قدرى.. أين أنت؟!

٢٣

دُفن همام في مقبرة تابعة للوقف بباب النصر. سار في جنازته قوم
كثيرون من معارف أدهم، أكثرهم باعة من زملائه، وأقلهم زبائن من
أسرتهم رقة أخلاقه وحسن معاملته. وفرض إدريس نفسه على الجنازة
فأشترك في تشييعها، بل وقف يتقبل العزاء بصفته عم الفقيد. وسكت
أدهم كارها، فسار في الجنازة كثيرون من الفتوات والبلطجية والبرمجية
واللصوص وقطاع الطرق. وعند الدفن وقف إدريس فوق القبر يشجع
أدهم بكلمات العزاء والآخر صابر متضرر لا يجيب ودموعه تستنقع على
خديه. وروحت أميمة عن كربها باللطم والصوات والتمرغ في التراب.
وعندما تفرق المتشيعون، التفت أدهم إلى إدريس وقال بحق:

ـ ألا يوجد حد لفسوتك؟!

فظاهر إدريس بالدهشة وتساءل :

- عم تتحدث يا أخي المسكين؟

فقال أدهم بحدة :

- لم أتصورك على هذا القدر من القسوة على رغم سوء ظني بك ،
الموت نهاية كل حي ، فما وجه الشماتة فيه؟!

فقال إدريس وهو يضرب كفًا على كف :

- الحزن أخرجك عن أدبك ، لكنى مسامحك .

- متى تقر بأنه لم تعد تربطنا صلة؟

- لترحمنا السماء ، ألسنت أخى؟! هذه رابطة ليس فى الإمكان
فصمتها .

- إدريس ! كفاك ما فعلت بي .

- الحزن قبيح ، ولكن كلينا مصاب ، أنت فقدت همام وقدرى وأنا
فقدت هند ، أصبح للجبلاوي العظيم حفيدة عاهرة وحديد قاتل .
وعلى أى حال فأنت خير حالاً مني ، إذ لك ذرية تعرضك عما فات .

فتساءل أدهم في حسرة :

- أما زلت تخسدنى؟

فقال إدريس متعجبًا :

- إدريس يحسد أدهم؟!

فعلا صوت أدهم وهو يهدى :

- إذا لم يكن جزاوك من جنس عملك فعلى الدنيا العفاء .
. العفاء . العفاء .

ومرت أيام كثيبة مفعمة بالأشجان . وقهراً الحزن أميمة فسأله
صحنها واعتصرها الضمور . وفي أعوام قلائل بلغ أدهم من الهرم ما

لا يُبلغ في عمر مديد . وبات الزوجان يعانيان الهمز والمرض . ويوماً اشتدت عليهما وطأة المرض فرکنا إلى الرقاد ، أميمة مع طفلتها في الغرفة الداخلية ، وأدهم في الغرفة الخارجية ، غرفة قدرى وهمام . ومضى النهار وجاء الليل فلم يشعل مصباحاً ، وقمع أدهم بضوء القمر المنبعث من الفناء . وراح يغفو قليلاً ويستيقظ قليلاً في حال بين الوعي والذهول . وجاءه صوت إدريس من خارج الكوخ وهو يسأله متهمكاً :

الست في حاجة إلى خدمة؟

فإنقبض صدره ولم يعجبه . وكان يكره الساعة التي يغادر فيها الآخر كونه ليذهب إلى سهرته الليلية . وجاءه الصوت مرة أخرى وهو يقول : اشهدوا يا ناس على بري وعقوقة .

وذهب وهو يعني :

كنا ثلاثة طلعننا الجبل نصطاد

واحد قتل الهوى والثاني خدوه الأحباب

امتلأت علينا أدهم بالدموع . هذا الشر الذي لا يصد عن الله . يقاتل ويقتل ويحظى بكل احترام . يقسّو ويستبد هازئاً بالعواقب وله ضحكة تجلجل فتملاً الأفاق . له لذة في العبث بالضعفاء ويسمر في المآتم ويغنى فوق شواهد القبور . الموت يدنو مني وهو ما زال يضحك ساخراً . القتيل في التراب والقاتل ضائع وفي كونه بكاء على الاثنين . ضحكة الطفولة في الحديقة استحالـت مع الأيام عبوسة غارقة في الدمع . وفي الداخل بقية جسدي يتوجع . لماذا هذا العناء كلـه؟ وأين صفو الأحلام؟ أين؟

وخيـل إلى أدهم أنه يسمع وقع أقدام . أقدام بطيئة وثقيلة استـارت ذكريـات غامضة كرائحة زكـية مؤثـرة تستـعصـى على الإـدراك والتـحـديد . حول وجهـه نحو مدخلـ الكـوخ فرأـيـ الـباب يـفتحـ، ثم رأـه يـتـلىـ بشـيءـ

جسم هائل . حملق في دهش ، وأحد بصره في أمل يكتنفه يأس ،
وندّت عنه آهة عميقـة ، وغمـمـ متسائلاً :

- أبي؟!

وخيـلـ إـلـيـهـ أـنـهـ يـسـمـعـ الصـوـتـ الـقـدـيمـ وـهـوـ يـقـولـ :

- مـسـاءـ الـخـيـرـ يـاـ أـدـهـمـ .

فـاغـرـ وـرـقـتـ عـيـنـاهـ ، وـهـمـ بـالـقـيـامـ فـلـمـ يـسـطـعـ وـوـجـدـ غـبـطـةـ وـبـهـجـةـ لـمـ
يـجـدـهـمـ مـنـذـ أـكـثـرـ مـنـ عـشـرـينـ عـامـاـ . وـقـالـ بـصـوـتـ مـتـهـجـ :

- دـعـنـىـ أـصـدـقـ .

فـقـالـ :

- أـنـتـ تـبـكـيـ وـأـنـتـ الـذـىـ أـخـطـأـ .

فـقـالـ أـدـهـمـ بـصـوـتـ يـشـرـقـ بـالـدـمـعـ :

- اـخـطـأـ كـثـيرـ وـالـعـقـابـ كـثـيرـ وـلـكـنـ حـتـىـ الـحـسـرـاتـ الـمـؤـذـيـةـ لـاـ تـيـأسـ مـنـ
الـعـثـورـ عـلـىـ ظـلـ .

- هـكـذـاـ تـعـلـمـنـىـ الـحـكـمـةـ .

- عـفـواـ عـفـواـ ، الحـزـنـ أـرـهـقـنـىـ ، وـالـمـرـضـ رـكـبـنـىـ ، حـتـىـ أـغـنـامـ مـهـدـدـةـ
بـالـهـلـاكـ .

- جـمـيلـ أـنـ تـخـافـ عـلـىـ أـغـنـامـكـ .

تسـاءـلـ أـدـهـمـ فـيـ رـجـاءـ :

- هلـ عـفـوتـ عـنـىـ ؟

أـجـابـ بـعـدـ صـمـتـ :

- نـعـمـ .

فـهـتـفـ أـدـهـمـ بـجـسـمـ مـرـتـعـشـ :

الـشـكـرـ لـلـهـ ، مـنـذـ قـلـيلـ كـنـتـ أـقـرـعـ قـاعـ هـاوـيـةـ الـيـأسـ بـيـديـ .

- فعثرت على فيها!

- نعم كالصحو بعد الكابوس.

- لذلك فأنت ولد طيب.

فتاؤه أدهم قائلًا:

- أنجبت قاتلاً وقيلةً

- الميت لا يعود، فماذا تطلب؟

فتنهد أدهم قائلًا:

- كنت أهفو للغناء في الحديقة، ولكن لن يطيب لي اليوم شيء.

فقال:

- سيكون الوقف لذرتك.

- الشكر لله.

فقال:

- لا تجهد نفسك واركن إلى النوم.

* * *

وفي تواريخ متقاربة ودع الحياة أدهم فاميمة ثم إدريس. وكثير الأطفال. وعاد قدرى بعد غيبة طويلة ومعه هند ومعهما أطفال. نشروا جنباً إلى جنب وخالفوا غيرهم فازدادوا بهم عدداً. وانتشر العمran بفضل أموال الوقف فارتسمت في صفحة الوجود حارتنا. ومن هؤلاء وأولئك جاء أبناء حارتنا.

جبل

٢٤

أقيمت بيوت الوقف في خطين متقابلين يصنعن حارتنا. وبدأ المخطان من خط يقع أمام البيت الكبير، ويتدان طولاً في اتجاه الجمالية. أما البيت الكبير فقد ترك خاليًا من جميع الجهات على رأس الحارة من ناحية الصحراء. وحارتنا، حارة الجبلاوى، أطول حارة في المنطقة. أكثر بيوتها ربوع كما في حى آل حمدان، وتكثر الأكواخ من متصرفها حتى الجمالية. ولن تتم الصورة إلا بذكر بيت ناظر الوقف على رأس الصف الأيمن من المساكن، وبيت الفتورة على رأس الصف الأيسر قبالته.

كان البيت الكبير قد أغلق أبوابه على صاحبه وخدمه المقربين. ومات أبناء الجبلاوى مبكرين فلم يبق من سلالة الذين أقاموا وماتوا في البيت الكبير إلا الأفندي ناظر الوقف في ذلك الوقت. أما أهل الحارة عامة فمنهم البائع الجوال، ومنهم صاحب الدكان أو القهوة، وكثيرون يتسلون، وثمة تجارة مشتركة يعمل فيها كل قادر هي تجارة المخدرات وبخاصة الحشيش والأفيون والمنافع. وكان طابع حارتنا. كحالها اليوم. الزحام والضجيج. الأطفال الخفاة أشباه العرايا يلعبون في كل ركن، ويمثلون الجو بصرائهم والأرض بقاذوراتهم. وتكتظ مداخل البيوت بالنساء، هذه تخرط الملوخية، وتلك تقشر البصل، وثالثة توقد النار، يتداولن الأحاديث والتكات، وعند الضرورة الشتائم والسباب. والغناء

والبكاء لا ينقطعان، ودقة الزمار تستأثر باهتمام خاص. وعربات اليد في نشاط متواصل. ومعارك باللسان أو بالأيدي تتشب هنا وهناك وقطط غوء وكلاب تهر وربما تشارج النوعان حول أكواخ الزرالية. والفتران تنطلق في الأفنيه وعلى الجدران، وليس بالنادر أن يتجمع قوم لقتل ثعبان أو عقرب. أما الذباب فلا يضاهيه في الكثرة إلا القمل، فهو يشارك الأكلين في الأطباق والشاربين في الأكواز، يلهو في الأعين ويعتني في الأفواه كأنه صديق الجميع.

وما إن يجد شاب في نفسه جرأة أو في عضلاته قوة حتى يندفع إلى التحرش بالأمنين، والاعتداء على المسلمين فيفرض نفسه فتوة على حى من أحياه الحارة، يأخذ الإتاوات من العاملين، ويعيش ولا عمل له إلا الفتونة. هكذا وجد فتوات الأحياء مثل: قدرة والليثي وأبو سريح وبركات وحمودة. وكان زقطان أحد هؤلاء الفتوات، فخاض معارك كثيرة مع فتوة بعد فتوة حتى هزم الجميع وصار فتوة الحارة كلها. وفرض الإتاوات على الفتوات جميعاً. ورأى الأفندي ناظر الوقف أنه بحاجة إلى مثل هذا الرجل لينفذ أوامره أو يدفع عنه ما قد يتهدده من شر فقره ورتب له راتباً عظيماً من ريع الوقف، فأقام زقطان في بيته المقابل لبيت الناظر واستحكם سلطانه. وعند ذلك ندر وقوع المعارك بين الفتوات، إذ إن الفتوة الأكبر لا يرتاح إلى هذا النوع من المعارك الذي قد يتنهى بتكثير فتوة وبالتالي بتهذيد مركزه هو، لذلك لم يجد الفتوات متنفساً للقوة شرهم الحبيسة إلا في الأهالي المساكين المسلمين. كيف انتهى الأمر بحارتنا إلى هذه الحال؟

لقد وعد الجبلاوى أدهم بأن يكون الوقف لخير ذريته. وشيدت الربوع وزاعت الخيرات وحظى الناس بفترة من العمر السعيد. ولما أغلى الأب بابه واعتزل الدنيا احتدى الناظر مثاله الطيب حيناً، ثم لعب

الطعم بقلبه فنزع إلى الاستئثار بالريع . بدأ بالغالطة في الحساب والتغتير في الأرزاق ثم قبض يده قبضاً مطمئناً إلى حماية فتوة الحرارة الذي اشتراه . ولم يجد الناس بدأً من ممارسة أحرق الأعمال . وتکائف عددهم فزاد فقرهم وغرقوا في البؤس والقذارة . وعمد الأقوباء إلى الإرهاب والضعفاء إلى التسلل ، والجميع إلى المخدرات . كان الواحد يكدر ويکدح نظير لفمات شاركه فيها فتوة ، لا بالشکر ، ولكن بالصفع والسب واللعنة .

الفتوة وحده يعيش في بحبوحة ورفاهية ، وفوق هذا الفتوة الأكبر ، والناظر فوق الجميع ، أما الأهالي فتحت الأقدام . وإذا عجز مسكن عن أداء الإناثة انتقم منه فتوة حيه شر الانتقام ، وإذا شكا أمره إلى الفتوة الأكبر ضربه الفتوة الأكبر وأسلمه إلى فتوة حيه ليعبد تأدبه ، فإذا سولت له نفسه أن يشكو إلى الناظر ضربه الناظر والفتوة الأكبر وفتوات الأحياء جميعاً . وهذه الحال الكثيبة شهدتها بنفسى في أيامنا الأخيرة ، صورة صادقة لما يروى الرواة عن الأزمان الماضية .

أما شعراء المقاهى المنتشرة في حارتنا فلا يرون إلا عهود البطولات متجنين الجهر بما يحرج مراكز السادة ، ويستغون بجزايا الناظر والفتوات ، بعدد لا يحظى به ورحمة لا ينجدها وشهامة لا تلقاها وزهد لا نراه ونزاهة لا نسمع عنها .

وإنى لأتساءل : عما أبقى آباءنا . أو عما ييقينا نحن . بهذه الحرارة اللعينة؟ الجواب يسير . لن نلقى في الحواري الآخريات إلا حياة أسوأ من الحياة التي نكابدها هنا ، هذا إذا لم يهلكنا فتواتها انتقاماً مما لا لاقوا على أيدي فتواتنا . والأدهى الأمر أننا محسودون ! يقول أهالي الحواري حولنا : يا لها من حرارة سعيدة ! تحظى بوقف لا مشيل له ، وفتوات تقشعر عند ذكرهم الأبدان . ونحن لا نزال من الوقف إلا الخسرات ، ومن قوة فتواتنا إلا الإهانات والأذى . على ذلك كله فتحن باقون ،

وعلى الهم صابرون. نتطلع إلى مستقبل لأندرى متى يجيء، ونشرير
إلى البيت الكبير ونقول هنا أبونا العتيد، ونومئ إلى الفتوات ونقول
هؤلاء رجالنا، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

٢٥

ونفذ صبر آل حمدان فاصطحبت في حيهم أمواج التمرد.
كان آل حمدان يقيمون في قمة الحرارة فيما يلي بيته الأفندى وزقطل ،
حول البقعة التي بني أدهم فيها كوخه . وكان رئيسهم حمدان صاحب
قهوة، قهوة حمدان، أجمل قهوة في الحرارة كلها وتتوسط حي حمدان
بين الربوع . جلس المعلم حمدان في الجهة اليمنى من مدخل القهوة ، في
عباءة رمادية ، وعلى الرأس لاسة مزركشة ، يتبع عبدون صبي القهوة
في نشاطه المتواصل ، ويتبادل مع بعض الزبائن الأحاديث . وكانت
القهوة ضيقة العرض ولكنها تتد طولا حتى أريكة الشاعر في الصدر
تحت صورة خيالية ملونة لأدهم في رقاده الأخير وهو يتطلع إلى
الجبلاوي الواقع بباب الكوخ .

أشار حمدان إلى الشاعر فتناول الربابة واستعد للإنجاد . وبين أنغام
الأوتار بدأ بتحية الناظر حبيب الجبلاوي ، وزقطل زين الرجال ، ثم روى
فترقة من حياة الجبلاوي قبيل مولد أدهم . وندت عن احتساء القهوة
والقرفة والشاي أصوات ، وانعقد الدخان المتصاعد من الجوز حول
الفانوس سحيقا شفافة . وتركت الأعين في الشاعر ، واهتزت الرءوس
بجمال ذكرى أو حُسن موعظة . ومضى وقت الخيال في شغف وانسجام
حتى وفاه اختتام ، وترامت على الشاعر تحيات الاستحسان . عند ذاك
تحركت في الأعماق موجة التمرد التي اجتاحت آل حمدان ، فقال

عريس الأعمش من مجلسه وسط القهوة، معلقاً على ما سمع من قصة
الجبلاوي :

- كان في الدنيا خير، حتى أدهم لم يجمع يوماً واحداً.

وإذا بتمر حنة العجوز تقف أمام الدكان وتنزل قفص البرتقال من فوق رأسها، ثم تقول موجهة الخطاب إلى عريس الأعمش :

- يسلم فمك يا عريس، كلامك كالبرتقال السكري!

فنهرا المعلم حمدان قائلاً :

- اذهب بي يا ولية وأريحيينا من كلامك الفارغ.

لكن تمر حنة جلست على الأرض لصق مدخل القهوة وهي تقول :

- ما أحلى القعدة جنبك يا معلم حمدان (ثم وهي تشير إلى قفص البرتقال) يوم ونصف ليلة في المشي والنداء نظير ملاليم يا معلم ..

وهم المعلم بالردد عليها ولكنه رأى ضلعة مقبلاً مقطباً وقد تلوث جبينه بالتراب فنظر إليه حتى وقف أمامه في مدخل القهوة وهتف بصوت مرتفع :

- ربنا على المفترى! قدرة... قدرة يا هوه أكبر مفترى، قلت له:
أمهلنلى إلى الغد حتى يفتح الله على فرمانى على الأرض ويرك فوق صدرى حتى كتم أنفاسى.

فجاء صوت عم دعيس من أقصى القهوة وهو يقول :

- تعال يا ضلعة اقعد جنبي، تعال الله يلعن أولاد الحرام. نحن أسياد هذه الحارة ولكننا نُضرب فيها كالكلاب، ضلعة لا يجد إناواة لقدرة، تمر حنة تسرح بالبرتقال وهي لا ترى أبعد من ذراع أمامها، وأنت يا حمدان أين شجاعتك يا ابن أدهم؟!

فاتجه ضلعة إلى الداخل، وتساءلت تمر حنة :

- أين شجاعتك يا ابن أدهم؟!

فهتف بها حمدان:

- غوري يا تمر حنة، أنت فتُّ سن الزواج من خمسين سنة فلم تخيبن
مجالس الرجال؟!

فتساءلت المرأة:

- أين هم الرجال؟!

فقطب حمدان ولكن تمر حنة بادرته كالمعتذرة:

- دعني أسمع الشاعر يا معلم.

فقال دعبس للشاعر بحرارة:

- حدثها عن هوان آل حمدان في هذه الحرارة.

فابتسم الشاعر قائلاً:

- حلمك يا عالم دعبس، حلمك يا سيد الناس.

فقال دعبس محتدماً:

- من سيد الناس؟ إن سيد الناس يضرب الناس ويظلم الناس ويفتال
الناس، أنت تعرف من هو سيد الناس!

فقال الشاعر بقلق:

- قد نجد بيننا فجأة قدرة أو غيره من الشياطين!

فقال دعبس بحدة:

- كلهم ذريعة إدريس!

فقال الشاعر بصوت خافت:

- حلمك يا عالم دعبس قبل أن تهدم القهوة فوق رءوسنا.

فنهض دعبس من مجلسه وقطع القهوة في خطوات واسعة ثم جلس
إلى مبين حمدان على أريكة وهم بالكلام، ولكن ضجة علمان علت
بغترة حتى غطت على صوته، وانتشرتا أمام القهوة كاجراد وهم يتبادلون
السباب، فصرخ فيهم دعبس:

- يا أولاد الشياطين أليس لكم جحور تؤويكم في الليل؟

لکنهم لم يبالوا بصرًا خه فوثب كالملدوع وانقض عليهم، فجرروا في الحرارة وهم يصيحون «هيه». وترامى أكثر من صوت نسائي من نوافذ الربع المواجه للقهوة: «وحد الله يا عم دعبس»، «خوفت الأولاد بارجل». فلوح بيده ساخطاً وعاد إلى مجلسه وهو يقول:
ـ الواحد حيران، لا عند الأولاد راحة ولا عند الفتوات راحة ولا عند الناظر راحة.

آمن كل على قوله. آل حمدان ضاع حقهم في الوقف، آل حمدان تراغوا في تراب القذارة والبؤس. آل حمدان تسلط عليهم فتوة ليس منهم بل من أحاط الأحياء. قذرة يسير بينهم مختالاً يصفع من يشاء ويأخذ الإناثة من يشاء. لذلك نفذ صبر آل حمدان وأصطحبت في حيهم أمواج التمرد.

والنفت دعبس إلى حمدان وقال:

ـ يا حمدان، الجميع على رأى واحد، نحن آل حمدان، عدنا كبير،
أصلنا معروف، وحقنا في الوقف كحق الناظر نفسه.

فغمغم الشاعر:

ـ اللهم فوت الليلة على خير.

حمدان حبك العباءة حوله ورفع حاجبيه المثلثين الغزيرين وقال:

ـ قلنا في هذا وعدنا، سيحدث أمر، إنني أشم الأحداث شما.

وارتفع صوت على فوانيس بالتحية وهو يدخل القهوة مشمرا الجلباب وطاقته الترابية مائلة حتى حاجبيه، وما لبث أن قال:

ـ الكل مستعدون، ولو احتاج الأمر إلى نقود سيعطون، حتى الشحاذون.

وانحشر بين دعبس وحمدان وهو يهتف بعدون صبي القهوة:

شای من غير سکر.

فانتبه إلیه الشاعر قائلًا:

إرحم!

فابتسم على فوانيس ودس يده في صدره فأخرج كيساً ثم فتحه واستخرج منه لفافة صغيرة رمى بها إلى الشاعر. وربت فخذ حمدان متسائلاً فقال هذا:

أمامنا المحكمة.

فقالت تمر حنة:

خير ما نفعل.

فقال الشاعر وهو يخرج الشيء من اللفافة:

فكروا في العواقب.

فقال على فوانيس بحده:

- لا هوان أحط ما نحن فيه، ولنا عدد وفيه يجب حسابه، والأفندى لا يمكن أن يتتجاهل أصلنا وقربتنا إليه وإلى صاحب الوقف.

فقال الشاعر وهو ينظر إلى حمدان نظرة ذات معنى:

لم تضق بنا الخلول.

فقال حمدان كأنما يجيئه:

عندى فكرة جريئة!

تطلعت إليه الأ بصار فقال:

أن نلجم إلى الناظر!

فقال عبدون وهو يقدم الشاي إلى فوانيس:

- خطوة عزيزة وبعدها تحفر قبور.

فضحكت تمر حنة قائلة:

- اسمعوا فالكم من عيالكم.
- لكن حمدان قال بتصميم:
- ينبغي أن يذهب، ولنذهب جماعة.

٢٦

تجمهر أمام بيت الناظر جمع كثير من آل حمدان نساء ورجالاً، على رأسهم حمدان ودعيس وعتريس الأعمش وضلمة وعلى فوانيس ورضوان الشاعر. كان من رأى رضوان أن يذهب حمدان وحده نفياً لشبهة العصيان واتقاء لعواقبه، ولكن حمدان قال له بصرامة: «إن قتلى شيء يسير ولكن قتل آل حمدان لا يقدرون عليه». واسترعى التجمهر أنظار أهل الحرارة وبخاصة الجيران الأقربون، فبرزت رءوس النساء من التوافد، وتطلعت أعين من تحت السلال والمقاطف ومن فوق عربات اليد، وأقبل كثيرون كباراً وصغاراً وتساءلوا: ماذا يريد آل حمدان؟ وقبض حمدان على المطرقة التحاسية وطرق الباب، ففتح بعد قليل عن الباب بوجهه الكثيب ونسائم محملة بشذى الفل والياسمين. نظر الباب إلى المتجمهرين بازداج وتساءل:

ـ ماذا تريدون؟

فقال حمدان بقوة استمدتها من خلفه:

ـ نريد مقابلة حضرة الناظر.

ـ كلكم؟

ـ ليس فينا من هو أحق بالمقابلة من الآخرين.

ـ انتظروا حتى أستاذن لكم.

وهم برد الباب لكن دعيس مرق إلى الداخل وهو يقول:
ـ الانتظار في الداخل أكرم.

واندفع وراءه الآخرون كالسرب وراء الحمامات، ودفع حمدان بينهم
على رغم سخطه على اندفاع دعيس فانتقلت المظاهرة إلى المشي
المفروش بين السلاملك والحدائق. وصاح الباب:
ـ يجب أن تخرجا.

فقال حمدان:

ـ الضيف لا يطرد، اذهب وخبر سيدك.

وتحركت شفتا الرجل باحتجاج غير مسموع، وشتت به قسماته
المكفهرة ثم تحول مهولاً نحو السلاملك. وتبعته الأعين حتى اختفى
وراء الستار المسلط على باب البهو، وظللت أعين عالقة بالستار،
وجالت أعين في أنحاء الحديقة، حول الفسقية المحاطة بالتخيل،
وأعراض العنبر لصن الجدران، وفروع الياسمين المتسلقة الأسوار،
جالت بنظرات حائرة وحواس مغلقة بالهم وما لبثت أن ردت إلى
الستار المسلط على باب البهو.

وانزاح الستار فخرج الأفندي بنفسه متوجه الوجه، وتقدم في
خطوات حادة غاضبة حتى وقف عند رأس السلم. لم يجد من شخصه
المتلاع بالعباءة إلا وجهه الغاضب وشبيه الوبرى ومسبحة طويلة في
عيناه. ألقى نظرة ازدراء على المظاهرة ثم استقرت عيناه على حمدان
فقال هذا بأدب جم:

ـ صبحك الله بالسعادة يا حضرة الناظر.

فاكتفى برد التحية بحركة من يده، وتساءل:

ـ من هؤلاء؟

ـ آل حمدان يا حضرة الناظر.

- من أذن لهم بالدخول في بيتي؟
فقال حمدان بدهاء:
- إنه بيت ناظرهم، فهو بيتهم، وهم في حماه.
فلم يلن وجه الأفندي وقال:
- تحوال الاعتذار عن سوء سلوككم؟!
وضاق دعبس بتأدب حمدان فقال:
- نحن أسرة واحدة، جمعينا أبناء أدهم وأميمة.
فقال الأفندي بامتعاض:
- ذاك تاريخ مضى، ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه.
فقال حمدان:
- نحن في كرب من الفقر وسوء المعاملة، فاجتمع الرأي بيننا على اللجوء إليك لتفرج كربنا.
وهنا قالت ثمرة حنة:
- وحياتك عيشتنا تعرف الصراصير.
فقال دعبس بصوت ارتفع درجات:
- أكثرنا متسللون، أطفالنا جياع، وجواننا متورمة من صفع الفتوت، أيليق ذلك بأبناء الجبلاوي ومستحقى وقفه؟!
فتقبضت يد الأفندي على المسبحة وهتف:
- أى وقف يا هذا؟!
- حاول حمدان أن يمنع دعبس من الكلام ولكنه اندفع قائلًا كمن لطشت الخمر رأسه:
- الوقف الكبير، لا تغضب يا حضرة الناظر، الوقف الكبير الذي يملأ حارتانا من أولها إلى آخرها، ويتبعد كل حکر في الخلاء المحيط، وقف الجبلاوي يا حضرة الناظر.

فاندلعت السنة الغضب من عيني الأفندى وصالح :
هذا وقف أبي وجدى مالكم به صلة . إنكم تتناقلون الحكايات
الخرافية وتصدقونها ، وما لديكم دليل أو حجة .
فقال أكثر من صوت وضيع بينها صوتا دعيس وغز حنة :
ـ الجميع يعرفون ذلك .

ـ الجميع؟ ما قيمة ذلك؟ لو تناقلتم فيما بينكم أن بيته هو بيت فلان
أو علان منكم ، فهل يكفى هذا لاغتصاب بيته يا هؤلاء؟ حارة
حشاشين حقيقة! خبرونى متى أخذ أحدكم مليماً من ربع الوقف؟
فساد الصمت ملباً ثم قال حمدان :
ـ كان آباءُنا يأخذون .

ـ أولديكم دليل؟

ـ فعاد حمدان يقول :

ـ قالوا لنا ونحن نصدقهم .

ـ ههه الأنفندى :

ـ كذب في كذب ، وتفضلو اغير مطرودين .

ـ فقال دعيس بتصميم :

ـ أطلعنا على الشروط العشرة .

ـ فصالح الأنفندى :

ـ لماذا أطلعكم عليها؟ من أنتم؟ ما علاقتكم بها؟

ـ نحن المستحقون .

ـ عند ذاك تعالى صوت هدى هام حرم الناظر من وراء الباب وهي
ـ تقول :

ـ دعهم وادخل ، لا تبع صوتك بمناقشتهم .

فقالت تمر حنة :

- كوني محضر خير يا سرت هانم.

فقالت هدى هانم بصوت متهدج من الغضب :

- قطع الطرق لا يكون بالنهار والشمس طالعة!

فقالت تمر حنة بامتعاض :

- الله يسامحك يا سرت هانم، الحق على جدنا الذى أغلق على نفسه الأبواب.

فرفع دعبس رأسه وصاح بصوت كالرعد :

- يا جبلاؤى ! تعال شف حالنا ، تركتنا تحت رحمة من لا رحمة لهم.

دوى الصوت قويا حتى خيل إلى البعض أنه سيبلغ الجند في بيته.

ولكن الأفندي صاح مرتعش النبرات من الحق :

- اخرجوا ، اخرجوا دون تردد.

وقال حمدان بضيق :

- هيا بنا .

ونتحول عن موقفه ومضى نحو الباب . وأخذوا يتبعونه صامتين .

حتى دعبس تبعه . لكنه رفع رأسه مرة أخرى وصاح بالقوة نفسها :

- يا جبلاؤى !

دخل الأفندي البهوج مصفر الوجه من الغضب فوجد زوجه واقفة
مقطبة ، فقالت :

- حركة غريبة لها ما بعدها، ستكون حديث الحارة كلها، وإذا تهاونا
في الأمر فقل علينا السلام.
فقال الأفندي بتقزز:

- رعاع أبناء رعاع ويطمعون في الوقف، من ذا الذي يستطيع أن
يعرف أصله في حارة مثل خلية النحل؟
احسّم الأمر، ادع زقطط ودبر أمرك، زقطط يقاسمنا الربيع دون أن
يفعل شيئاً فدعه يحلل ما ينهب من أموالنا.
فحذجها الأفندي بنظرة طويلة، ثم تسأله:
- وجبل؟!

فقالت بطمأنينة وثقة:
- جبل؟! إنه ربينا، بل هو ابنى، لم يعرف من الدنيا إلا بيتنا، أما آل
حمدان فلا يعرفهم ولا يعرفونه، ولو كانوا يعدونه منهم لتشفعوا به
إلينا، اطمئن من ناحيته، وسوف يعود من جولته بين المستأجرين
فيحضر الاجتماع.

وجاء زقطط تلبية لدعوة الناظر. كان متوسط القامة، بدینا، متین
البيان، وبسماته سماحة وغلظة، ويرقبته وذقته ندوب. جلسوا
متقاربين وزقطط يقول:
- سمعت أخباراً لا تسر.

فقالت هدى بغثظ:
- ما أسرع ما تخبرى أخبار السوء!
وقال الأفندي وهو يلحظ زقطط بمكر:
- إنها تمس هييتنا كما تمس هييتك:
فقال زقطط بصوت كالخوار:

- مضى زمن غير قصير دون أن نحرك نبؤة أو نسفك دمًا.
فابتسمت هدى قائلة:

- يا لهم من مغرورين آل حمدان! لم يظهر منهم فتوة واحد، ومع ذلك فأحرقهم يزعم أنه سيد الحرارة.
فقال زقلط باشمئزاز:

- باغة ومتسلون، ولن يظهر فتوة من قوم خرعين!
فتساءل الأفندي:
- والعمل يا زقلط؟
- سأدوهم بقدمي كالصراصير.

سمع جبل قول زقلط وهو يدخل البهلو. بدا مورد الوجه بعد جولته في الخلاء، وجرت حيوية الشباب في جسمه الفارع القوى، ووجهه ذي الملامع الصريحة وبخاصة أنه المستقيم وعيشه الكبير تنان الذكرياتان. حبا الموجودين بأدب وبدأ يتكلم عن الأحكار التي تم تأجيرها اليوم، ولكن هدى هام قاطعته قائلة:

- اجلس يا جبل، نحن في انتظارك لأمر عظيم.
فجلس جبل وعيشه تعكسان نظرة تخرج لم تغرب عن عيني الهاشم
فقالت:

- أرى أنك تخدس ما نحن مهتمون له.
فقال بصوت هادئ:

- الجميع يتحدثون في الخارج.

فنظرت الهاشم صوب زوجها هاتفة:

- أسمعت؟.. الجميع يتوقعون منا الجواب.
فقال زقلط وقسماته تزداد سماجة:

ـ شعلة تطفنها حفنة تراب ، بودى أن أبدأ العمل !

فالتفت هدى إلى جبل متسائلة :

ـ أليدك ما تقوله يا جبل ؟

ـ فقال وهو يدارى ضيقه بالنظر في الأرض :

ـ الأمر منكم وإليكم يا سيدنى .

ـ يهمنى أن أعرف رأيك !

ـ تفكر ملياً وهو يشعر بنظرات الأفندي الحادة ، ونظرات زقط

ـ المتعضة ثم قال :

ـ سيدنى ، إنى ربيب نعمتك ، ولكنى لا أدري ماذا أقول ، فلست إلا

ـ أحد أبناء حمدان !

ـ قالت هدى بحدة :

ـ لماذا تذكر حمدان ولا أب ولا أم ولا أقارب لك فيهم ؟

ـ وند عن الأفندي صوت ساخر مقتضب يشبه الضحك لكنه لم

ـ يتكلم . وبذا في وجه جبل أنه يعاني ألمًا صادقاً ، لكنه أجاب :

ـ كان أبي وأمي منهم ، لا يمكن إنكار ذلك .

ـ وقالت هدى :

ـ ما أخيب أملى في ابني !

ـ معاذ الله ، إن المقطم لا يستطيع أن يزحزحني عن الوفاء لك ، لكن

ـ إنكار الحقائق لا يغيرها .

ـ وقام الأفندي نافذ الصبر وقال يخاطب زقط :

ـ لا تضيئ وقتك في سماع هذه المعاتبات .

ـ فقام زقط باسماً ، وإذا بالهانم تقول له وهي ترمي جبل بلحظ خفى :

ـ لا تجاوز المعقول يا معلم زقط ، نريد تأدبيهم لا إياذتهم .

غادر زقط البهـوـ . وألقى الأفندـى على جـلـ نـظـرـةـ لـومـ وـهـوـ يـتسـأـلـ سـاخـرـاـ :

- إذن أنت من آل حـمـدانـ يا جـلـ ؟ !

ولـاذـ جـلـ بـالـصـمـتـ حـتـىـ رـحـمـتـهـ هـدـىـ فـقـالتـ :

- قـلـبـهـ مـعـنـاـ وـلـكـنـ شـقـ عـلـيـهـ أـنـ يـتـنـكـرـ لـأـصـلـهـ أـمـامـ زـقطـ .

فـقـالـ جـلـ بـحـزـنـ وـاضـعـ :

- إـنـهـ بـؤـسـاءـ يـاـ سـيـدـنـىـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـهـ أـكـرـمـ أـهـلـ الـحـارـةـ أـصـلـاـ .

فـصـاحـ الأـفـنـدـىـ :

- حـارـةـ لـاـ أـصـلـ لـهـاـ .

فـقـالـ جـلـ جـادـاـ :

- إـنـاـ أـبـنـاءـ أـدـهـمـ ، وـمـاـ زـالـ جـدـنـاـ حـيـاـ أـطـالـ اللـهـ بـقـاءـهـ .

فـتـسـائـلـ الأـفـنـدـىـ :

- مـنـ ذـاـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـثـبـتـ بـنـوـتـهـ لـأـيـهـ ؟ .. إـنـهـ كـلـامـ لـاـ بـأـسـ أـنـ يـقـالـ أـحـيـانـاـ ، وـلـكـنـهـ لـاـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـتـخـذـ وـسـيـلـةـ لـنـهـبـ أـمـوـالـ الغـيرـ .

وـقـالـتـ هـدـىـ :

- نـحـنـ لـاـ نـرـيدـ بـهـمـ شـرـاـ عـلـىـ شـرـطـ أـلـآـ يـطـمـعـاـ فـيـ أـمـوـالـنـاـ .

وـأـرـادـ الأـفـنـدـىـ أـنـ يـنـهـيـ الـحـدـيـثـ فـقـالـ جـلـ :

- اـذـهـبـ إـلـىـ عـمـلـكـ وـلـاـ تـفـكـرـ فـيـ سـوـاهـ .

غـادـرـ جـلـ البـهـوـ فـذـهـبـ إـلـىـ إـدـارـةـ الـوقـفـ فـيـ مـنـظـرـةـ الـحـدـيـثـ . كـانـ عـلـيـهـ أـنـ يـسـجـلـ فـيـ الدـفـاتـرـ عـدـدـاـ مـنـ عـقـودـ الإـيجـارـ وـأـنـ يـرـاجـعـ الـحـسـابـ الـخـتـامـيـ لـلـشـهـرـ وـلـكـنـ الحـزـنـ شـتـّـ عـقـلـهـ . وـمـنـ عـجـبـ أـنـ آلـ حـمـدانـ لـاـ يـحـبـونـهـ ، وـهـوـ يـعـلـمـ ذـلـكـ وـيـذـكـرـ كـيفـ كـانـ يـقـابـلـ بـالـبـرـودـ فـيـ قـهـوةـ حـمـدانـ فـيـ المـرـاتـ الـقلـائلـ التـيـ غـشـيـهاـ . مـعـ ذـلـكـ أـحـزـنـهـ مـاـ يـدـبـرـ لـهـمـ مـنـ شـرـ .

أحزنه أكثر مما أُسْخطه سلوكيهم الجريء. وود أن يدفع عنهم الشر لولا إشراقه من إغضاب البيت الذي آواه ورباه وتبناه. ماذا كان يكون لو لم يدركه عطف هدى هامن؟

منذ عشرين عاماً رأت الهاشم طفلاً عارياً يستحم في حفرة مملوءة ببياه الأمطار. مضت تتسلل بمشاهدته فمال قلبها الذي حرمه العقم من نعم الأمومة إليه. أرسلت من حمله إليها وهو يبكي خائفاً. وتحرت عنه فعلمت أنه طفل يتيم ترعاه بياعة الدجاج. استدعت الهاشم بياعة الدجاج وطلبت إليها أن تنزل لها عن الطفل فرحت بذلك كل الترحيب. هكذا نشأ جبل في بيت الناظر وفي رعاية حضرته ينعم بأسعد أمومة في الحرارة جميماً. وأدخل الكتاب فتعلم القراءة والكتابة، ولما بلغ رشهه ولاه الأفندي إدارة الوقف.

في كل بقعة فيها للوقف أملاك يدعونه «حضره الوكيل» وتتابعه نظرات الإكبار والإعجاب أينما حلّ. وكانت الحياة تبدو ودودة واعدة بكل جميل حتى كان تمرد آل حمدان. وجد جبل أنه ليس شخصاً واحداً كما توهם طوال عمره ولكنه شخصان. أحدهما يؤمن بالوفاء لأمه، وثانيهما يتساءل في حيرة: «وآل حمدان؟!»

٢٨

انبعت الرباب تحكي مصرع همام على يد قدرى. اتجهت الأعين نحو رضوان الشاعر فى انتباه يشوبه القلق. ليست الليلة كبقية الليالي، ليلة ختمت نهاراً ثائراً، وظل كثيرون من آل حمدان يتساءلون: هل تمر

سلام؟ وشمل الحرارة ظلام، حتى النجوم توارت وراء سحب الخريف
فلم يجد من ضوء إلا ما نضحت به النوافذ المغلقة أو ما أرسلته مصابيح
عربات اليد المتباعدة في أحياط الحرارة. وضاحت الأركان بغوغاء الغلمان
المتجمعين كالفراشات حول مصابيح العربات، على حين افترشت تمزق
حنة خيشة أمام أحد ريوغ آل حمدان وراح تحديدهن:

على باب حارتنا حسن القهوجي

وارتفع مواء قطط في نوبات متقطعة واشياً بمنافسات جنسية أو
منازعات تموينية. واحتد صوت الشاعر وهو يروي قائلاً: وصرخ أدهم
في وجه قدرى: «ماذا فعلت بأخيك؟». في تلك اللحظة ظهر زقطل في
دائرة الضوء التي يرسمها فاتوس القهوة على الأرض. ظهر فجأة كأنما
انشق عنه الظلام. بدا عابساً متهدلاً كارهاً مكروهاً يتفجر الشر في عينيه
وتشد قبضته على نبوته المرعب. وزحفت من محجريه نظرة ثقيلة مخيفة
على القهوة والجالسين كأنها حشرة سامة، فتحجر الكلام في حلق
الشاعر. وباخت نشوة ضلعة وعتريس، وانقطع عن التهامس دعيس
وعلى فوانيس، وكف عن الحركة عبدون. أما حمدان فشدت يده على
خرطوم التارجيلة بعصبية، وسد صمت كالموت.

وتتابعت حركات خاطفة. غادر القهوة سراعاً الزبائن الذين لا
يتسبون لأن حمدان. جاء فتوات الأحياء قدرة والليثي وأبو سريرع
وبركات وحمودة فصنعوا جداراً وراء زقطل، وسرى الخبر في الحرارة
بسرعة كأنه بيت تهدم ففتحت النوافذ، وأقبل الصغار يجررون والكبار
يتنازع قلوبهم الإشراق والشماماتة. وكان حمدان أول من خرق الصمت
فقام في هيئة استقبالية وهو يقول:

أهلًا بالعلم زقطل فتوة حارتنا، تفضلوا.

لكن زقطل تجاهله. كأنه لا يسمعه ولا يراه. وظل يطلق الطعنات من
عينيه القاستين. ثم تساءل بصوت غليظ:

- من فتوة هذا الحمى؟

فأجاب حمدان ولو أن السؤال لم يوجه إليه:

. فتوتنا قدرة.

التفت زقطل نحو قدرة متسائلاً في سخرية:

. أنت حامي آل حمدان؟

فتقدم قدرة خطوات بجسمه القصير المدمج ووجهه التحرش بكل شئ وقال:

. أنا حاميهم من الجميع إلاك يا معلم.

فابتسم زقطل ابتسامة كالامتعاض وقال:

. ألم تجد حيَا غير حى النساء لتكون فتوة عليه؟

ثم صاح بالقهوة:

. يا نسوان، يا أولاد الزوابى، ألا تعرفون بأن للحارة فتوة؟

فقال حمدان بوجه شاحب:

. يا معلم زقطل ليس بيننا وبينك إلا الخير.

فصاح به:

. اخرس يا عجوز يا قارح، الآن تتمسكن بعد أن تهجمت على أسيادك وأسياد أهلك.

فقال حمدان بصوت المتألم:

. لم يكن في الأمر تهجم، لكنها شکوى سرنا بها إلى حضرة الناظر.

فصاح زقطل:

. أسمعتم ما يقول ابن الزانية؟ حمدان يا نتن أنسنت ما كانت أمك تفعله؟ والله لن يسير أحدكم آمناً في هذه الحارة حتى يقول بأعلى صوته: أنا مرأة.

ورفع بسرعة نبوته وهوى به بشدة على الطاولة فتطايرت الفناجيل والأكواب والصوانى والملاعق وعلب البن والشاي والسكر والقرفة والزنجبيل والكنكاس. وثبت عبدون إلى الوراء فارتطم بترابيزة وسقط معاً. وبغتة وجه زقط لطمة إلى وجه حمدان فقد الرجل توازنه وسقط على جنبه فوق النارجيلة التى تحطممت. ورفع زقط نبوته مرة أخرى وهو يصبح:

- لا ذنب بلا عقاب يا أولاد الزوانى.

وتناول دعبس كرسيا ورمى به الفانوس الكبير فتحطم وساد الظلام قبل أن يهوى النبوت على المرأة الكبيرة وراء الطاولة. وصوتت ثغر حنة فرددت نساء آل حمدان الصوات فى النوافذ والأبواب كائنا انقلبت الحارة حنجرة كلب رُمى بحجر. وجن جنون زقط فأطلق ضرباته فى كل ناحية فأصابت أناساً ومقاعد والجدار. وتلاطممت أمواج الصراح والاستغاثات والتاؤهات. وتطايرت الأشباح فى كل ناحية. وارتطممت أشباح بأشباح. وصاح زقط بصوت كالرعد:

- كل واحد يلزم بيته.

فبادر إلى تنفيذ الأمر كل شخص، من آل حمدان أو من غيرهم، وتتابع وقع الأقدام المتراجعة. وجاء الليثى بفانوس فظهر على ضوء زقط والفتوات من حوله، فى حارة خالية، لا يسمع بها إلا صوات النساء. وقال بركات متودداً:

- وفرْ نفسك يا معلم للشدائد، وعلينا نحن تأديب الصراصير.

وقال أبو سريح:

- لو شئتَ جعلنا من آل حمدان تراباً تمشى عليه بحصانك.

وقال قدرة فتوة حمدان:

- لو كلفتني بتأدبيهم لحققت لى أمنية كبيرة وهى أن أخدمك يا معلم.

وعلا صوت تمر حنة من وراء باب الربع :
- ربنا على الظالم .
فصاح بها زقطط :

- يا تمر حنة أتحدى أي رجل من آل حمدان أن يعدّ الزانين بك !
فهتفت تمر حنة وإن دل آخر كلامها على أن يدأ وضعت على فيها
لتمنعها من الاستمرار :

- ربنا يبنتا وبينك ، آل حمدان أسياد ال ...
ووجه زقطط الخطاب إلى الفتوات بصوت أراد أن يسمعه آل
حمدان ، قال :

- لا يغادر رجل من آل حمدان داره إلا ضرب .
فصاح قدرة مهدداً :

- من ير نفسه رجلاً فليخرج .
وتساءل حمودة :

- والنسوان يا معلم ؟
فقال زقطط بحدة :

- زقطط يعامل الرجال لا النساء .

وطلع النهار فلم يغادر الربعون رجل من آل حمدان . وجلس كل فتوة
عند باب قهوة حبيه يراقب الطريق . وجعل زقطط يمر بالحارة كل بضع
ساعات فيستيق الناس إلى تحيته والتودد إليه والثناء عليه ، « والله أسد
بين الرجال يا فتوة حارتانا » ، « عفارم عليك يا زين الرجال يا ملبس آل
حمدان الطرح » ، « والحمد لله الذي أذل آل حمدان المتعجرفين بيلك
القوية يا زقطط ». ولم يكن يغير أحداً أدنى اهتمام .

هل يرضيك هذا الظلم يا جبلاوي؟!

تساءل جبل وهو يفترش الأرض أسفل الصخرة التي تقول الحكايات إن عندها كان قدرى يخلو إلى هند، وإن عندها قتل همام. ونظر إلى الشفق بعين لم تعد ترى إلا ما يකدر الصفو. لم يكن من يرکنون إلى الخلوات لكترة مشاغله لكنه شعر أخيراً برغبة قاهرة في الخلو بنفسه التي زلزلها ما حاق بآل حمدان. لعل في الخلاء أن تسكت الأصوات التي تعيره والتي تعذبه. أصوات تهتف به من التواذن وهو مار: «يا خائن آل حمدان يا لثيم»، وأصوات تهتف به من أعماق نفسه: «لن تطيب الحياة على حساب الغير». وآل حمدان أهله، ففيهم ولدت أمه وأبواه، وفي مقابرهم دفنا. وهم مظلومون وما أقيع الظلم! اغتصبت أموالهم ولكن من الظالم؟ إنه ولى نعمته، الرجل الذي انتسلته زوجه من الطين فرفعته إلى مصاف آل البيت الكبير. وجميع الأمور تجري في الحرارة على سنة الإرهاب، فليس عجيباً أن يُسجن سادتها في بيوتهم. وحارتنا لم تعرف يوماً العدالة أو السلام. هذا ما قضى به عليهما منذ طرد أدهم وأمية من البيت الكبير، ألا تعلم بذلك يا جبلاوي؟ ويدو أن الظلم ستشتد كثافة ظلماته كلما طال بك السكوت، فحتى متى تسكت يا جبلاوي؟ الرجال سجناء في البيوت والنساء يتعرضن في الحرارة لكل سخرية، وأنا أمضغ المهانة في صمت.

ومن عجب أن أهل حارتنا يضحكون! علام يضحكون؟ إنهم يهتفون للمتصر أيا كان المتصر، ويهللون للقوى أيا كان القوى، ويسجدون أمام النبابيت، يداوون بذلك كله الرعب الكامن في

أعماقهم . غموس اللقمة في حارتنا الهوان . لا يدرى أحد متى يجيء
دوره ليهوى النبوت على هامته .

ورفع رأسه إلى السماء فوجدها صامتة هادئة ناعسة ، يوشى أطرافها
الغمام ، وتودعها آخر حداً . وانقطع المارة وأن للحشرات أن تزحف .

وفجأة سمع جبل صوتًا غليظاً يصيح من قريب : «قف يا ابن
الزانية». استيقظ من أفكاره فنهض قائماً وهو يحاول أن يتذكر أين سمع
هذا الصوت ، ثم اتجه حول صخرة هند إلى الجنوب فرأى رجلاً يركض
في رعب وأخر وراءه يطارده ويوشك أن يلحق به . وأمعن النظر فعرف
في الهارب دعيس وفي المطارد قدرة فتوة حي حمدان ، وفي الحال أدرك
حقيقة الموقف . ومضى يراقب المطاردة التي تقترب منه بقواد قلق . وما
لبث قدرة أن أدرك دعيس فقبض بيده على منكبيه وتوقف الاثنين عن
ال العدو وهما يلهثان من الجهد . وصاح قدرة بصوت متقطع من البهـر :

- كيف تحررـ على مغادرة جحرك يا ابن الأفعى؟ لن تعود سالماً.

فهتف دعيس وهو يحمي رأسه بذراعه :

- دعني يا قدرة ، أنت فتوة حينـا وعليك أن تدافع عـنا .

فهزـهـ قدرة هزة أطـارات اللاـسـةـ عن رأسـهـ وصـاحـ بهـ :

- أنت تعرف يا ابن اللئيمة أـنـيـ أـدـافـعـ عـنـكـمـ ضـدـ أـىـ مـخـلـوقـ إـلـاـ زـقـلـطـ .

وـحـانـتـ مـنـ دـعـيسـ نـظـرـةـ نـحـوـ مـوـقـفـ جـبـلـ فـرـآـهـ وـعـرـفـهـ فـنـادـهـ قـائـلاـ :

- أغـشـنـيـ يـاـ جـبـلـ ،ـ أـغـشـنـيـ فـأـنـتـ مـنـاـ قـبـلـ أـنـ تـكـوـنـ مـنـهـمـ .

فـقـالـ قـدـرـةـ بـغـلـظـةـ وـخـدـ :

- لـاـ مـغـيـثـ لـكـ مـنـيـ يـاـ ابنـ الدـايـخـ .

وـوـجـدـ جـبـلـ نـفـسـهـ يـتـقـدـمـ مـنـهـمـ حـتـىـ وـقـفـ عـنـهـمـ وـهـ يـقـولـ بـهـدوـءـ :

- تـرـفـقـ بـالـرـجـلـ يـاـ مـعـلـمـ قـدـرـةـ .

فحديجه قدرة بنظره باردة وهو يقول :

- إنى أعرف ما ينبغي أن أفعله .

- لعل أمراً ضرورياً دفعه إلى مغادرة بيته .

- ما دفعه إلا قضاوه المحتم .

وشد على منكبه حتى أن دعيس أتينا مسموعاً، فقال جبل بحدة :

- ترقق به ، ألا ترى أنه أكبر منك سنًا وأضعف بنية؟

رفع قدرة يده عن منكبه وصفعه على قفاه بقوة تقوس لها ظهره ، ثم

ضرب برकبته دبره فانكفاً على وجهه ، وسرعان ما برک فوقه وراح

يكيل له الضربات وهو يقول بصوت يزفر الغل والحنق :

- ألم تسمع ما قال زقطل ؟ !

واشتعل الغضب في دماء جبل فصاح به :

- اللعنة عليك وعلى زقطل ، اتركه يا قليل الحياة !

فكف قدرة عن ضرب دعيس ورفع إلى جبل وجهها ذاهلاً ،

ثم قال :

- أنت تقول هذا يا جبل ؟ ! ألم تشهد حضرة الناظر وهو يأمر زقطل

بنأدب آل حمدان ؟

فصاح جبل وغضبه آخذ في ازدياد :

- اتركه يا قليل الحياة .

فقال قدرة بصوت يرتعش من الحنق :

- لا تظن أن خدمتك في بيت الناظر تحميك مني إذا أردت

محاسبتك !

فانقض عليه جبل كمن فقد وعيه وركله فالقاء جانبًا وصاغ به :

- عد إلى أملك قبل أن تشكلك .

وتب قدرة قائماً وهو يتناول نبوته من على الأرض ثم رفعه بخفة ولكن جبل بادره بصرية في بطنه من يد قوية فترتفع متالماً. وانتهز جبل هذه الفرصة فخطف النبوت من يده ووقف وهو ينظر نحوه بحذر. تراجع قدرة خطوتين، ثم انحنى بسرعة خاطفة فالقط حجراً ولكنه قبل أن يقذف به أصاب النبوت رأسه فصرخ، ودار حول نفسه، ثم سقط على وجهه والدم يتفجر من جبينه بغزاره. كان الليل يهبط فنظر جبل فيما حوله فلم ير أحداً إلا دعيس الذي وقف ينفض جلابه ويتحس الموضع التي توله من جسده، ثم اقترب من جبل وهو يقول متننا:

- عوفيت من أخ كريم يا جبل.

فلم يجبه جبل، وإنحنى فوق قدرة فعدله على ظهره، ثم تتم:
- أغنى عليه!

فإنحنى دعيس فوقه كذلك ثم بصن على وجهه، فجذبه جبل بعيداً عنه، وإنحنى فوقه مرة أخرى، وراح يهزه برفق ولكنه لم يجد أملاً في الإفادة، فتساءل:

- ماله؟

فإنحنى دعيس فوقه وألصق أذنه بصدره، ثم قرب وجهه من وجهه، وأشعل عوداً من الثواب، ثم وقف وهو يهمس:
- إنه ميت.

فاقشعر بدن جبل وقال:

- كذبت!

- ميت ابن ميت وحياتك.

- يا خبر أسود.

فقال دعيس مهوناً الأمر:

- كم ضرب وكم قتل! فليذهب إلى الزبانية!

فقال جبل بصوت حزين وكأنه يخاطب نفسه:
- لكتنى لم أضرب ولم أقتل.
- كنت تدافع عن نفسك.
- لكتنى لم أقصد قتله ولا أرددته.

فقال دعبس باهتمام:

- إن يدك لشديدة يا جبل، لا خوف عليك منهم، وبوسعك أن تكون
فتوة لو أردت.

فضرب جبل جبينه بيده وهتف:

- يا ويلى، هل أنقلب قاتلاً من أول ضربة؟
- انتبه إلى نفسك وهلم ندفعه وإنما قامت القيامة.
- ستقوم القيامة دفناه أم لم ندفعه.

- لست آسفاً، عقبي للباقي، عاونى على إخفاء هذا الحيوان.

وتناول دعبس النبوت وراح يحفر في الأرض غير بعيد من الموضع
الذى حفر فيه قدرى من قبل. وما لبث جبل أن انضم إليه بقلب كثيب.
وتواصل العمل في صمت حتى قال دعبس ليختف عن جبل ثقل
من شاعره:

- لا تحزن فالقتل في حارتنا مثل أكل الدوم.

فقال جبل متنهاداً:

- ما وددت أن أكون قاتلاً فقط، رياه ما كنت أحسب أن غضبى بهذه
القطاعة!

ولما فرغ من الحفر وقف دعبس يجفف جبينه بكم جلباه ويتمخط
ليطرد الرائحة الترابية التي تملأ خيشه. قال بحقد:
- هذه الحفرة تسع ابن الزانية والفتوات الآخرين.

فقال جبل بضجر :

ـ احترم الميت فجميعنا أموات .

فقال دعيس بحدة :

ـ عندما يحترموننا أحيا نحترمهم أمواتاً .

ورفعوا الجثة فأودعوها الحفرة، ووضع جبل النبوت إلى جانبها، ثم
أهلاً عليها التراب .

ولما رفع جبل رأسه رأى الليل قد أخفى الدنيا وما عليها فتنهد من
الأعماق وهو يكبت نزوعاً نحو البكاء .

٣٠

- أين قدرة؟

سأل زقطن نفسه كما سأل الفتووات الآخرين . لكن الفتوات كانوا
يتساءلون أيضاً عن صاحبهم الذي اختفى من الوجود كما اختفى رجال
آل حمدان من الحرارة . كان قدرة يسكن في الحى التالى حتى آل حمدان
وكان أعزب يسهر الليل فى الخارج فلا يعود إلى مسكنه إلا مع الفجر أو
بعد ذلك ، ولم يكن من النادر أن يغيب عن مسكنه ليلة أو ليلتين ،
ولكن لم يحدث أبداً أن غاب أسبوعاً كاملاً دون أن يعلم أحد بمكانه
وي وخاصة فى أيام الحصار هذه التى أوجبت عليه أعباء لا يستهان بها من
اليقظة والمراقبة . وحامت الظنوں حول آل حمدان فتقرر تفتيش بيوتهم .
واقتحم الفتوات وعلى رأسهم زقطن ريو عليهم ففتحوها تفتيشاً دققاً من
البدروم إلى السطح ، وحُفرت الأفنيـة بالطول والعرض ، وتعرض رجال
آل حمدان لإهانات شتى ، ولم يسلم أحد منهم من لطمة أو ركلة أو

بصفة ، ولكنهم لم يعشروا على شيء يرتب . وتفرقوا في أطراف الخلاء
يسألون فلم يدخلهم أحد على أمر ذي بال .

ويات قدرة الموضوع الذي تدور به الجوزة في غرزة زقطت تحت
تكعيبة العنبر بحديقة بيته . كان الظلام يغشى الحديقة عدا نور حبي
ينبعث من مصباح صغير قائم على الأرض على بعد شبرين من
المجمرة ليستضيء به برّكات وهو يقطع الحشيش ويقطنه ، ويفتت
الجرارات ، ويرص الحجر ويخشنه ليعد الجوزة . وكان نور المصباح
الراقص في مجرى النسيم ينعكس على وجوه زقط وحمودة واللبيش
وأبو سريع الكالحة فيبدى عن أعين متراخيّة الجفون ، انعقدت في
نظراته الشاردة نوايا معتمة . وتعالى نقيق ضفادع كأنه استغاثات خرس
في هدأة الليل . قال الليبي وهو يتناول الجوزة من برّكات ويوجهها نحو
زقط :

- أين ذهب الرجل؟ كأن الأرض بلعنته .

شد زقط نفساً عميقاً وهو ينقر الغابة بسبابته ثم زفره دخاناً كثيفاً
وقال :

- قدرة بلعنته الأرض وهو راقد في جوفها منذ أسبوع .

تطلعت إليه الأ بصار باهتمام عدا برّكات الذي بدا مسلوحاً بعمله ،
فعاد زقط يقول :

- لا يختفى فتوة لغير ما سبب ، وللموت رائحة أعرفها .

فتساءل أبو سريع بعد سعال تقوس له ظهره كأنه سنبلة في مهب ريح
عاتية :

- ومن قاتله يا معلم؟

- عجيبة! ومن يكون غير رجل من آل حمدان؟

- لكنهم لا يغادرون بيونهم وقد فتشناها .

ضربي زقط طرف الشلة بقبضته وتساءل:

ـ ماذا يقول أهل الحارة الآخرون؟

فقال حمودة:

ـ يعتقد حينا بأن آل حمدان يدأ في اختفاء قدرة.

ـ افهموا يا مساطيل! ما دام الناس يعتقدون أن قاتل قدرة في آل

حمدان فالواجب علينا أن نعتبره كذلك!

ـ ولو كان القاتل من العطوف؟

ـ ولو كان من كفر الزغارى، نحن لا يهمنا عقاب القاتل بقدر ما

يهمنا إرهاب الآخرين.

فهتف أبو سريح باعجاب:

ـ الله أكبر.

فقال الليبي وهو ينفض الحجر في الكوز ويعيد الجوزة إلى بركات:

ـ الله يرحمكم يا آل حمدان.

فندت عن أفواههم ضحكات جافة اختلطت بتنقيق الضفادع وتحركت

منهم الرءوس حركات الوعيد على حين هبت نسمة بقوة طارئة أعقبتها

خشخشة في الأوراق الجافة. وصفق حمودة بيديه وهو يقول:

ـ لم تعد المسألة صراعاً بين آل حمدان والناظر، ولكنها كرامة

الفتوات.

فعاد زقط ضرب طرف الشلة بقبضته ويقول:

ـ لم يقتل فتوة بيده حارته من قبل.

وتصلت ملامحه من الغضب حتى خاف شره ندماؤه فحدروا أن تند

عنهم كلمة أو حركة تحول غضبه إليهم. وساد الصمت فلم يعد يسمع

إلا فقرة الجوزة وسعلة أو نحنحة. وإذا برکات يسأل:

ـ .وإذا عاد قدرة على غير ما نظن؟

فقال زقلط بحقن:

ـ أحلق شاربى يا ابن المسطولة.

كان بركات أول من ضحك ثم عادوا إلى الصمت. تخيالت للأعين المذبحة، والعصى تحطم الرءوس، والدماء تسيل حتى تصبغ الأرض، والصوات يعلو من التوافذ والأسطح، وعشرات الرجال يصعدون حشارة الموت. اضطربت في النفوس رغبة ثورية في الافتراض وتبادلوا نظرات قاسية. لم يهمهم قدرة لذاته، بل لم يكن أحد منهم يحبه، ولم يكن أحد منهم يحب الآخر قط، ولكن جمعتهم رغبة واحدة في الإرهاب والذود عن الفتونة. وتساءل الليثي:

ـ وبعد؟

فقال زقلط :

ـ ينبغي أن أرجع إلى الناظر كالعهد بيننا.

٣١

قال زقلط :

ـ يا حضرة الناظر، قتل آل حمدان فتوتهم قلعة.

وركب بصره في الناظر ولكنه كان يرى في الوقت نفسه هدى هام إلى يمينه وجبل إلى يمينها. وببدأ أن الأفندي لم يفجأه الخبر إذ قال:

ـ بلغتنى أنباء عن اختفائه، ولكن هل يشتم حقاً من العثور عليه؟

قال زقلط وكان نور الضحى الذي يقتحم باب البهو يؤكّد سماحة

ملامحه:

- لن يُعثِر عليه وأنا خَيْر بِهذِه المَكَانِدِ .

فقالت هدى بعصبية وهي تلحظ وجه جبل الذي راح ينظر إلى الجدار المواجه له :

- لو صَحَّ أَنْ قُتِلَ لَكَان ذَاك حَدَثًا خطيرًا ..

فقال زقطط وهو يشد على أصابعه المتشابكة :

- وَيَقْتَضِي عَقَابًا شاملاً أَوْ قُولُوا عَلَيْنَا وَعَلَيْكُم السَّلَامُ !

فأَلْعَبَتْ أَصَابِعَ الْأَفْنَدِي بِجَهَاتِ مُسْبِحَتِه وَقَالَ :

- إِنَّهُ يَمْثُلُ هِيَتَنَا !

فقال زقطط بتركيز مقصود :

- وَيَمْثُلُ الْوَقْتَ كُلَّهُ !

وخرج جبل من صمته قائلاً :

- لَعْلَهَا جَرِيَةٌ مَزَعُومَةٌ لَمْ تَقْعُ .

واندلع الغضب في صدر زقطط لدى سماعه صوت جبل فقال :

- لَا يَنْبَغِي أَنْ نَضِيعَ الْوَقْتَ فِي الْكَلَامِ .

- هَاتِ دَلِيلًا عَلَى مَقْتَلِهِ .

فقال الأفندي بلهجة اصطمع لها القوة ليختفي ما وراءها من ارتياح :

لَا يَخْتَفِي أَحَدٌ مِنْ أَبْنَاءِ حَارَتَنَا عَلَى هَذَا النَّحْوِ إِلَّا إِنْ كَانَ قُتْلًا !

ولم تفلح زفرات الخريف الرطيبة في تلطيف هذا الجو المشحون بالنوايا الدموية فهتف زقطط :

- الْجَرِيَةُ تَنَادِينَا بِصَوْتٍ سُوفَ تَسْمِعُهُ الْحَوَارِيُّ الْمَجاوِرُ وَمَا الْكَلَامُ إِلَّا مَضِيَّةٌ لِلْوَقْتِ .

لكن جبل قال بإصرار :

- رَجَالُ حَمْدَانَ فِي بَيْوَتِهِمْ مَسْجُونُونَ !

فضحك زقط بصوته دون وجهه وقال ساخراً:

- فزورة حلوة!

ثم وهو يستريح في مجلسه ويتهدأ بنظرة نافذة:

- لا يهمك إلا تبرئة أهلك!

ومع أن جبل بذل جهداً صادقاً لشكم غضبه إلا أن صوته احتد وهو يقول:

- يهمني الحق. إنكم تعتدون لأوهى الأسباب، وأحياناً بلا سبب،
وما همك الآن إلا الحصول على إذن لإحداث مذبحة في قوم
مسلمين.

وتبدى الحقد في عيني زقط وهو يقول:

- أهلك مجرمون، قتلوا قدرة وهو يدافع عن الوقف!

فالتفت جبل نحو الأفندي وقال:

- يا سيدي الناظر لا تسمح لهذا الرجل بإشباع شراهته الدموية.

فقال الأفندي:

- إذا ضاعت هيبتنا ضاعت حياتنا!

وتساءلت هدى. وهي تنظر نحو جبل:

- أتريد أن ندفن أحياها في حارتنا؟

فقال زقط بحقن:

- إنك تنسى فضل أصحاب الفضل عليك وتذكر المجرمين.

وارتفعت موجة الغضب في صدر جبل حتى قلقلت جذور إرادته

فقال بصوت شديد:

- ليسوا مجرمين وإن غصّت حارتنا بال مجرمين!

قبضت يد هدى بشدة على طرف شالها الأزرق، وتحركت فتحنا

أنف الأفندي وقد عبرت وجهه صفرة، فتشجع زقط بهذه المظاهر وقال
بحقد ساخر :

- لك عذر في دفاعك عن المجرمين ما دمت منهم !
- تهجمك على المجرمين شيء لا يصدق وأنت شيخ الاجرام في
حارتنا .

قام زقط قومة عنيفة وقد اربد وجهه ، وقال :
- لولا مكانتك عند آل هذا البيت لأخرجتك من مجلسك على
أجزاء !

فقال جبل بهدوء مخيف يشف عما تحته :
- أنت واهم يا زقط !

وصاح الأفندي :

- أتخرآن على هذا أمامي ؟

فقال زقط بخبث :

- إنى أناطحه دفاعاً عن هيبتك
فأوشكت أصابع الأفندي أن تفتك بالمسحة ، ومخاطب جبل بشدة
قائلاً :

. لا أسمح لك بالدفاع عن آل حمدان .

. هذا الرجل يفترى الكذب عليهم لغاية سوء في نفسه .
- دع هذا التقديرى أنا !

وساد الصمت هنيئة . ترامت من الحديقة زقزقة لاهية ، وتعالت
في الحارة موجة تهليل صاخبة يتخللها سباب فاحش . وابتسم زقط
قائلاً :

- أياذن لي حضرة الناظر في تأديب الجناء ؟

أيقن جبل أن ساعة المنيا قد دنت فالتفت نحو الهائم وقال يائساً :

- سيدتي، سأجد نفسي مضطراً إلى الانضمام إلى أهلى في سجنهم
لأنّى معهم مصيرهم.

فهتفت هدى في عصبية ظاهرة:
- يا لخيبة رجائي!

فتأثر جبل حتى انحنى رأسه، ودفعه شعور مرهف إلى أن ينظر نحو زقطان فرأه يبتسم ابتسامة شماتة كريهة فانطبقت شفاته في حنق، ثم قال في أسى:

- لا خيار لي، ولن أنسى صنيعك معى ما حييت.

فحذجه الأفندي بنظرة قاسية وسألة:

- يجب أن أعرف إن كنت معنا أم علينا؟

فقال جبل بحزن وهو يشعر بأنه في النزع الأخير من حياته
الراهنة:

. ما أنا إلا ربيب نعمتك فلا يمكن أن أكون عليك، ولكن من العار أن
أترك أهلى بيادون وأنا أنعم بظلك.

وقالت هدى وهي تتلوى من انفعال الأزمة التي تهدد أموتها:

- يا معلم زقطان فلنؤجل الحديث إلى وقت آخر.

فقط زقطان كأنما ركب على وجهه حافر بغل، ونقل عينيه بين
الأفندي وزوجه ثم تتم:

- لا أدري ماذا يحدث غداً في الحارة!

فتتجنب الأفندي النظر إلى هدى وتساءل:

- أجبني يا جبل أنت معنا أم علينا؟

وتقادت موجة الغضب به حتى بلغت قمة رأسه فهتف دون أن يتظر
الجواب:

- فإما أن تبقى معنا كواحد منا، وإما أن تذهب إلى أهلك!

وثار جبل ، وبخاصة وهو يلحظ أثر هذا القول في صفحة وجه زقط
فقال بعزم :

- يا سيدى إنك تطردنى ، وإنى ذاھب .

وهتفت هدى بصوت معدب :

- جبل !

وهتف زقط ساخراً :

- أماكم الرجل كما ولدته أمه .

وضاق جبل بمجلسه ، فقام ، ثم سار بخطوات ثابتة نحو باب البهو .
ووقفت هدى ولكن ذراع الأفندي حالت دون تحركها . وسرعان ما
اختفى جبل . وفي الخارج هبت ريح تحركت بها الستائر وأصطفت
مصالح نوافذ . وامتلاً جو البهو بتوتر وانقباض . وقال زقط بهدوء :
- ينبغي أن نعمل .

ولكن هدى قالت بإصرار وعصبية ينذران بالعناد :

- كلا ، حسبهم الآن الخصار ، وحذار أن يُمسَّ جبل بشر .

لم يغضب زقط إذ إنه لم يهضم بعد ما أحرز من فوز ، ورفع إلى
الناظر عيناً متسائلة .

فقال الأفندي وهو ييلدو كمن يتمتصن ليمونة :

- سنعود إلى الحديث مرة أخرى .

٣٢

ألقى جبل نظرة وداع على الحديقة والمناظرة فتذكرة مأساة أدهم التي
ترويها الرباب كل مساء . واتجه نحو الباب فوقف له البواب وهو يتساءل :

- ماذا يدعوك إلى الخروج ثانية يا سيدى؟

فقال جبل بامتعاض :

- إنى ذاهب بلا عودة يا عم حسنين !

ففغر الرجل فاه وجعل ينظر إليه مليأً في انزعاج ثم غمغم متساءلاً :

- بسبب آل حمدان؟

فأخنثى جبل رأسه صامتاً، فعاد الباب يقول :

- من يصدق هذا؟ كيف تسمح به الهانم؟ يا رب السماوات! وكيف
تعيش يا بني؟

فعبر جبل عتبة الباب مرسلًا بصره إلى الحارة المكتظة بالناس
والحيوان والقاذورات وهو يقول :

- كما يعيش أهل حارتنا.

- لم تخلق لهذا.

فابتسم جبل ابتسامة ذاهلة وقال :

- إنها المصادفة وحدها التي انتشلتنى منه.

ومضى يبتعد عن البيت وصوت الباب يحذره في حسرة من
التعرض لغضب الفتوات.

وامتدت أمام عينيه الحارة بأتريتها ودوايتها وقططها وغلمانها
وجحورها. أدرك مدى الانقلاب الذي جرى على حياته، ما يتظره من
متاعب، وما خسره من نعيم. لكن غضبه غطى على آلامه فبدا وكأنه لا
يبالى بالأزهار والعصافير والأمومة الحانية. ومر في سبيله بالفتوة
محمودة، فقال هذا بسخرية ملساء :

- ليتك تعيرنا قوتك لنؤدب بها آل حمدان.

فلم يعره التفاتاً وقصد ربعاً كبيراً من ربوع آل حمدان وطرقه. وإذا
بحمودة يلحق به ويسأله في دهشة واستنكار :

- ماذا ت يريد؟

فأجابه في هدوء:

- إنني أعود إلى أهلي.

وارتسمت الدهشة في عيني حمودة الضيقتين ويداً أنه لا يصدق ما سمع . ورأهما زقط وهو يغادر بيت الناظر متوجهًا نحو مسكنه فصاح بحمودة:

- دعه يدخل ، وإذا خرج بعد ذلك ادفنه حيّا .

فرايلت حمودة دهشته وابتسم ابتسامة بلاء متشفية . ومضى جبل بطرق الباب حتى فتحت نوافذ الربيع والرابع الملاصقة ، وأطلت رءوس كثيرة من بينها حمدان وعتريس وضلامة وعلى فوانيس وعبدون ورضوان الشاعر وتمر حنة ، وتساءل ضلامة ساخراً :

- ماذا تريد يا ابن الأكابر؟

وسائله حمدان:

- معنا أم علينا؟

فضاح حمودة:

- طردوه فعاد إلى أصله القذر!

فتسائل حمدان بلهفة:

- طردوه حقاً؟!

فقال جبل بهدوء:

- افتح الباب يا عم حمدان.

وزغردت تمر حنة ثم صاحت:

- كان أبوك رجلاً طيباً وأمك امرأة شريفة .

فضحك حمودة قائلاً:

- مباركة عليك شهادة الزانية .

فصاحت تمر حنة غاضبة :

- اسم الله على أمك ولياليها الملاح عند حمام السلطان .

وأسرعت بإغلاق النافذة فصك الحجر المنطلق من يد حمودة الضلفة من الخارج محدثاً دويًا هلل له الصبية في الأركان . وفتح باب الربع فدخل جبل مستقبلاً جواً رطباً وهواء غريب الرائحة . واستقبله أهله بالعنق واختلطت الكلمات الطيبات . ولكن قطع الترحيب عليهم جمجمة شجار آتية من أقصى الحوش ، فنظر جبل فرأى دعبس مشتبكاً في شد وجذب مع رجل يدعى كعبتها ، فمضى نحوهما ودفع نفسه بينهما وهو يقول بحدة :

- تتشاجران وهم يحبسوننا في بيوتنا !

فقال دعبس خلال أنفاسه المضطربة :

- سرق البطاطة من حلة على نافذتي .

وصاح كعبتها :

- هل رأيتني وأنا أسرق؟ حرام عليك يا دعبس !

فصاح جبل غاضباً :

- فلنرحم أنفسنا كي يرحمنا من في السماء !

لكن دعبس قال بإصرار :

- بطاطتي في بطنه وسأستخرجها بيدي .

فقال كعبتها وهو يعيد طاقيته إلى رأسه :

- والله ما ذقت البطاطة من أسبوع .

- أنت اللص الوحيد في هذا الربع .

فقال جبل :

- لا تقض بلا دليل كما يفعل زقطط معكم.

فصاح دعبس:

- لا بد من تأديب ابن الخطافة.

فصرخ كعبلاها:

- يا دعبس يا ابن بياعة الفجل!

وشب دعبس على كعبلاها فتطحه فترنح كعبلاها وسال الدم من جيئنه، وراح يكيل له الضربات غير مبال بزجر الواقفين، حتى غضب جبل فانقض عليه وقبض على عنقه بشدة. وعشا حاول دعبس أن يتخلص

من قبضة جبل فقال بصوت مبحوح:

- أتريد أن تقتلني كما قتلت قدرة؟!

دفعه جبل بقوه فارتعى على الجدار وراح يحدق فيه بحقن وغيظ. وردد الرجال أبصارهم بين الرجلين، وتساءلوا: أجبيل حقا هو الذي قتل قدرة؟ وقبله ضلامة وصاح عتريس: «فلتحل بك البركة يا خير آل حمدان». وقال جبل لدعبس حانقاً:

- لم أقتله إلا دفاعاً عنك!

قال دعبس بصوت منخفض:

- لكنك استحللت القتل.

صاح ضلامة:

- يا لك من جاحد يا دعبس، اخرجل من نفسك يا رجل.

ثم وهو يجذب جبل من ذراعه:

- ستنزل ضيفا على شقتي .. تعال يا سيد آل حمدان!

طاوع جبل يد ضلامة لكنه شعر بأن الهاوية التي افتتحت اليوم تحت قدميه لا قرار لها.

وهمس متسائلاً في أذنه وهما يسيران معاً:
 - ألا يوجد سبيل إلى الهرب؟
 فقال ضلعة باستنكار:
 - أتخاف يا جيل أن يشى بك أحد إلى أعدائنا؟!
 - دعيبس أحمق.
 - نعم ولكنه ليس بالنذر!
 - أخاف أن تثبت عليكم التهمة بسيبي!
 فقال ضلعة بشقة:
 - سأدلك على طريق الهرب إذا أردته، ولكن أين تقصد؟
 - الخلاء واسع لا يحيط به خاطر.

٣٣

لم يتيسر الفرار بجبل إلا في الهزيغ الأخير من الليل. جعل يتقلل من سطح إلى سطح في هدأة الليل، وفي رعاية النوم المرفق بالأجفان حتى وجد نفسه في الجمالية. ومضى على رغم الظلام الحالك نحو الدراسة ثم مال نحو الخلاء، متوجهًا نحو صخرة هند وقدري، فلما بلغها على ضوء النجوم الخافت لم يعد بوسعه أن يغالب النوم، من فرط ما نال منه الإعياء والسهر، فاستلقى على الرمال متلقياً بعباته وغط في النوم.

وفتح عينيه مع أول شعاع يضيء أعلى الصخرة، فقام من فوره كي يصل إلى الجبل قبل أن يعبر الخلاء عابر. لكن بصره المخذب نحو البقعة التي دفن فيها قدرة قبل أن يهم بالسير. ارتعدت فرائصه وهو ينظر إليها حتى جف ريقه ثم فرب نفسه وهو في ضيق شديد. ما قتل إلا مجرماً،

لكنه بدا كالملارد وهو يبتعد عن قبره . وقال لنفسه : « لم نخلق لقتل وإن فاق عدد قتلانا الحصر ». وعجب لنفسه كيف أنه لم يجد مكاناً ينام فيه إلا المكان الذي دفن فيه قتيله ! وشعر برغبته في الابتعاد تضاعف ، وأن عليه أن يودع إلى الأبد من يحب ومن يكره على السواء ، أمه وحمдан والفتوات إلى الأبد . وبلغ سفح المقطم ونفسه تفيض بالأسى والوحشة ، فسار معه نحو الجنوب حتى بلغ سوق المقطم وسط الضاحي . وألقى نظرة طويلة إلى الخلاء وراءه وقال في شيء من الاطمئنان : « الآن بعد ما بيني وبينهم » .

وراح يفحص سوق المقطم أمامه ، ذلك الميدان الصغير الذي تصب فيه جملة حواري من جميع نواحيه ، وتصاعد من جنباته ضوضاء عالية تختلط فيها أصوات الأدميين بنهاية الحمير . وكان ثمة ما يدل على مولد يقام ، لازدحام الميدان بالملارة والباعة والمجدوبين والدراوיש والمهرجين على الرغم من أن حركة المولد الحقيقة لا تبدأ قبل الغروب ، فتنقلت عيناه بين أمواج البشر المتلاطمة . . ورأى عند حافة الخلاء كونخاً من الصفائح صَفَّت حوله مقاعد خشبية فبدأ على حقارته أصلاح مفهي في السوق وأحفله بالزيائن ، فاتجه نحو مقعد خال وجلس بجسم استد حنيبه إلى الراحة . وأقبل نحوه صاحب الكوخ محتفلاً بظهوره التميز بين الجلوس بعباءة فاخرة وعمامة عالية ومركتب ثمين فطلب قدح شاي وراح يتسلى بمنابعه النافر .

وما لبث أن جذب سمعه ضوضاء اشتدت حول كشك حنفيه مياه عمومية ، رأى الناس يتزاحمون أمامها يملأوا أوقيتهم بالماء ، وكان التزاحم كالقتال عنقاً وضحايا ، فارتفع الصخب وتهاوت اللعنات ، ثم ندت صرخات رفيعة حادة من الوسط عن فتاتين غرقتا في جلة الزحام وراحتا تراجعان لتتجروا بتنسيهما حتى خرجتا من المعرك بصفيفتين فارغتين . بدت في جلبابين فاقعى الألوان ينسدلان على جسميهما من

العن حتى الكعبين، فلم يظهر منها إلا وجهان يزهر فيهما الشاب.
مرت عيناه بأقصرهما دون توقف، ثم ثبّتا على الأخرى ذات العينين
السوداين فلم تحولا عنها.

أقبلتا نحو مكان خال قريب من مجلسه فتین في ملامحهما شبهاً
أخوياً على تميز جاذبته بقسط أوفر من الحسن، فقال جبل لنفسه متثنياً:
«ما أبدع هذه الملاحة! لم تقع عيناي على مثلها في حارتنا». وفتنا
تسويان ما تشعث من شعريهما وتعيدان الحمار إلى رأسيهما، ثم وضعنا
الصفيحتين مقلوبتين وجلستا عليهما والقصيرة تقول متشكية:

- كيف غللا الصفيحة في هذا الزحام؟

قالت جاذبته:

- المولد أجارك الله! وأبونا الآن يتظر غاضباً!

فدخل جبل في الحديث دونوعي منه متسائلاً:

- لماذا لم يحضر بنفسه ليملأ الصفيحتين؟

فالتفتا نحوه باحتجاج، ولكن منظره التميز لم يخل من أثر مسكن
فاكتفت فاته بأن قالت:

- ما شأنك أنت؟! هل شكونا إليك؟!

فسر جبل بخطابها وقال معذراً:

- أردت أن أقول إن الرجل أقدر على اقتحام زحام المولد!

- هذا عملنا، وله عمل أشقر.

فتساءل مبتسمًا:

- ماذا يعمل أبوك؟

- هذا ليس من شأنك.

وقام جبل غير مبال بالأعين المحدقة حوله، حتى وقف أمامهما وقال
بأدب:

- سأمالاً لكم الصفيحتين.

فقالت جاذبته وهي تدبر عنه وجهها:

لسانا في حاجة إليك!

ولكن القصيرة قالت بجرأة:

- افعل ولد الشكر.

وقامت وهي تشد الأخرى لتقوم معها فتناول جبل الصفيحتين من مقبضيهما، وسار بجسمه القوى، يشق الزحام، ويرتطم بالرجال، ويلاقي الجهد، حتى بلغ الحنفية التي يجلس وراءها الساقى فى كشكه الخشبي، فقده مليمين، وملاً الصفيحتين وعاد بهما نحو موقف الفتاتين. وأزعجه أن يجد الفتاتين مشتبكتين مع بعض الشبان فى معركة كلامية بسبب معاكستهم لهما، فوضع الصفيحتين على الأرض، وتصدى للشبان مهدداً. وتحرش به أحدهم ولكنه صرعه بضربه فى صدره فتجمع الشبان للهجوم عليه وهم يسبونه، غير أن صوتاً غريباً صاح بهم:

ادهروا يا شين الرجال.

انجذبت الأبصار نحو رجل كهل، قصير مدمج الجسم، براق العينين، يشد جلباه على وسطه بحزام فهتفوا خجلين: «المعلم البليقطي»؟! وسرعان ما تفرقوا وهم يرمقون جبل بحنق. ولاذت الفتاتان بالرجل والقصيرة تقول:

- اليوم عسير بسبب المولد وهؤلاء الأوغاد.

فقال البليقطي يجيئها وهو يتفحص جبل:

- تذكرت المولد لتأخيركما فجشت، جشت فى الوقت المناسب.

ثم خاطب جبل قائلاً:

- وأنت من أهل الشهامة وما اندرهم فى أيامنا!

فقال جبل في حياء :

ـ ما هي إلا مساعدة تافهة لا تستحق شكرًا .

في أثناء ذلك حملت الفتايات الصفيحتين وغادرتا المكان صامتتين .
ودجل بأن يملاً من المليحة عينيه ولكنه لم يجرؤ على نزعهما من عيني
البلقيطي الحادتين . خيل إليه أن هذا الرجل يستطيع أن يرى الأعمق
فخشى أن يقرأ رغابته ، ولكن المعلم قال :

ـ دفعت عنهم الأشرار ، أمثالك يستحقون الحب ، وهؤلاء الشبان
كيف تجروا على التحرش بابتني البلقيطي ؟ إنها البوظة ! ألم تلحظ
أنهم سكارى ؟ !

فهز جبل رأسه نفياً ، فقال الآخر :

ـ إنى أسم كالجن الأحمر ، ما علينا ، ألا تعرفنى ؟

ـ كلا يا معلم ، لم يحصل لى هذا الشرف .

فقال بشقة :

ـ إذن فأنت لست من هذه الناحية ؟

ـ نعم .

ـ أنا البلقيطي الحاوي .

وأضاء وجه جبل بنور التذكر المباغت ، فقال :

ـ حصل لنا الشرف ، كثيرون يعرفونك في حارتنا .

ـ وما حارتكم ؟

ـ حارة الجبلاوي .

فرفع البلقيطي حاجبيه الخفيفين الأبيضين وقال بصوت متغوم :

ـ أنعم وأكرم ، من ذا الذي يجهل الجبلاوي صاحب الوقف ؟ أو
فتونكم زقط ! وهل جئت للمولد يا معلم . . . ؟

- جبل .

شم قال بمكر :

- جئت أبحث عن مقام جديد .

- هجرت حارتكم ؟

- نعم . .

فاشتد تفحص البلقيطي له ، ثم قال :

- ما دام يوجد فتوات فلا بد أن يوجد مهاجرون ! ولكن خبرني

أقتلت رجلاً أم امرأة ؟

فانقبض قلب جبل وقال بثبات :

- مزاحك ليس لطيفاً مثلك !

فضحك البلقيطي عن فم خرب وقال :

- لست من الرعاع الذين يبعث بهم الفتوات ، ولا أنت من أهل

السرقة ، فمثلك لا يهاجر من حارته إلا بسبب القتل !

فقال جبل بحدة وضيق :

- قلت لك . .

ففاطعه قائلاً :

- يا سيدى أنا لا يهمنى أن تكون قاتلاً وبخاصة بعد أن ثبتت لي

شهادتك . ما من رجل هنا إلا وقد سرق أو نهب أو قتل . ولكن

طمئن إلى صدق قولى فإبى أدعوك إلى فنجان قهوة ونفسين فى

دارى !

فعاود الأمل جبل وقال :

- حباً وشرقاً .

سارا جنبًا إلى جنب يخترقان السوق نحو حارة قلة ، وعندما خلفا

الرخام وراءهما سأله البلقيطي :

- أكنت تقصد أحداً في حينها؟

. لا أعرف أحداً.

- ولا مأوى؟

. ولا مأوى.

فقال البلقيطي في انبساط:

- كن ضيفي إذا شئت حتى تجد لنفسك مأوى.

فرقص قلب جبل فرحاً وقال:

- ما أنبلك يا معلم بلقيطي!

فقال الرجل ضاحكاً:

- لا تعجب لذلك، في داري تقيم الثعابين والحيات فكيف تضيق عن إنسان؟! هل أفزرك قولي؟ إنى حاوٍ وستعرف عندي كيف تستأنس الثعابين!

عبر الحرارة فانتهيا إلى خلاء لا يحد. ورأى جبل في مطلع الخلاء داراً صغيرة بعيدة عن الحرارة، جدرانها أحجار غير مطلية، لكنها تعتبر جديدة بالقياس إلى بيوت حارة قلة المتداعية، فأشار البلقيطي إليها وقال بفخار:

- بيت البلقيطي الحاوي.

٣٤

ولما بلغا البيت قال البلقيطي:

- اخترت هذا المكان المنعزل لبيتي لأن الناس لا يرون في الحاوي إلا ثعباناً كبيراً.

دخل معًا إلى دهليز غير قصیر يفضی فی نهايته إلى حجرة مغلقة،
على حين قامت على الجانبيں حجرتان مغلقتان. وأردف البلقيطي وهو
يشير إلى الحجرة المواجهة للداخل :

- في هذه الحجرة توجد أدوات العمل ، الحى منها والجامد ،
لاتخشن شيئاً فبابها محكم الإغلاق ، أؤكد ذلك أن الشعابين أصلح
للمعاشرة من أناس كثرين ، كالذين فررت منهم مثلًا !
ثم ضحك كاسفًا عن فيه الخرب وقال :

- الناس تخاف الشعابين ، حتى الفتوات تخافها ، أما أنا فأأدين لها
برزقى ، وبفضلها أقمت هذا البيت .
وأشار إلى الحجرة اليمنى وهو يقول :

- هنا تنام ابتساى ، ماتت أمهمما من زمن تاركة إياتى لشيخوخة لا
تصلح للزواج من جديد . (ثم أشار إلى اليسرى) وهنا سننام
معًا .

وترامى صوت الفتاة القصيرة من سلم جانبي يصعد إلى السطح
وهي تناهى :

- شفيقة ساعدتني في الغسيل ولا تقفى هكذا كالحجر بلا عمل .
فصاح البلقيطي :

- يا سيدة ! صوتك سيوقظ الشعابين ، وأنت يا شفيقة لا تقفى
الحجر !

اسمها شفيقة ؟! ما أبدع المليحة ! وزجرها غير الجارح . والشكر
الصامت في عينيها السوداين . من يخبرها بأنه ما قبل هذه الضيافة
الخطيرة إلا من أجل عينيها ؟

ودفع البلقيطي باب الحجرة اليسرى وأوسع لجبل حتى دخل ثم تبعه
ورد الباب . ومضى الرجل إلى كتبة قتند بطول الحجرة الصغيرة في

جانبها الأيمن ، متأيضاً ذراع جبل حتى جلسا معاً . وأحاط جبل بالحجرة بنظرة واحدة ، فرأى فراشاً في الجانب الآخر مغطى ببطانية ترابية اللون ، وفي أرض الحجرة فيما بين الفراش والكتبة حصيرة مزركشة تتوسطها صينية نحاسن حال لونها من كثرة البقع ، ويرقد وسطها موقد هرمي الرماد ، مركونة إلى قائمته جوزة ، وعلى سطح حافته سيخ وكماشة وحفنة من معسل جاف . ولم يكن يرى من النافذة الوحيدة المفتوحة إلا الخلاء والسماء الشاحبة وجداراً شاهقاً داكناً عن بعد من جدران المقطم ، على حين ورد منها خلال الصمت المخيم زعيق راعية ونسائم مشبعة بحرارة الشمس الساطعة . وكان البلقيطي يتفحشه لحد المضايقه ففكراً في أن يشغله عن نفسه بالحديث ولكن السقف فوقهما اهتز لوقع أقدام تمشى فوق السطح فاهتز قلب جبل . تخيل أول ما تخيل قدميها ففاض قلبه برغبة كريمة في أن تخل السعادة بالبيت ولو انطلقت ثعابينه ، وقال لنفسه : «قد يغتالنى هذا الرجل ويدفننى في الخلاء كما دفنت قدرة دون أن تدرى فتاتى أنى ضحيتها هى» .

وأيقظه صوت البلقيطي وهو يسأله :

- هل لك عمل؟

فأجابه وهو يتذكر آخر نقود يملكتها في جيبه :

- مأجد عملاً، أى عمل.

- لعلك في غير حاجة عاجلة إلى عمل؟

فداخله شيء من القلق لهذا السؤال وقال :

- بل يحسن بي أن أبحث عن عمل اليوم قبل الغد!

- لك جسم فتوات!

- لكنى أكره العدون!

فضحك البلقيطي وتساءل :

- ماذا كنت تعمل في الحرارة؟
فتردد قليلاً ثم قال :
- كنت أعمل في إدارة الوقف .
- يا خبرأسود! وكيف تهجر هذا التعييم؟
- حظى!
- هل طمعت عيناك في إحدى الهوامن؟
- اتق الله يا شيخ .
- إنك شديد الخذر، ولكنك ستأنس إلى سريعاً وتفوضي لي بكل
أسرارك .
- إن شاء الله .
- معك نقود؟
فعاوده القلق ولكنه لم يكشف عنه وقال ببراءة :
- عندي قليل منها لن يغنى عن السعي .
فقال البلقيطي وهو يرمي :
- أنت ذكي كالعفاريت، ألا تدرك أنك تصلح حاويات؟ لعلنا نتعاون
معاً، لا تدهش لقولي، فإني عجوز في حاجة إلى المعين .
لم يأخذ قوله مأخذ الجد ولكن كان مدفوعاً برغبة عميقة إلى توثيق
صلة به، وهم بأن يتكلم ولكن الآخر يادره قائلاً :
- سنفكر في ذلك على مهل، أما الآن ..
ونهض الرجل، ومال فوق الموقف فرفعه، ومضى به خارجاً كأنما
ليشعله .

* * *

وقبيل العصر خرج الرجالان معاً، فمضى البلقيطي إلى تجواله،

وقصد جبل السوق للفرحة والتسوق. وعاد مع المساء إلى الخلاء فاهاهتدى إلى البيت المنعزل على بصيص نور ينبعث من نافذة. ولما بلغ البيت ترامت إلى أذنيه أصوات محدثمة في نقاش فلم يملك إلا أن يصفى. سمع سيدة تقول:

- إن صع ما تقول يا أبي فإن وراءه جريمة ونحن لا قبل لنا بفتوات الحارة.

فقالت شفيقة:

- لا يدرو أنه مجرم

فقال البلقيطي بسخرية واضحة:

- وهل عرفته لهذا الحد يا بنت الأفاعى؟

فقالت سيدة:

- لماذا يهرب من النعيم؟

فقالت شفيقة:

- ليس عجياً أن يهرب الإنسان من حارة اشتهرت بكثرة فتواتها!

فتساءلت سيدة بسخرية:

- من أين أتيك هذه القدرة على معرفة الغيب؟

فقال البلقيطي متنهداً:

- معاشرة الشعابين جعلتني أنجب حيتين!

- أتستضيفه يا أبي وأنت لا تدرى عنه شيئاً؟

عرفت عنه أشياء، وسأعرف كل شيء. لى عيбан يعتمد عليهما عند الحاجة، ثم استضفته متأثراً بشهادته ولن أرجع عن رأى.

ما كان يتتردد عن الذهاب في غير هذا الظرف. ألم يهجر بيت النعيم بلا تردد؟ ولكننه يذعن للقوة التي تشهده إلى هذا البيت. وطرب منه الفؤاد حتى سكر لسماع الصوت الذي دافع عنه. صوت الحنان الذي

بدد وحشة الليل والخلاء وجعل الهلال السابع فوق الجبل يبتسم كمن يزف بشري في الظلام. ولبث ينتظر في الظلام، ثم سعل، وأقبل نحو الباب فطرقه. ففتح الباب عن وجه البلقيطي الذي انعكس عليه ضوء المصباح في يده. وذهب الرجلان إلى حجرتهما فجلس جبل بعد أن ترك فوق الصينية النحاس لففة جاء بها. ونظر البلقيطي إلى اللفة متسائلاً فقال جبل:

- تغروجن وحلاؤه طحينة وطعمية ساخنة.

فابتسم البلقيطي، وجعل يشير إلى الجوزة تارة وإلى اللفة أخرى ويقول:

- خير الليل ما مضى بين هذا وذاك.

وربّت كتفه متودداً وهو يتساءل:

- أليس كذلك يا ابن الواقف؟

وانقبض قلبه على رغمه، وتولّت على مخيلته صور الهاشم التي تبته والحدائق الغناء بأعراس الياسمين والعصافير والمياه الجارية، والطمأنينة والسلام والأحلام الناعمة، دنيا النعيم الزائلة، حتى أوشكت الحياة أن تفسد. وإذا بمواحة تدفع ذكرياته الغارقة في الأسى إلى بر الأمان إلى هذه الصبية الودودة الطيبة، إلى القوة الساحرة التي تشده إلى بيت فيه وكر للثعابين، فقال بحماس غير متوقع كتوهج مصباح إثر هبة نسيم:

- ما أطيب الحياة في جوارك يا عاصم!

لم يعطف عليه النوم إلا قبيل الفجر إذ عانى من الخوف كثيراً. وزاره طيفها في هلوسة المخاوف كما تساقط أوراق الياسمين على حشائش

جافة تسعى بينها الحشرات . كابد الأوهام التى تلدها الظلماء فى البيت الغريب . وقال لنفسه فى الظلام : «ما أنت إلا غريب فى بيت الشعابين ، تطاردك جريمة ويهتز قلبك بالعشق». ولو ترك شأنه ما راغب فى غير السلام والدعة . وما خاف الشعابين قدر خوفه الغدر من ناحية ذلك الرجل الذى يتعالى شخيره فى فراشه ، فمن أدراه أن شخيره صادق؟ وما عاد يطمئن إلى صدق شيء . حتى دعيس المدين له بحيانه ستذيع حماقة السر فيثور زقطط وتبكي أمه وتندلع النيران فى الحارة التعيسة . والحب الذى شده إلى هذا البيت ، وإلى حجرة رفيقه مروض الشعابين ، من أدراه أنه سيعيش حتى يصرخ بمكتونه . هكذا لم يعطف عليه النوم إلا قبيل الفجر بعد أن عانى من الخوف كثيراً .

وفتح عينيه المقلتين عندما نضحت النافذة المغلقة بنور الصباح . رأى البلقيطي جالساً فى فراشه متقوس الظهر ، يدליך بيديه المعروقين ساقيه تحت الغطاء . وابتسم فى ارتياح على رغم الدوخة الملحة برأسه لقلة النوم . لعن الأوهام التى تعشش فى الرأس فى الظلام وتتبدد فى النور كالخفافيش . أليست أوهاماً جديرة بسوء ظن قاتل؟ أجل ، إن أسرتنا المجيدة تجرى فى دمائها الجريمة منذ القدم . وسمع البلقيطي يتثنأب بصوت مرتفع متماوج كاللحية الراقصة فهاج صدره وراح يسعل طويلاً بشدة حتى خيل إليه أن وجهه سيفلظ عينيه . ولما سكت السعال تأوه الرجل من الأعماق فقال جبل :

- صباح الخير .

وجلس على الكتبة فالتفت البلقيطي نحوه ووجهه ما زال محظناً من السعال وقال :

- صباح الخير يا معلم جبل ، يا من لم ينم من الليل إلا أقله .
- لعل وجهي متغير؟

ـ بل أذكر تقلبك في الظلام والتفاتات رأسك نحوى كالخائف !
ـ ياللک من ثعبان ! ولكن کن ثعباناً غير سامٌ وحق العينين
ـ السوداين !

ـ الحق إنني أرقت لتعيير مكان النوم .
ـ فضحك البليقطي قائلاً :

ـ أرقت لسبب واحد وهو أنك كنت تخافنى على نفسك ، قلت
ـ سيفتنى ويسلبنى نقودى ثم يدفننى في الخلاء كما فعلت أنا بالرجل
ـ الذى قتله .

ـ أنت .. .

ـ اسمع يا جبل ، المخوف شديد الإيذاء ، والشعبان لا يلدغ إلا عند
ـ المخوف !

ـ فقال جبل في انهزام خفى :
ـ إنك تقرأ ما ليس في الصدور .

ـ إنك تعلم أننى ما جاوزت الحق يا موظف الوقف السابق !
ـ وترامى صوت من الداخل ينادي بقوه : «يا سيدة تعالي». فتشعر
ـ روحه بانبساط غير متوقع . هذه الحمامنة الزاجلة فى وكر الشعابين ، التي
ـ قضت له بالبراءة وجذبته إلى شجرة الآمال المورقة . وقال البليقطي
ـ وكأنه يعلق على نداء شفيفة :

ـ النشاط يدب في بيتنا منذ الصباح الباكر ، فتنطلق هاتان البتتان إلى
ـ الطريق لتعودا بالماء والمدمس لتطعمما بأباهما العجوز ثم ترسلاه
ـ بجراب الشعابين ليتقطط لنفسه ولهمما الرزق .
ـ وحلت السكينة بقلبه ، وشعر بأنه عضو في هذه الأسرة ، وفاضت
ـ نفسه بالملوحة ، فترزع إلى فتح صدره والتسليم إلى مقاديره في عفوية لا
ـ تقاوم فقال :

- يا معلم ، بالحق سأقص عليك قصتي .
- فابتسم البلقيطي وتشاغل بتدليلك ساقيه فعاد جبل يقول :
- إنني قاتل كما قلت ، ولكن لي قصة .
- وقص عليه قصته . ولما فرغ قال الرجل :
- يا لهم من قوم ظالمين ! أما أنت فرجل شهم ولم يخب نظرى فيك .
- واعتدل في جلسته باعتزاز ثم قال :
- من حرك الآن أن أبادلك صراحة بصرامة ، فاعلم أنني أنتسب في الأصل إلى حارة الجبلاوي .
- أنت ؟!
- نعم ، وفررت منها في صدر الشباب ضيقاً بفتواتها !
- فقال جبل والدهشة لم تزايله بعد :
- هم شقاء حارتنا .
- نعم ، لكننا لا ننسى حارتنا على رغم فتواتها ، ولذلك أحببتك عندما عرفت أصلك .
- من أى حي كنت ؟
- من حي آل حمدان مثلك .
- يا للعجب !
- لا تعجب لشيء في هذه الدنيا ، لكنه تاريخ مضى من بعيد ، فلا أحد يعرفني الآن ولا تمر حنة نفسها التي تربطني بها صلة قربي .
- أعرف هذه السيدة الشجاعة ، ولكن من كان غرييك من الفتوات ؟
- ـ قلط ؟
- لم يكن في ذلك العهد إلا فتاة حي حقير .
- قلت هم شقاء حارتنا !

- أبصق على الماضي بكل ما فيه .

ثم قال بلهجة فيها إغراء :

- اشغل نفسك منذ الساعة بمستقبلك ، وهأنذا أكرر لك القول بأنك تصلح حاوياً ماهراً ، ولنا مجال مريع في الجنوب من هنا ، بعيداً عن حارتنا ، وعلى أي حال ففتواتكم وأتباعهم لا يظهرون في هذا الحمى .

لم يكن بطبيعة الحال يدرى شيئاً عن فن الحواة ولكنه رحب به باعتباره الوسيلة التي ستلتصقه بهذه الأسرة ، فتساءل بنبرات فضحت رضاه :

- أتراني أصلح حقاً لذلك؟

فوثب الرجل إلى الأرض في سرعة بهلوانية ووقف أمامه بجسمه القصير وقد كشف طوق جلبابه عن شعر كث أبيض وقال :

- أنت موافق ، لم يخب نظري في شيءٍ قط .

ومد له يده فتصاحثاً ثم قال الرجل :

- أصارحك بأنني أحبك أكثر من أي ثعبان عندي .

فضحك جيل في نشوة طفل ، وشد على يد الرجل ليمنعه من الذهاب حتى وقف متسائلاً ثم قال باندفاع لم تجد حيلة في منعه :

ـ يا معلم ، جبل يطلب القرب منك .

فابتسمت عيناً بلقيطي المحرقان وتساءل :

- حقاً !

- نعم ورب السماوات !

فضحك البلقيطي ضحكة قصيرة وقال :

- كنت أتساءل متى يأتري يفتخنى في ذلك ! نعم يا جبل فلست

أحمق، ولكنك الرجل الذى أعهد إليه بابتى مطمئناً، ومن حسن
الحظ أن سيدة فتاة ممتازة كما كانت المرحومة أمها!
واعتدى ابتسامة الابتهاج فى قم جبل ارتياك غير خاف كما يعتدى
أطراف الزهرة اليانعة الذبول، وخفى أن يتبدد حلمه بعد أن صار فى
قبضته وغمغم:

ـ لكن ..

ففقهه البلقيطي قائلاً:

ـ لكنك تطلب شفيقة! أعلم هذا يا ابن والدى، أخبرتني به عيناك
وحديث الصغيرة ومعاشرة الشعابين والحيّات، فلا تؤاخذنى فهله
هي طريقة الحواة فيما يعقدون من اتفاقات.

تنهد جبل من صميم القلب، وشعر ببرد الطمأنينة والسلام، ووُبَّت
بصدره مشاعر قوة وحماسة وانطلاق، حتى بيت النعيم لم يعد يبالى
به، ولا الجاه المولى، ولم يعد يخاف ما يتظره من كد ومرمة، فليسدّل
على الماضي ستاراً لا ينفع بضوء، وليبتلع النسيان المتاعب والألام
الماضية كافة، وليبتلع فيما يبتلع حنان القلب إلى الأمومة الضائعة.
في الضحى زغردت سيدة.

وسرى النبا السعيد في الحواري المجاورة.

ثم شهد سوق المقطم وحية زفة جبل.

٣٦

قال البلقيطي بلهجة انتقاد ساخرة:

ـ لا يجعل بالرجل أن يرکن إلى حياة الأرنب والديك! وها أنت ذا
لم تتعلم شيئاً وأوشكت نقودك أن تفرغ!

كانا يجلسان على فروة أمام باب الدار، وكان جبل يمد ساقيه على الرمال المشمسة تلوح في عينيه الغبطة والدعة فالتفت إلى حمي و قال باسمًا :

- عاش أبونا أدهم ثم مات وهو يتمنى الحياة البريئة اللاهية في الحديقة الغناء !

فضحكت البلقيطي ضحكة مرتفعة ونادي بأعلى صوته :

- يا شفيفة ! أدركى زوجك قبل أن يقتله الكسل .

فظهرت شفيفة على عتبة الباب وهي تنقى عدسًا في طبق على يدها وقد لفت رأسها بخمار أرجوانى أكد صفاء وجهها . تسأعلت دون أن ترفع عينيها عن الطبق :

- ما له يا أبي ؟

- يتمنى شيئين : « رضاك وحياة بلا عمل » .

فضحكت متسائلة في إنكار :

- وكيف يجمع بين إرضائك وقتل جوعاً ؟

فقال جبل :

- هذا سر الحاوي !

فلكرزه البلقيطي في جنبه قائلاً :

- لا تستهن بأشق المهن . كيف تخفي بيسنة في جيب متفرج وتستخرجها من جيب آخر في الصف الذي يقابلها ؟ كيف تحول البلى إلى كتاكيت ؟ كيف ترفض الحياة ؟

فقالت شفيفة التي بدت منورة بالسعادة :

- علمه يا أبي ، إنه لم يعرف من الحياة إلا الجلوس على مقعد وثير في إدارة الوقف .

فقام البليطي وهو يقول: « جاء وقت العمل ». ثم دخل البيت .
وراح جبل يتأمل زوجه بإعجاب ويقول :

- زوجة زقط دونك في الملاحة ألف درجة ، لكنها تقطع النهار على
أريكة ناعمة ، والأصيل في الحديقة تستنشق عبر الفل وتلهو بال المياه
الحارية .

فقالت بسخرية ومرارة معاً :

- هذا حال المتخمين بأرزاق الناس .

فهرش جانب رأسه متفكراً وقال :

- ولكن هنالك سبلاً إلى السعادة الشاملة .

- لا تحلم ، لم تكن حالما عندما نهضت للأخذ بيدي في السوق ، ولم
تكن حالما عندما طردت عنى ذباب البشر ، ولذلك دخلت قلبي .

فاشتاق أن يقبلها . ولم يهون من قيمة كلامها اقتناعه بأنه يعرف أكثر
منها . وقال :

- أما أنا فأحبيتك دون ما سبب .

- في هذه المخوارى من حولنا لا يحلم إلا المجانين .

- لماذا تربدين مني يا حلوة ؟

- أن تكون مثل أبي .

فتساءل معايناً :

- وهذه الخلاوة تقطر منك ما شأنها ؟

فانفرجت شفتاها عن ابتسامة وأسرعت أصابع يدها بين حبات
العدس .

- عندما فررت من الحرارة كنت أشقى الناس جميعاً ، ولكن لو لا ذلك
ما تزوجتك !

فضيحة حكمة فائلة :

- نحن مدينان في سعادتنا لفتوات حارتكم، كما يدين أبي في رزقه
للحيات والشوابين.

فتهنئ جبل قائلًا :

- ومع ذلك فقد آمن خير من عرفته حارتكم من أبنائهما بأنه يوجد سبيل
يكفل الرزق للناس وهم في الحدائق يغدون.

- رجعنا! ما هو ذا أبي قادم بجرابه، قم رعاك الله.

وجاء البلقيطي بجرابه وقام جبل ومضى الاثنان في طريقهما
المعهود. وجعل البلقيطي يقول له :

- تعلم بعينيك كما تتعلم بعقلك، انظر ماذا أفعل ولا تسألني أمام
أحد من الناس، واصبر حتى أوضح لك ما يغمض عليك فهمه.
ووجد جبل الحرفة شاقة حقا، ولكنه لم يستهن بها من أول الأمر
ووطن نفسه على الحذق فيها مهما كلفه الجهد. والواقع أنه لم يكن أمامه
من مهنة أخرى إلا أن يرضى بهمه باائع جوال أو الفتونة أو اللصوصية
وقطع الطريق. لم تكن الموارى في حيّه الجديد لتختلف عن حارته في
شيءٍ عدا الوقف والقصص التي نشأت حوله. وقد رسست في قراره
نفسه حسرة متخالفة من أحلام الماضي وذكريات المجد الغابر والأمال
التي يتعدب بسببها آل حمدان كما تعذب أدهم من قبل. وكان مصمماً
على النسيان بالقاء نفسه في خضم الحياة الجديدة وتقبلها وفتح الصدر
لها، واللواذ بزوجه المحبة المحبوبة كلما خطر له خاطر حزن أو هوان في
تجواله. وتفوق على أحزانه وذكرياته وبرع في تعليمها حتى أدهش
البلقيطي نفسه.

كان يواصل التدريب في الخلاء ويعمل في النهار والليل، وتمضي
الأيام والأسابيع والأشهر فلا تهن له عزيمة ولا يدركه الكلال. وقد

عرف الحوارى والأزقة . واستأنس الثعابين والحيّات . ولعب أمامآلاف الصبية . وذاق حلاوة النجاح والربح . وتلقى بشرى الأبوة المقبلة . واستلقي على ظهره يرعى النجوم حين الراحة . وسهر الليلى يتجادب مع البلقيطى الجوزة ويقص القصص التى كانت الرباب ترويها بقهوة حمدان . وتساءل : من حين إلى حين أين الجبلواى؟ ونادى كثيرا يا جبلواى . وإذا شفقت شفيقة من أن يفسد عليه الماضى حياته هتف بها : إلى هؤلاء ينتسب الشيء الذى فى بطنك ، وأآل حمدان الله ، والأفندى رأس الاغتصاب كما أن زقط رأس الإرهاب ، فكيف تطيب الحياة وبها أمثال أولئك؟

* * *

ويوماً كان يعرض الأاعيبه فى زينهم وسط حلقة محكمة من الصغار . ولاحت منه التفاتة فرأى أمامه دعبس وقد شق سبيله إلى الصف الأمامي وراح يحملق فيه بذهول . اضطرب جبل وتجنب النظر إلى وجهه ولم يعد بمستطاعه أن يواصل عمله فأنهاء على رغم احتجاج الصغار ، ورفع جرابه ومضى . وما بث أن لحق به دعبس وهو يصبح :

- جبل ! أهذا أنت يا جبل؟!

فتوقف عن السير ملتفتاً إليه وقال :

- نعم ، ماذا جاء بك يا دعبس؟

ولم يفق دعبس من دهشته وجعل يقول :

- جبل حاو؟! متى تعلمت هذا؟ وأين؟

فقال جبل باستهانة :

- ليس هذا بأعجب ما يقع في هذه الدنيا .

وسار جبل والأخر يتبعه حتى بلغا سفح الجبل ثم جلسَا في ظل

نتوء، ولم يكن بالمكان إلا أغنام ترعى وراغ جلس عاريًا يفلّي جلباه.
ونفرس دعبس في وجه صاحبه وقال :

- لماذا هربت يا جبل؟ كيف ساء ظنك بي حتى توقعت أن أخونك؟
والله ما أخون أحداً من آل حمدان ولو يكون كعبلاها! ولحساب من
أخونك؟ الأفندي أم زقطل؟ فليحرقهم رب السماوات جميعاً،
كم سألا عنك كثيراً، وكنت اسمعهم يسألون فأغرق في عرقى.
فقال جبل باهتمام :

- خبّرنى كيف تعرض نفسك للانتقام بالتسلل من ربلك؟
فلوح دعبس بيده في استهانة قائلاً :

- رفع الحصار عنا من زمن، لم يعد أحد يسأل اليوم عن قدرة أو
قاتلها، ويقال إن هدى هاتم هي التي أنقذتنا من الموت جوعاً، ولكن
قضى علينا بالذل إلى الأبد، ولا مقهى لنا ولا كرامة. نسعى في
أعمالنا بعيداً عن حارتنا وإذا عدنا توارينا وراء الجدران، وإذا عثر
على أحدنا فتوة عبث به صفعاً أو بصفقاً. إن تراب حارتنا اليوم أكرم
عليهم منا يا جبل.. . ما أسعده في غربتك!

فقال جبل بامتعاض :

- دع سعادتي وشأنها وخبّرنى ألم يصب أحد بسوء؟
فقال دعبس وهو يتناول طوبه ويضرب بها الأرض :

- قتلوا منا عشرة في عهد الحصار!
- يا رب السماوات!

- ذهبوا فداء لقدرة الخقير ابن الخقيرة، ولكنهم ليسوا من أصحابنا!
فقال جبل بحنق :

- ألم يكونوا من آل حمدان يا دعبس؟

فرمش دعبس حباء وتحركت شفتاه بعد غير مسموع، فعاد جبل يقول:

- والآخرون ينعمون بالصفع والبصر.

وشعر الرجل بأنه مسئول عن الأرواح التي أزهقت، وعصر الألم قلبه. ووجد ندماً دامياً على كل لحظة سلام مرت به منذ هجرته. ودهمه دعبس بقوله:

- لعلك الوحيد السعيد اليوم من آل حمدان.

فهتف:

- لم أكف يوماً عن التفكير فيكم.

- لكنك بعيد عن الهم والغم.

فقال بحدة:

- لم أفلت من الماضي قط.

- لا تبدر راحة بالك بلا أمل، لم يعد لنا أمل.

فرد دعبس قوله الأخير ولكن في نبرات غامضة:

- لم يعد لنا أمل!

فرمش دعبس باهتمام مستطلاعاً ولكنه لم ينبس احترااماً للحزن المرسوم على وجهه. ونظر إلى الأرض فرأى خنفساء تدب مسرعة حتى اختفت تحت كومة أحجار. وكان الراعي ينفض جلبابه ليغطي جسده الذي ألهبته الشمس. وعاد جبل يقول:

- في الحق لم أكن سعيداً إلا في الظاهر.

فقال مجاملأً:

- إنك تستحق السعادة عن جدارة.

- تزوجت واتخذت لنفسي عملاً جديداً كما ترى وما برح نداء خفي يلح في إقلاق منامي.

- فليباركك الله، أين تقيم؟
 - لم يجبه. وبذا وكانه يخاطب نفسه. ثم قال:
 - لا تطيب الحياة وبها أمثال أولئك الأوغاد.
 - صدقت، ولكن كيف التخلص منهم؟
- ارتفع صوت الراعي وهو ينادي أغنامه، ويسير نحوها متابعاً عصاه الطويلة، ثم ترami عنه لحن غناء غير واضح. وتساءل دعبس:
- كيف أستطيع أن ألقاك؟
- سل عن بيت البلقيطي الحاوى عند سوق المقطم ولكن اكتم خبرى إلى حين.
- ونهض دعبس فشد على يده ومضى والآخر يتبعه بعينين محزقتين.

٣٧

أوشك الليل أن يتصرف. وكادت حارة الجلاوى تغرق في الظلمة لولا أضواء وانية تتسلل من أبواب المقاھى المواربة انتقاء للبرد. ولم يلح في سماء الشتاء نجم واحد وتوارى الغلمان في الحجرات وحتى الكلاب والقطط آوت إلى الأنفية. ومن خلال الصمت الشامل انبعثت أنغام الرباب الرتيبة تردد الحكايات ، أما حتى آل حمدان فقد تلفع بظلمة خرساء. وجاء شبحان من ناحية الخلاء ، فسارا تحت سور البيت الكبير، ثم مراً أمام بيت الأندى ، قاصدين حتى آل حمدان ، حتى وقفوا أمام الربع الأوسط وطرق أحدهما الباب ، فرنّ الطريق في الصمت مثل قرع الطبول. وفتح الباب عن وجه حمدان نفسه الذى بدا شاحباً على ضوء

سراج بيده ورفع السراح ليتبين وجه الطارق، وما عنم أن هتف في
دهشة :

- جبل؟!

- وتنحى عن الباب فدخل جبل حاملاً بقحة كبيرة وجرايأ، وتبعته زوجه حاملة بقحة أخرى. وتعانق الرجلان. وألقى حمدان نظرة سريعة على المرأة فلمح بطنها، وقال :

- زوجتك؟ أهلاً بكم، اتبعانى على مهل.

اخترقوا دهليزاً طويلاً مسقوفا حتى بلغوا الحوش الواسع غير المسووف، ثم مالوا إلى السلم الضيق ورقوا فيه حتى مسكن حمدان. وأدخلت شفيقة إلى الحرير، ومضى حمدان بجبل إلى حجرة واسعة متصلة بشرفة مطلة على حوش الربع. وما لبث خبر عودة جبل أن ذاع فأقبل كثيرون من رجال آل حمدان على رأسهم دعبس وعتريس وضلعة وفوانيس ورضوان الشاعر وعبدون، فصافحوا جبل بحرارة، وجلسوا في الحجرة على الشلت يتطلعون إلى العائد باهتمام وحب استطلاع. وتناولوا نظرات الأسى. ورأى جبل أن أرواحهم المضعضعة تنعكس على أجسادهم المهزولة وأن الفنان يدب في الأوصال. وقصوا عليه ما يلقون من هوان فقال دعبس إنه أخبره بكل شيء في لقاء اتفق لهما منذ شهر، وأنه لذلك يعجب لما جاء به، وسأله ساخراً :

- أجبت لتدعونا للهجرة إلى مقامك الجديد؟

فقال جبل بحدة :

- لا مقام لنا إلا هنا!

وذهب الأسماع في صوته نبرة قوة حتى لاح الاستطلاع في عيني حمدان وقال :

- لو كانوا ثعابين لما استعصى عليك ردعهم .
ودخلت تمر حنة بأقداح الشاي فحيث جبل تحية حارة ، وأثبتت على زوجه ، وتبأت له بأنه سينجح ذكرأ ، ولكنها قالت مستدركة :

- لم يعد من فارق بين رجالنا ونسائنا !

ونهرها حمدان وهي تغادر الحجرة ، ولكن أعين الرجال عكست اقتناعاً ذليلاً بقولها ، وتکاففت سحب الأحزان المخيمه على المجلس ، فلم يذق أحد للشاي طعمأ . وتساءل رضوان الشاعر :

- لماذا عدت يا جبل وأنت لم تألف الإلهانة ؟

فقال حمدان بصوت ينم عن الانتصار :

- قلت لكم مرارا إن الصبر على ما نلقى خير من التسкуع بين غرباء .
سيكرهوننا .

فقال جبل بقوه :

- ليس الأمر كما نرى .

وهز حمدان رأسه دون أن ينبس ، فсад صمت حتى قال دعبس :

- يا جماعة فلتدركوا ليستريح .

ولكنه أشار لهم بالبقاء وقال :

- ما جئت لاستريح ، ولكن لأحدثكم في شأن خطير ، أخطر مما تتصورون .

ونطلعت إليه الأعين بدھشة وغمغم رضوان متميناً الخير فيما سيسمع . أما جبل فراح يقلب في الوجه عينيه القويتين ، ثم قال :
- كان بوسعى أن أمضى العمر كله في أسرى الجديدة دون تفكير في العودة إلى حارتنا .

وصمت ملياً ، ثم عاد يقول :

- لكنه حدث منذ أيام معدودة أن شعرت برغبة في المشي وحدى على رغم البرد والظلم، فخرجت إلى الخلاء، وإذا بقدمي تقدمني إلى البقعة المشرفة على حارتنا، ولم أكن دنوت منها منذ هروبي.

تجلى الاهتمام في الأعين فواصل الرجل حديثه قائلاً:

- مضيت في تجوالي في ظلام دامس، فحتى النجوم توارت وراء السحب، وما أدرى إلا وأنا أوشك أن أصطدم بشبح هائل، توهنته أول الأمر أحد الفتوات، ولكنه بدا لي شخصاً ليس كمثله أحد في حارتنا ولا في الناس جميماً، طويلاً عريضاً كأنه جبل، فامتلأت رهبة وهمت بالتراجع، وإذا به يقول بصوت عجيب: «قف يا جبل!». فتسمرت في مكانني وسألته وجلي ينضح بالخوف: «من؟ من أنت؟».

وتوقف جبل عن الحديث فمالت الرءوس إلى الأمام في اهتمام، وتساءل ضلعة:

- من حارتنا؟

ولكن عتريس قال بسرعة معتراضاً:

- قال إنه ليس كمثله أحد في حارتنا ولا في الناس جميماً.

ولكن جبل قال:

- بل إنه من حارتنا!

وتساءلوا عن هويته جميماً فقال جبل:

- قال لي بصوته العجيب: «لا تخف، أنا جلك الجبلاوي!». وارتفعت صيحات الدهشة من الجميع ورمقوه بنظرات الارتياح، وقال حمدان:

- إنك تهزز دون شك.

- بل أقول الحق دون زيادة ولا نقصان!

فـسألـه فـوايـسـ :

- ألم تـكن مـسـطـولـاـ؟

فـصـاحـ جـبـلـ بـغـضـبـ :

- إـنـ السـطـلـ لـمـ يـذـهـبـ بـعـقـلـ قـطـ!

فـقاـلـ عـتـرـيـسـ :

- لـهـ لـطـشـاتـ لـاـ تـعـرـفـ عـزـيزـاـ وـخـصـوـصـاـ الـأـصـنـافـ الـجـيـدةـ!

فـتـبـدـىـ الغـضـبـ فـيـ وجـهـ جـبـلـ كـالـسـحـابـ الـمـظـلـمـ وـصـاحـ :

- سـمـعـتـهـ بـأـذـنـيـ وـهـوـ يـقـولـ لـىـ : (لا تـخـفـ ، أـنـاـ جـدـكـ الـجـلـاوـيـ)!

فـقاـلـ حـمـدانـ بـرـقةـ لـيـسـكـنـ غـضـبـهـ :

- لـكـنـهـ لـمـ يـغـادـرـ بـيـتـهـ مـنـ زـمـنـ وـلـمـ يـرـهـ أـحـدـ!

- لـعـلـهـ يـخـرـجـ كـلـ لـيـلـةـ دـوـنـ أـنـ يـدـرـىـ أـحـدـ.

فـعـادـ حـمـدانـ يـتسـاءـلـ فـيـ حـذـرـ :

- لـكـنـ أـحـدـاـ غـيرـكـ لـمـ يـصـادـفـهـ!

- صـادـفـتـهـ أـنـاـ!

- لـاـ تـغـضـبـ يـاـ جـبـلـ فـمـاـ قـصـدـتـ التـشـكـيـكـ فـيـ صـدـقـكـ ، وـلـكـنـ
الـوـهـمـ خـدـاعـ . بـالـلـهـ خـبـرـنـيـ إـذـاـ كـانـ الرـجـلـ يـسـتـطـيـعـ الـخـرـوجـ مـنـ بـيـتـهـ ،
فـلـمـاـذـاـ نـزـلـ عـنـ النـظـارـةـ لـغـيـرـهـ؟ وـلـمـاـذـاـ يـتـرـكـهـمـ يـعـثـوـنـ بـحـقـوقـ أـبـنـائـهـ؟!

فـقاـلـ جـبـلـ مـقـطـباـ :

- هـذـاـ سـرـهـ وـهـوـ بـهـ أـعـلـمـ .

- إـنـ مـاـ قـيلـ عـنـ اـعـتـزـالـ لـكـبـرـهـ وـعـجـزـهـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـمـعـقـولـ .

فـقاـلـ دـعـبـسـ :

- إـنـاـ نـتـخـبـطـ بـيـنـ الـأـقـاوـيلـ ، دـعـونـاـ نـسـمـعـ الـقـصـةـ إـنـ كـانـ لـهـ بـقـيةـ .

فـقاـلـ جـبـلـ :

- قلت له: «لِمْ أَحْلَمُ أَنْ أَقَابِلُكَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ». فَقَالَ: «هَا أَنْتَ ذَا تَقَابِلَنِي». وَحَدَّدَتْ بَصَرِي لِأَتَبَينَ وَجْهَهُ الْمَرْتَفَعُ فِي الظَّلَامِ فَقَالَ لِي:

«لَنْ تَسْتَطِعَ رَؤْيَتِي مَا دَامَ الظَّلَامُ». فَقَلَّتْ بِذَهَولِ لِرَؤْيَتِهِ مُحاوَلَةُ رَؤْيَتِي لَهُ: «لَكِنَّكَ تَرَانِي فِي الظَّلَامِ». فَقَالَ: «إِنِّي أَرَى فِي الظَّلَامِ مِنْذَ اعْتَدْتَ التَّجْوَالَ فِيهِ قَبْلَ أَنْ تَوْجَدَ الْحَارَةُ». فَقَلَّتْ بِإعْجَابٍ: «الْحَمْدُ لِرَبِّ السَّمَاوَاتِ عَلَى أَنَّكَ مَا زَلْتَ تَسْتَمْعُ بِصَحْتَكَ». فَقَالَ: «أَنْتَ يَا جَبَلُ مَنْ يَرْكَنُ إِلَيْهِمْ، وَآيُّ ذَلِكَ هَجْرَتِ النَّعِيمَ غَضْبًا لِأَسْرَتِكَ الْمَظْلُومَةِ. وَمَا أَسْرَتِكَ إِلَّا أَسْرَتِي، وَهُمْ لَهُمْ فِي وَقْفِي حَقٌّ يَجِبُ أَنْ يَأْخُذُوهُ، وَلَهُمْ كَرَامَةٌ يَجِبُ أَنْ تَصَانَ، وَحَيَاةٌ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ جَمِيلَةً». فَسَأَلَتْهُ فِي فُورَةِ حَمَاسِ أَضَاءَتِ الظَّلَامِ: «وَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى ذَلِكَ؟». فَقَالَ: «بِالْقُوَّةِ تَهْزِمُونَ الْبَغْيَ، وَتَأْخُذُونَ الْحَقَّ، وَتَحْيُونَ الْحَيَاةَ الْطَّيِّبَةَ». فَهَفَتَتْ مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِي: «سَنَكُونُ أَقْوَيَاءً». فَقَالَ: «وَسَيَكُونُ النَّجَاحُ حَلِيفَكُمْ».

وَتَرَكَ صَوْتُ جَبَلٍ وَرَاءَهُ صَمْتًا كَالْحَلْمِ بَدَوَا فِيهِ جَمِيعًا مَسْحُورِينَ. كَانُوا يَفْكِرُونَ وَيَتَبَادِلُونَ النَّظَرَاتِ ثُمَّ يَتَجَهُونَ بِأَعْيُنِهِمْ إِلَى حَمْدَانَ حَتَّى خَرَجُوا مِنْ صَمْتِهِ فَائِلًا:

ـ فَلَتَدْبِرْ هَذِهِ الْحَكَايَةَ بِعَقْوَلِنَا وَقُلْوَبِنَا!

فَقَالَ دَعْبُسُ بِقُوَّةِ:

ـ إِنَّهَا لَا تَبْدُو وَهُمَا مِنْ أَوْهَامِ السُّطُولِ وَكُلُّ مَا تَضَمِّنَهُ حَقٌّ.

فَقَالَ ضَلَّمَةُ بِإِيَّاهُ:

ـ لَنْ تَكُونُ وَهُمَا إِلَّا إِذَا كَانَتْ حُقُوقُنَا وَهُمَا!

فَسَأَلَ حَمْدَانَ فِي شَيْءٍ مِنَ التَّرْدُدِ:

ـ أَلَمْ تَسْأَلَهُ عَمَّا يَنْتَهِهِ مِنْ إِجْرَاءِ الْعَدْلِ بِنَفْسِهِ؟ أَوْ عَمَّا جَعَلَهُ يَعْهُدُ بِالنِّظَارَةِ إِلَى قَوْمٍ لَا يَحْسَنُونَ القيامَ عَلَى حُقُوقِ النَّاسِ؟

فقال جبل بامتعاض :

- لم أسأله ، ولم يكن بوسعى أن أسأله ، أنت لم تلقه في الخلاء والظلمة ولم تستشعر الرهبة في حضرته . ولو وقع لك ذلك ما فكرت في مناقشته الحساب ولا داخلك الشك في أمره .

فهز حمدان رأسه فيما يشبه التسليم وقال :

- هذا كلام خلائق بالجلالوى حقا ، ولكن ما أخلقه بأن ينفذه بنفسه !
فصاح دعبس :

- انتظروا حتى تموتوا في هوانكم !

فتتحنح رضوان الشاعر وقال وهو ينظر بحذر في الوجه :

- كلام جميل ولكن فكروا فيما يجرنا إليه .

فقال حمدان بحزن :

- ذهبنا مرة نستجدى بعض حقنا فكان ما كان .

وإذا بعدون الصغير يصبح :

- علام نخاف وليس هناك أسوأ مما نحن فيه ؟!

فقال حمدان كالمعتذر :

- لست أخاف على نفسي ولكنني أخاف عليكم .

فقال جبل بازدراء :

- سأذهب إلى الناظر وحدى .

فقال دعبس وهو يتزحزح مقتربا من مجلسه :

- ونحن معك ، لا تنسوا أن الجلاوى وعده بالنجاح !

فقال جبل :

- سأذهب وحدى عندما أقرر الذهاب ، ولكننى أريد أن أطمئن إلى أنكم ستكونون ورائي وحدة متماسكة خليقة بمواجهة الشدة والصمود لها !

ووتب عبدون واقفا في حماس وهتف:
- وراءك حتى الموت!

وانتقل حماس الغلام إلى دعبس وعتريس وضلعة وفوانيس.
وتساءل رضوان الشاعر بشيء من المكر إن كانت زوجة جبل تدرى بما
جاء زوجها من أجله، فقص جبل عليهم كيف أنه أفضى بسره إلى
البلقيطي، وكيف نصحه الرجل بتقدير العواقب، وكيف أصر على
العودة إلى حارته، وكيف اختارت زوجه أن تسير معه إلى النهاية.
وعند ذاك قال حمدان بصوت أبأ بأنه مع الآخرين:

- ومتى تذهب إلى الناظر؟

فأجاب جبل:

- عندما تنضج خطتي.

فقام حمدان وهو يقول:

- سأدبلك مقاما في مسكنى، إنك أعز الأبناء، وهذه ليلة لها ما
وراءها، ولعل الرباب ترويها غدا موصولة بقصة أدهم، هلموا
نتعاهد على الخير والشر!

عند ذاك تصاعد صوت حمودة الفتوة، العائد مع الفجر، وهو يعني
بلسان مغمور متزوج:

يا واد يا سكري تشرب تنجلـي وتخش الحرارة تتطرح تنرمـي
وعامللى فنجـرى وتمـز بـجـبـرى
فلم يؤخذوا بصوته إلا لحظة، ثم مدوا أيديهم للتعاهد في حماس،
وفي رجاء.

وعلمت الحارة بعودة جبل . رأته يسير بجرابه . ورأت زوجته وهي تسعى إلى الجمالية لابتياع حوانجها . وتخدثوا عن مهنته الجديدة التي لم يسبقها إليها أحد من أبناء الحارة . على أنه كان يعرض الألعاب السحرية في الأحياء المجاورة دون حارته ، وتجنب استعمال الشعابين في الألعاب فلم يفطن أحد إلى أنه بها خبير . ومر بيته الناظر مرات وكأنما لم يطرقه في حياته وهو يكابد في أعماقه حنيناً أليماً إلى أمه . ورأه الفتوات مثل: حمودة واللبيثي وبركات وأبو سريح فلم يصفعوه كما يفعلون مع غيره من آل حمدان ، ولكنهم عرضوا به وهزئوا بجرابه . وصادفه مرة زقط فحدجه بنظره قاسية ، ثم اعترض سبيله متسللاً :

- أين كانت غيبتك؟

فقال في حلم :

- في الأرض الواسعة ..

فقال الرجل متحرشاً :

- إنى فتوتك ومن حقى أن أسألك عما أريد وعليك أن تجيب ..

- أجبتك بما عندى .

- وماذا أعاد بك؟

فقال في هدوء :

- ما يعود بالإنسان إلى حارته!

فقال له بصوت نمّ عن وعيه :

- لو كنت في مكانك ما أعدت!

وسار فجأة بقوة، فكاد يرتطم به لو لا أن تتحى جبل عن سبيله بسرعة، كاظماً غيظه. وإذا بصوت بباب بيت الناظر يناديه، فالتفت جبل نحوه دهشاً، ثم مشى إليه، فالتقى أمام البيت وتصافحا بحرارة. وجعل الرجل يسأله عن أحواله، ثم أخبره بأن الهاشم تود رؤيته. وكان جبل يتوقع هذه الدعوة منذ ظهره في الحارة. كان قلبه يحده بأنها آية لا ريب فيها. ومن ناحيته لم يكن بوسعه أن يزور البيت للحال التي غادره عليها. وفضلاً عن ذلك فقد قرر ألا يطلب المقابلة حتى لا يثير الشكوك حولها قبل أن تقع، سواء في نفس الناظر أم في نفوس الفتوات. ولكنه ما كاد يدخل البيت حتى جرى الخبر في الحارة جميماً. وألقى نظرة سريعة - عند مسيرة إلى السلاملك - على الحديقة، على أشجار الجميز والتوت العالي، وشجيرات الأزهار والورود التي تغطي الأركان، وقد اختفى العبير التقليدي تحت قبضة الشتاء، وغضى الجو نور هادي وديع كالأصيل كأنه يقطر من السحاب الأبيض المتشر. وصعد السلم وهو يطربد عن قلبه بقوة أسراب الذكريات. ودخل البهو فرأى في صدره الهاشم وزوجها جالسين، منتظرین.

نظر إلى أمه فتلاقت نظرتاهم، وقامت المرأة لاستقباله في تأثر شديد، فهو على يديها يقبلهما، ولثمت جبينه في حنان، فاجتاحه في موقفه شعور بالحب والسعادة. والتفت رأسه إلى الناظر فرأه جالساً في عباءته يطالعهما بعينين باردين، فمد له يده فقام نصف قومة ليصافحه وسرعان ما جلس. وجرت عينا هدى على جبل في دهشة ممزوجة بازعاج، وهو يبدو بجسمه الفارع في جلباب خشن مشمر وسطه بحزام غليظ، وفي قدميه مرکوب شبه بال، وعلى شعره الغزير طاقة عتماء، فتجلى في عينيها الرثاء. وتحدثت عيناهـ من دون اللسانـ فأبدلت حزنها على مظهره وعلى ما ارتضاه لنفسه من حبا، وكأنما كانت تطالع

أملاً باهراً اتهاوى إلى حطام . وأشارت له بالجلوس فجلس على مقعد قريب منها ، وجلست هي فيما يشبه الإعباء .

وأدرك ما يدور في نفسها فحدثها بصوت قوي عن حياته في سوق المقطم ، وعن مهنته ، وزواجه . حدثها حديث الراضي عن تلك الحياة على رغم خشونتها ، والقائع بها . فامتعضت لقوله وقالت :

- لتكن حياتك ما تكون ، ولكن كيف لم تجعل من بيتي أول بيت تقصده لدى عودتك إلى الحارة ؟

كاد يقول لها إنه ليس لعودته إلى الحارة من هدف إلا بيته ، ولكنه أجل ذلك ؛ لأن اللحظة لم تكن مناسبة ، وأنه لم يفق بعد من تأثر اللقيا . وأجاب قائلاً :

- كان بيتك أمنيتي ، ولكن لم أجد الشجاعة لاقتحامه بعد ما كان ..
وإذا بالأفندي يسأله بصوت بارد :

- ولماذا عدت ما دام العيش قد طاب لك في الخارج ؟

فندت عن الهانم نظرة عتاب نحو زوجها الذي تماهلاها . أما جبل فقال باسماً :

- لعلى عدت يا سيدى طاماً في لقياك !

فقالت هدى في عتاب :

- ولم تزرتنا حتى دعوناك يا جاحد .

قال جبل وهو يخفض رأسه :

- ثقى يا سيدى بأننى كلما ذكرت الظروف التى اضطررتنى إلى مغادرة هذا البيت لعنتها من صميم قلبي .

فحodge الأفندي بنظرة مريرة وهم بسؤاله عما يعني ، ولكن هدى سبقته قائلة :

- علمت بلا شك بعفونا عن آل حمدان إكراماً لك .
وأدرك جيل أنه آن لهذا الموقف العائلي الطيب أن يتهمى كما قدر له من أول الأمر ، وأنه آن للكفاح أن يبدأ ، فقال :
- الحق يا سيدنى أنهم يعانون ذلاًًاً عن الموت ، وقد قتل منهم من قتل .

فقبض الأفتدى بشدة على مسبحته وهتف بحدة :

- إنهم مجرمون ، وقد نالوا ما يستحقون .

فلوحت هدى بيدها فى رجاء وقالت :

- فلتنس الماضى كله .

فقال الأفتدى بإصرار :

- ما كان يجوز أن يضيع دم قدرة هدراً .

فقال له جيل بشبات :

- المجرمون حقاً هم الفتوات .

فوقف الأفتدى في عصبية ووجه الخطاب إلى زوجته قائلاً في لوم :

- أرأيت نتيجة إذاعاني لك في دعوته إلى بيتنا؟

فقال جيل بصوت أفصحت نبراته عمماً وراءه من عزم :

- سيدى ، كان في نيسى أن أجئك إليك على أي حال ، ولعل الاعتراف بالجميل الذي أكته نحو البيت هو الذي جعلنى أنتظر حتى أدعى إليه .

فرمقه الناظر بنظرة توجس وارتياح ثم سأله :

- ماذا تريدين من مجبيثك؟

فوقف جيل مواجهها الناظر في شجاعة ، وهو يدرك تماماً أنه يفتح باباً ستذهب منه العواصف جامحة ، ولكنه كان يستمد من مقابلة الخلام شجاعة لا تزعزع . قال :

- جئت مطالباً بحقوق آل حمدان في الوقف وفي الحياة الآمنة!
اسود وجه الأفندي من الغضب على حين فغرت الهام فاها من
الأس ، وقال الرجل وهو يحدجه بنظره محرقة :

- أتجرأ حقاً على معاودة هذا الحديث؟ أنسنت أن المصائب تتابعت
عليكم مذ جرأت شيخكم المخرف على التقدم بهذه المطالب
الخرافية؟ أقسم على أنك جنت ، ولست مطالباً بتضييع وقتى مع
المجانين .

وقالت هدى بصوت باك :

- جبل ، كان في نيتى أن أدعوك أنت وزوجك للإقامة معنا .

لكن جبل قال بصوت قوى :

- إنما ردت على مسامعك رغبة من لا تُرْدُّ له رغبة وهو جدك وجدنا
الجلالوى !

نظر الأفندي إلى جبل يامعان وتفرس وذهول . نهضت هدى جزعة
ووضعت كفها على منكب جبل وهي تتساءل :

- جبل ، ماذا دهاك؟!

فقال جبل باسماً :

- بخير يا سيدتى .

فقال الأفندي في ذهول :

- بخير؟ أنت بخير؟ ماذا حصل لعقلك؟

فقال جبل بهدوء وسکينة :

- اسمع قصتي واحكم بنفسك .

وفصّ عليهما ما سبق أن قصه على آل حمدان . ولما فرغ من قصته
قال الأفندي وكان يتفرس في وجهه طوال الوقت بريبة :

- الواقف لم يغادر بيته قط منذ اعتزل ..
فقال جبل :
- لكنني قابلته في الخلاء .
فسأله متهمكاً :
- ولماذا لم يطلعنى أنا على رغباته ؟
فقال جبل :
- هذا سره وهو به أعلم .
فضحك الأفندي ضحكة حانقة وقال :
- إنك حاو بحق وجدارة ، ولكنك لا تقنع بالأعيب الحواة وإنما تطعم
في اللعب بالوقف كله !
فقال جبل دون أن يزايله هدوئه :
- علم الله أنى ما جاوزت الحق ، فلنحتكم إلى الجبالوى نفسه إن
استطعت ، أو إلى شروطه العشرة ..
فانفجر غضب الأفندي . اربد وجهه وارتعدت أطرافه وصاح :
- أيها اللص المحتال ! لن تنجو من مصيرك الأسود ولو اعتصمت
بقمة الجبل ..
وهفتت هدى :
- يا للشقاء ! ما كنت أتوقع أن تجيشنى بهذه التعasse كلها يا جبل .
فتساءل جبل في عجب :
- أيدحدث هذا كله لا لشيء إلا لأننى طالبت بحق آلى المشروع ؟!
فصرخ الأفندي بأعلى صوته :
- اخرس يا محتال ، يا حشاش ، يا حارة حشاشين يا أولاد الكلب ،
اخرج من بيتك ، وإن عدت إلى هذيناك قضيت على نفسك وعلى
أهلك بالذبح كالنعام .

فقطب جبل غاضباً وصاح :
ـ احذر أن يتحقق بك غضب الجبلاوي .
فهجم الأفندي على جبل ولكمه في صدره العريض بأقصى قوته .
ولكن جبل تلقاها بثبات وصبر ، والتفت إلى الهانم قائلاً :
ـ إنما أكرمه إكراماً لك .
ثم ولّ لها ظهره وذهب .

٣٩

توقع آل حمدان شرّاً داهماً . وخالفت تمر حنة الإجماع ، فظلت أنه ما دام جبل على رأس آل حمدان هذه المرة فلن تسمع الهانم بالقضاء عليه . لكن جبل نفسه لم يؤمن بظن تمر حنة وأكّد أنه إذا هدد الوقف طامع فلن يقام وزن جبل ولا لأحد من الناس ولو كان أقربهم إلى الأفندي نفسه . وذكرهم جبل بوصية جدهم بأن يكونوا أقوىاء وأن يصدوا للملمات . ومضى دعبس يقول إن جبل كان يرفل في النعيم وإنه بهذه مختاراً إكراماً لهم ، فلا يصح أن يخذلك أحد ، وإن التذرع بالقوة إذا لم ينفع ، فلن يدفع بهم إلى أسوأ مما هم فيه بحال . والحق أن آل حمدان استشعروا الخوف وتورّت منهم الأعصاب ولكنهم وجدوا في البأس قوة وعزيمة فكانوا يرددون المثل القائل : «لطابت لاتنين عور» .
رضوان الشاعر وحده راح يقول متحسراً : «لو شاء الواقع لأعلن
كلمة العدل وقضى لنا بالحق ونجانا من هلاك مبين». وقد غضب جبل لما
بلغه قوله ، فقصده عابساً هائجاً ثم هزه من منكبيه حتى كاد يقتله من
مجلسه وصاح به : «أهذا هو حال الشعراء يا رضوان؟! تروون حكايات

الأبطال وتغنوون على الرباب ، فإذا جد الجد تقهرتم إلى المحصور وأشتم التردد والهزيمة؟! ألا لعنة الله على الجبناء!». والتفت إلى الحالين قائلاً: «لم يكرم الجيلاوي حيّاً من أحياه هذه الحارة كما أكرمكم ، ولو لم يكن يعتبركم أسرته الخاصة ما لا يقاني ولا يلمني ، ولكنه نور السبيل ووعد بالتأييد ، والله لا يكفر حنّ ولو كنت وحدي!». لكن بدا أنه لم يكن وحده. أيده كل رجل ، وأيدته كل امرأة ، وانتظروا جميعاً المحنة وكأنهم لا يبالون بالعواقب.

واحتل جبل مكان الزعامة في حبه بطريقة عفوية أملتها الأحداث دون قصد منه أو تدبير ، ودون ممانعة من حمدان الذي ارتاح إلى تخليه عن موضع سيصير هدفاً لهجوم لن يعرف مداه . ولم يقع جبل في الربع فخرج . مخالفًا نصيحة حمدان . ليتجول كعادته . كان يتوقع شرًّا عند كل خطوة ولكن أحدًا من الفتوات لم يتعرض له بسوء ، فعجب لذلك غاية العجب ، ولم يجد له من تفسير إلا أن يكون الأندى قد كتم أنباء المقابلة على أمل أن يسكت هو أيضًا عن مطالبه فيتهي الأمر وكأنه ما كان . وأشتفق من أن ينتهي الأمر وكأنه ما كان . ورأى وراء هذه السياسة وجه الهمم المحزون وأموتها الصادقة . وخاف أن يثبت حنانها أنه أقسى عليه من غلظة زوجها ، ففكّر طويلاً فيما ينبغي أن يفعل لينقض الرماد عن الجمر .

وأجرت في الحارة أحداث غريبة . فذات يوم ترامت استغاثة امرأة من بدرؤم ، وتبين أن ثعباناً زحف بين قدميها فخرجت تجري إلى الطريق . وقطوع رجال للتفتيش عن الثعبان فدخلوا مسكنها بعصيهم ، وفتشوا عن الثعبان حتى عثروا عليه ، فانهالوا عليه ضرباً حتى قتلوه ، وطروه على أرض الحارة فتلقفه الغلمان وراحوا يلعبون به مهملين . ولم يكن الحادث بالغريب في الحارة ولكن لم تكن تمضي ساعة حتى ارتفعت صرخة استغاثة ثانية من بيت في مطلع الحارة فيما يلى الجمالية . وما

جسم الليل حتى تعلالت ضجة في ربع من ربيع حمدان، إذ رأى البعض ثعباناً ولكنه اختفى قبل أن يلحق به أحد، وضاعت جهود القوم للعثور عليه، وعند ذلك نطوع جبل نفسه لاستخراجها مستعيناً بالخبرة التي اكتسبها عند البلقيطي. وتحدث آل حمدان عن وقفة جبل عارياً في المخواش، وعن لغته السرية التي خاطب بها الثعبان حتى جاءه طائعاً. وكادت تلك الأحداث تُنسى مع صباح اليوم التالي لو لا أن تكرر وقوعها في بيت أناس من ذوى الشأن. فقد دُمِّع دهليز الربيع الذي يقيم فيه، فصرخ الرجل لدغ حمودة الفتوة وهو يقطع دهليز الربيع الذي يقيم فيه، هنا انقلب الحادث أحدهاته. وقال الناس في الثعابين وأعادوا.

غير أن نشاط الثعابين العجيب لم يتوقف. فقد رأى بعض الصحابة في غرزة الفتوة بركات ثعباناً بين عمد السقف، لاح نصف دقيقة ثم اختفى، فهبوا مذعورين وتقوسوا على المجلس. وغطت أخبار الثعابين على حكايات الشعراء في المقاهي. ويداً أن نشاطها قد جاوز حدود الأدب، إذ ظهر ثعبان ضخم في بيت حضرة الناظر. ومع أن خدم البيت الكثيرين انتشروا في أركانه للتغتيش عن الثعبان المختفى إلا أنهم لم يقفوا له على أثر. وركب الخوف الناظر والهائم حتى فكرت جدياً في مغادرة البيت إلى أن تطمئن إلى خلوه من الثعابين. وبينما البيت مقلوب رأساً على عقب تراهى من بيت زقطن فتوة الحرارة صرراخ وضجة، وذهب الباب ليستطلع الخبر ثم عاد ليخبر سيده بأن ثعباناً لدغ أحد أبناء زقطن ثم اختفى. وتملك الخوف النفوس. وتتابعت الاستغاثات من الثعابين من كل ربع فصممت الهائم على مغادرة الحرارة.

وقال عم حسين الباب إن جبل حاو وللحواة خبرة باصطدام الثعابين، وأكد أنه استخرج ثعباناً من أحد ربيع آل حمدان. وامتنع لون الأفدي ولم ينبس، أما الهائم فأمرت الباب بأن يستدعي جبل. ونظر

الباب إلى سيده مستأذناً، فغمغم الأفندى بكلمات حانقة دون أن يبيّن. وخيرته الهامن بين دعوة جبل وبين مغادرة البيت، فأذن للرجل بالذهب وهو يتفضّل حنقاً وغضباً وتجمّع كثيرون فيما بين بيته الناظر والفتواة، وتواجد ذوو الشأن على بيت الناظر وفي مقدمتهم الفتوات: زقطط وحمودة ويركات وللبيش وأبو سريع. ولم يكن للمجتمعين من حديث إلا الشعابين، فقال أبو سريع:

- لا بد أن شيئاً في الجبل دفع بالشعابين إلى بيتنا.

فصاح زقطط وقد بدا وكأنه يقاتل نفسه لأنّه لا يجد من يقاتله:

- طول عمرنا جيران للجبل وما حصل منه شيء.

كان زقطط ثائراً لما أصاب ابنه، وكان حمودة لا يزال يعرج من إصابة ساقه، على حين تملّك الخوف الجميع فقالوا إن بيونهم لم تعد صالحة للمبيت، وإن السكان تجمّهروا في الحرارة.

وجاء جبل حاملاً جرابه الحالى، فحبّا الجميع، ووقف أمام الناظر والهامن في أدب وثقة.

ولم يستطع الناظر أن ينظر إليه، أما الهامن فقالت له:

- قيل لنا يا جبل إنك تستطيع استخراج الشعابين من بيتنا؟

قال جبل بهدوء:

- تعلمت ذلك فيما تعلمت يا صاحبة الفضل.

- دعوتك لتطهر البيت من الشعابين.

فنظر جبل إلى الأفندى متسائلاً:

- هل يأذن لي حضرة الناظر؟

فغمغم الناظر وهو يداري حنقه وقهره:

- نعم.

وهنا تقدم الليثي بابحاء خفى من زقط وسأله:
- وبيوتنا وبيوت الآخرين؟

فقال جبل:

- إن خبرتى تحت أمر الجميع.

وارتفعت أصوات بالشکر، فأجال جبل عينيه الكبيرتين في الوجه
 مليا ثم قال:

- ولعلى في غير حاجة إلى تذكيركم بأن لكل شيء ثمنه كما تجرى
 المعاملات في حارتنا!

فطلع إليه الفتوان في دهشة فقال:

- علام تدهشون؟ إنكم تحمون الأحياء نظير الإناءات، وحضره
 الناظر يدير الوقف نظير التصرف في ريعه!

والظاهر أن حرج الموقف لم يسمح للأعين بالإفصاح عما في
 الصدور، غير أن زقط سأله:

- ماذا تطلب نظير عملك؟

فقال بهدوء:

- لن أطلب نقوداً، ولكنني أطلب كلمة شرف باحترام آل حمدان في
 كرامتهم وحقهم في الوقف.

وساد الصمت، فبدأ أن الجحو يتنفس بالحقد المكتوم. وتضاعف قلق
 الهاشم على حين أخفى الناظر عينيه في الأرض. وعاد جبل يقول:

- لا تظنوا أنني أتحداكم، الحق أنني أذكركم بما يليه عليكم الحق
 والعدل نحو إخوانكم المغلوبين على أمرهم. إن الخوف الذي
 أخرجكم من دياركم ما هو إلا جرعة مما يتجرع إخوانكم كل يوم
 من أيام حياتهم التعيسة.

التمعت في الأعين نظرات غضب سريعة كالبرق في السحاب،
 وسرعان ما اختفت تحت غيم الكظم. غير أن أبو سريع صاح:

- أستطيع أن آتيكم بأحد الرفاعية ولو نبيت خارج بيونا يومين أو ثلاثة أيام حتى يحضر من قريته .

فتساءلت الهام :

- كيف حارة بأكملها أن تبيت خارج بيونها يومين أو ثلاثة؟

وكان الأندى يفكر بكل قواه مغالباً ما استطاع عواطف الغضب والخذل التي تستعر في صدره، وإذا به يقول مخاطباً جبل :

- إنى معطيك كلمة الشرف التي تطلب ، فابدأ عملك .

وذهل الفتوان ، غير أن الموقف لم يسمح لهم بإعلان ما في نفوسهم ، وران على صدورهم هم قاتل . أما جبل فأمر الجميع بالابتعاد إلى أقصى الحديقة فخلاله المكان والبيت . وتجرد من ثيابه فانقلب كيوم التقطته الهام من الحفرة المترعة بباب الأمطار . ومضى يتقلل من مكان إلى مكان ، ومن حجرة إلى حجرة ، وهو يصفر صفيرًا خافتًا نارة أو يغمغم بكلام غير مبين . واقترب زقطن من الناظر وقال له :

- إنه هو الذي بعث بالتعابين إلى بيوننا .

فأشار الناظر إليه بالسكتوت وتمتن :

- دعه يخرج ثعابينه .

وأذعن لجبل ثعبان كان مختفيًا في المور ، وأخرج آخر من حجرة إدارة الوقف ، فلف الثعباني على ذراعه ، وظهر بهما أمام السلاملك حيث أودعهما جرابه . وارتدى ملابسه ووقف ينتظر حتى جاء الجميع ، فقال موجهاً خطابه لهم :

- هلموا إلى بيونكم لأطهرها .

والتفت نحو الهام وقال بصوت خافت :

- لولا تعasse أهلى ما اشتطرت في خدمتك شرطاً قط .

واقترب من الناظر فرفع يده تحية وقال بشجاعة :

- وعده الحر دين عليه.

ومضى خارجاً والجمع يسير وراءه صامتاً.

٤٠

وفق جبل في تطهير الحرارة من الشعابين على مرأى من جميع أهلها.
وكان كلما أذعن له ثعبان تعالى الهاfax والزغاريد حتى باتت مهاراته
حديث الحرارة من البيت الكبير إلى الجمالية. ولما فرغ من عمله ومضى
إلى ربعه تجمّع حوله الغلمان والشبان وراحوا يتغنون مصفقين:

جبل با نصيـر المـساكـين

جبل با قـاهر الشـعـابـين

وتواصل الغناء والتتصيف حتى بعد ذهابه. غير أنه كان لذلك رد فعل
شديد في أنفس الفتوّات، فما لبث أن خرج للمتظاهرين حمودة والليش
وأبو سريع ويركات، فانهالوا عليهم لعنة وسباً وصفعاً وركلاً حتى
تفرقوا الآذين بالبيوت، فلم يبق في الطريق إلا الكلاب والقطط
والذباب. وتساءل الناس عن سر هذه الحملة، كيف يجزي الفتوّات
صنيع جبل بالاعتداء على المتظاهرين من أجله، وهل يحافظ الأفندي
على وعده بجبل أو تكون حملة الفتوّات بداية لحملة انتقام عاتية؟
ودارت هذه الأسئلة برأس جبل، فدعى رجال حمدان إلى الربيع الذي
يقيم فيه ليتذبروا الأمر معًا. وكان زفليط مجتمعاً في الوقت ذاته بالناطر
وحرمه، وكان يقول بإصرار والحق يلتهمه:

- لن نبقى منهم على أحد..

وبذا الارتياح في وجه الأفندي، غير أن الهامن تسأله:

- وكلمة الشرف التي أعطاها الناظر؟

فعبس زقلط حتى انقلب وجهه أقبح من أى وجه آدمى وقال:

- الناس يخضعون للقوة لا للشرف.

فقالت بامتعاض:

- سيقولون فينا ويعيدون.

- فليقولوا ما حلا لهم ، متى سكتوا عنكم أو عنا؟ إن الغرز تضج كل ليلة بالقفس والتنكيس علينا ، ولكن إذا خرجنا إلى الطريق وقفوا خاسعين ، وهم يخشعون خوفاً من النبوت لا إعجاباً بالشرف.

ووحدجها الأفندي بنظرة متعضة وقال:

- جبل هو الذي دبر مؤامرة الشعابين ليملئ علينا شروطه ، كل أحد يعرف ذلك . فمن ذا الذي يطالب باحترام كلمة أعطيت لمحنال نصاب مخاتل؟!

وقال زقلط محذراً ووجهه ما زال متشبثاً بقبعه:

- تذكرى يا هامن أنه إذا نجح جبل في استخلاص حق آل حمدان في الوقف فلن يهدأ بال أحد في الحارة حتى ينال حقه أيضاً ، وبذلك يضيع الوقف ونضيع جميعاً.

وقبض الأفندي على المسبيحة في يده بشدة حتى طقطقت حباتها وهتف بزقلط:

- لا تبق على أحد منهم.

ودُعى الفتوات إلى بيت زقلط ثم لحق بهم أعونهم المقربون . وداع في الحارة أن أمراً خطيراً يدبر لآل حمدان ، فامتلاطت التواذن بالنساء وازدحم الطريق بالرجال . وكان جبل قد أعد خطته ، فاحتشد رجال حمدان في حوش الرابع الأوسط مدججين بالنبایت ومقاطف الطوب على حين توزعت النساء في الحجرات وفوق السطح . وكان لكل أحد

منهم عمله المرسوم، غير أن أى خطأ في التنفيذ أو انقلاب في التدبير لم يكن يعني إلا هلاكهم إلى الأبد. لذلك اتخذوا أماكنهم حول جبل وهم في غاية من التوتر والجزع. ولم تغب حالهم عن فطنة جبل فمضى يذكرهم بتأييد الواقع له ووعده للأقوباء بالنجاح، فوجد منهم قلوبًا مصدقة، بعضها عن إيمان، والبعض عن يأس. ومال الشاعر رضوان على أذن المعلم حمدان وقال له:

- أخاف ألا تنفع خطتنا، والأوفق عندي أن نحكم إغلاق البوابة
ونضرب من السطح والنواخذ!

فهز حمدان منكبيه امتعاضاً وقال:

- إذن نقضى على أنفسنا بالحصار حتى نهلك جوعاً!
وقصد حمدان جبل وسألة:

- أليس الأفضل أن ترك البوابة مفتوحة؟
فقال جبل:

- دعها كما هي وإلا شکوا في الأمر.

وكانت ربيع باردة تهب بشدة باعثة عواء، وركضت السحب في السماء كأنها مطاردة، فتساءلوا هل ينهال المطر؟ وترامت ضجة المتجمهرين في الخارج حتى ابتلعت مواء القطط ونباح الكلاب.
وهتفت تمر حنة محذرة: « جاء الشياطين ! ».

وحقاً غادر زقطن بيته وسط هالة من الفتوات، يتبعهم الأعون، ومقابضهم على نياتهم. ساروا على مهل حتى مدخل البيت الكبير، ثم عرجوا نحو حي حمدان فقابلتهم المتجمهرون بالتهليل والهتاف.
وكان المئلون الهاندون أحزاباً، منهم قلة تبعج للعرك وتسلى مشاهدة الدم المسفوک، ومنهم من يحقد على آل حمدان لإدلالهم بمكانة لم يعترف لهم بها أحد. وأكثرهم حاتق على الفتونة والبغى فهو يحيط

الكراهة وينظر التأييد خوفاً ونقاها . ولم يُلْقِ زقطط إلى أحد منهم بالأ ،
ومضى في مسيرة حتى وقف أمام ربيع حمدان ، وصاح :

- إن كان فيكم رجل فليخرج إلى !

فجاءه صوت غر حنة من وراء النافذة :

- أعطنا كلمة شرف جديدة حتى لا يغدر بالخارج غادر !

فغضب زقطط لتعريضها بكلمة الشرف وصاح :

- أليس عندكم من مجيب غير هذه الزانية ؟

فصاحت غر حنة :

- الله يرحم أمك يا زقطط !

وصرخ زقطط أمراً رجالة بالهجوم على البوابة . هجم على البوابة رجال ، ورمى آخرون النواذن بالطوب حتى لا يجرؤ أحد على فتحها واستعملوها في الدفاع . ونكث الهاجمون على البوابة وراحوا يدفعونها بمناكبهم بقوة وعزيمة . وواصلوا الدفع بشدة حتى أخذ الباب في الاهتزاز . واشتدت عزيمتهم حتى ارتفع الباب وتخلخل . وتراجعوا متخفزين ثم اندفعوا نحوه بقوة وصکوه صکة واحدة فانفتح على مصراعيه . وتراءى من خلال الدهلیز الطويل الممتد وراء باب الحوش جبل ورجال حمدان وقد رفع الجميع نبابيتهم . ولوح زقطط بيده في حركة فاضحة وأطلق ضحكة هازئة ، ثم اندفع إلى الدهلیز ورجاله خلفه .

وما كادوا يتتوسطون الدهلیز حتى مادت أرضه بهم بغتة وهوت من عليها إلى قاع حفرة عميقة . وفي سرعة مذهلة فتحت نواذن الدور على جانبي الدهلیز وانصبـت المياه من الأكواز والحلل والطشـوت والقرب . وتقدم رجال حمدان دون تردد ورموا الحفرة بمقاطف الطوب ، ولأول مرة سمعت الحارة الصراخ يصدر عن فتواتها ، ورأـت الدم ينفجر من

رأس زقلط والنبابيت تختطف رءوس حمودة ويركات واللبيشي وأبو سريع وهم يتخبطون في المياه الطينية. ورأى الأعوان ما حل بفتواتهم فلاذوا بالفرار، وترك الفتوات لمصيرهم دون معنٍ. واشتد انصباب الماء، والأحجار، وتهاوت النبابيت بلا رحمة. وترامت إلى الناس استغاثات ندت عن حناجر لم تألف طوال حياتها إلا السب والقذف.

وكان رضوان الشاعر يهتف بأعلى صوته:

- لا تبقو منهم على أحد.

واختلطت المياه الطينية بالدم، وكان حمودة أول الهالكين، وعلا صرخ اللبيشي وأبو سريع، وتشبت يدا زقلط بجدار الحفرة يريد أن يثبت وقد تخلى الحقد في عينيه، وراح يغالب الإعياء والخور، ويزفر أنات كالخوار، فانهالت عليه النبابيت حتى تهاوى إلى الوراء وتراحت يدها عن الجدار فسقط في الماء وفي كل راحة من راحتيه قبضة من طين! وساد الصمت الحفرة. لم تند عنها حركة ولا صوت واصطبغ سطحها بالطين والدم. ووقف رجال حمدان ينظرون لهم يلهثون. وتزاحم عند مدخل الدهليز المتجمهرون وهم يرددون في الحفرة نظرات ذاهلة. وصاح رضوان الشاعر:

- هذه عاقبة الظالمين.

وجرى الخبر في الحرارة كالنار. وقال التجمهرون إن جبل قد أهلك الفتوات كما أهلك الشعابين! وهتف له الجميع بأصوات كالرعد. ولنفهم الحماس فلم يبالوا بالريح الباردة. ونادوا به فتورة حرارة الجبالوى. وطالبوه بجث الفتوات ليتمثلوا بها. وصفقت الأيدي وراح قوم يرقصون. ولم يبن جبل عن التفكير لحظة. وكان كل شيء مدبراً في رأسه. فصاح بأهله:

- هلموا الساعة إلى بيت الناظر.

في الدقائق التي سبقت خروج جبل وأهله من الربع تفجرت الأنسس
عن براكن حامية.

غادرت النسوة البيوت منضمات إلى الرجال. وهاجم الجميع بيوت
الفتوات فاعتدى الأيدي والأرجل على أهاليهم حتى فروا بأرواحهم
وهم يتحسون أقفاصهم وخدودهم مصعدين التأوهات سافحين
الدموع. أما البيوت فقد نهب كل ما فيها من أناث وطعام ولباس،
وحطمت كل قابل للتحطيم من أخشابها وزجاجها حتى انقلب خرابا
يبابا. وانطلقت الجموع الغاضبة نحو بيت الناظر فتكثلت أمام بوابته
المغلقة وراحت تهتف وراء مناد منها بأصوات كالرعد:

- هاتوا الناظر ..

- وإن ما جاش ..

ثم يختتمون الهاتف بالتهليل الساخر الهازئ. واتجه البعض إلى
البيت الكبير منادين جدهم الجبلاوى أن يخرج من عزلته ليعالج ما فسد
من أمورهم وأمور حارتهم. وراح آخرون يدقون بوابة الناظر بأكفهم
ويدفعونها بمناكبهم محرضين المتردددين المهيبيين على افتحامها.

وفي تلك اللحظة الحرجية جاء جبل على رأس أهله نساء ورجالا،
يسيرون في قوة وعزم بما أحرزوا من فوز مبين. وأوسعت الجموع لهم،
وتعالى الهاتف والزغاريد حتى أشار جبل لهم بالسكتوت فأخذت
أصواتهم تخف رويداً رويداً حتى ساد الصمت وعاد عواء الريح يصك
الأذان مرة أخرى. ونظر جبل في الوجوه المتuelleة إليه وقال:

- يا أهل حارتنا، أحبيكم وأشكركم .
فارتفعت الأصوات بالهتاف ثانية حتى رفع يده مطالباً بالسكت،
ثم قال :

- لن يتم عملنا حتى تتفرقوا في هدوء .

فترامى إليه من حناجر شتى :

- نريد العدل يا سيد حارتنا .

فقال بصوت سمعه الجميع :

- اذهبوا في هدوء ، ولسوف تتحقق إرادة الواقف .

وتعالى الهاتف للواقف ولا بنه جبل . ووقف جبل بحث بنظراته
الجموع على الذهاب . وكانوا يودون لو يقون في أماكنهم ولكنهم لم
يجدوا بذاك ملائكة من التفرق فأخذوا يذهبون واحداً في أثر واحد
حتى خلا المكان منهم . عند ذاك مضى جبل إلى باب الناظر وطرقه
صائحاً :

- افتح يا عم حسين .

فجاءه صوت الرجل المرتعد وهو يقول :

- الناس .. الناس ..

- لا أحد هنا غيرنا .

وفتح الباب فدخل جبل ، ودخل وراءه أهله . واخترقوا الممر
المعروف إلى السلاملك فرأوا الهاشم واقفة أمام باب البهو في استسلام ،
على حين بذا الأنفدي على عتبة الباب ، خافض الرأس شاحب الوجه
كانه ملثم بكفن أبيض . وندت عن الأفواه لدى رؤيته دمدة ، فقالت
هدى هانم متاؤهة :

- إنني بحال سيئة يا جبل .

فأشار جبل نحو الأفندي بازدراء وقال :
ـ لو نجحت مكيدة هذا الرجل الفاقد الشرف ، لكننا الآن جميعاً جئنا
مجزأة .

فأجاب الهائم بتنهيدة مسموعة دون كلام . فحدج جبل الناظر الخائر
بنظرة قاسية وقال :

ـ ها أنت ذا ترى نفسك ذليلاً بلا حول ولا قوة ، لا فتوة يحميك ،
ولا شجاعة تويدك ، ولا مروءة تشفع لك . ولو شئت أن أخلّى
بينك وبين أهل حارتانا لمزقوك إرباً ولداسوك بالأقدام .

ارتعدت فرائص الرجل وبدا وكأنه تقوض وضُئل ، غير أن الهائم
تقدمت من جبل خطوة وقالت برجله :

ـ لا أحب أن أسمع منك غير ما عهدت من طيب الكلام ، ونحن في
حال عصبية تستحق من مروءتك الرحمة في المعاملة .

فقطب جبل ليداري تأثره وقال :

ـ لو لا متزلتك عندي لجرت الأمور بغير ما جرت به .

ـ لا أشك في ذلك يا جبل ، إنك رجل لا يخيب عنده الرجاء .
فقال جبل متأسفاً :

ـ ما كان أيسر أن يقوم العدل دون إراقة نقطة من الدم ..

فندت عن الأفندي حركة غامضة فضحت تخاذله وازداد انكماشاً ،
فقالت الهائم :

ـ قد كان ما كان ، ولن تلقى منا إلا آذاناً مصغية !

وبدأ أن الناظر يريد أن يخرج من صمته بأى ثمن ، فقال بصوت
ضعيف :

ـ ثمرة فرصة لإصلاح ما سلف من أخطاء .

أرهفت الآذان لسماع كلامه رغبة في الاستطلاع على حال الجبار إذا
تخلّى عنه جبروته، وكانوا يرمونه بتشفٍ قليل وإنكار وحب استطلاع
لآخر لهما. وتشجع الأفندي بتغلبه على الصمت فقال:
- تستطيع اليوم أن تختل مكانة زقط عن جداره.

فتحهم وجه جبل وقال بازدراه:
- ليست الفتونة مطلبٍ، فابحث لحمايتك عن غيري، وما أريد إلا
حقوق آل حمدان كاملة.

- هي لكم دون نقصان، ولنك إدارة الوقف إن شئت.
فقالت هدى برجاء:

- كما كنت يا جبل من قبل.
وهنا صاح دعبس من بين آل حمدان:
- ولم لا يكون الوقف كله لنا؟

وسرت هممة في آل حمدان حتى اصفر وجه الناظر وزوجه حتى
الموت. غير أن جبل قال بفورة غاضبة:

- أمرني الواقف باسترداد حكمك لا باغتصاب حقوق الآخرين.
فتساءل دعبس:

- ومن أدرك أن الآخرين سيأخذون حقوقهم؟
فصاح به جبل:

- لا شأن لي بذلك، وإنك لا تكره الظلم إلا إن وقع عليك؟!
فقالت الهام بتأثير:

- نعم الرجل الأمين أنت يا جبل! ولشد ما أرجو أن تعود إلى بيتي.
فقال جبل بتصميم:

- سأقيم في ربع آل حمدان.

- إنها لا تلبي بمقامك .

- عندما يجري الخير بين أيدينا سترفعها إلى مقام البيت الكبير ، وتلك رغبة جدنا الجلاوى !

ورفع الناظر عينيه في شيء من التردد إلى وجه جبل وقال :

- إن ما بدر اليوم من أهل الحرارة يهدد أمتنا ؟

فقال جبل باحتقار :

- لا شأن لي بما بينك وبينهم .

وإذا بد عبس يقول :

- إذا احترمت عهودنا فلن يجرؤ أحد منهم على تحديك !

فقال الناظر بحماس :

- سيسجل حكمكم على رءوس الأشهاد !

وهنا قالت هدى برجاء :

- ستتناول يا جبل عشاءك معى الليلة ، هذه رغبة أم !

وفطن جبل إلى ما ترمى إليه من إعلان المودة بينه وبين بيت الناظر ، ولم يكن فى وسعه أن ينذر رغبتها ، فقال :

- لك ما تشائين يا سيدتى .

٤٢

وابيضت الأيام التالية بأفراح آل حمدان أو آل جبل كما باتوا يُدعون . فتحت قهوة تم أبوابها وتربع رضوان الشاعر على الأريكة يلعب بأوتار الرباب . وجرت البوظة أنهاراً وانعقدت في سماء

الحجارات سحب الحشيش . ورقصت تمر حنة حتى انحل وسطها . ولم يبالوا بأن يكشفوا عن قاتل قدرة ، وصور لقاء الجبلاوى بجبل فى حالات من نور الخيال . وكانت تلك الأيام بالنسبة لجبل وشفيقه أطيب الأيام . وقد قال لها :

- ما أجمل أن ندعوا البليقطي للإقامة معنا !

فقالت وهى تعانى متاعب المخاض الوشيك :

- نعم كى يستقبل حفيده ببركته .

فقال الرجل عمتنا :

- أنت قدم السعد يا شفيقة ، وستجد سيدة زوجاً كفؤاً من آل حمدان .

- قل آل جبل كما يقولون فإنك خير من عرف هذا الحى .

فقال باسماً :

- بل أدهم خيرنا جميعاً ، كم تمنى حياة النعيم حيث لا عمل للإنسان إلا الغناء ، وسوف يتحقق لنا حلمه الكبير .

وتراهى دعبس وهو سكران يرقص فى جمع من آل جبل ، فلما رأى جبل مقبلاً لوح بنبوته جذلاً وقال له :

- إنك لا تبغى الفتونة ، سأكون أنا الفتوة .

فصاح به ليسمع الجميع :

- لا فتونة في آل حمدان ، ولكن يبغى أن يكونوا جميعاً فتوات على من بطمع فيهم .

ومضى الرجل إلى القهوة فتبعد الجميع وهم يتزحفون من السكر . وكان جبل سعيداً فقال لهم :

- إنكم أحب أهل الحرارة إلى جدكم ، فأنتم سادة الحرارة دون منازع ،

ولذلك ينبغي أن يسود بينكم الحب والعدل والاحترام، ولن ترتكب جريمة في حيكم أبداً ..

وتمامى العطيل والفناء من بيت آل حمدان، وأشرقت أنوار الأفراح في حيهم، على حين غرفت الحرارة في ظلمتها المألهفة، وتبجمع صغارها عند مشارف حي آل حمدان يتفرجون من بعيد. وإذا برجال من أهل الحرارة يفدون على القهوة بوجوههم الكالحة. استقبلوا بالمجاملة ودعوا إلى الجلوس وقدم لهم الشاي. وحدس جبل أنهم لم يجيئوا خالص التهنة. وصدق حده إذ قال له زناتي وكان أكبرهم سناً:

- يا جبل، إننا أبناء حرارة واحدة، وجدة واحد، وأنت اليوم سيد الحرارة ورجلها الأقوى، وأن يسود العدل الأحياء جميعاً خير من أن يسود حي حمدان وحده.

لم يتكلم جبل، وبذا الفتور في وجه آل جبل. ولكن الرجل قال بعزم:

- يينك أن تجري العدل في الحرارة كلها.

لم يهتم جبل بأهل الحرارة من أول الأمر، ولم يكن أحد من آله يهتم بهم. بل إنهم شعروا بالاستعلاء عليهم حتى في أيام محنتهم. وقال جبل ببرقة:

- وصاني جدّي بأهلى.

- ولكنه جد الجميع يا جبل.

قال حمدان:

- في هذا الكلام موضع للنظر.

وتفرس في الوجوه ليتابع أثر قوله، فرأى انقباضها يشتد فاستطرد:

- أما علاقتنا به فقد أكدها بنفسه في لقاء الخلاء!

وبدا زناتي لحظة وكأنه يود أن يقول: «في هذا الكلام موضع للنظر» ولكن غلبه الانكسار فقال مسائلاً جبل:

- أيرضيك ما نحن فيه من فقر وذل؟

فقال جبل دون حماس:

- كلا، ولكن لا شأن لنا بذلك.

فتساءل الرجل في إصرار:

- وكيف لا يكون لكم شأن بذلك؟

وسائل جبل نفسه بأى حق يكلمه ذلك الرجل على هذا النحو؟ لكنه لم يغضب. وجد بنفسه جانباً يكاد أن يعطف على الرجل. غير أن جانباً آخر منه استذكر أن يخوض متابعة جديدة من أجل الآخرين. ومن هم هؤلاء الآخرون؟ وجاء الجواب على لسان دعبس حين صاح بالرجل:

- أنسيتم ما كتتم تعاملوننا به يوم محتتنا؟

فغضض الرجل من بصره ملياً ثم قال:

- من ذا الذي كان يستطيع أن يجهز برأى أو يعلن عاطفة في أيام الفتوات؟ وهل كان الفتوات يغفون عن أحد يعامل الناس بغير ما يرضون؟

فزم دعبس شفتيه في استعلاء واستنكار وقال:

- كتم وما زلت تخسدوننا على مكانتنا في الحارة، ولعلكم سبقتم الفتوات إلى ذلك!

فأحنى زناتي رأسه في قنوط وقال:

- سامحك الله يا دعبس!

فصاح دعبس دون رحمة:

- اشكروا رجلنا لأنه لم يقبل أن يوجه لكم يد الانتقام!

وتوزعت الأفكار المتضاربة جبل فلاذ بالصمت . أشفق من أن يمد يد العون . ولم يرتع إلى الجهر بالرفض . ووجد الرجال أنفسهم حيال تأييب فارع من دعيس ، ونظرات باردة تعكسها أعين الآخرين ، وصمت لا أمل فيه عند جبل ، فنهضوا خائبين ، وذهبوا من حيث أتوا . وصبر دعيس حتى اختفوا ثم حرك قبضة يمناه في بذاءة وهف :

- إلى حيث ألقـت يا أولاد الخنازير .

فصالـ جـلـ :

- الشـمـانـةـ لـيـسـ مـنـ شـيمـ السـادـةـ !

٤٣

كان يوماً مشهوداً يوم تسلم جبل حصة آله من الوقف . واتخذ في حوش الربع - ربع النصر - مجلسه ودعا إليه آل حمدان . وأحصى ما في كل أسرة من أنفس وزرع الأموال بالتساوي فيما بينهم ، وحتى شخصه لم يخصه بامتياز . ولعل حمدان لم يرتع إلى هذه العدالة كل الارتياح ، ولكنه عبر عن مشاعره بطريقة غير مباشرة فخاطب جبل قائلاً :

- ليس العـدـلـ أـنـ تـظـلـ نـفـسـكـ يا جـلـ !

فقطـ بـجـلـ قـائـلاـ :

- أـخـذـتـ نـصـيـبـ اـثـنـيـنـ ،ـ أـنـاـ وـشـفـيـقـةـ .

- وـلـكـنـكـ رـئـيـسـ هـذـاـ الـحـيـ .

فقالـ جـلـ بـصـوـتـ سـمـعـهـ الـجـمـيـعـ :

- مـاـ يـنـبـغـيـ لـرـئـيـسـ الـقـومـ أـنـ يـسـرـقـهـمـ .

وبـداـ دـعـيسـ وـهـوـ يـتـنـظـرـ نـتـيـجـةـ الـمحـاـورـةـ فـيـ قـلـقـ ،ـ ثـمـ قـالـ :

- جبل غير حمدان، وحمدان غير دعبس، ودعبس غير كعبلاها!
فقال جبل معارضًا في غضب:

- ت يريد أن تجعل من الأسرة الواحدة سادة وخداماً!
ولكن دعبس تثبت برأيه وقال:

- فينا صاحب القهوة والبائع الجوال والمنسول، فكيف تسوى بين
هؤلاء؟! وأنا كنت أول من خرج على الحصار حتى تعرضت
لطاردة قدرة، وأول من لاقاك في غربتك، وأول من تحمس لرأيك
بعد ذلك والقوم متددون!

اشتد الغضب بجبل فصاح به:

- مادح نفسه كذاب، والله إن أمثالك ليستحقون الظلم الذي حاقد
بهم.

وأراد دعبس موافقة الجدل، ولكنه تبين في عيني جبل غضباً من نار
فتراجع، وغادر المجلس دون أن ينبع. وقد صد عند المساء غرزة عتريس
الأعمش، وجلس في حلقة الجالسين يدخن مجترأً همومه. وأراد أن
يتسلل فدعا كعبلاها إلى المقامرة، فلعبا السيجة، ولم تكدر تمضى نصف
ساعة حتى خسر نصبيه من ريع الرقف! وضحك عتريس وهو يغير ماء
الجوزة وقال:

- يا سوء بختك يا دعبس! الفقر مكتوب عليك ولو على رغم إرادة
الواقف!

فغمغم دعبس بحقد وقد طير الخسان السطل من مخه:

- ليس بهذه السهولة تضيع الثروات!

فأخذ عتريس نفساً من الجوزة ليضبط كمية المياه بها ثم قال:
- لكنها ضاعت يا ابن والدى!

كان كعبلاها يسوى الأوراق المالية بعنابة، ثم رفع يده بها ليدسها في

صدره، لكن دعبس منعه بيد وأشار بالأخرى إشارة خاصة أن يرد
النقود! وقطب كعلبها وقال:

- لم تعدد نقودك ولا حق لك فيها!

فصاح دعبس:

- دع النقود يا ابن الزبالة!

ونظر عتريس نحوهما بقلق وقال:

- لا تنشاجرا في بيتي.

فصاح دعبس وهو يشد على يد كعلبها:

- لن يسرقني ابن الزانية!

- اترك يدي يا دعبس ، أنا لم أسرقك.

- يعني ربحتها في تجارة؟

- لماذا قامرت؟

فلطمه بشدة وهو يقول:

- نقودي ، قبل أن أكسر عظامك.

وتشتت كعلبها يده فجأة فثار غضب دعبس لحد الجنون وضربه بسبابته
في عينه اليمنى .

صرخ كعلبها صرخة عالية ، وانتفض واقفاً ، ثم غطى عينيه بكفيه
تاركاً الأوراق تنهادى إلى حجر دعبس ، وترنح من الألم ، ثم سقط
وراح يتلوى ويشن أذينا موجعاً . والتف حوله الحالون ، على حين جمع
دعبس النقود وأعادها إلى صدره . وإذا بعتريس يقترب منه قائلاً في
هلع :

- صفيت عينه !

فارتاع دعبس ملياً ، ثم وقف فجأة وغادر المكان.

وقف جبل في حوش النصر في جمع من رجال آل حمدان،
والغضب يتفجر من عينيه وشدقته. وجلس كعبتها القرفصاء وقد شد
على عينه رباطاً ممحكماً، على حين وقف دعبس يتلقى ثورة جبل في
صمت وخذلان. وأراد حمدان أن يهدئ من ثورة جبل فقال بلين:

- سير دعبس التقد إلى كعبتها.

فصاح جبل بأعلى صوته:

- فليرد إلية بصره أولاً.

فبكى كعبتها وقال الشاعر رضوان متاؤها:

- لبيت في الإمكان رد البصر.

فقال جبل وقد أظلم وجهه كالسماء الراعدة البارقة:

- ولكن في الإمكان أن تؤخذ عين بعين!

وحملق دعبس في وجه جبل متوجساً، وأعطى حمدان التقد وهو

يقول:

- كنت فاقد العقل من الغضب، وما قصدت إيزاده.

فتفسر جبل في وجهه بحنق طويلاً، ثم قال بصوت رهيب:

- عين بعين والبادي أظلم.

تبولدت نظرات الحيرة. لم يُر جبل أغضب منه اليوم. وقد برحت
الأحداث على قوة غضبه، كغضبه يوم ركل بيت النعيم. وكغضبته يوم
قتل قدرة. حقاً إنه لشديد الغضب، وإذا غضب لم يرده عن هدفه
رداع. وهم حمدان بالكلام ولكنه بادره قاتلاً:

- إن الواقع لم يؤثركم بحبه ليعتدى ببعضكم على بعض، فاما حياة
تقوم على النظام، وإما فوضى لن تبقى منكم على أحد، لذلك
أصر على تصفية عينك يا دعبس.

وركب الرعب دعيس فصاح :
ـ لن تمسني يد ولو قاتلتكم جميعاً.

فانقض عليه جبل كالثور الهائج وضربه بجماع يده في وجهه ضربة هائلة سقط على أثراها دون حراك . وأقامه وهو فاقد الوعي ، واحتضنه من الخلف شاداً ذراعيه حول جسمه ، والتفت نحو كعبتها قائلاً بلهجته أمره :

ـ قم فخذ حرقك .

وقام كعبتها ولكنها وقف متراجعاً ، على حين تعالى الصراخ من مسكن دعيس . وحاج جبل كعبتها بنظرة قاسية وصاح به :
ـ تقدم قبل أن أدفنك حياً .

وأتجه كعبتها نحو دعيس ، وبسبابته ضرب عينه اليمنى حتى اتفقت عينه على مرأى من الجميع . واشتد الصراخ من بيت دعيس ، وبكى بعض أصدقاء دعيس مثل عتريس وعلى فوانيس ، فصاح بهم جبل :
ـ يا لكم من جبناء وأشرار ! والله ما كرهتم الفتونة إلا لأنها كانت عليكم ، وما إن يأنس أحدكم في نفسه قوة حتى يبادر إلى الظلم والعدوان ، وما للشياطين المستترة في أعماقكم إلا الضرب بلا رحمة ولا هوادة ، فاما النظام وإما الهلاك .

وترك دعيس بين أيدي أصحابه وذهب . وكان لذلك الحادث في الفوس أثر وأثر : كان جبل من قبل رئيساً محبياً ، وكان الله يظنونه فتوة لا يريد أن يتخذ لنفسه اسم الفتونة أو شعارها ، فأصبح من بعده مخوفاً مرهوباً . وتهامس أناس بقوسته وظلمه ولكن هؤلاء وجدوا دائمًا من يرد عليهم قولهم ويذكر بالوجه الآخر لقوسته ، وهو الرحمة بالمعتدى عليهم ، والرغبة الصادقة في إقامة نظام يضمن العدل والنظام والإحسان في آل حمدان . ووجد هذا الرأي الأخير كل يوم ما يستنده في

فعال الرجل وأقواله حتى أنس إليه من استوحش ، وآمن من خاف ،
ومال من جفا ، وحرص الجميع على النظام فلم يجاوز حدوده أحد .
وسادت الاستقامة والأمانة في أيامه ، فلبيث بينهم رمزاً للعدالة والنظام ،
حتى غادر الدنيا دون أن يحيد عن مسلكه قيد أهلة .

* * *

هذه قصة جبل .

كان أول من ثار على الظلم في حارتنا . وأول من حظى بلقينا الواقف
بعد اعتزاله . وقد بلغ من القوة درجة لم ينazuه فيها منازع . ومع ذلك
تعفف عن الفتونة والبلطجة والإثراء عن سبيل الإناثة وتجارة
المخدرات ، ولبيث بين آله مثالاً للعدل والقوة والنظام . أجل لم يهتم
بالآخرين من أبناء حارتنا . ولعله كان يضمر لهم احتراماً وازدراه كسائر
أهله . لكنه لم يعتد على أحد منهم ولا تعرض له بسوء ، وضرب
لجميع مثلاً جديراً بالاحتراء .

ولولا أن آفة حارتنا النسيان ما انتكس بها مثال طيب .
لكن آفة حارتنا النسيان .

* * *

رفاعسة

٤٤

أوشك الفجر أن يطلع . وأوى إلى المضاجع كل حى فى الحارة حتى
الفتوات والكلاب والقطط . واستقر الظلام بالأركان كأنه لن يبرح أبداً .
وفى رعاية الصمت الشامل فتح باب ربع النصر بحى آل جيل فى حذر
شديد ، فتسدل منه شبحان ، سارا فى سكون نحو البيت الكبير ، ثم تابعا
سوره العالى إلى الخلاء . نقلا خطواتهما فى حذر ، وجعلا يتلفتان
وراءهما من حين إلى حين ليطمئنوا إلى أن أحداً لا يتبعهما ، وأوغلا فى
الخلاء مهتدين بنور النجوم المتاثرة ، حتى تبینا صخرة هند كقطعة من
ظلم أشد كثافة مما حوله . كانا رجلا فى أواسط العمر وامرأة شابة
حبلى ، وكلاهما يحمل بقحة مكتظة . وعند الصخرة تنهدت المرأة
وقالت بإعياء :

- عم شافعى ، تعبت .

فتوقف الرجل عن المسير وهو يقول في غيظ :

- استريحى ، ربنا يتعب المتعب !

وضعت المرأة البقحة على الأرض وجلست عليها مفرجة ما بين
فخذلها التريخ بطنها المذاحة ، ووقف الرجل لحظة ينظر فيما حوله ، ثم
جلس على بقحة أيضاً . وهبت عليهما نائم معيقة بأنفاس الفجر
الرطيبة ، لكن المرأة لم تغفل عما يشغلها فتساءلت :

- أين سالدى يا ترى ؟

فقال شافعى ساخطاً :

ـ أى مكان يا عبدة خير من حارتنا اللعينة .

ورفع عينيه إلى شبع الجبل المتد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب وقال :

ـ سنذهب إلى سوق المقطم . إليه قصد جبل أيام محنته ، وسأفتح دكان نجارة وأعمل كما كنت أعمل في الحرارة ، لى يدان تدران الذهب ، ومعي نقود للبلده لا بأس بها .

شدت المرأة خمارها حول رأسها ومنكبيها وقالت بحزن :

ـ سنعيش في غربة كمن لا أهل له ، ونحن من آل جبل أسياد الحرارة !

فبصق الرجل متأففاً وقال محنة :

ـ أسياد الحرارة ؟! ما نحن إلا عبيد أذلاء يا عبدة ، ذهب جبل وعهده الحلو ، وجاء زنفل أحجممه الله ، فتوتنا وهو علينا لا لنا ، يلتهم أرزاقنا ويفتك بمن يشكوا .

لم تنكر عبدة شيئاً من قوله . كأنها ما زالت تعيش في أيام المرأة وليلات الأحزان ، لكنها حين ضمنت الابتعاد عن مكاره الحرارة حن قلبها إلى ذكرياتها الطيبة فقالت متحسرة :

ـ لا توجد حرارة كحارتنا لولا أشرارها ، أين نجد بيتاً كبيت جدنا ؟ أو جيراً أنا كجيранنا ؟ أين تسمع حكايات أدهم وجبل وصخرة هند ؟ لا لعنة الله على الأشرار !

فقال الرجل بصوت مرير :

ـ والنبايت تهوى لأنفه سبب ، وأصحاب الوجوه المستكبرة يختالون بيتنا كالقضاء والقدر !

وذكر زنفل اللعين وكيف أخذ بتلاييه ، وهزه بعنف حتى كاد يقتطع

ضلوعه، ثم مرغه في التراب أمام الخلق، لا لشيء إلا لأنه جعل مرة من الوقف حديثه! وضرب الأرض بقدمه واستطرد قائلاً:

- المجرم الملعون خطف وليد سيدهم يباع لحمة الرأس، ثم لم يسمع عن الوليد بعد ذلك أبداً، لم تأخذه رحمة بطفل في شهره الأول، وتساءل ابن أين سأله، ستلدين بين أناس لا يقتلون الأطفال.

فتهجدت عبدة وقالت برقة كأنما تخفف من مضمون حديثها:

- ليتك رضيت بما رضى به الآخرون!

فقطب غاضباً وراء قناع الظلمة وقال:

- ماذا جنئت يا عبدة؟ لا شيء، كنت أتساءل أين جبل، وعهد جبل؟ أين القوة العادلة؟ ماذا أرجع آل جبل إلى الفاقة والذلة؟ فحطمت المجرم الملعون دكانى وضربني وكاد يفتك بي لو لا الجيران، ولو يقينا بيتنا حتى تلدى لأنقض على الوليد كما فعل بوليد سيدهم.

فهزت رأسها في حزن وقالت:

- آه لو صبرت يا معلم شافعى! ألم تسمعهم يقولون إن الجبالوى لا بد أن يخرج يوماً من عزلته لينفذ أحفاده من الظلم والهوان؟

ففتح المعلم شافعى طريراً وقال بسخرية:

- هكذا يقولون! طالما سمعتهم مذ كنت غلاماً، لكن الحقيقة أن جدنا في البيت اعتزل، وأن ناظر وقهه بريع الوقف استأثر، إلا ما يهبه للفتوات نظير حمايته. وزنفل فتوة آل جبل يتسلم نصيبيهم ليدفنه في بطنها، كأن جبل لم يظهر في هذه الحرارة، وكأنه لم يأخذ عن صديقه دعبس بعين المسكين كعبتها.

وسكتت المرأة لتسريح في أمواج الظلام، سيططلع عليها الصباح بين قوم غرباء. سيكون الغرباء جيرانها الجدد. وستقبل أيديهم وليديها. وينمو الوليد في أرض غريبة كغصن مقطوع من شجرة. وما كانت إلا

قانعة في آل جبل تحمل الطعام إلى زوجها في الدكان . وتجلس في الليل
وراء النافذة لتسمع رباب عم جواد الشاعر الضرير . ما أحلى الرباب وما
أحلى قصة جبل . ليلة التقى الجبلاوي في الظلام فقال له ألا تخف .
حياة بالعطاء والتأييد حتى انتصر . وعاد إلى حارته مجبر الخاطر ، وما
أحلى العودة بعد الاغتراب .

وكان شافعى يقلب وجهه فى السماء ، فى النجوم الساحرة ، ويرنو
إلى طلائع الضياء فوق الجبل كصحابة بيضاء فى أفق سماء مكفهرة .
وقال محذراً :

- ينبغي أن نسير كى نبلغ السوق قبيل الشروق .
- ما زلت فى حاجة إلى الراحة .
- الله يتبع المتعب .

ما أجمل الحياة لولا وجود زنفل . الحياة عامرة بالخيرات والهوا
التقى والسماء المرصعة بالنجوم والمشاعر الطيبة ، ولكن فيها أيضاً ناظر
الوقف إيهاب والفتوات بيومى وجابر وحندوسة وخالد وبطيحة
وزنفل . وفي الإمكان أن يصير كل ربع كالبيت الكبير وأن ينقلب الأنين
الحانًا ولكن المساكين ما زالوا يتمتنون المحال كما تمناه أدهم من قبل . ومن
هم المساكين؟ إنهم أقفيبة متورمة من الصفع وأدباء ملتهبة من الركل
وأعين يرعاها الذباب ورءوس يعيش فيها القمل .

- لماذا نسينا الجبلاوى؟

غمغمت المرأة :

- الله يعلم بحاله .

فصاح الرجل فى حسرة وغضب :

- يا جبلاوى!

فرد الصدى صوته . وقام وهو يقول :

- توكل على الله .

قامت عبدة . تناول كفها في يده . وسارا نحو الجنوب ، نحو سوق المقطم .

٤٥

قالت عبدة بفرح تألق في عينيها ونثرها :

- هاهي ذى حارتنا ، وهانحن أولاء نعود إليها بعد غربة ، فالحمد لله رب العالمين .

فابتسم عم شافعى وهو يجفف جبينه بكم عباءته وقال برازاته :

- حقاً ما أبهج العودة !

وكان رفاعة يصفعى إلى والديه ، ووجهه الصافى الجميل يعكس دهشة ممزوجة بالحزن . فقال كالمحتج :

- وهل ينسى سوق المقطم وجيرانه ؟ !

ابتسمت الأم وهي تحبك طرف الملاءة حول شعرها الذى وخطه المشيب . أدركت أن الفتى يحن إلى مولده كما تخن هي إلى مولدها ، وأنه بما جبل عليه من رقة ومسودة لا يستطيع أن يسلو الصداقات . وأجابته :

- الأشياء الطيبة لا تنسى أبداً ، ولكن هذه هي حارتكم الأصلية ، هنا أهلك ، سادة الحرارة ، ستحبهم وسيحبونك ، ما أجمل حى آل جبل بعد وفاة زنفل .

فهتف عم شافعى محذراً :

- لن يكون خنفس خيراً من زنفل .

- لكن خنفس لا يضر لك عداوة .

- عداوات الفتوات تنشأ بسرعة نشوء الطين عقب المطر .

فقالت عبدة برجاء :

- لا تفكّر هكذا يا معلم ، عدنا لتعيش في سلام ، ستفتح الدكان وسيجيئ الرزق . ولا تنس أنك عشت تحت سيطرة فتوة بسوق المقطم ، ففي كل مكان فتوة يخضع لها الناس .

ووصلت الأسرة مسيرة نحو الحرارة ، يتقدمها عم شافعى حاملاً جوالاً ، وتبعته عبدة ورفاعة حاملاً بقجة ضخمة . ويدار رفاعة بقامته الطويلة وعوده التحليل ووجهه الوضاء فتى جذاب المنظر ينضح بالوداعة والرقابة ، غريباً في الأرض التي يسير فوقها . وتأملت عيناه ما حوله في شغف حتى انجدبتا إلى البيت الكبير الذي يقف عند رأس الحرارة منفرداً ، ورؤوس الأشجار تهتز من فوق سورة . رنا إليه طويلاً ثم تسأله :

- بيت جدنا؟

فقالت عبدة بابتهاج .

- نعم ، أرأيت ما حدثتك عنه؟ فيه جدك ، صاحب هذه الأرض كلها وما عليها ، الخير خيره والفضل فضلاته ، ولو لا عزلته ملأ الحرارة نوراً .

وأكمل عم شافعى ساخراً :

- وباسمي ينهب ناظر الوقف إيهاب حارتنا ، ويعتدى الفتوات علينا . تقدموا نحو الحرارة محاذين للسور الجنوبي للبيت الكبير . لم ترتد عينارفاعة عن البيت المغلق . ثم تراءى لهم بيت ناظر الوقف إيهاب وبوابه المقتعد أريكة عند بابه المفتوح . وفي مقابلته قام بيت فتوة الحرارة يومي الذي وقف أمامه غربة كارو محملاً بمقاطف الأرض وسلام الفاكهة وقد مضى الخدم يحملونها للداخل تباعاً . وبدت الحرارة ملعيّاً

للغلامان الحفاة، على حين افترشت أسر الأرض أو الحصر أمام مداخل
البيوت ليتفقوا الفول أو يخرطوا الملوخية. وتبودلت أحاديث ونكات،
وزجر ونهر، وتعالت ضحكات وصرخات. مالت أسرة عم شافعى إلى
حي آل جبل فصادفها في عرض الطريقشيخ ضرير، يتلمس طريقه
بعصاه على مهل، فأنزل عم شافعى الجوال من فوق ظهره ومضى نحوه
منبسط الأسارير، حتى وقف أمامه وهو يهتف:

- عم جواد الشاعر، السلام عليكم!

توقف الشاعر وهو يرھف أذنيه في انتباھ، ثم هز رأسه في حيرة
 قائلاً:

- وعليكم السلام! صوت غير غريب علىّ!

- أنسىت صاحبك شافعى النجار؟

فنهل وجه الرجل وصاح:

- عم شافعى ورب السماوات.

وفتح ذراعيه فتعانق الرجال بشوق وحنان حتى تطلعت إليهما أنظار
القريبين وحاکى عناقهما غلامان عابثان. وقال جواد وهو يشد على يد
صاحبه:

- هجرتنا عشرين عاماً أو يزيد، يا له من عمر، وكيف زوجك؟

فقالت عبدة:

- بخير يا عم جواد سألت عنك العافية، وهذا هو ذا ابنتا رفاعة، قبل
يد عملك الشاعر.

واقترب رفاعة من الشاعر مبتھجاً فتناول يده فلثمتها، وربت الرجل
كتفه، وتحسس رأسه في استطلاع، وفسمات وجهه، وقال:
- بديع بديع، ما أشبهك بجدك!

فنور الثناء وجه عبدة، وضحك عم شافعى قائلاً:

- لو رأيت جسده النحيل ما قلت ذلك .
- حسبي ما أخذ ، إن الجبلاوي لا ينكر . ماذا يعمل الفتى ؟
- علمته التجارة ، لكنه ابن وحيد مدلل ، يكث في دكانى قليلاً ويهيم
على وجهه في الخلاء والجبل أكثر الوقت .
فقال الشاعر باسماً :

- لا يستقر الرجل حتى يتزوج ، وأين كنت يا معلم شافعى ؟
- في سوق المقطم .

فضحك الرجل ضحكة عالية وقال :
- كما فعل جبل ، لكنه عاد حاوياً وتعود بخاراً كما ذهبت . على أي
حال مات عدوك ولكن الخلف كالسلف .
فقالت عبدة بسرعة :

- كلهم كذلك ، وما نطمع في شيء إلا أن نعيش كما يعيش
المسالمون !

وعرف رجال شافعى فهرعوا إليه ، ودار العناق وارتقت
الأصوات ، وعاد رفاعة يتفحص ما حوله باهتمام وشغف ، وأنفاس
قومه تتردد من حوله ، فتخفف كثيراً من وحشة القلب التي غشيتها مذ
فارق سوق المقطم . ومضت عيناه في التجول حتى وقفت عند نافذة في
الربع الأول ، تطل منها فتاة راحت تحملق في وجهه باهتمام ، فلما
التفت عيناهما رفعت ناظريها إلى الأفق . ولما ذلك رجل من أصحاب
والده فهمس قائلاً :

- عيشة بنت خنفيس ، نظرة إليها تسبب مذبحة !
فتورد وجه رفاعة وقالت أمه :

- ليس هو من هؤلاء الشبان ، ولكنه يرى حارته لأول مرة .

ومن الربع الأول خرج رجل في متانة الشور، يرفل في جلباب فضفاض، وينطلق من فوق فيه شارب متتحرش في وجه كثير الندوب والبقع فتهامس الناس: «خنفس.. خنفس». وأخذ جواد عم شافعى من يده واتجه به نحو الربع وهو يقول:

ـ سلام الله على فتوة آل جبل، إليك أخانا المعلم شافعى النجار،
عاد إلى حارته بعد غربة عشرين عاماً!

القى خنفس نظرة جامدة على وجه شافعى، متوجهلاً يده المدودة مليأً، ثم مدلّه يده دون أن يلين وجهه، ثم تعمم في برود:
ـ أهلاً.

وتأمله رفاعة بامتعاض، فهمست أمه في أذنه أن يذهب للسلام عليه.

وذهب رفاعة متضايقاً فمدّ له يده، وقال عم شافعى:
ـ ابني رفاعة.

ونظر خنفس إلى رفاعة نظرة استكثار وازدراء، أولها الحاضرون بأنها احتقار لرقته غير المألوفة في الحرارة. وصافحه بعدم اكتتراث ثم التفت إلى أبيه متسائلاً:

ـ ترى هل نسيت في غربتك سنة الحياة في حارتنا؟
فادرك شافعى ما يرمي إليه، وقال مدارياً ضيقه:

ـ نحن في الخدمة دائمًا يا معلم.

فتغرس في وجهه بريئة وسأله:

ـ لماذا هاجرت من حارتك؟

فصمّت شافعى ريشما يجد جواباً مناسباً، فقال خنفس:
ـ هرباً من زنفل؟

فقال جواد الشاعر مبادراً:

- لم يكن ذلك خطأ لا يغفر.

فقال خنفس لشافعى محذراً:

- لن تجد مني مهرباً عند الغضب.

فقالت عبدة برجاء:

- ستجدنا يا معلم من أطيب الناس.

ومضى شافعى وأسرته وسط الأصحاب إلى دهليز ربع النصر
ليتسلم مسكنًا خالياً دله عليه عم جواد. وتراءت في نافذة مطلة على
الدهليز فتاة حسناً ذات جمال وقع، وقفت تمثّل شعرها أمام زجاج
النافذة، فلما رأت القادمين تسائلت في دلال:

- من القادم كالعريس في الزفة؟

فضاحك كثيرون، وقال رجل:

- جار لك جديد يا ياسمينة سيقيم في الدهليز أمامك.

فهمفت ضاحكة:

- ربنا يزيد في الرجال!

ومرت عيناهما بعيدة دون اكتئاث، لكنها وقفت على رفاعة باهتمام
وإعجاب. ودهش رفاعة لنظرتها أكثر من دهشت لنظرية عيشة بنت
خنفس. وتبع والديه إلى باب المسكن المقابل لمسكن ياسمينة على
الجانب الآخر للدهليز، وصوت ياسمينة يعني:

آه من جماله يامه.

فتح عم شافعى دكان التجارة عند مدخل ربع النصر . ومع الصباح
خرجت عبلة تتسوق ، ومضى عم شافعى وابنه رفاعة إلى الدكان .
وجلس على عتبة الدكان يتظاران الرزق . وكان في حوزة الرجل مال
يكفيه شهراً أو يزيد فلم يطرقه القلق ، فراح ينظر إلى الدهليز المسقوف
بالمساكن ، المفضى إلى الحوش الكبير ويقول :

- هذا هو الدهليز المبارك الذي أغرق فيه جبل أعداءنا .

فتأمله رفاعة بعينين حالمتين وتغير باسم ، فعاد الرجل يقول :
- وفي هذه البقعة أقام أدهم كوهه وحدثت الأحداث ، وفيها بارك
الجلالوى ابنه وعفا عنه .

فازداد الثغر الجميل ابتساماً وأغرقت العينان في الحلم . الذكريات
الجميلة كلها ولدت في هذا المكان . لولا الزمن لبقيت آثار أقدام
الجلالوى وأدهم ، ولردد الهواء أنفاسهم . ومن هذه التواخذ انصبت المياه
على الفتوات في الحفرة . من نافذة ياسمينة انصبت المياه على الأعداء .
اليوم لا ينصب منها إلا نظرات مرعبة . وبعثت الزمان بكل جليل . أما
جبل فانتظر داخل الحوش بين رجال ضعفاء . لكنه انتصر .

- انتصر جبل يا أبي ولكن ما جدوى النصر ؟

فتنهد الرجل قائلاً :

- تعاهدنا على لا نفكر في ذلك ، أرأيت خنفس ؟

وعلا صوت غنچ منادياً :

- يا عم يا نجار .

فتتبادل الأب وابنه نظرة إنكار، ونهض الأب رافعًا رأسه فرأى
ياسمينة تطل من النافذة وضفيرتها الطويلتان تتسلليان وتتأرجحان،
فهتف:

- يانعم.

فقالت بصوت متهالك من العبث:

- أبعث صبيك ليأخذ ترايبيزة لصلاحها.

عاد الرجل إلى مجلسه وهو يقول لابنه: «توكيل على الله». ووجد
رفاعة بباب المسكن مفتوحًا في انتظاره فغمغم قائلًا: «إحم»، فأذنت له
بالدخول فدخل. وجدها في جلباب بنى ذي كلفة بيضاء حول الطوق
وفوق نهضة النهدين. وحافية وعارية الساقين وجدها أيضًا. ولبست
صامتة ملياً كأنما تتحمّن أثر منظرها في نفسه، فلما رأت صفاء عينيه لا
يتغير وأشارت إلى ترايبيزة صغيرة قائمة على ثلات أرجل في ركن الصالة
وقالت:

- الرجل الرابعة تحت الكنبة، ركبها وحياتك وادهن الترايبيزة من
جديد.

فقال بصوت ذي موقع عذب:

- في الخدمة يا سرت.

- والثمن؟

- سأسأل أبي.

فشهقت متسائلة:

- وأنت؟ ألا تعرف الثمن؟

- هو الذي يخاطب فيه.

ففرست في وجهه بقوة وسائله:

- ومن يصلحها؟

- أنا، ولكن بإشرافه ومعاونته.

فضحكت دون مبالاة وقالت:

- بطيخة أصغر فتواتنا دونك في السن، لكنه يستطيع أن يدوخ زفة
برمتها، وأنت لا تستطيع أن تركب رجل ترابيزة بمفردك؟! ..

فقال رفاعة بصوت من يروم إنهاء الكلام:

- المهم أنها ستعود إليك كأحسن ما يكون.

وتناول الرجل الرابعة من نحت الكتبة، وحمل الترابيزة على كتفه
وأتجه نحو الباب قائلاً:
- فتك بعانية.

ولما وضعها أمام أبيه في الدكان قال الرجل بامتعاض وهو يتفحص
الترابيزة:

- أقول الحق إنني كنت أفضل أن يجيء أول رزق من ناحية أنظف.

فقال رفاعة في سذاجة:

- ليست قدرة بحال يا أبي، لكنها وحيدة فيما يبدوا.

- ليس أخطر من امرأة وحيدة!

- لعلها في حاجة إلى هداية!

فقال عم شافعى ساخراً:

- حرفتنا النجارة لا الهداية، هات الغرا.

وعند المساء ذهب عم شافعى ورفاعة إلى قهوة جبل. كان الشاعر
جواد متربعاً على أريكته يحسو قهوته. وجلس شلضم صاحب القهوة
عند المدخل، على حين احتل خنفس مكان الصدارة وسط حالة من
المعجبين. وقد شافعى وابنه إلى الفتوة ليؤديا إليه تحية الخضوع ثم

اتخذنا مكاناً حالياً جنباً شلضم. وما لبث أن تناول عم شافعى الجوزة، وقدم لابنه قدح قرفة بالبندق. ويداً جو الفهوة ناعساً، تتعقد في سمائه سحب الدخان، وتنتشر في هوائى الساكن رواحة المعلم والنعناع والقرنفل. أما الوجوه ذات الشوارب المستفردة فلاحت شاحبة ثقبة الأجيافان، وتلاقي السعال والنحنحة بالضحكات الغليظة والنكبات الفاجرة، وترامى من بطئ الحرارة هتاف غلمان يترنمون:

ياولاد حارتنا	نوت نوت
انتونصاره	ولا يهود
ناكلوا إيه	عجبوا
شربوا إيه	قهوة

وكانت عند مدخل القهوة هرة تتربيص، فانقضت نحو أسفل أريكة، وندت وسوسه، ثم ظهرت راكضة نحو الحرارة قابضة بأسنانها على فأرة. وردد رفاعة عن فيه قدح القرنفل متفرزاً، ورفع عينيه فوقعتا على خنفس وهو يتصق، وصاح خنفس مخاطباً الشاعر جواد:

- متى تبدأ يا رأس الدواهى؟

فابتسم جواد وهو يهز رأسه، ثم تناول الرباب، ويعث من أوتارها أنغام الافتتاح. ويدأبتحية للناظر إيهاب، فتحية ثانية لبيومي فتوة الحرارة، والثالثة توجهت إلى خليفة جبل الفتوة خنفس، ومضي يقول: «جلس أدهم في إدارة الوقف يستقبل مستأجرى الأحكار الجدد، وكان ينظر في الدفتر حينما جاءه صوت الرجل الأخير يقول معلناً عن اسمه: إدريس الجبلاوي.

فرفع أدهم رأسه في فزع فرأى آخاه واقفاً أمامه
وواصل الشاعر الحكاية في جو من الانصات. وتابعه رفاعة بشغف.
هذا هو الشاعر وهذه هي الحكايات. كم سمع أمه وهي تقول: «حارتنا

حارة الحكايات». وحقاً كانت هذه الحكايات جديرة بالحب. لعل فيها عزاء عن ملاعب سوق المقطم وخلواته. وراحة لقلبه المحترق بهيام غامض. غامض كهذا البيت الكبير المغلق. لا أثر فيه لحياة إلا رءوس أشجار الجميز والتوت والنخيل. وأى دليل على حياة الجبلاوي إلا الأشجار والحكايات؟ وأى دليل على أنه حفيده سوى الشبه الذي لمسه الشاعر جواد بيديه؟ وكان الليل يتقدم، وعم شافعى يدخن جوزة ثلاثة، وانحنت من الحرارة نداءات الباعة وهتافات الغلمان، ولم يعد يبقى سوى أنغام الرباب ودقة دربكة آتية من بعيد. وصراخ امرأة ينهال عليها زوجها ضريباً. أما أدهم فقد جره إدريس إلى مصيره. إلى الخلاء تتبعه أميمة الباكية. كما خرجت أمى من الحرارة وأنا في بطنها أضطرب. اللعنة على الفتوات. وعلى القحط حين تلفظ الفشران أنفاسها بين أسنانها. وعلى كل نظرة ساخرة أو ضحكة باردة. وعلى من يستقبل أخاه العائد بقوله لا مهرب مني عند الغضب. وعلى صانعي الرعب وخالقى النفاق. أما أدهم فلم يبق له إلا الخلاء، وهاهو ذا الشاعر يغنى أغنية من أغاني إدريس المخمور. وما إلى أذن أبيه وقال:

- أريد أن أزور المقاهي الأخرى.

قال عم شافعى متتعجباً :

- فهوتنا خير قهوة في الحرارة.

- ماذا يقول الشعراء هنالك؟

- الحكايات نفسها ولكنك تسمعها هنالك وكأنها غير الحكايات.

وترامى التهams إلى شلضم فمال نحو رفاعة قائلاً :

- ليس أحد أكذب من أهل حرارتنا، والشعراء أكذب الكاذبين،
ستسمع في القهوة التالية أن جبل قال إنه ابن الحرارة، ووالله ما قال
إلا أنه ابن حمدان.

فقال عم شافعى :

- الشاعر يريد إرضاء السامعين بأى ثمن .

فقال شلضم همساً :

- بل يريد إرضاء الفتوة !

وغادر الأب والابن القهوة عند متصف الليل . وكانت الظلمة كثيفة
تکاد أن تتجسد . وهناك أصوات رجال كأنما تصدر عن لا شيء .
وسجارة تتوهج في يد غير مرئية كأنها نجم تهاوى نحو الأرض .
وتساءل الأب :

- أعجبتك الحكاية ؟

- نعم ، ما أجمل الحكايات !

فضحك الأب قائلاً :

- عم جواد يحبك ، ماذا قال لك في الاستراحة ؟

- دعاني إلى زيارته في بيته .

- ما أسرع أن تُحب ، ولكنك صبي بطيء التعلم .

فقال معتذراً :

- لدى عمر كامل للتجارة ، ولكن يهمنى الآن أن أزور المقاهي
جميعاً .

وتلمسا طريقهما إلى الدهلiz فترامت إليهما من بيت ياسمينة ضجة
محمورة ، وصوت يغنى :

بابو الطاقية الشبيكة قل مين شغلها لك

شبكت قلبى إلهى ينشغل بالك

فهمس رفاعة في أذن أبيه :

- ليست وحيدة كما ظنت .

فتهد الأب فائلاً:

- ما أكثر ما ضيّعت من عمر في الخلوات!

وراحا يرقان في السلم على مهل وحذر، وإذا بر رفاعة يقول:

- أبي، سأزور عم جواد الشاعر.

٤٧

طرق رفاعة باب جواد الشاعر بالربع الثالث بحى جبل. وكان يتضاعد من الحوش سباب حاد تتبادله نسوة من اجتمعن للغسل والطهوى فأطل من فوق درابزين الطرقة المستديرة المشرفة على فناء الربع. وكانت المعركة الأساسية تدور بين امرأتين، وقفت أولاهما وراء طشت غسيل تلوح بيدين مغطاتين برغوة الصابون، ووقفت الأخرى عند مدخل الدهليز مشمرة عن ساعديها ترد السب بأفظع منه وترقص وسطها استهزاء. أما النساء الأخريات فانقسمن إلى فرتين، وتلاطمتهن الأصوات حتى تجاویت جدران الربع بالشتائم المقدعة والقذف العاهر. وسرعان ما جفل مما يرى ويسمع فتحول عن موقفه إلى باب الشاعر متقرزاً. حتى النساء، حتى القحطط، ودعك من الفتوات. في كل يد مخلب وفي كل لسان سم، وفي القلوب الخوف والضيقان. أما الهواء النقي ففي خلاء المقطم أو في البيت الكبير حيث ينعم الراوند بالسلام وحده! وفتح الباب عن وجه الضريح المستطلع فحياته فابتسمت أسارير الرجل، وأوسع له وهو يقول:

- أهلاً بابن أخي.

وتلقى رفاعة أول ما دخل شذى بخور نافذ كأنه أنفاس ملاك.

ومضى وراء الرجل إلى حجرة صغيرة مربعة، اصطفت بأضلاعها الشلت، وانبسطت فوق أرضها حصيرة مزركشة، وبدأ جوها خلف خصاخص النواخذة المغلقة في سمرة الأصيل، وقد زين سقفها حول الفانوس المدللي بصور العصافير والحمام. تربع الشاعر على شلته فجلس رفاعة إلى جانبه، وقال الرجل:

ـ كنا نعد القهوة.

ونادى زوجته فجاءت امرأة حاملة صينية القهوة فقال جواد:

ـ تعالى يا أم بخاطرها، هذا رفاعة ابن عم شافعى.

فجلست المرأة إلى جانب زوجها من الناحية الأخرى، وراحت تصب القهوة في الفناجيل وهي تقول:

ـ أهلاً بك يابني.

بدت في متتصف الحلقة السادسة، مستقيمة العود، قوية البنية، تلفت النظر إليها بعينين نافذتين ووشم فوق الذقن. وأشار جواد ناحية الضيف وقال:

ـ إنه سمّيع يا أم بخاطرها، شغوف بالحكايات، وبمثله يتحمس الشاعر ويرضى، أما الآخرون فسرعان ما يغلبهم نعاس المترول والخشيش.

فقالت المرأة بدعاية:

ـ حكاياتك جديدة عليه، معادة عليهم.

فقال الشاعر بغيط:

ـ هذا صوت عفريت من عفاريتك.. (ثم موجهًا الخطاب إلى رفاعة).. الولية كودية زار..

فتطلع رفاعة نحو المرأة باهتمام، فالتفت أعينهما وهى تمد له يدها بفنجان القهوة. كم كانت تجلبه دقة الزار في سوق المقطم. وكان قلبها

يتبعها راقصاً، فيقف في الطريق رافعاً رأسه نحو النوافذ، متطلعاً إلى البخور السابع في الفضاء والرءوس المترنحة. وسأله الشاعر:

- ألم تعرف في غربتك شيئاً عن حارتنا؟

- حدثني أبي عنها كما حدثتني أمي، ولكن قلبي كان هنالك، فلم أكثرت كثيراً للوقف ومشاكله، وعجبت من كثرة ضحاياه، فملت إلى رأي أمي في إيثارها الحب والسلام.

فتساءل جواد وهو يهز رأسه في حزن:

- وكيف يتمنى للحب والسلام أن يعيشَا بين الفقر ونبأيت الفتوات! فلم يجده رفاعة. لأنَّه لم يكن ثمة جواب. ولكن لأنَّ عينيه رأانا لأول مرة صورة غريبة فوق الجدار الأيمن للحجرة. صورة مرسومة بالزينة على الجدار كالصور التي تزيين جدران المقاهي. وتمثل رجلاً هائلاً تبدو إلى جانبه ربوع الحارة ضئيلة كلعب الأطفال. فتساءل الشاب:

- من صاحب هذه الصورة؟

فأجابـت أم بخاطرها:

- الجبلاوي.

- هل رأه أحد؟

فقال جواد:

- كلا، لم يره أحد من جيلنا حتى جبل لم يتبيّنه في ظلمة الخلاء، ولكن الميَّض رسمه على مثال ما يريد من أوصافه في الحكايات.

فتساءل رفاعة متنهداً:

- لماذاأغلق أبوابه في وجه أحفاده؟

- يقولون الكبر، من يدري كيف تمضي به الأيام! والله لو فتح أبوابه ما بقى أحد من أهل حارتنا في داره القدرة.

- ألا تستطيع أن.. .

ولكن أم بخاطرها قاطعته قائلة:

- لا تشغلي به نفسك، فإن أهل حارتنا إذا بدءوا بالكلام عن الواقع
جرهم الكلام إلى الوقف ثم تقع المصائب أشكاً وألواناً.
فهز رأسه في حيرة متسائلاً:

- وكيف لا تشغلي النفس بمثل هذا الجد العزيز؟!

- لنفعل مثله، فإنه لا يشغل بنا نفسه.

فرفع رفاعة بصره إلى الصورة ثم قال:

- لكنه قابل جبل وكلمه:

- نعم، ولما مات جبل جاء زنفل ثم خنفس، وكأننا يا بدر لا رحنا ولا
جيينا.

فضحك جواد وقال لأمرأته:

- إن الحرارة في حاجة إلى من يخلصها من شياطينها كما تخلصين
المسوين من عفاريتهم.

فابتسم رفاعة وقال:

- يا عمتي إن العفاريت حقاً هم أولئك الناس، لو رأيت كيف كانت
مقابلة خنفس لأبي!

- لا شأن لي بأولئك، عفاريتى الآخرون يذعنون لى كما كانت
الشعابين تذعن لجبل، وعندى لهم جميع ما يحبون من بخور
سودانى وتعاويذ حبشية وأغان سلطانية.

فسألها رفاعة باهتمام:

- ومن أين أنتك هذه القدرة على العفاريت؟
فحدخلته بنظره حذرة وقالت:

- هي حرفى كما أن النجارة حرفأ أبيك، جاءتني من وها بمن !
فأفرغ رفاعة ثمالة الفنجان فى فيه وهم بالكلام ، غير أن صوت عم
شافعى تصاعد من الحارة صائحاً :

- يارفاعة ، يا ولدى ياسول .

فقام رفاعة إلى النافذة ففتحها وأطل منها حتى التفت عيناه بعينى أبيه
وهتف :

- أمهلنى نصف ساعة يا أبي .

فرفع الرجل منكبيه فيما يشبه اليأس ورجع إلى دكانه . وعندما أخذ
رفاعة يغلق النافذةرأى عيشة فى موقفها بالنافذة كما رأها أول مرة ،
ترنوا إليه باهتمام . خيل إليه أنها ابسمت . أو أن عينيها تكلمتا . وتتردد
لحظة ، لكنهأغلق النافذة وعاد إلى مجلسه . وإذا بجواد يضحك قائلاً :

- أبوك يريد لك النجارة ، ولكن فيم ترغب أنت ؟

فتفكر رفاعة ملياناً ثم قال :

- على أن أكون نجاراً كأبى ، ولكنى أحب الحكايات ، وهذه الأسرار
حول العفاريت ، فحدثينى عنها يا عمتى .

فابتسمت المرأة وبدت كأنها سمحت بأن تهبه «فليلاً» من علمها
قالت :

- لكل إنسان عفريت هو سيده ، ولكن ليس كل عفريت بشر يجب
أن يخرج .

- وكيف غيّر بين هذا وذاك ؟

- عمله يدل عليه ، أنت مثلاً ولد طيب فما يستحق سيدك إلا
الجميل ، وليس هكذا عفاريت بيومى وخنفس وبطيخة !
قال ببراءة :

- وعفريت ياسمينة هل يجب أن يخرج؟
فضحكت أم بخاطرها وقالت:
- جارتكم؟ لكن رجال جبل يريدونها كما هي.
فقال باهتمام جدي:
- أريد أن أعرف هذه الأشياء فلا تخلى علىّ.
فقال جواد:
- من ذا الذي يدخل على الابن الطيب؟
وقالت أم بخاطرها:
- جميل أن تلazıمني كلما سمح الوقت، ولكن على شرط ألا يغضب
أبوك، وسيتساءل الناس: ما لهذا الولد الطيب والعفاريت؟!
ولكن أعلم ألا داء للناس إلا العفاريت.
وكان رفاعة يستمع وهو يرنو إلى صورة الجبلاوي.

٤٨

النحارة مهته ومستقبله، لا مهرب منها فيما يبدو. إن تكون نفسه لا
ترتاح إليها فأى شيء ترتاح إليه نفسه؟ إنها أفضل من السعي الكادح
وراء عربات اليد، أو من حمل المقاطف والسلال. أما المهن الأخرى
كالبطحة والفتونة فما أبغضها وأمقتها. أم بخاطرها أثارت خياله كما
لم يشهه شيء من قبل اللهم إلا صورة الواقف المرسومة على جدار
الحجرة في بيت جواد الشاعر. وحضر أيامه يوماً على رسم صورة مثلها
في بيتهما أو في الدكان، فقال له الرجل نحن أولى بنفقاتها، وهي خيال
وما قيمة الخيال؟ فما كان منه إلا أن قال له: بودي لو أراها! فضحكت

الرجل ضحكة عالية وقال له معاشرًا: أليس الأفضل أن ترى عملك؟! لن أعيش لك إلى الأبد، وعليك أن تتأهّب ل يوم تحمل فيه وحدك أعباء أمك وزوجك وأطفالك.

لكنه لم يكن يفكّر في شيء كما كان يفكّر فيما تقول أو تفعل أم بخاطرها. بدت له أحاديثها عن العفاريت غاية في الأهمية. ولم تزيل وعيه حتى في الأوقات السعيدة التي تردد فيها على مقاهي الحارة واحدة بعد أخرى. حتى الحكايات نفسها لم ترسب في نفسه كما رسبت أحاديث أم بخاطرها. لكل إنسان عفريت هو سيد، وكما يكون السيد يكون العبد.. هكذا تردد أم بخاطرها. وكم من ليلة قضتها في حضرة المست، يتبع دقات الزار ويشهد ترويض العفاريت. ومن المرضى من يساق إلى البيت في حال خمول وإعياء، ومنهم من يحمل مقيداً في الأغلال اثناء لشره. ويُحرق البخور المناسب، إذ لكل حال بخورها، وتدق الدقة المطلوبة إذ لكل عفريت دقة يطلبها، ثم تحدث الأعاجيب.

إذن عرفنا أن لكل عفريت دواءه ولكن مادواه ناظر الوقف وفتوانه؟! هؤلاء الأشرار يسخرون من الزار ولعله لم يخلق إلا لهم! القتل هو الوسيلة إلى الخلاص منهم أما العفريت فيستكين بالبخور الزكي والنسمة الطيبة. كيف يؤخذ العفريت الشرير بالجميل الطيب؟! ألا ما أجمل ما تتعلم من الزار والعفاريت! وقال لأم بخاطرها إنه يرغب من أعماق قلبه في تلقي أسرار الزار، فسألته: أنتفع في المال الكثير؟ فأجابها بأنه في تطهير الحارة يرحب لا في المال الكثير. وضحكت المرأة قائلة إنه أول رجل يرغب في هذا العمل، فماذا استهواه فيه؟ فأكيد قائلًا: إن أحكم ما في عملك أنت تهزّين الشر بالطيب الجميل. ولما مضت تبيع له أسرارها طاب نفسًا.

واعتراضًا عن مسرته كان يصعد إلى سطح الربع في نشوة الفجر ليشهد بقظة النور، ولكن البيت الكبير يستأثر بلبه دون التحوم والسكن وصيام

الديكة ، ويرنو إلى البيت الراقد بين الأشجار طويلاً ، ثم يتساءل : أين أنت يا جدى؟ لماذا لا تظهر ولو لحظة؟ لماذا لا تخرج ولو مرة؟ لماذا لا تتكلم ولو كلمة؟ لا تدرى أن كلمة منك تغير حارتنا من حال إلى حال؟ أم يرضيك ما يجري بها؟ وما أجمل الأشجار حول بيتك ! إنى أحبها لأنك تحبها ، وأنظر إليها لأنقى نظراتك المطبوعة عليها.

وكلما أفضى بخواطره إلى أبيه سمع عتاباً وقال له : «وعملك يا كسان؟ ! إن أمثالك من الشبان يجوبون الأحياء سعيًا وراء الرزق أو يهزون الحارة إذا رفعوا النباتات ! ».

وويمًا كانت الأسرة مجتمعة عقب العداء إذا بعبداً تقول لزوجها باسمة :

- قل له يا معلم .

أدرك رفاعة أنه المقصود بالكلام ، فنظر إلى أبيه مستطلعاً لكن الرجل خاطب زوجته قائلاً :

- حدثيه أنت بما عندك أولاً .

فنظرت عبدة إلى ابنها بإعجاب وقالت :

- خبر سعيد يا رفاعة ، زارتني سيدة زكية زوجة فتوتنا خنفس ! ورددت لها الزيارة بطبيعة الحال فاستقبلتني بحفاوة وقدمت إلى ابنته عيشة ، بنت جميلة كالقمر ، ثم زارتني مرة أخرى ومعها عيشة .

ولحظ عم شافعى ابنه بطرف خفى وهو يرفع فنجان القهوة إلى فيه ليرى أثر الحكاية في نفسه ، ثم هز رأسه هزة من قدر الصعوبة التي تنتظره ، وقال بتفحيم :

- هذا شرف لم يحظ به مثله بيت في حي آل جبل ، تصور أن زوجة خنفس وابنته تزوران بيتنا هذا !

- رفع رفاعة عنبه إلى أمه حائراً فقالت بحماس:
- ما أفحى مسكنهم، المقاعد الوثيرة، السجاد الفاخر، حتى الستائر
تنسدل فوق النوافذ والأبواب.
- قال رفاعة متعضاً:
- كل هذا الخير من أموال آل جبل المغتصبة!
- فدارى عم شافعى ابتسامة وهو يقول:
- تعاهدنا على لأن تكون فى هذا الموضوع.
- قالت عبدة باهتمام:
- فلنذكر فقط أن خنفس سيد آل جبل وأن صداقته أهل دعاء
مستجاب.
- قال رفاعة في ضجر:
- مباركة عليك هذه الصداقه!
- فيبدلت الأم مع زوجها نظرة ذات معنى ، قالت على أثرها:
- إن مجىء عيشة مع أمها حدث له معنى!
- فتسائل رفاعة وهو يشعر بانقباض:
- ما معناه يا أمى؟
- فضحك شافعى وهو يلوح بيده يائساً وقال مخاطباً عبدة:
- كان ينبغي أن تقص عليه كيف تم زواجنا!
- فهتف رفاعة بضيق:
- كلا! كلا يا أبي.
- ماذا تعنى؟ ومالك تبدو كالعذراء؟
- وقالت عبدة باغراء ورجاء:
- أنت الذي يبيك أن تدخلنا نظارة وقف آل جبل، سيرحبون بك إذا

تقدمت، حتى خنفس سيرحب بك، إذ لو لاثقة المرأة في مكانها
عند ما أقدمت على تلك الخطوة، أمامك جاء ستحسدك الحارة
عليه من أولها إلى آخرها.

وقال الأب ضاحكاً:

- من يدرى فعلتنا نراك يوماً ناظرًا لوقف جبل أو ترى أنت أحد
أبنائك فيه.

- أنت الذي تقول ذلك يا أبي؟ أنسى لماذا هاجرت من الحارة منذ
عشرين عاماً؟

فرمش عم شافعى فى شيء من الارتباك وقال:

- نحن نعيش اليوم كما يعيش غيرنا، فلا يجوز أن نهمل انتهاز فرصة
تجىء ب نفسها إلينا.

وتمتن رفاعة وكأنه يحادث نفسه:

- كيف أصهر إلى عفريت وأنا لا همّ لي اليوم إلا مطاردة
العفاريت؟!

فصاح شافعى محتداً:

- ما طمعت يوماً في أن أجعل منك أكثر من نحجار، ولكن الحظ
يعرض عليك درجة مرموقة في حارتنا، ولكنك تريد أن تكون
كودية زار، يا للعار، أى عين أصابتك؟ قل إنك ستتزوجها ودعنا
من الهزل!

- لن أتزوجها يا أبي.

فقال شافعى دون مبالاة:

- سأزور خنفس لأطلب القرب منه.

فهتف رفاعة بحرارة:

- لا تفعل يا أبي.

فسأله أبوه في جزع:

- خبرني ما شأنك يا ولد؟

وتوسلت عبدة إلى زوجها قائلة:

- لا تستند عليه، أنت أعلم بحاله.

- يا سوء ما أعلم، حارتنا تعيرنا برقتة.

- ترقق به حتى يفكّر في الأمر.

- أفرانه آباء، والأرض تهتز عند وقع أقدامهم.

وحدهجه بنظرة مغيبة ثم استطرد محتداً:

- لماذا يهرب الدم من وجهك؟ إنك من صلب رجال!

وتنهدر رفاعة. الصدر منقبض لحد البكاء. وشائع الأبوبة يزقها الغضب. والبيت يقسّو حيناً فيرتد سجناً كنبياً. ومرادك ليس في هذا المكان ولا بين هؤلاء الناس. وقال بصوت مبحوح:

- لا تعذبني يا أبي.

- أنت الذي تعذبني، كما عذبتني منذ ولدت.

وأحنى رفاعة رأسه حتى اختفى وجهه عن والديه، وأخفض الرجل من صوته وسكن ما استطاع غضبه، ثم سأله:

- هل تخاف الزواج؟ ألا تحب أن تتزوج؟ صارحنى بما في نفسك، ألم أذهب إلى أم بخاطرها فلعلها تعرف عنك ما لا نعرف!

فهتف بحدة:

- كلا ..

وقام فجأة فغادر الحجرة.

ونزل عم شافعى ليفتح الدكان فلم يجد رفاعة هناك كما توقع . لكنه لم يناد عليه وقال لنفسه : إنه من الحكم أن يتظاهر بالبرود لغيابه . ومضى النهار يزحف رويداً وضوء الشمس ينحسر عن أرض الحارة والنشارة تتكاثف حول قدمى شافعى دون أن يظهر رفاعة . وأتى المساء فأغلق الرجل الدكان وهو فى غاية من الضيق والغضب . وقصد كعادته قهوة شلضم واتخذ مجلسه ، ولما رأى جواد الشاعر قادماً وحده تولاه العجب وسألة :

- إذن أين رفاعة؟

فأجابه الرجل وهو ينلمس طريقه إلى أريكته :

- لم أره منذ أمس .

فقال شافعى بقلق :

- لم أره منذ تركنا بعد الغداء .

رفع جواد حاجبيه الأشبين ثم تساءل وهو يتربع على الأريكة ويضع الرباب إلى جانبه :

- هل وقع بينكما شيء؟

ولم يجبه شافعى ، وقام فجأة فغادر القهوة . وتعجب شلضم لقلق شافعى وقال ساخراً :

- هذه طراوة لم تعرفها حارتنا مذ أقام إدريس كوحه في الخلاء . كنت أتغيب في صغرى عن الحارة أيامًا فلا يسأل عن أحد ، وعند

عودتى بصبح بي أبي الله يرحمه : «ما الذى عاد بك يا ابن اللثيمة؟» .

فعلق خنفس على كلامه من صدر القهوة قائلاً :
- أصله لم يكن على يقين من أنك ابنه .

وضجت القهوة بالضحك ، وهنأ كثيرون خنفس على جميل دعابته !
أما عم شافعى فمضى إلى بيته وسأل عبدة : هل عاد رفاعة؟ فاستحوذ القلق على المرأة ، وقالت : إنها كانت تظنه بالدكان كعادته . واشتد قلقها حين أخبرها أنه لم يذهب كذلك إلى بيت جواد الشاعر ، وراحـت المرأة تتساءل في قلق :
- إذن أين ذهب؟

وترامى إليهما صوت ياسمينة وهي تزرع منادية على بیاع تین ، فنظرت عبدة إلى شافعى نظرة مريبة فهز الرجل رأسه بما أوطلق ضحكة جافة مقتضبة ساخرة ، ولكن المرأة قالت :
- فتاة مثلها تحمل العقداً !

وذهب الرجل إلى بيت ياسمينة مدفوعاً باليأس وحده . طرق الباب ففتحت ياسمينة بنفسها ، ولما عرفته تراجع رأسها في دهش مقرون بالظفر وقالت :

- أنت؟ ! ياما تخت الساهى دواهى !
فضض الرجل بصره أمام شفافية قميصها وقال بانكسار :

- رفاعة عندك؟
فازدادت دهشة وقالت :
- رفاعة! لمه؟

فعلاً الرجل الارتباك؟ فأشارت إلى الداخل وهي تقول :

- ابحث عنه بنفسك .

لكن الرجل استدار ليذهب فسألته ساخرة:

- هل أدركه البلوغ اليوم؟

وسمعها تخاطب شخصاً في الداخل قائلة:

- في هذا الزمان الفتى يخشى عليه أكثر من الفتاة.

ووجد عم شافعى عبده تتظره في الدهليز، فقالت له:

- سذهب معاً إلى سوق المقطم .

فصاح الرجل بغضب:

- الله يتبعه ، أهذا جزائي بعد يوم عمل شاق؟!

واستقللا عربة كارو إلى سوق المقطم ، وسألا عنده جيرانهما الأقدمين ، وعند المعارف فلم يعثر له على أثر . أجل كان يتغيب ساعات في العصاري أو الأصائل في الخلوات أو الجبل ، ولكن لا يتصور أحد أن يلبث حتى هذه الساعة من الليل في الخلاء . وعادا إلى الحارة كما ذهبوا ولكن على حال من الجزع أشد . ولاكت الألسن اختفاءه وبخاصة بعد أن مضت عليه أيام . صار دعاية في القهوة وبيت ياسمينة وفي حي آل جبل تندر الجميع بفزع والديه . ولعل أم بخاطرها وعم جواد كانوا الوحديين اللذين شاركا والديه في حزنها . وقال عم جواد : «أين ذهب الفتى؟ ليس هو من أولئك الشبان ، لو كان على شاكلتهم ما جزعنا!». وصاح بطيخة مرة وهو سكران : «جدع تايه يا أولاد الحلال» ، كأنما ينادي على طفل تائه ، فضحكـتـ الحـارـةـ وـراـحـ الـغـلـمـانـ يـرـدـونـهاـ . ومرضت عبدة من الحزن . وعمل شافعى في دكانه بعقل شارد وعينين محمرتين من الأرق . أما زكية زوجة خنفس فقد انقطعت عن زيارة عبدة وتجاهلتـهاـ فـيـ الطـرـيقـ . وـيـوـمـاـ كانـ شـافـعـىـ مـكـباـ عـلـىـ نـشـرـ قـطـعـةـ منـ الخـشـبـ إـذـ صـاحـتـ بـهـ يـاسـمـيـنـةـ وـهـيـ عـائـدـةـ مـنـ مشـوارـ :

- عم شافعى .. انظر .

ووجدها تشير إلى نهاية الحرارة عند الخلاء ، فغادر الدكان والمنشار في يده ليرى ما تشير إليه فرأى ابنه رفاعة يتقدم نحو الريح في استحياء . وترك الرجل المشار أمام الدكان وهرع نحو ابنه وهو يتفحصه بدهشة ، ثم قبض على عضديه هاتفاً :

- رفاعة ! أين كنت ؟ ألا تدرى ما يعني غيابك لنا ؟ لأمك المسكينة التي تكاد أن تموت جزعاً ؟

ولم ينبع الشاب ، ووضع للأب هزالة فسألة :

- هل كنت مريضاً ؟

فأجاب في ارتباك :

- كلا ، دعني أرى أمي .

واقترن بأسمينة منها وسألت الشاب في ارتياه :

- ولكن أين كنت ؟

فلم ينظر نحوها . وتجمّع حوله الغلمان ، فسار به أبوه إلى البيت . وسرعان ما تبعهما عم جواد وأم بخاطرها . ولما رأته أمه وثبت من الفراش وضمته إلى صدرها وهي تقول بصوت ضعيف :

- سامحك الله .. كيف هانت عليك أمك ؟

فتناول راحتها بين يديه وأجلسها على الفراش وجلس إلى جانبها وهو يقول :

- إنى آسف ..

فرفع أبوه وجهها متوجهماً نقىض الارتياح السارى في أعمقه كالغمامة السوداء المظلمة لووجه القمر وقال بتعتاب :

- ليس الأمر إلا أننا قصدنا إسعادك !

فتساءلت عبدة بعينين مغرورتين :
- توهمت أننا نجبرك على الزواج؟!
فقال بحزن :
- إني متعب .

فتسأله أكثر من صوت :
- أين كنت؟
فتهجد قائلاً :
- ضقت بحياتي فذهبت إلى الخلاء ، شعرت برغبة في الوحدة
والخلاء . ولم أكن أتركه إلا لشراء الطعام .
فضرب الأب جبهته بيده وصاح :
- ما هكذا يفعل العقلاء !

ولإذا بأم بخاطرها تقول في إشراق :
- دعوه ، أنا خبيرة بهذه الأحوال ، ولا يصح أن يُفرض على مثله
شيء ياباه .
فقالت عبدة وهي تشد على يده :
- كانت سعادته أملنا ، ولكن ما قدر كان ، كم ضمرت يا بني !

وتساءل عم شافعى في غيظ :
- دلونى على شيء كهذا حصل من قبل في حارتنا !
فقالت أم بخاطرها في لوم :
- ليس حاله بالغريب على يا عم شافعى ، صدقنى ، إنه شاب نادر
المثال !

فغمغم عم شافعى في حزن :
- صرنا أحذوئه في الحارة .

قالت أم بخاطرها غاضبة:

- ليس في الحارة كلها فتى مثله.

قال عم شافعى:

- هذا موضع الأسى.

صاحت أم بخاطرها:

- وحد الله يا رجل، أنت لا تدرى ماذا تقول ولا تفهم ما يقال.

٥٠

أصبح للدكان منظر يوحى بالنشاط والنجاح. فعند طرف الطاولة وقف عم شافعى ينشر الخشب، وعند طرفها الآخر قبض رفاعة على القدوم وراح يدق المسامير، أما أسفل الطاولة فبدأ إثناء الغراء مغروساً في ركام النشرة حتى متصفه. وأسندت إلى الجدران ضلقات نوافذ ومصاريع أبواب، يتوسطها صف عمودي من الصناديق الجديدة بلون الخشب الباهت المصفول لا ينقصها إلا الدهان. وامتلا الجلوس برائحة خشبية وأصوات النشر والدق والحلك وقرقرة الجوز يدخلتها أربعة زبائن جلسوا عند مدخل الدكان يتحادثون. وقال حجازى مخاطباً عم شافعى:

- سأجرب مهارتك في هذه الكتبة، وإن شاء الله سيكون العمل القادم جهاز البنت (ثم مخاطباً أصحابه).. وأعود فأقول لكم إننا نعيش في أيام لو عاد إليها جبل جن.

نهزوا رؤوسهم في أسى وهم يدخلون، أما برهوم التربى فسأل عم شافعى باسماً:

- لماذا لا ت يريد أن تصنع لي تابوتاً؟ أليس كل شيء بثمنه؟
 فكف عم شافعى يده عن المشار لحظة وقال ضاحكاً:
 - يفتح الله، وجود التابوت فى الدكان يهرب الزبائن.
 فقال فرحت مؤمناً على قوله:
 - صدقت، قطع الموت وسيرته.
 فعاد حجازى يقول:
 - عيّبكم أنكم تخافون الموت أكثر مما ينبغى: لذلك سيطر عليّمكم
 خنفس، وتسلطن يومى، وصادر إيهاب أرزاقكم.
 - وأنت ألا تخاف الموت مثلنا؟
 وبصدق ثم قال:
 - العيب عينا جميماً، كان جبل قوياً، وبالقوة والعنف استخلص لنا
 حقنا الذى أضاعه الجبن.
 وإذا بر فagueة يتوقف عن الدق فيخرج المسامير من فيه ويقول:
 - أراد جبل استخلاص حقنا بالحسنى. ولم يعمد إلى القوة إلا دفاعاً
 عن نفسه.
 ففضحوك حجازى استهزاء وقال متسائلاً:
 - خبرنى يا بنى هل تستطيع دق المسامير إلا بالقوة؟
 فقال رفاعة باهتمام جدى:
 - ليس الإنسان كالخشب يا معلم.
 وحدجه أبوه بنظرة فعاد إلى عمله. واستطرد حجازى قائلاً:
 - الحق أن جبل كان فتوة من أشد الفتوات الذين عرفتهم حارتنا،
 وكم حد آل جبل على الفتونة.
 فقال فرحت مصححاً:

- أراد منهم أن يكونوا فتوات على المارة لا على آل جبل .
- وما هم اليوم إلا فثران أو أرانب .
وتساءل عم شافعى وهو يجفف أنهه بظهر يده :
- وأى الألوان تفضل يا عم حجازى ؟
- اختر لوناً لا يتسع بسرعة ، فهذا أضمن للنظافة .
وواصل حديثه للأصحاب فقال :
- ويوم فقاً دعبس عين كعبلاها فقاً جبل عينه ، فباجبروت أقام العدل ..

وتنهد رفاعة بصوت مسموع وقال :
- لا يعوزنا الجبروت ، كل ساعة من نهار أو ليل نرى أناساً يضربون ويجرون ويقتلون ، حتى النساء يشنن الأظافر حتى تسيل الدماء ، ولكن أين العدل ؟ ألا ما أقبح هذا كله !
ووجه الجميع لحظة ثم قال حنورة ، وكان يتكلم لأول مرة :
- هذا المعلم الصغير يحتقر حارتنا ! إنه رقيق أكثر من اللازم وأنت السبب يا معلم شافعى .
- أنا ؟!

- نعم ، إنه شاب مدلع .
والتفت حجازى نحو رفاعة وقال ضاحكاً :
- خير من هذا أن تجد لنفسك عروساً !
وتعالى الضحك ، فقطب عم شافعى ، وتورد وجه رفاعة ، وعاد حجازى يقول مؤكداً :
- القوة .. القوة ، بغيرها لا يسود العدل !
فقال رفاعة بإصرار على رغم نظرات أبيه إليه :

- الحق أن حارتنا في حاجة إلى الرحمة .
فضحك برهوم التربى قاتلاً :
- أتريد أن تخرب بيتي ؟
وضجوا بالضحك . وأعقب ذلك نوبات سعال ، حتى قال حجازى
وقد صارت عيناه فى لون الغرا :
- قد يذهب جبل إلى الأفندي يسأله العدل والرحمة ، فأرسل إليه
زقطن ورجاله ، ولو لا التبait - لا الرحمة - لهلك جبل والله .
وهتف عم شافعى محذراً :
- يا هوة ! للحبيطان آذان ، ولو سمعوك ما وجدتم من يسمى
عليكم .
فقال حنورة :
- صدق الرجل ، ما أنتم إلا حشاشون لا خير فيكم ، ولو مرّ أمامكم
الآن خنفس لسجدتم بين يديه .
ثم قال وهو يلتفت نحو رفاعة :
- لا تؤاخذنا يا بنى ، فليس على الحشاش حرج ، ألم تجرب الحشيش
يا رفاعة ؟
فقال عم شافعى ضاحكاً :
- لا يميل إلى مجالسه ، وإن زاد على نفسيه لهث أو نام .
فقال فرحت :
- ما ألطف هذا الشاب ، يظنه البعض كودية زار ملازمته لأم
بخاطرها ، ويعظمه آخرون شاعراً لتعلقه بالحكايات .
فقال حجازى ضاحكاً :
- ويكره مجالس الحشيش كما يكره الزواج !

ونادى برهوم صبي القهوة ليأخذ الجوز ، ثم قاموا مسلمين فانقضى
المجلس . وترك عم شافعى المشارى لينظر إلى ابنه فى عتاب ثم قال :
ـ لا تخسر نفسك فى أحاديث أولئك الناس .

وجاء غلامان ليلعبوا أمام الدكان فدار رفاعة حول الطاولة حتى وقف
أمام أبيه ، ثم تناول يده وتراجع به إلى ركن الدكان بعيداً عن الآذان . بدا
منفعلاً قلقاً لكن تطبّقت شفتاه فى تصميم . وشع من عينيه نور عجيب
حتى تسائلت عيناً الرجل . وإذا بر رفاعة يقول :
ـ لن أستطيع السكوت بعد اليوم .

فتضائق الأب . ياله من منصب هذا الابن العزيز . ينفق وقته الغالى
فى بيت أم بخاطرها . ويخلو الساعات الطوال إلى نفسه عند صخرة
هند . وإذا مكث فى الدكان ساعة أثار المشاكل بمناقشاته .
ـ هل تجد تعليماً ؟

فقال بهدوء غريب حل محل القلق :
ـ لا يجوز أن أخفى عليك ما في نفسي .
ـ ماذا عندك ؟

فاقترب منه أكثر وقال :
ـ أمس عقب خروجي من بيت الشاعر عند متصرف الليل شعرت
برغبة في الانطلاق فقصدت الخلاء ، مشيت في الظلام حتى
تعبت ، ثم اخترت مكاناً أسلف سور البيت الكبير المشرف على
الخلاء فجلست مستدراً ظهرى إلى سور .

فبدأ الاهتمام في عيني الرجل ، وحثه بنظرة على متابعة الحديث
 فقال :

ـ سمعت صوتاً غريباً يتكلم ، كأنما كان يحدث نفسه في الظلام ،
فدهمني شعور مشرق بأنه صوت جدنا الجبلاوي .

فحملق الرجل في وجه ابنه وقتم في ذهول:

- صوت الجبلواي؟! ما الذي حملك على هذا الظن؟

فقال رفاعة بحرارة:

- ليس ظناً يا أبي، سبّجتكم الدليل. وقد قدمت حال سماعي الصوت فاستدرت نحو البيت وترجعت إلى الوراء لأنّي من روئته ولكنني لم أرَ إلا ظلاماً.

- الحمد لله!

- صبراً يا أبي، سمعت الصوت وهو يقول: «أما جبل فقد قام بهمته وكان عند حسن الظن به، ولكن الأمور ارتدت إلى أفعى مما كانت عليه»!

شعر شافعى بصدره يحترق وتفصّد جبينه عرقاً، وقال بصوت متهدج:

- ما أكثر الذين جلسوا مجلسك تحت السور فلم يسمعوا شيئاً.

- لكنني أنا سمعت يا أبي.

- لعله أحد كان راقداً في الظلام!

فهز رأسه بعزم وقال:

- بل جاء الصوت من البيت!

- كيف عرفت هذا؟

- هتفت قائلاً: «يا جدى، جبل مات، وخلفه آخرون، فمدّ إلينا يدك».

فقال شافعى باضطراب:

- الله أسأل ألا يكون أحد سمعك.

فقال رفاعة بعينين مضطربتين:

- جدى سمعنى ، وجاءنى صوته قائلاً: «ما أقبح أن يطالب شاب
جده العجوز بالعمل ، والابن الحبيب من يعمل . . . ». فسألته:
«وما حيلتى حيال أولئك الفتوات أنا الضعيف؟» فأجابنى:
«الضعيف هو الغبى الذى لا يعرف سر قوته وأنا لا أحب
الأغبياء».

فتساءل عم شافعى فى فزع:

- أتظن أن هذا الكلام دار بينك وبين الجبالوى؟
- نعم ورب السماوات!

فند عن الرجل أنين ، وقال متوجعاً:

- يا للأوهام خلاقة المصائب!

- صدقنى يا أبي ، ليس فيما أقول شك .
فقال الرجل متحسراً:

- لا تقطع أملى فى أن نجد فيه شكّاً.

فقال رفاعة بوجه يتألق نشوة كالنسمة الحلوة:
- وأعرف الآن ما يراد منى .

فضرب الرجل جبينه بغيط وصاح متسائلاً:
- وهل أيضاً يراد منك شيء؟

- نعم ، إنى ضعيف ولكنى لست غبياً ، والابن الحبيب من ي العمل !
فهتف شافعى وهو يشعر كأن المنشار ينشر صدره:

- سيكون عملك أسود ، وسوف تهلك وتجربنا معك إلى الهلاك !
فقال رفاعة باسماً:

- إنهم لا يقتلون إلا من يتطلع إلى الوقف !
- وهل تتطلع إلى شيء غير الوقف؟

فقال رفاعة بصوت مليء بالثقة :

ـ كان أدهم ينشد الحياة الصافية الغناء، كذلك جبل وهو لم يطالب بحقه في الوقف إلا سعياً وراء الحياة الصافية الغناء، لكن غلب عليه الظن بأن هذه الحياة لن تيسر لأحد إلا إذا توزع الوقف على الجميع فنال كلّ حقه واستثمره حتى يغنه عن الكد فتخلص له الحياة الصافية الغناء، ولكن ما أتته الوقف إن أمكن بلوغ هذه الحياة بدونه، وهو أمر ممكن لمن يشاء، وبوسعنا أن نغنى منذ الساعة!

فنتهد عم شافعى في شيء من الارتباط، وتساءل:

ـ هل قال لك جدك ذلك؟

ـ قال إنه لا يحب الغباء، وقال إن الغبي هو الذي لا يعرف سر قوته، وإن آخر من يدعوا إلى فنال في سبيل الوقف. الوقف لا شيء يا أبي، وسعادة الحياة الغناء هي كل شيء، ولا يحول بيننا وبين السعادة إلا العفاريت الكامنة في أعماقنا، ولم يكن عبئاً أن أشغف بطبع العفاريت وأن أحسنه، لعلها إرادة رب السماوات هي التي دفعتنا إليه.

ارتاح شافعى بعد عذاب، ولكن بعد أن استند العذاب قواه، فانحط على منشاره، ماداً ساقيه، مسندًا ظهره إلى ضلعة نافذة متطرفة دورها في الإصلاح، ثم ساءل ابنه في شيء من السخرية:

ـ وكيف لم تبلغ الحياة الغناء وفيينا أم بخاطرها من قبل أن تولد أنت؟

فقال رفاعة بالصوت المليء بالثقة:

ـ لأنها تنتظر حتى يجيء إليها المرضى الموسرون ولا تذهب بنفسها إلى المساكين.

فنظر عم شافعى في أركان دكانه وقال بارتيا :

- انظر إلى إقبال الرزق علينا فماذا يخبي لنا الغد من تحت رأسك؟

فقال رفاعة بابتهاج:

- كل خير يا أبي، إن شفاء المرضى لن يقلق إلا العفاريت.

وتوهجه ضياء في الدكان منبعث من مرأة صوان قرب الباب، عاكساً
شعاع الشمس المائلة.

٥١

وانتقل القلق ليلاً إلى بيت عم شافعى. ومع أن الحديث تناهى إلى
عبدة في إطار من الطمأنينة، ومع أنها لم تعلم سوى أن رفاعة سمع
صوت جده وهو يتكلم وأنه قرر بعد ذلك أن يزور المساكين ليطرد عنهم
العفاريت، إلا أن القلق اجتاح نفسها ولبثت تقلب وجوه العواقب. كان
رفاعة في الخارج. وكان في أقصى الحرارة. بعيداً عن حى آل جبل. عرس
ترامى منه أصوات طبل وزمر وزغاريد. وأرادت المرأة أن تواجه الحقيقة
فقالت بحزن:

- رفاعة لا يكذب.

فقال شافعى بامتعاض:

- ولكن الأوهام قد تخدعه: كلنا عرضة لذلك.

- وماذا ترى فيما سمع؟

- كيف لي بأن أجزم!

- لا محال في الأمر ما دام جدنا حياً.

- الويل لنا لو عرف الخبر.

فقالت برجاء:

- فلنكتم الخبر ولنحمد الله على أنه ركز اهتمامه بالفوس
لابالوقف، وما دام لا يؤذى أحداً فلن يؤذيه أحد.

فقال شافعى بفتور:

- ما أكثر الذين يؤذون فى حارتنا دون أن يؤذوا أحداً!
واختفت أنغام العرس وراء ضجة انفجرت فى الدهليز. وأطلال من
النافذة فرأيا الدهليز مزدحماً بالرجال، وتبيينا على ضوء مصباح فى يد
أحدهم وجوه حجازى وبرهوم وفرحات وحنورة وأخرين، وكان كل
لسان يتكلم أو يصرخ فاختلطت الأصوات وعمت الضوضاء. وعلا
صوت هاتقاً: «شرف آل جبل فى الميزان، ولن نسمع لأحد بتلوينه». وهمست عبدة فى أذن زوجها وهى ترتعد:

- سر ابنتنا انكشف!

فتراجع عم شافعى عن النافذة متاؤها وهو يقول:
- لم يكذبنى قلبى فقط.

واندفع الرجل خارج بيته غير مبال بالخطر فتبعته زوجه على الأثر.
وشق الرجل فى الزحام سبيلاً متسائلاً بصوت مرتفع:
- رفاعة! .. أين أنت يا رفاعة؟

ولم يرَ الرجل ابنه فى مجال ضوء المصباح، ولم يسمع صوته،
ولكن حجازى اقترب منه وسأله بصوت مرتفع ليسمعه على رغم
الضوضاء:

- هل تاه ابنك مرة أخرى؟

وصاح به فرحت:

- تعال اسمع ما يقال وانظر كيف يبعث العابثون بالجبل على آخر
الزمان!

فهتفت عبدة جزعاً:

- وحدوا الله ، والسامح كريم .

فتعالت أصوات الغضب ، يهتف بعضها : « هذه المرأة مجنونة ! ».
ويهتف آخرون : « إنها لا تعرف معنى الشرف ! ». وامتلاً قلب شافعى
رعباً وسأل حجازى مستعطفاً :

- أين الولد ؟

فشق حجازى سيله حتى الباب وصاح بأعلى صوته :
- يا رفاعة .. تعال يا ولد كلم عم شافعى .

فاختلط الأمر على عم شافعى الذى كان يظن ابنه مقبوضاً عليه فى
ركن الدهلizard ، وإذا بر فاعنة يظهر فى مجال الضوء فيجذبه أبوه من ذراعه
ويتقهقر به إلى موقف عبده . وسرعان ما تراءى فانوس فى يد شلضم
يسير به بين يدى خنفس الذى تقبض وجهه حنقاً وتوجهماً . واتجهت
الأنظار نحو الفتوة وساد الصمت . وتساءل خنفس بصوت غليظ :

- ماذا وراءكم ؟

فأجابه أكثر من صوت فى آن :

- ياسمينة لو ثتنا !

فقال خنفس :

- فليتكلم الشاهد منكم !

فقدم زيتونة . سائق عربة كارو . حتى وقف أمام خنفس وقال :

- منذ قليل رأيتها خارجة من باب بيت يومى الخلفى ، تبعتها إلى هنا
ثم سألتها عما كانت تفعله فى بيت الفتوة فتبين لى سكرها . كانت
رائحة الخمر تخرج من فيها فتملاً الدهلizard . أفلتت مني وأغلقت
على نفسيها الباب . والآن سلوا أنفسكم عما يمكن أن تفعله امرأة
سكرانة فى بيت فتوة .

استرخت أعصاب شافعى وعبدة من ناحية ، وتوررت أعصابه

خنفس من ناحية أخرى . أدرك الرجل أن فتونته تتعرض لامتحان قاس . فلو تهاون في معاقبة ياسمينة سيفقد كرامته أمام آل جبل ، ولو ترك الغاضبين ليعتدوا عليها فسيدفع بنفسه إلى موقف التحدى أمام يومي فتوة الحارة كلها . ما العمل ؟ وكان رجال جبل يتواجدون من الربع ، ويحتشدون في الحوش ، وفي الحارة أمام ربع النصر فازداد مركز خنفس حرجاً . وتنابعت الأصوات في غضب :

- اطردوها من حي آل جبل .
- يجب أن تُجلد قبل طردها .
- اقتلوها فتلاً .

وترامت صرخة ياسمينة التي كانت تنصلت في الظلام وراء النافذة . وأحدقت الأعين بخنفس لكن رفاعة سمع وهو يسأل أبيه :

- أليس الأولى بهم يا أبي أن يصبووا غضبهم على يومي المعتمد ؟
- غضب كثيرون من بينهم زيتونة الذي أجابه قائلًا :
- هي التي ذهبت إلى بيته بنفسها .
- وصاح به آخر :

- وإذا لم يكن عننك كرامة فمن الخير أن تسكت .

وزجره أبوه بنظرة ، لكن رفاعة قال بإصرار :

- لم يفعل يومي إلا مثلكما تفعلون .

- فصرخ فيه زيتونة بجنون :
- هي من آل جبل فليست للأخرين .
- هذا الولد سفيه وبلا كرامة .

فلكرزه عم شافعى كى يسكت على حين صاح برهوم :

- الكلمة الآن للمعلم !

وغلى الغيظ في قلب خنفس حتى كاد أن يختنق . وصرخت باسمينة صرخات استفانة . وانتشر الغضب فاتجهت الأنظار نحو بيت الفتاة وتوبّع فيها الهجوم . وتتابعت صرخات باسمينة حتى تقطع قلب رفاعة ولم يعد في وسعه الاحتمال ، فأفلت من يد أبيه وشق طريقه إلى بيت باسمينة وهتف برجاء :

- رحمة بضعفها وذعرها .

فصاح به زيتونة :

- أنت مرة !

وناداه شافعى بحرارة لكنه لم يبال وأجاب زيتونة :

- الله يسامحك . (ثم للجميع) ارحموها وافعلوا بي ماشاءون ، لا تحرك الاستغاثات قلوبكم ؟

فعاد زيتونة يصيغ :

- لا تلتفتوا لهذا الرقيع . (ثم مخاطباً خنفس) الكلمة كلامتك يا معلم !

فتساءل رفاعة :

- هل يرضيكم أن أتزوج منها ؟

فاختلط صراغ الغضب بصيحات الاستهزاء ، وقال زيتونة :

- لا يهمنا إلا أن تنال جزاءها .

فاستقتل رفاعة قائلاً :

- سيكون العقاب من شأنى أنا .

- بل هو من شأن الجميع .

ووجد خنفس في اقتراح رفاعة منفذًا له من ورطته . لم يكن في قلبه مقتنعاً به ، ولكن لم يكن عنده خير منه . وغالى في تجهمه مدارياً ضعفه ، وقال :

- الولد ارتبط أمامنا بزواجه فله ما يطلب .
زاغ بصر زيتونة وأعماء الغضب فصاح :
- ضيَّع الجبن الشرف !

وإذا بقبضة خنفسم تحطم أرببة أنفه ، فتراجع مولولاً والدم يسيل من منخريه بغزاره . وأدرك الجميع أن خنفسم سينطى على موقفه الضعيف بإرهاب من يخالفه . وقلب عينيه في الوجه الذى كشف ضوء الفانوس عن خوفها فلم تند من أحد منهم حرقة عطف على محطم الأنف . بل وبخ فرحت زيتونة قائلاً : «عييك فى لسانك ». وقال برهوم لخنفسم «الولادك ما اهتدينا إلى حل ! ». وقال له حنوره : «زعلك بالدنيا يامعلم ». وأخذوا في التفرق فلم يبق في النهاية إلا خنفسم وشلضم وشافعى وبعدة رفاعة . ومضى عم شافعى إلى خنفسم ليحييه فمد له يده ولكن الآخر استشاط غضباً وضرب يده بظاهر كفه فتأوه الرجل مقهقاً . وهرع إليه ابنه وزوجته على حين غادر خنفسم الدهلiz وهو يسب الرجال والنساء وأآل جبل بل وجبل نفسه . ونسى عم شافعى في الله الورطة التي عشر فيها ابنه . ونفع الرجل يده في ماء ساخن وراح عبدة تدللها وهي تقول :

- ترى هل أوغرت زكية صدر زوجها علينا ؟!
فقال عم شافعى متوجعاً :
- نسى الجبان أن ابنتا الأحمق هو الذي أنقذه من نبوت بيومى ..

كان رفاعة معقد آمال والديه فشد ما خابت الآمال . بزواجه من ياسمينة سبتهى الشاب إلى لا شيء ، أما الأسرة فصارت مضعة للأفواه

ولما يتم الزواج . ويكت عبدة خفية حتى أضطر بها البكاء . وتجهم وجه شافعى إذ تجهّمته الدنيا ، لكنهما حيال الشاب انطويَا على نفسيهما وتجنيبا المغاضبة . ولعل ياسمينة هونت من الخطب بسلوكها عقب المظاهره ، إذ هرعت إلى بيت عم شافعى وجشت أمام الرجل وزوجه باكية وسكتت على قدميهما بعض ما فاض به قلبها من الامتنان ، ثم أعلنت في حرارة وجدة توبتها . ولم يكن من الممكن العدول عن الزواج بعد أن ارتبط به الشاب جهاراً أمام آل جبل ، فسلم عم شافعى وزوجه بالأمر ووطنا النفس على تقبّله . وتنازع قلبي الوالدين رغبتان ، واحدة تود أن ترعى التقاليد في الاحتفال بعرس رفاعة وموكب زفته ، والأخرى ترى الاقتصار على حفل بيته حتى لا يتعرض الموكب لسخرية آل جبل الذين باتوا يعرضون بالزواج في كل ناد . وقالت عبدة في حسرة معتبرة عن عواطفها المكبوتة :

- طالما منيت نفسي برؤية زفة رفاعة ، ابني الوحيد ، وهي تجوب الأحياء !

فقال عم شافعى بامتعاض :

- لن يرضى بالاشتراك فيها أحد من آل جبل .

فقطبت عبدة قائلة :

- العودة إلى سوق المقطم خير من البقاء بين أنساب لا يحبوننا !

فقال رفاعة وهو يد ساقيه تحت النافذة المفتوحة متثمساً :

- لن نغادر الحارة يا أمى .

فصاح شافعى بحدة :

- ليتنا لم نعد ! (ثم مخاطباً ابنه) .. ألم تكن حزيناً يوم عدنا ؟

فابتسم رفاعة قائلاً :

- اليوم غير الأمس . إذا ذهينا فمن ذا الذي يخلص آل جبل من العفاريت؟

فقال شافعى محتداً :

- فلتتركهم العفاريت إلى الأبد !

ثم بعد تردد :

- أنت نفسك ستتجه إلى بيتنا

وقاطعه رفاعة :

- لن أجيء إلى بيتنا بأحد ، سأذهب أنا إلى المسكن الآخر .

فهتفت الأم :

- لا يعني أبوك ذلك !

- لكنى أغنىء يا أمى ، ليس البيت الجديد بالبعيد ، وفي وسعنا أن نتصافح كل صباح من النافذة !

وعلى رغم أحزان عم شافعى قرر الاحتفال بـ يوم الزفاف ولو فى أضيق الحدود . أقام الزينات بالدهليز وفوق بابى المسكين ، وجاء بمغنٍّ وطباخ . ودعا جميع المعارف والأصدقاء ، ولكن لم يلب الدعوة إلا عم جواد وأم بخاطرها وعم حجازى وأسرته وبعض الفقراء الذين حرموا على الطعام . وكان رفاعة أول فتى يتزوج بلا زفة . وانتقلت الأسرة عبر الدهليز إلى بيت العروس . وغنى المطرب بفتور لقلة المدعويين . وفي أثناء تناول الطعام أثنى جواد الشاعر على شهامة رفاعة وخلقه وقال :

- إنه فتى ذكى حكيم صافى السريرة ، ولكنه فى حارة لا تقيم لغير البلطجة والنبایت وزنًا . وإذا بعلمان يقفون أمام الربع ويغنوون معًا :
يا رفاعة يا وش القملة من قال لك تعمل دى العملة

ويختمون بالتهليل والعربدة . ونظر رفاعة في الأرض على حين
اصغر وجه شافعى ، وغضب عم حجازى وقال :

- الكلاب أولاد الكلاب !

ولكن عم جواد قال :

- ما أكثر القاذورات في حارتنا ولكن الطيب لا ينسى فيها أبداً . كم
من فتوة استكبر فيها؟ لكنها لا تذكر بالجميل إلا أحدهم وجبل .
ثم حد المطرب على الغناء ليغطى غناه على الأصوات المعربدة .
ومضى الحفل في مغالية للهجوم حتى انصرف الجميع . ولم يبق في
البيت إلا رفاعة وياسمينة . بدت الفتاة في ثوب العرس آية في
الجمال ، وإلى جانبها جلس رفاعة في جلباب حريري مهفهف ، وعلى
الرأس لاسة مزركشة ، وفي القدمين مركوب فاقع الأصفار .
جلسا على كنبة ، يقابلها في الناحية الأخرى الفراش المورد . وقد لاحت
في مرآة الصوان صورة الطست والإبريق تحت الفراش . والظاهر أنها
كانت تتوقع من جانبه هجوماً ، أو في الأقل تمهدأ للهجوم المتظر ،
ولكنه لم يردد البصر بين الفانوس المدللي من السقف والخصبة
الملونة .

ولما طال الانتظار أرادت أن تبدد كثافة الصمت المخيم فقالت برقة :

- لن أنسى فضلوك ؛ إنني مدينة لك بحباتي .

فنظر نحوها في مودة وقال بصوت من لا يود الرجوع إلى هذا
الحديث :

- كلنا مدينون بحياتنا لغيرنا .

ما أطليبه ! ليلة الحادث أبى أن يبيع لها يديه تقبلاهما ، وهو الآن لا يود
تذكيره بالجميل الذي صنع . ليس كمثل طبيته إلا صبره . لكن فيم يفك
يا ترى ؟ هل ساءه أن تدفعه طبيته إلى الزواج من مثلها ؟

- لست شريرة بالدرجة التي يظنها الناس، أما هم فقد أحبوني
واحتقروني لشيء واحد.

فقال مواسينا:

- أعرف ذلك، ما أكثر الأخطاء بحارتنا!

فقالت بحقن:

- يفاحرون دائمًا بأنهم من صلب أدهم، وفي الوقت نفسه يباهون
بالكثير.

فقال في يقين:

- ما دام التخلص من العفاريت ميسوراً فما أقربنا من السعادة.
ولم تدرك مرماه ولكنها استشعرت فجأة مدى السخرية التي تحيط
بها في مجلسها، فقالت ضاحكة:

- ما أتعجبه من حديث في ليلة الزفاف!

ورفعت رأسها في شيء من الكبرياء، فبدا أنها تناسلت حال
الامتنان، وأزاحت عن منكبها الوشاح، ونظرت نحوه نظرة مفعمة
بالدلال، فقال برجاء:

- ستكونين أول من يسعد في حارتنا.

فقالت ياسمينة:

- حقاً؟! عندى شراب!

- شربت قليلاً مع العشاء، وفيه الكفاية.

فتذكرت قليلاً في حيرة، ثم قالت:

- عندى حشيش طيب!

- جربته فوجدتنى لا أطيقه.

فقالت فى ارتياح:

- أبوك حشاش قارح ، رأيته مرة خارجًا من غرزة شلضم وهو لا يميز
بين الليل والنهر !

فابتسم دون أن ينبعس ، فرددت عنه طرفها في انكسار ، وتميزت غبطة ،
وcameت فمضت حتى الباب ثم استدارت عائدة حتى وقفت تحت
الفالوس . وشف ثوبها الرقيق عن جسدها البارع . وجعلت تنظر في
عينيه الهدتين حتى داخلها اليأس . وتساءلت :

- لماذا أنفذتني ؟

- لا أطيق أن يتعدب إنسان .

فغلبها الغيظ ، وقالت في حلة :

- من أجل هذا تزوجتني ، من أجل هذا وحده ؟!

فقال برجاء :

- لا تعودي إلى أيام الغضب !

فعوضت شفتها فيما يشبه الندم وقالت بصوت منخفض :

- ظنتك أحبيتني .

فقال في صدق وبساطة :

- إنني أحبك يا ياسمينة .

فلاخ التعجب في عينيها وغمغمت :

- حقاً؟!

- نعم ، ما من مخلوق في حارتنا إلا وأحبه !

فنتهدت في خيبة ، ورمقته بريبة قائلة :

- فهمتك ، ستبقى إلى جانبي أشهرًا ثم تطلقني .

فاتسعت عيناه وتمتن :

- لا تعودي إلى الأفكار الماضية !

- حيرتني ! ماذا عندك لى ؟

- السعادة الحقيقة .

فقالت بامتعاض :

- عرفتها أحياناً من قبل أن أراك !

- لا سعادة بلا كرامة !

فقالت وهي تضحك على رغمها :

- ولكننا لا نسعد بالكرامة وحدها .

فقال بصوت حزين :

- لم يعرف أحد من حينا السعادة الحقيقة .

انجذب بخطوات ثقيلة نحو الفراش ، وجلست على حافته فى فتور .

ورنا إليها بحنان وقال :

- إنك كجميع أهل حينا لا تفكرين إلا في الوقف الضائع !

فلاخ في وجهها السخط وقالت :

- ربنا يقدرني على حل الغازك .

- ستحل نفسها بنفسها عندما تخلصين من عفريتك .

فهتفت بحدة :

- إنى راضية عن نفسي كما هي .

فقال رفاعة بأسى :

- هكذا يقول خنفس والآخرون !

ونفتحت في ضيق وتساءلت :

- هل تتكلم على هذا النحو حتى الصباح ؟

- نامي ، أسعد الله أحلامك !

وتزحزحت إلى الوراء ثم استلقت على ظهرها ، ورددت عينيها بين

الفراغ جنبها وبين عينيه ، فقال :

- خذى راحتك، سأنام أنا على الكتبة.
وانتابتها نوبة ضحك، لكنها لم تستسلم لها طويلاً، وقالت ساخرة:
- أخاف أن تزورنا أمك غداً لتحذرك من الإفراط!
ونظرت نحوه لتشفي ببرؤية الخجل في وجهه ولكنه طالعها بعينين
هادتين صافيتين، وقال:
- أود أن أخلصك من عفريتك!
فصاحت غاضبة:
- دع أعمال النساء للنساء.
وأدارت وجهها للحائط. وكان صدرها يحترق غيظاً وقلقاً. وقام
رفاعة إلى الفانوس وأخفض ذبالته ثم نفخه فانطفأ وساد الظلمام.

٥٣

وشهدت الأيام التالية للزواج حركة دائمة في حياة رفاعة. انقطع عن
الدكان أو كاد، ولو لا حب أبيه وعطفه لما وجد ما يمسك به حياته.
ومضى يدعو من يصادفه من آل جبل إلى أن يشق به كى يخلصه من
عفريته، فيتحقق بذلك سعادة صافية لم يحلم بها من قبل. وتهامس آل
جبل بأن رفاعة بن شافعى قد خف عقله وأمى من زمرة المجنوبيين،
وعمل البعض ذلك بما عرف عنه من غرابة أطوار، كما عمله آخرون
بزواجه من امرأة مثل ياسمينة. ودارت الأحاديث عن ذلك في القهوة
والبيوت وحول عربات اليد وفي الغرز. وشد ما دهشت أم بخاطرها
حين مال رفاعة على أذنها وقال برقة المعهودة:
- هلل سمحت لي بأن أظهرك؟

٢٧٤

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت :
ـ من أدرك بأن على عفريتا شريراً؟! أهذا هو رأيك عن المرأة التي
أحبتك كابنها؟!
ـ فقال جاداً :
ـ أنا لا أعرض خدماتي إلا على الذين أحبهم وأحترمهم ، وأنت
مصدر خير وبركة ولكنك لا تخلي من طمع يحملك على الاتجار
بالمرضى ، فلو تخلصت من سيدك لوهبت الخير بلا نعم!
ولم تتمالك المرأة نفسها من الضحك وهي تقول :
ـ أتدخرب بيتى؟! الله يسامحك يا رفاعة .
وتناقل الناس حديث أم بخاطرها ضاحكين ، حتى عم شافعى
ضحك ضاحكة بلا مسيرة . ولكن رفاعة قال له :
ـ أنت نفسك يا أبي فى حاجة إلى ، ومن البر أن أبدأ بك .
ـ فهز الرجل رأسه فى كمد ، وراح يدق المسامير بين يديه بقوه وشت
بانفعاله ، ثم قال :
ـ ربنا يصبرنى .

ـ وحاول الشاب إقناعه فتساءل الرجل متالماً :
ـ أما كفاك أن جعلتنا أحذونه الحى؟!
ـ وإنزوى رفاعة فى ركن الدكان مكتتبًا فرمقه الرجل ببرية وسألة :
ـ أحقا دعوت زوجك إلى ما ندعونا إليه؟
ـ فقال بأسف :
ـ وهى مثلكم لا ترغب فى السعادة .
ـ وممضى رفاعة إلى غرزة شلضم فى الخرابه وراء القهوة فوجد حول
المجمرة شلضم وحجازى وبرهوم وفرحات وحنورة وزيتونة . تطلعوا
إليه بغرابة وقال شلضم :

- أهلاً بابن عم شافعى ، ترى هل أقنعت الزواج بفائدة الغرز؟ !

فوضع رفاعة على الطلبة لفة كنافة وقال وهو يتخذ مجلسه :

- جتكم بهذه تجية للمجلس .

فقال شلضم وهو يدير الجوزة :

- مرحباً بالكرم .

لكن برهوم ضحك فجأة وقال بلا هوادة :

- وسوف يعرض علينا بعد ذلك أن يقيم لنا حفلة زار ليطهرنا من العفاريت !

وهتف زيتونة حانقاً بصوته الأخنف وهو يلتهمه بنظرة حاقدة :

- على زوجتك عفريت اسمه يومى فخلصها منه إن استطعت .

وبهت الرجال ووضح في وجوههم الخرج فقال زيتونة وهو يشير إلى أنفه المخطم :

- بسببه فقدت أنفي .

وبدأ أن رفاعة لم يغضب ، فنظر فرات نحوه بأسى وقال :

- أبوك رجل طيب ونجار ماهر ، ولكنك بسلوكك هذا تجر عليه المتابع والسخرية . لم يكد الرجل يفيق من زواجه حتى هجرت دكانه لتخلص الناس من العفاريت ! شفاك الله يا بني .

- لست مريضاً ولكنني أود لكم السعادة .

فشد زيتونة نفسها طويلاً وهو يرمي بقسوة ثم نفث الدخان متسائلاً :

- ومن أخبرك بأننا غير سعداء؟ !

فقال الشاب :

- أراد جدنا لنا غير ما نحن عليه .

فقال فرحت ضاحكاً :

- دع جدك في حاله ، من أدرك أنه لم ينسنا !

وحدجه زيتونة بنظره حانقة حاقدة ولكن حجازى لكره قائلًا في
تحذير :

- ينبغي أن تخترم المجلس ، فلا تفك في الاعتداء !

وأراد الرجل أن يغير الجو فهز رأسه وأشار إلى أصحابه إشارة خاصة
فراحوا يغنوون :

**مركب حببي في المبه جايه
راخيبة شمورها على المبه**

وغادر المكان وبعضهم ينظر نحوه في رثاء . وعاد إلى بيته بفؤاد كسير
فاستقبلته ياسمينة بابتسامة هادئة . وكانت تلومه أول الأمر على سلوكه
الذى جعل منه . ومنها بالتالي . نادرة . لكنها كفت عن لومه يائسة .
وصبرت على تلك الحياة التي لم تدر على أى وجه ستنهى ، بل وعاملته
بلطف ورقه . ودق الباب ، وإذا بالقادم خنفس فتوة آل جبل . دخل
الرجل دون استزان فقام له رفاعة مرحباً فقبض الفتوة على منكبه بيد
شديدة كأنها فاكا كلب غاضب . وسأله دون مقدمات :

- ماذا قلت عن الواقف في غرزة شلضم ؟

ارتاعت ياسمينة حتى هرب دمها ، لكن رفاعة قال بهدوء على الرغم
من أنه بدا كعصفوري بين مخالف نسر :

- قلت إن جدنا يود لنا السعادة !

فهزه هزة عنيفة وسأله :

- من أدرك بذلك ؟ .

- ورد ذلك ضمن أقواله بجبل .

فازدادت يده شدة على منكبه وقال:

- إنه كلم جبل عن الوقف.

فقال رفاعة وقد أنهكه تحمل الألم:

- لا يعنيني الوقف في شيء . السعادة التي لم أستطع أن أحقيقها بعد لأحد شيء غير الوقف، وغير الخمر، وغير الحشيش . قلت ذلك في كل مكان بحث جبل ، وسمعني الجميع وأنا أقوله .

فهزه مرة أخرى وقال :

- كان أبوك عاصيًا ثم ناب ، احذر أن تعيد سيرته وإلا هرستك كما تهرس البقة ..

ودفعه فهو على ظهره فوق الكبنة ، ثم ذهب . وهرعت يasmine إلية لتواسيه وتذلل منكبه الذي مال عليه رأسه من الوجع . ويدا في شبه غيبوبة ، وغمغم كأنما يتحدث نفسه .

- إنه صوت جدي الذي سمعته .

ونظرت في وجهه بإشفاق وذعر . وتساءلت : هل ضاع عقله حقاً؟! ولم تعد عليه ما قال وساورها قلق لم تشعر به من قبل . ويوماً غادر الربع فاعتبرت سبيله امرأة من غير آل جبل ، وقالت له باستعطاف :

- صباح الخير يا معلم رفاعة .

ودهش لرنة الاحترام في صوتها وللقب الذي قرنته باسمه فسألها :

- ماذا تريدين؟

فقالت بضراعة :

- لي ابن ممسوس أرجو أن تخليصه!

وكان كآل جبل جميعاً يحتقر أهل الحرارة ، فاستكشف أن يضع نفسه في خدمة المرأة فيضاعف من ازدراء آله له ، فقال لها :

- ألا توجد كودية في الحرارة؟

فقالت المرأة بصوت باك:

- بلى ولكن امرأة فقيرة.

ورق لها قلبها كما أسره جحودها إليه هو الذي لم يلق من آله إلا الاهزء
والاحتقار. ونظر إليها في تصميم وهو يقول:

- إنني طوع أمرك.

٥٤

كانت ياسمينة تطل من النافذة على الحرارة متسلية بالنظر الجديد.
وكان في أسفل الربع غلمان يلعبون، وبائعة دوم تنادي، على حين
 أمسك بطيخة بتلابيب رجل وراح يضرب وجهه بكفه والآخر يستعطفه
دون جدوى. وسألها رفاعة وهو جالس على الكتبة يقص أظافر قدميه:

- هل يعجبك بيتنا الجديد؟

فالتفت نحوه قائلة:

- هنا تختنا الحرارة، أما هنالك فلم نكن نرى إلا الدهليز المعتم.

فقال رفاعة بأسى:

- ليت الدهليز بقى لنا، إنه دهليز مبارك، إذ فيه تقرر النصر بجبل على
أعدائه، ولكن لم يكن في الإمكانمواصلة الإقامة بين أنساس يستهزئون
بنا في كل خطوة. أما هنا فالفقراء طيبون، والطيب هو السيد لا آل
جبل.

فقالت ياسمينة باستهانة:

- وأنا كرهتهم مذ عزموا على طردى.

فألهلها باسمًا:

- لماذا إذن تقولين للجيران إنك من آل جبل!

فضحكت ضحكة كشفت عن أسنانها اللؤلؤية وقالت في مباهة:

- يعلموا أنني فوقهم جميعاً.

فوضع المقص على الكتبة وطرح ساقيه على الحصيرة وهو يقول:

- ستكونين أجمل وأفضل عندما تقهرين الغرور. ليس آل جبل بخبير

حارتنا، خبر الناس أطيفهم، وكنت مخطئاً مثلك فخصشت آل

جبل باهتمامي، ولكن السعادة لا يستحقها إلا من ينشدها

مخلصاً. انظر إلى الطيبين كيف يقبلون على وكيف يبررون من

العفاريت!

فقالت باحتجاج:

- لكن كل أحد هنا يعمل بأجر إلا أنت!

- لولاي ما وجد الفقراء من يشفيهم، إنهم يقدرون الشفاء لكنهم لا

يملكون ثمنه، وأنا ما عرفت الأصدقاء حتى عرفتهم.

وأهدكت عن الجدل بوجه متعوض فقال رفاعة:

- آه لو تذعنين لي كما يذعنون! إذن حلصتك مما يعكر صفو الحياة.

فتساءلت غاضبة:

- أتجدني مزعجة لهذا الخد؟

- من الناس من يعشق عفريتا وهو لا يدرى.

فهتفت بحدة:

- ما أبغض هذا الحديث إلى!

قال باسمًا:

- إنك من آل جبل، وكلهم أبي أن يسلم لدوائي، حتى أبي نفسه!

وعندما دق الباب أدرك أن زبوناً جديداً قد قدم فتهيباً رفاعة لاستقباله.

والحق أن رفاعة لم يلق من عمره أسعد من هذه الأيام. كان يدعى في الحى الجديد بالعلم رفاعة، وكانوا يدعونه بها فى إخلاص ومحبة. وعرف بأنه يخلص من العفاريت ويهب الصحة والسعادة لوجه الله وحده. وهذا سلوك نهى لم يعرف عن أحد قبله، فلذلك أحبه الفقراء كما لم يحبوا أحداً قط. وطبعى أن بطيخة فتوة الحى الجديد لم يحبه، لسلوكه الطيب من ناحية وأنه لم يكن من القادرين على أداء أى إتاءة من ناحية أخرى، ولكنه فى الوقت نفسه لم يجد مسوغاً للاعتداء عليه. أما الذين برعوا على يديه فكان لكل منهم قصة يرددوها. فأم داود كانت إذا ركبتها التوبة العصبية عضت وليدتها، وهى اليوم مثال للهدوء والاتزان. وسارة الذى لم يكن له من هواية إلا الشجار والنقار أصبح وديعاً حليماً كأنه تحية سلام. وطلبة النشال تاب توبة صادقة واشتعلت صبي مبيض نحاس. وعويس تزوج بعد الذى كان.

واصطفي رفاعة من مرضاه أربعة وهم زكي وحسين وعلى وكريم، اصطفاهم لصداقته فصاروا إخوة. لم يعرف أحد منهم الصدقة ولا الحب قبل أن يعرفه. كان زكي برمجياً، وكان حسين ملمن أفيون لا يفique، وعلى يتدرّب على الفتونة، وكريم قواداً، فانقلبوا رجالاً ذوى قلوب كبيرة. وكانوا يجتمعون عند صخرة هند حيث الخلاء والهواء النقي، فيتبادلون أحاديث المودة والصفاء، ويتطلعون إلى طيبهم بأعين تفاصيل بالحب والإخلاص، ويحلمون جمیعاً بسعادة ستُظل الحرارة بأجنحتها البيضاء. ويوماً تسائل رفاعة وهم يجلسهم ينظرون إلى حمر الشفق في هدوء الغيب:

- لماذا نحن سعداء؟ .

فأجاب حسين بحماس:

-أنتَ.. أنتَ سر سعادتنا.

فابتسم ابتسامة شكر وقال:

-بل لأننا تخلصنا من العفاريت فتطهروا من الحقد والطمع والكراء
وسائر الشرور التي نفتكم بأهل حارتنا.

فقال على مؤمناً على قوله:

-سعداء بالرغم من أننا فقراء ضعفاء لا حظ لنا في الوقف أو
الفتوة.

فهز رفاعة رأسه أسفًا وقال:

-كم يتعدّب الناس من أجل الوقف الضائع والقوّة العميم فالعنوا
معي الوقف والفتوة.

فاستيقوا إلى لعنهما، وتناولوا على طوبية فرمادها بأقصى قوتهم صوب
الجبل. وعاد رفاعة يقول:

-ومذ قال الشعراء إن الجبلاوي حتّ جبل على أن يجعل من رباع
آل جبل بيوتاً تضارع البيت الكبير في جلاله وجماله، طمح الناس
إلى قوّة الجبلاوي وجاهه، وتناسوا مزاياه الآخريات، لذلك لم
يستطيع جبل أن يغير التفوس بنيله حقهم في الوقف، ولما رحل
عن الدنيا انقلب الأقوياء مفتضبين والضعفاء حاذدين وأطبق
الشقاء على الجميع، أما أنا فأفتح أبواب السعادة بلا وقف ولا قوّة
ولا جاه.

وهو كريم بوجهه إليه قبله، فمضى يقول:

-وقدّما عندما يلمس الأقوباء سعادة الضعفاء سيدركون أن قوتهم
وجاههم وأموالهم المفترضة لا شيء.

وصدرت عن الأصدقاء كلمات الثناء والحب، وحمل الهواء غناء
راغ في أقصى الخلاء.

وتخلى في السماء بجم واحد. ونظر رفاعة في وجوه الأصحاب وقال:
ـ ولكنني لا أكفي وحدى لعلاج أهل حارتنا، آن لكم أن تعملوا
بأنفسكم، وأن تعلموا الأسرار لتخلصوا المرضى من العفاريت.
ـ فبدت الغبطة في الوجه وهتف زكي:
ـ ذلك أعز أمانينا.
ـ فابتسم إليهم قائلاً:
ـ ستكونون مفاتيح السعادة في حارتنا.
ـ ولما عادوا إلى حيّهم وجدهم يضئون بأنوار عرس في أحد الربوع.
ـ ورأى كثيرون رفاعة فأقبلوا عليه مصافحين. وتغفيظ بطيخة فقام من
ـ مجلسه بالقهوة وهو يسب ويلعن، ويصفع هذا وذاك، ثم تحول إلى
ـ رفاعة متسائلاً في قحة:
ـ ماذا ترى في نفسك يا ولد؟
ـ فقال رفاعة برقه:
ـ صديق المساكين يا معلم.
ـ فصاح الرجل:
ـ إذن امش كما يمشي المساكين لا كعريس الزفة، أنسنت أنك طريد
ـ حتى وزوج ياسمينة وكودية زار؟!
ـ ويصدق في تحرش. وتباعد الناس. وساد الوجوم. لكن زغاريد
ـ الفرح غطت على كل شيء.

وقف بيومى فتوة الحارة وراء باب حدائقه الخلفي الذي يفتح على
الخلاء. كان الليل فى أوله وكان الرجل يتظر وهو يتتصت. وعندما

طرق أصبع الباب بخفة فتح الباب فتسللت إلى داخل الحديقة امرأة كأنها ملائتها ونقابها قطعة من الليل . تناول يديها وسار بها في عماشى الحديقة متجنباً لاقتراب من البيت حتى بلغ المنظرة فدفع الباب ودخل ، وهى فى أثره . وأشعل شمعة فأقامها على حافة نافذة ، فبدت المنظرة فى شبه مغيب ، والكتبات مصطفة بأضلعها ، وفي الوسط صينية كبيرة محملة بالجوزة ولوازمها فى دائرة من الشلت . ونزعت المرأة عنها ملائتها والنقاب ، فضمها يومى إليه بقوه نفذت إلى عظامها حتى رقته بنظر استرخام . وتخلصت منه برشاشة فضحك ضحكة خافتة وجلس على شلتة . وراح يبعث بأصبعه في رماد المجمدة حتى تكشف عن جمر يومض . وجلست إلى جانبه وقبلت أذنه ثم أشارت إلى المجمدة وهي تقول :

- كدت أنسى رائحته .

فراح يمطر خدها وعنقها بالقبل ثم قال وهو يرمي قطعة في حجرها :
- هذا الصنف لا يدخله في حارتنا إلا الناظر والعبد لله !

وتراهى من الحرارة صوت معركة تختدم ، سب وارتظام عصى ، وتحطم زجاج ، ووقع أقدام جارية ، وصوات امرأة ، ثم نباح كلب .. ولاح تساؤل متزوج في عيني المرأة ولكن الرجل راح يقطع الصنف في غير مبالاة ، فقالت المرأة :

- كم يشق على المجيء ! فلكى آمن العيون أسيير من الحرارة إلى الجمالية ، ومن الجمالية إلى الدراسة ، ومن الدراسة إلى الخلاء حتى بابك الخلفي .

فمال نحوها دون أن تكف أصابعه عن العمل وتشمم إبطها في تلذذ وقال :

- لن أبابلى أن أزورك في بيتك .

فابتسمت فائلة :

- لو فعلت ما تعرض لك أحد من الجناء ، حتى بطيخة سيفرش لك الرمل ، ثم يصيرون غضبهم على وحدي .

وعبشت بشاربه الغليظ وقالت في دعابة :

- لكنك تسللت إلى المنظرة في بيتك خوفاً من زوجتك .

فترك القطعة وطوقها بذراعه فضمها إليه بعنف حتى أنت ، ثم

همست :

- اللهم احفظنا من عشق الفتوات .

فأطلقتها وهو يرفع رأسه ويزير صدره كالديلك الرومي وقال :

- لا يوجد إلا فتوة واحد ، أما الآخرون فصبيانه .

فلاعبت شعر صدره المحسور عنه طوق جلبابه وقالت :

- فتوة على الناس لا على أنا .

فقرصها في صدرها بخفة وقال :

- أنت تاج رأس الفتوات .

ومدىده إلى ما وراء الصينية فتناول إبريقاً وهو يقول :

- بوظة عجيبة !

فقالت آسفة :

- لها رائحة قوية قد يشمها زوجي العزيز !

فتتجزع من الإبريق حتى روى ، ومضى يرصن الحجر وهو يقول مقطبياً :

- يا له من زوج ! لمحته مرات وهو يهيم على وجهه كالجنون ، أول كودية زار من جنس الرجال في هذه الحارة العجيبة !

فتابعته وهو يدخن وقالت :

- إنى مدينة له بحياتى ، لذلك أتisbury على معاشرته ، ولا ضرر منه إذ ليس أيسر من خداعه.

وقدم إليها الجوزة فالتقمت فوهتها بشوق وشدت أنفاساً بشهادة ثم زفرت الدخان مغمضة العينين ثملاً المخواص . وراح بدوره يدخن، فأخذ أنفاساً متقطعة وبين كل نفس وأخر يتكلم قائلاً:

- تركينه .. يبعث .. بك .. عبث .. الأطفال ..

فهزت منكبيها هازنة وقالت :

- لا عمل لزوجي في هذه الدنيا إلا تخلص الفقراء من العفاريت ..

- وأنت إلا تخلصي من شئ؟

- مظلومة وحياتك ! نظرة واحدة إلى وجهه تغنى عن الكلام.

- ولا مرة كل شهر!

- ولا كل سنة ، إنه مشغول عن زوجته بعفاريت الناس !

- فلتربك العفاريت ! وأى فائدة يجنيها من وراء ذلك؟

فهزت رأسها في حيرة وقالت :

- لا يجني شيئاً ، ولو لا أبوه لهلكتا جوعاً ، وهو يعتقد بأنه مكلف

بإسعاد الفقراء وتطهيرهم.

- ومن الذي كلفه؟

- يقول إن هذا ما يريد الواقف لأبنائه.

ونجلـى الاهتمام في عينـي بيومـي الضيقـتين فوضعـ الجوزـة فيـ الكـوزـ وسـأـلـهـاـ:

- أقالـ إنـ الـواقـفـ يـريـدـ ذـلـكـ؟

- نـعـمـ ..

- وـ منـ أـدـرـاهـ بـمـاـ يـريـدـ الـواقـفـ؟

وشعرت المرأة بضيق وانزعاج، وخافت أن يفسد الجلو، أو أن تحدث أمور خطيرة، فقالت:

ـ هكذا يقول أقواله التي يتغنى بها الشعراء.

ومضى يرصن حجراً جديداً وهو يقول:

ـ حارة بنت كلب، وحى آل جبل أنفسها، فيهم ظهر أكبر دجال،
وينشرون الأخبار الغريبة عن الوقف والشروط العشرة، كأن
الواقف جدهم وحدهم؛ وبالأمس جاء دجالهم جبل بكذبة سرق
بها الوقف، واليوم يقول هذا المعتوه كلاماً لا يقبل التأويل،
وسيزعم أنه سمعه من الجبالوى نفسه.

فقالت بقلق:

ـ إنه لا يشتد سوى تخلص الفقراء من العفاريت.

فتشعر الفتورة هازئاً ثم نساعل:

ـ ومن يدرينا فلعل في الوقف عفريتاً!

ثم بصوت ارتفع لدرجة لا تتفق وسرية الاجتماع:

ـ الواقف ميت أو في حكم ذلك يا أولاد الكلب.

وانزعجت ياسمينة. خافت أن تفلت الفرصة المتاحة وأن يتعرّك
الجلو، ومدت يدها إلى الفستان لتتزّعّره رويداً. وانبسطت أسارير الرجل
بعد تجهيزه، ورنا إليها بعينين متوجتين.

بدأ الناظر في عباءته ضئيلاً. وكان الاهتمام بارزاً في وجهه الأبيض
المستدير بروز النبول الذي اعتبر جفنيه والشيخوخة المبكرة الواضحة

في نظرة عينيه وفي التجاعيد المرسومة تحتهما من أثر التهالك في الشهورات. أما وجه بيومي الممتلىء فلم يش بالارتياح الباطنى الذى سرى فيه نتيجة لقلق سيده، ذلك القلق الذى يدل على خطورة الأنباء التى نقلها إليه، فيدل بالتالى على خطورة الدور الذى يؤديه للناظر وللوقف. كان يقول للناظر :

- على رغمى أزعجك بهذه الأخبار، ولكن لم يكن فى وسعى أن أتصرف من دون الرجوع إليك فى أمر يتعلق بالوقف، ومن ناحية أخرى فهذا المشاغب المعتوه من آل جبل، وعلينا عهد بآلا يتعدى أحد منا على أحد منهم إلا بعد إذنك.

وتساءل الناظر إيهاب بوجه مكفره :

- وهل زعم حقا أنه اتصل بالواقف؟

- تأكد لدى ذلك من أكثر من مصدر. إن مرضاه يؤمنون بذلك ولو أنهم يتكتمون الأمر بحرص شديد.

- لعله مجنون، كما كان جبل دجالاً، ولكن هذه الحارة القدرة تحب المجانين والدجالين. ماذا يريد آل جبل بعدما نهبو الوقف بلا حق؟ لماذا لا يتصل الواقف بأحد غيرهم؟ لماذا لا يتصل بي وأنا أقرب الناس إليه؟ إنه قعيد حجرته، ولا يفتح باب بيته إلا عندما تحمل إليه حوائجه، لا يراه أحد ولا يرى هو إلا جاريته، ولكن ما أيسر أن يقابله آل جبل أو أن يسمعوه!

فقال بيومي بحقن :

- لن يرتاح لهم بال حتى يستولوا على الوقف كله. فاصفر وجه الناظر غضباً، وتؤثب لإصدار الأوامر، ولكنه تراجع متسائلاً :

- أقال عن الوقف شيئاً، أم قصر نشاطه على إخراج العفاريت؟

فقال بيومى بحقن:

- مثل جبل كان نشاطه مقصورة على إخراج الثعابين.

ثم في تهمك:

- ما للواقف والعفاريت؟!

فوقف إيهاب وهو يقول بحدة:

- لا أريد أن تصيبنى اللعنة التى أصابت الأفندي.

ودعا بيومى جابر وحندوسة وخالد وبطيخة إلى غرزته وقال لهم:

إن عليهم أن يجدوا علاجاً لجنون رفاعة بن شافعى النجار.

وتساءل بطيخة فى انزعاج:

- من أجل هذا دعوتنا يا معلم؟

فهز بيومى رأسه بالإيجاب فضرب بطيخة كفا على كف وهتف:

- يا هوه! فتوات الحارة تجتمع من أجل مخلوق لا هو ذكر ولا هو

أنثى؟!

فرماه بيومى بنظرة ازدراء وقال:

- مارس نشاطه تحت سمعك وبصرك فلم تدرك له خطراً، وطبعاً لم

تسمع عن مزاعمه عن الاتصال بالواقف.

وتبادلوا نظرات نارية من خلال الدخان المتشير وقال بطيخة بذهول:

- ابن الهرمة! ما للواقف والعفاريت؟! هل كان جدنا كودية زار؟

وشرعوا في الضحك ولكن سرعان ما عدلوا عنه لتجهم بيومى الذى

قال:

- أنت شمام يا بطيخة، الفتوة يسكر ويحشش ولكن لا يليق به الشم!

فقال بطيخة مدافعاً عن نفسه:

- يا معلم أنا فى زفة عتر كنت الهدف لنبأيت عشرين رجالاً فغطى

الدم وجهى وعنقى ولكن نبوتى لم يسقط من يدى.

وهنا قال حندوسة في رجاء:

- فلندع له الأمر يعالجه بما يرى ، وإلا فقد هيبيته ، وليته يجد طريقة
غير الاعتداء على المتعوه ، فإن الاعتداء على مثله مهين للفتوة !
ونامت الحارة ولا أحد يدرى بما بيت في غرزة بيومى . وفي صباح
اليوم التالى غادر رفاعة الرابع بطيخة فى طريقه فحياه قائلاً :
- صباح الخير يا معلم بطيخة .

فرماه الرجل بنظرة مقت وصاح :

- صباح القطران يا ابن القدية ، عد إلى بيتك ولا تخرج منه وإن
كسرت رأسك .

فتساءل رفاعة في دهش :

- ماذا أغضب فتوتنا ؟

فصاح مزمجاً :

- أنت تكلم الآن بطيخة لا الواقع ، فاذهب بلا تردد .

وهم رفاعة بالكلام فلطم الفتاة لطمة دفعته إلى جدار الرابع
متربحاً . ورأت امرأة الموقعة فصوتت حتى ملا صواتها الحارة ، وتبعها
نسوة أخرىيات . وارتفت أصوات استغاثة من أجل رفاعة . وفي لمح
البصر جرى نحو المكان كثيرون ، من بينهم زكي وعلى وحسين وكريم ،
ثم جاء عم شافعى ، كما جاء جواد الشاعر متلمساً طريقه بعصاه ، وما
لبث أن ازدحم الموضع بمحبى رفاعة من الرجال والنساء . ودهش بطيخة
الذى لم يتوقع شيئاً مما حدث ، ورفع يده وهو بها على وجه رفاعة ،
فتلقاها هذا دون دفاع ولكن الواقعين تصايحاً في اتزاع ، واعتراهم
انفعال شديد ، فتوسل البعض إلى بطيخة أن يتركه ، وعدد آخر من
حسنات رفاعة ومزاياه ، وتساءل كثيرون عن أسباب الاعتداء ، وتعالت
احتجاجات ، فاستشاط بطيخة غضباً وصاح :

- أنسىتم من أكون؟!

والحق أن حب المجتمعين لرفاعة الذي دفعهم بغیر وعی إلى التجمع هو الذي شجعهم على الرد على إنذار بطيخة، فقال أحد الواقفين في الصف الأول:

- فتوتنا وناتاج رأسنا، وما جئنا إلا لنسألك العفو عن الرجل الطيب.

وصاح رجل من وسط المظاہرة متشجعاً بالزحام وبمكانه فيه:

- فتوتنا على العین والرأس، ولكن ماذا فعل رفاعة؟

وصاح ثالث في آخر المظاہرة مطمئناً إلى تواريه عن متناول عین الفتوة:

- رفاعة برىء والويل لمن يمدّ له يداً بسوء!

وثار غضب بطيخة فرفع نبوته فوق رأسه وهو يصيح:

- يانسوان، سأجعلكم عبرة.

وإذا بصوات النساء يرتفع من الأركان حتى انقلب الحى مائماً، وقذفت الأفواه الغاضبة بالإذارات الدموية، وأخذ الطوب يتتساقط أمام بطيخة ليمنعه من التقدم. ووجد الرجل نفسه في مركز حرج لم يقع له ولا في الكابوس. كان الموت أهون عليه من الاستجاد بأحد من الفتوات، وكان الهجوم يهدد بالقضاء عليه تحت وابل الطوب، وكان في السكوت الإجهاز على فتونته. وتطاير الشرر من عينيه، واستمر تساقط الطوب، وغادى القوم في تحديهم، ولم يكن حدث شئ كهذا لأحد من الفتوات من قبل.

واندفع رفاعة فجأة حتى وقف أمام بطيخة، ولوح للناس بيديه حتى ساد السكوت، وهتف بصوت قوى:

- لم يخطئ فتوتنا وأنا الملوم!

لاحت نظرات الإنكار في الوجه، ولكن أحداً لم ينبس بكلمة فقال
رفاعة:

- تفرقوا قبل أن ت تعرضوا الغضبة.

وفهم الناس أنه يريد أن ينقد كرامة الفتوة حلاً للأزمة فتفرقوا،
وتبعهم آخرون وهم في حيرة من الأمر، ثم سارع الباقون بالفارق خشية
أن ينفرد بطيحة بأحد منهم، فأفقر الحمى ..

٥٧

اشتد التوتر بالحرارة بعد تلك الواقعة. وكان أخوه ما يخاف الناظر
أن تعتقد الحرارة بأن في تضامنها قوة تكفل لها الصمود أمام الفتوات.
لذلك وجب - في نظره - القضاء على رفاعة ومن تحديهم أنفسهم
بالوقوف إلى جانبه، على أن يتم ذلك بالاتفاق مع خنفس فتوة آل جبل
تجنبًا لنشوب عراك شامل في الحرارة. وقال الناظر لبيومي: «ليس رفاعة
بالدرجة التي تظنها من الضعف، فوراءه محبون استطاعوا إنقاذه على
رغم أنف الفتوة، فماذا يكون من أمره لو تعلقت به الحرارة كما تعلق به
حيه؟ هنالك سيدع العفاريت جانباً ويجهر بأنّ الوقف غایته!». وصب
بيومي غضبه على بطيحة، فهزه من منكبيه بعنف وقال له: «تركتنا الأمر
لك وحدك، فماذا فعلت يا شين الفتوات؟!». وغض بطيحة على
نواجذه بحق وقال: «سأريحكم منه ولو بقتله». فصاح به بيومي:
«خير ما تفعل أن تخفي من الحرارة إلى الأبد».

وأرسل إلى خنفس من يدعوه إلى مقابلته. ولكن عم شافعى
اعتراض سبيل خنفس وهو في حال من الفزع لم تسبق له من قبل. وكان

قد حاول إقناع ابنه بالعودة إلى الدكان والإفلات عن العمل الذي يجر عليه المتاعب ولكنه فشل في مسعاه وعاد خائباً. ولما علم باستدعاء خنفس إلى مقابلة بيومى اعترض سبile وقال له: «يا معلم خنفس، أنت فتوتنا وحامينا، وإنهم يطلبونك لتخلى عن رفاعة فلا تخلي عنه، تعهد لهم بما يشاءون ولكن لا تخلي عنه، مرنى فأهجر الحارة مصطحبًا إيه ولو بالقوة ولكن لا تخلي عنه!» فقال خنفس في حذر واحتياط: «إنى أعلم الناس بما يجب على وبما تقتضيه مصالح آل جبل». والحق أن خنفس توجس خيفة من ناحية رفاعة منذ علم بوقعة بطيخة، وقال لنفسه إنه هو الذى يتبنى له أن يحذر لا الناظر ولا بيومى.

ومضى إلى بيت بيومى فاجتمع به فى المنظرة. وصارحه الفتوة بأنه دعاه بصفته فتوة آل جبل ليتفقا على رأى فى مشكلة رفاعة. قال:

- لا تستهن بشأنه فإن الأحداث تقطع بخطورة أثره.
- وافق خنفس على ذلك ولكنه قال برجاء:
- أرجو ألا يعتدى عليه أمامى.

قال بيومى :

- نحن رجال يا معلم، ومصالحتنا واحدة، ولا نعتدى على أحد فى بيوتنا، وسيجيء هذا الولد الآن لاستجوبه على مسمع منك.

وجاء رفاعة بوجهه المشرق فحيى الرجلين، وجلس حيث أشار له بيومى أن يجلس على شلتة أمامهما. وتفرس بيومى فى وجهه الجميل المطمئن وهو يعجب كيف أمسى هذا الطفل الوديع مصدرًا للقلق والفزعة. وسأله بصوت غليظ:

- لماذا هجرت حيك وأهلك؟

قال ببساطة :

- لم يستجب لى منهم أحد!

- مَاذَا كنْت ترِيدُ مِنْهُمْ؟
- أَنْ أَخْلُصَهُمْ مِنْ الْعَفَارِيْتِ الَّتِي تُفْسِدُ عَلَيْهِمْ سَعَادَتِهِمْ!
فُوشِي صوت بيومى بغيظه وهو يسأله:
- وَهَلْ أَنْتَ مَسْئُولٌ عَنْ سَعَادَةِ النَّاسِ؟
فقال رفاعة بصرامة وبراءة:
- نَعَمْ.. مَا دَمْتَ قَادِرًا عَلَى تَحْقِيقِهَا.
فتجهم وجه بيومى وهو يقول:
- سَمِعْكَ وَأَنْتَ تَحْتَقِرُ الْجَاهَ وَالْقُوَّةَ؟
- لَكِي أَبْرَهُنَّ لَهُمْ عَلَى أَنَّ السَّعَادَةَ لَيْسَ فِيمَا يَتَوَهَّمُونَ وَلَكِنْ فِيمَا
أَفْعَلُ.
فتساءل خنفس غاضباً:
- أَلِيْسَ فِي ذَلِكَ تَحْقِيرٌ لِأَصْحَابِ الْقُوَّةِ وَالْجَاهِ؟
فقال دون أن يضطرب لغضب الرجل:
- كَلَا يَا مَعْلُومْ، وَلَكِنْ فِيهِ تَنبِيَّهًا بِأَنَّ السَّعَادَةَ غَيْرَ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قُوَّةٍ
وَجَاهٍ.
وَتَفَحَّصَهُ بِيُومِي بِنَظَرَةِ نَافِذَةٍ وَهُوَ يَسْأَلُ:
- سَمِعْكَ أَيْضًا وَأَنْتَ تُؤْكِدُ أَنَّ ذَلِكَ مَا يَرِيدُهُ لَهُمُ الْوَاقِفُ.
فتجلى الاهتمام في العينين الصافيتين وقال:
- هُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ!
- وَمَاذَا تَقُولُ أَنْتَ؟
فقال بعد تردد لأول مرة:
- عَلَى قَدْرِ فَهْمِي أَتَكَلَّمُ.
فقال خنفس منهكما:

- المصائب تحيى من العقل الزنخ .

وقال بيومي وهو يضيق عينيه :

- لكنهم يقولون إنك تعيد عليهم ما سمعته من الجبلاوى نفسه !

فبدت الحيرة فى عينيه ، وتردد للمرة الثانية ، ثم قال :

- هكذا فهمت أقواله لأدهم وجبل !

فصاح خنفس غاضباً :

- أقواله جبل لا تحتمل التأويل .

واشتد الحنق بيومي ، وقال لنفسه : « كلكم كذابون ، وجبل أول كذاب فيكم يا الصوص ». وقال :

- أنت تقول إنك سمعت الجبلاوى ، وتقول هذا ما يريد الجبلاوى ، وليس لأحد أن يتكلم باسم الجبلاوى إلا ناظر وقفه وورشه ، ولو أراد الجبلاوى أن يقول شيئاً لقاله له ، هو الأمين على وقفه ومنفذ شروطه العشرة . يا معتوه كيف تحقر القوة والجاه والشراء باسم الجبلاوى وهي مزاياه وصفاته !

فنممت الأسaris الصافية عن ألم وقال :

- إنى أخاطب أهل حارتنا لا الجبلاوى ، هم الذين تركبهم العفاريت ، وهم الذين تعذبهم المطالب .

فصاح به بيومي :

- ما أنت إلا عاجز عن القوة والجاه ؛ فلذلك تلعنهما ، ولترفع مكانتك الحقيرة في نظر الأغبياء من أهل حارتنا فوق مكانة السادة ، وعندما تجدتهم طوع يديك تنهب بهم القوة والجاه !

فاتسعت عينار فague دهشة وتساؤلاً :

- لا غاية لي إلا سعادة أهل حارتنا .

فصاح بيومى :

- يا ابن الماكرة، أنت توهם الناس بأنهم مرضى، بأننا جميعاً مرضى، فلا صحيح غيرك في هذه الحارة!
- لماذا تكرهون السعادة وهي بين أيديكم؟
- يا ابن الماكرة! ملعونة السعادة التي تخبيء من مثلك!
- فتساءل رفاعة متنهدأ:
- لماذا يكرهنى أناس وأنا ما كرهت أحداً قط؟!
- فصرخ فيه بيومى :

- لا تخدعنا بما تخدع به الأغبياء، وأقلع عن خداعك، وافهم أن أمرى لا يخالف، واحمد الله على أنك فى بيتك وإلا ما خرجم سالماً.

وقف رفاعة يائساً، فجاهما وانصرف. وقال خنفس:

- دعه لي.

لكن بيومى قال:

- للمعتوه محبون كثيرون، ونحن لا نريد مذبحة.

٥٨

خرج رفاعة من بيت بيومى قاصداً بيته. كانت السماء متلفعة بأردية الخريف وفي الجو نسيم معتدل. وازدحمت الحارة حول مقاطف الليمون كأنما تختلف بموسم التخليل، وترامت الأحاديث والضحكات، على حين اشتباك غلمان في معركة يتقدّمون بالتراب. وتلقى رفاعة تحيات كثيرين وأصحابه رشاش تراب، فمضى إلى بيته وهو ينفضه عن

كتبه ولاسته . وو جد زكي و على وحسين و كريم في انتظاره فتعاقبوا كما يتعاقبون عند كل لقاء ، ثم قص عليهم - وعلى زوجته التي انضمت إلى المجلس - ما دار بينه وبين بيومي وخنس . تابعه باهتمام وقلق ، فلما فرغ من قصته توجهت الوجهة . وسأله ياسمينة نفسها : ترى عم يتم الخوض لهذا الموقف الدقيق ؟ وأليس هناك حل يقى الرجل الطيب من الهلاك دون أن يهدد سعادتها ؟ وبذا التساؤل في الأعين جميعاً ، أما رفاعة فأستدرأسه إلى الخاطط في شيء من الإعفاء . وقالت ياسمينة :

- لا يجوز الاستهانة بأمر بيومي .

وكان على أحد هم طبعاً فقال :

- لرفاعة أصدقاء هزموا بطيخة فاختفى من الحرارة .

فقالت ياسمينة مقطبة :

- بطيخة لا بيومي ! إذا تحديتم بيومي فقل عليكم السلام !

فالتفت حسين إلى رفاعة قائلاً :

- فلنستمع أولاً إلى المعلم !

فقال رفاعة وهو شبه مغمض العينين :

- لا تفكروا في العراق ، فإن الذي يشقى لإسعاد الناس لا يهون عليه سفك دمائهم .

وتهلل وجه ياسمينة . كانت تكره فكرة الترمل خشية أن تحدق بها الأعين فلا تجد منفذًا إلى رجلها الرهيب ، وقالت :

- خير ما تفعل أن ترحم نفسك من ذلك العناء .

فقال زكي متحججاً :

- لن نترك هذا العمل ولكن نترك الحرارة .

فخفق قلب ياسمينة جزعاً لتخيل البعد عن حرارة رجلها ، وقالت

بحدة :

-لن نعيش غرباء ضائعين بعيداً عن حارتنا .

وتركت الأعين في وجه رفاعة فاعتدل رأسه رويداً وقال :

- لا أحب أن أهجر حارتنا .

وهنا دق الباب دقات متتابعة في لهفة فذهبت ياسمينة تفتحه ، وسمع الجالسون صوتي عم شافعى وعبدة وهما يسألان عن ابنهما . وقام رفاعة فتلقى والديه بالعناق . وجلسوا وشافعى وزوجته يلهثان ، ووجهاهما ينطقان بما يحملان من أنباء مزعجة . وسرعان ما قال الأب :

- يا بني ، تخلى عنك خنفس ، فحياتك في خطر ، وأخبرنى أصحابى بأن أعراض الفتوات يحومون حول بيتك .

وجفت عبدة عينين حمراوين وقالت :

- ليتنا ما عدنا إلى هذه الحرارة التي تباع فيها الأرواح بلا ثمن !
قال على متحمساً :

- لا تخافي يا سيدتى ، فحياتنا كله أصدقاء يحبوننا .
وقال رفاعة متأنهاً :

- ماذا فعلنا ما نستحق عليه العقاب ؟!
فهتف عم شافعى جزعاً :

- أنت من حى آل جبل المكرود لديهم ، وكم توجس قلبي خيفة منذ جاء ذكر الواقف على لسانك !
قال رفاعة متعجباً :

- بالأمس حاربوا جبل لطاليته بالوقف ، واليوم يحاربونى لاحتقارى الوقف !

فلوح شافعى بيده جزعاً وقال :

- قل فيهم ما تشاء فلن يغير هذا منهم شيئاً ، ولكن اعلم أنك هالك إن غادرت بيتك ، ولست أمن عليك إن بقيت فيه .

تسرب الخوف إلى قلب كريم أول ما تسرب لكنه داراه بيارادة قوية
وقال مخاطبًا رفاعة:

- إنهم يتربصون لك في الخارج، وإذا لبست هنا فسيجيرون إليك.
هؤلاء هم فتوات حارتنا كما عرفناهم، فلنهرب إلى بيتي من فوق
الأسطح وهناك نفكر فيما ينبغي عمله.

فصال شافعى:

- ومن هناك تهربون من الحرارة ليلاً.

فتأنوه رفاعة متسائلاً:

- وأترك بنائي يتهدّم؟

فتتوسلت إليه أمه باكية:

- افعل ما يشير به عليك وارحم أمك!

فقال الأب محدثاً:

- واستأنف عملك فيما وراء الخلاء إذا شئت.

وقام كريم في اهتمام وقال:

- فلتتدير أمننا، سيبقى المعلم شافعى وحرمه قليلاً ثم يذهبان إلى ربع
النصر كأنهما راجعان بعد زيارة عادية، وتخرج ست ياسمينة إلى
الجمالية كأنما للتسوق، وعند عودتها تتسلل إلى مسكنى وهذا أيسر
لها من الهرب عبر الأسطح.

ارتاح شافعى إلى الخطة فقال كريم:

- لا ينبغي أن نضيع دقيقة سدى، سأذهب لاستكشف الأسطح.
وغادر الحجرة. وقام شافعى آخذًا رفاعة في يده. وأمرت عبدة
ياسمينة بأن تجتمع الثياب في بقعة.
وأخذت ياسمينة في جمع الثياب القليلة بصدر مختنق وقلب

مكلوم ، وثورة من الحق في باطنها تجتمع . وأقبلت عبدة على ابنها قبله وترقيه بأعين باكية . ومضى رفاعة يفكـر في حالـه بـقلب حـزين . كـم أـحـبـ النـاسـ بـكـلـ قـلـبـهـ وـكـمـ شـقـىـ لـإـسـعـادـهـمـ وـكـيـفـ يـعـانـىـ مـنـ بـغـضـائـهـمـ وـهـلـ يـسـلـمـ الجـبـلـاـوـيـ بـالـفـشـلـ؟ـ!ـ وـرـجـعـ كـرـيمـ وـهـوـ يـقـولـ لـرـفـاعـةـ وـصـحـبـهـ :
- اتبعوني .

وقالت عبدة وهي تفحم في البكاء :

- سـنـلـحـقـ بـكـ وـلـوـ بـعـدـ حـينـ .

وقال له شافعـيـ وهوـ يـضـغـطـ عـلـىـ مـخـارـجـ الدـمـعـ :

- فـلـتـصـحـبـكـ السـلـامـةـ يـاـ رـفـاعـةـ .

عـانـقـ رـفـاعـةـ وـالـدـيـهـ ثـمـ التـفـتـ إـلـىـ يـاـسـمـيـنـةـ قـائـلاـ :

- أـحـبـكـ الـلـاءـةـ وـالـبـرـقـ كـيـلاـ يـعـرـفـ أـحـدـ .

ثـمـ وـهـوـ يـمـيلـ إـلـىـ أـذـنـهـ :

- لـأـطـيـقـ أـنـ تـمـنـدـ لـكـ يـدـ بـسـوءـ .

٥٩

غادرت ياسمينة الربع ملتفة في السواد وكلمات عبدة تتردد في أذنيها حين قالت لها وهي تودعها : «مع السلامـةـ يـاـ بـتـىـ ، رـبـنـاـ يـحـفـظـكـ وـيـصـونـكـ ، رـفـاعـةـ عـهـدـتـكـ ، سـأـدـعـوـ لـكـمـاـ فـيـ النـهـارـ وـالـلـيـلـ». كانت طلائع الليل تزحف ، وفوانيس المقاھي تشتعل ، والغلمان يلعبون حول الأنوار المنبعثة من مصابيح عربات اليد ، على حين احتدم عراك القطط والكلاب - كشأنه في ذلك الوقت من اليوم - حول أکواام الزبالـةـ .
مضـتـ يـاـسـمـيـنـةـ نـحـوـ الـجـمـالـيـةـ وـلـيـسـ فـيـ قـلـبـهـاـ العـاشـقـ مـكـانـ للـرـحـمةـ .

لم يساورها التردد ولكن ملأها الخوف فخيل إليها أن أعيناً كثيرة ترقبها.
ولم تشعر بشيء من الاطمئنان حتى عرجت من الدراسة إلى الخلاء،
لكنها لم تجد الاطمئنان الحقيقي إلا في المنظرة بين يدي بسمى . ولما
نزعت النقاب عن وجهها تفحصها باهتمام وتساءل:

- خائفة؟

فأجابت وهي تلهث:

- نعم.

- كلا ، الجبن ليس من صفاتك ، خبريني ماذا وراءك؟

قالت بصوت لا يكاد يسمع :

- هربوا من فوق الأسطح إلى بيت كريم ، وسيغادرون الحارة عند
الفجر .

فغمغم بيومي ساخراً :

- عند الفجر يا أولاد الهرمة!

- أقنعوه بالذهب ، فلماذا لا تدعه يذهب؟

فابتسم ساخراً وقال :

- قدِّيماً ذهب جبل ثم عاد ، هذه الحشرات لا تستحق الحياة .

فقالت وهي شاردة اللب :

- إنه ينكر الحياة ولكنه لا يستحق الموت .

فتقلص فوه اشمئزازاً وقال :

- في الحارة كفايتها من المجانين .

فنظرت إليه في استعطاف ثم غضت بصرها وهمست وكأنها تحدث
نفسها :

- أنقذني يوماً من الهلاك .

فضحوك في سخرية غليظة وقال:

- وها أنت ذي تسلmine للهلاك ، واحدة بواحدة والبادى أظلم !

فشعرت بقلق موجع كالمرض ، ورمقته بعتاب وهي تقول:

- فعلت ما فعلت لأنك أغلى من حياتي .

فربت خدتها برقة وقال:

- سيخلو لنا الجو ، وإذا ضايفتك الظروف فلنك في هذا البيت مكان .

فارتفعت روحها من هبوطها درجات وقالت:

- لو عرضوا على بيت الواقع من دونك ما قبلته .

- أنت بنت مخلصة .

وشكتها «مخلصة» فعاودها القلق الذي هو كالمرض . وتساءلت ترى هل يسخر منها الرجل ؟ ولم يكن ثمة وقت لمزيد من الكلام فقامت وقام ليودعها ، حتى تسللت من الباب الخلفي . ووجدت زوجها وأصحابه في انتظارها ، فجلست إلى جانب زوجها وهي تقول لرفاعة :

- بيتنا مراقب ، ومن الحكمة أن أمك تركت المصباح مشتعلًا وراء النافذة ، وسيكون الهرب ميسورًا عند الفجر .

فقال لها زكي وهو يلحظ رفاعة في حزن :

- لكنه حزين ، أليس المرضى في كل مكان ؟ وأليسوا هم في حاجة كذلك إلى الشفاء ؟

فقال رفاعة :

- تستند الحاجة إلى الدواء حيث يستفحـل المرض .

ونظرت ياسمينة نحوه في رثاء . وقالت لنفسها إن من الظلم قتله . وقامت لو كان فيه جانب واحد يستحق العقاب . وذكرت أنه الوحيد في هذه الدنيا الذي أحسن إليها وأن جزاءه على ذلك سيكون القتل .

ولعنت في سرها هذه الأفكار وقالت لي فعل الخير من يجد في حياته الخير . ولما رأته يبادر لها النظر قالت كالمشفقة :

- حياتك أغلى من حارتنا اللعينة .

فقال رفاعة باسماً :

- هذا ما يقوله لسانك غير أنني أقرأ الحزن في عينيك !

وارتعدت . وقالت لنفسها ياويلي لو كانت قدرته على قراءة العين
قدرته على إخراج العفاريت . وقالت له :

- ليس ما ببي حزنا ولكن الخوف عليك !

وقام كريم وهو يقول :

- سأعد العشاء .

ورجع حاملاً الطبلية فدعاهم إلى الجلوس فجلسوا حولها . وكان العشاء مكوناً من الخبز والجبن والمش والخيار والفجل ، وثمة إيريق من البوظة . وملأ كريم الأكواب وهو يقول :

- ليتلتنا تحتاج إلى التدفئة والتشجيع .

وشربوا ، ثم قال رفاعة باسماً :

- الخمر توقف العفاريت ولكنها تنعش من تخلص من عفريته . ونظر نحو ياسمينة إلى جانبه فأدركت مغزى نظرته وقالت :

- ستخلصني من عفريتي غداً إن مدد الله في العمر .

فنهل وجه رفاعة سروراً وتبادل الأصدقاء التهاني . ومضوا يتناولون العشاء . قطعت الأرغفة . وتلاقت الأيدي فوق الأطباق ، وبدوا وكأنهم تناسوا الموت المحيط بهم ، وإذا بر رفاعة يقول :

- أراد صاحب الوقف لأنباته أن يكونوا مثله ، ولكنهم أبوا إلا أن يكونوا مثل العفاريت . إنهم أغبياء ، وهو لا يحب الغباء كما قال لى .

فهز كريم رأسه أسفًا، وبلغ لقنته ثم قال:

- لو كان على شيء من قوته الأولى لسارت الأمور كما يشاء.

فقال علي حانقاً:

- لو... لو... لو، ماذا أفعلنا من لو! علينا أن نعمل.

فقال رفاعة بقوة:

- ما قصرنا فقط، حارينا العفاريت دون هواة، وكلما ترك عفريت فراغاً ملأه الحب، وليس وراء ذلك من غاية.

فقال زكي متھسراً:

- ولو تركونا نعمل للأنا الحارة صحة وجهاً وسلاماً.

فقال علي معترضًا:

- إني أتعجب كيف تفكرون في الهرب على كثرة مالنا من أصدقاء!

فقال رفاعة باسمًا:

- إن عرق عفريتك ما زال لا صقاً بجوفك، فلا تنس أن غايتها الشفاء لا القتل، وخير للإنسان أن يقتل من أن يقتل..

والنفت رفاعة إلى ياسمينة فجأة وقال:

- إنك لا تأكلين ولا تصغين!

فتقلص قلبها خوفاً، يد أنها تغلبت على انفعالها وقالت:

- إني أتعجب لكم كيف تتحادثون في مرح كأنكم في عرس!

- ستالفين البهجة عندما تتخلصين من عفريتك غداً.

ثم نظر إلى إخوانه وقال:

- بعضكم يخجل من المسألة، فنحن أبناء حارة لا تخترم إلا الفتونة، ولكن الفتونة ليست مقصورة على الإرهاب، فمصارعة العفاريت أشق عشرات المرات من الاعتداء على الضعفاء أو منازلة الفتوات.

نهز على رأسه أسفًا وقال:

- وكان جزاء الإحسان هذا الموقف التعيس الذي وجدنا أنفسنا فيه!
فقال رفاعة بيقين :

- لن تنتهي المعركة كما يتواهمون، ولسنا ضعفاء كما يتصورون! إنما
نقلنا المعركة من ميدان إلى ميدان، وميداننا يتطلب شجاعة أسمى
وقوة أشد.

وواصلوا العثاء وهم يفكرون فيما سمعوا. ويدا الأعينهم هادئاً
مطمئنًا قويًا بقدر ما بدا جميلاً وديعاً. وفي فترة الصمت تجلّى صوت
شاعر الحى وهو يحكى قائلًا: «مرة جلس أدهم في حارة الوطاويط
عند الظهر ليستريح فنفسه. واستيقظ على حركة فرأى غلمانًا يسرقون
عربته فنهض مهدهداً. ورأه غلام فنبه أقرانه بصفير ودفع العربية ليشغلها بها
عن مطاردتهم فاندلق الخيار على الأرض على حين تفرق الغلمان
مسرعين كالجراد. وغضب أدهم غضباً شديداً حتى قذف فوه المهدب
بسيل من أقنع الشتائم، ثم انكب على الأرض يجمع الخيار الذي لوث
بالطين. وتضاعف غضبه دون أن يجد له متنفساً فراح يقول بتأثر
وانفعال: «لماذا كان غضبك كالنار تحرق بلا رحمة؟ لماذا كانت كبرياً ذكراً
أحب إليك من حمك ودمك؟ وكيف تنعم بالحياة الرغيدة وأنت تعلم
أننا نداس بالأقدام كالحشرات؟ والعفو واللين والتسامح ما شأنها في
بيتك الكبير أيها الجبار؟»! وقبض على يد العربية وهم بدفعها بعيداً عن
الحارة اللعنة وإذا بصوت يقول متهمكاً:

- بكم الخيار يا عم؟

رأى إدريس واقفاً يبتسم ابتسامة ساخرة.. . وإذا بصوت امرأة
يرتفع مغطيًا على صوت الشاعر وهي تصرخ «ولدت نائة يا أولاد
الحلال»!

مضى الوقت والاخوان فى سمر وباسمينة فى عذاب . أراد حسين أن يلقى على الحارة نظرة ، ولكن كريم اعترضه لثلا بلمحه أحد فيشك فى الأمر . وتساءل زكي : ترى هل هاجموا بيت رفاعة ؟ فقال رفاعة إنهم لا يسمعون إلا نواح الرباب وتهليل الغلمان . كانت الحارة تخيا حياتها فليس ثمة ما يشى بجريئة تدبر . ودارت بياسمينة دوامة الفكر حتى خافت أن تفضحها عيناها . وتمتن أن يتنهى عذابها على أى وجه وبأى ثمن ، وتمتن أن تملأ جوفها بالخمر حتى تذهل عما حولها . وقالت لنفسها إنها ليست أول امرأة فى حياة بيومى ولن تكون آخرها ، وإنه حول أكواام الزبالة تکثر الكلاب الضالة ، ولكن فليته هذا العذاب بأى ثمن .

وبتقدير الوقت أخذ الصمت يتلعل الضوضاء رويداً رويداً ، فسكتت أصوات الأطفال ونداءات الباعة ، ولم يبق إلا نواح الرباب . ودهمتها كراهية مفاجئة لهؤلاء الرجال ، لا لشيء إلا لأنهم على نحو ما يعذبونها . وتساءل كريم :

ـ هل أعد المجرم ؟

ـ فقال رفاعة بحزن :

ـ نحن في حاجة إلى وعينا !

ـ ظننت أننا به نستعين على تحمل الوقت .

ـ أنت خائف أكثر مما ينبغي .

ـ فنفى التهمة عن نفسه قائلاً :

- ييدو ألا داعي هناك للخوف!

أجل لم يقع حادث ولم يهاجم بيت رفاعة. وسكتت الأنعام وذهب الشعراء. وترامت أصوات الأبواب وهي تغلق، وأحاديث العائدين إلى البيوت، وضحكات وسعلات، ثم ساد الصمت. واستمر الانتظار والترقب حتى صاح أول ديك. وقام زكي إلى النافذة ينظر إلى الطريق ثم التفت إليهم قائلاً:

- صمت وخلاء، الحرارة كما كانت يوم طرد إليها إدريس.

فقال كريم:

- آن لنا أن نذهب.

وركب الجزع ياسمينة فتساءلت في نفسها: ماذا يكون من أمرها لو تأخر بيوم عن موعده أو لو عدل عنه؟ وقام الرجال وكل يحمل بفتحه. وقال حسين:

- الوداع يا حارتنا الجهنمية!

سار على في المقدمة. ودفع برقه رفاعة ياسمينة أمامه وتبعها واضعاً يده على منكبها كأنما يخشى أن يفقدها في الظلام، ثم جاء كريم فحسين ثم زكي. تسللوا من باب الشقة واحداً في آخر، ورقوافي السلم مهتدين بالدرابزين في الظلمة الحالكة. وبدا السطح أرق ظلمة على الرغم من أنه لم يبد في السماء نجم واحد. ونضحت سحابة بنور القمر التوارى خلفها فسجلت لوحتها ركض السحب.

وقال على:

- أسوار الأسطح شبه متلاصقة وسنساعد الست إن لزم الأمر. تتابعوا داخلين. ولما دخل زكي - وهو آخرهم - أحسن حركة وراءه فالتفت نحو باب السطح فرأى أربعة أشباح، فتساءل مذعوراً:
- من هناك؟

تسرم الجميع والتفتوا . وجاء صوت بيومى وهو يقول :
ـ قفويا يا أولاد الزنى .

وانتشر عن بيته وعن يساره جابر و خالد و حندوسة . و ندت عن
ياسمينة آهة . وأفلت من يد رفاعة ثم جرت نحو باب السطح فلم
يعترضها أحد من الفتوات ، حتى قال على مخاطبًا رفاعة في ذهول :
ـ خانتك المرأة .

وفي لحظة أحاطوا بهم . و راح بيومى يفحصهم عن قرب واحداً بعد
آخر متسائلاً :
ـ أين كودية الزار ؟

حتى تبيّنه فقبض على منكبه بيد من حديد وهو يسأله متهمكما :
ـ أين أنت ذاهب يا نديم العفاريت ؟
فقال رفاعة في وجوم :
ـ ضايقكم وجودنا فأثروا الرحيل .

فأطلق ضحكة قصيرة ساخرة ثم التفت إلى كريم وقال :
ـ وأنت هل أجدى إخفاوك لهم في بيتك ؟
فازدرد كريم ريقه الجاف وقال وفرائصه ترتعد :
ـ لم أكن أعلم بشيءٍ مما بينك وبينهم !

فلطميه بيده الأخرى على وجهه فسقط على الأرض ، ولكن سرعان
ما وثب قائماً وركض في رعب نحو سطح الربع الملاصق . وفجأة جرى
وراءه حسين وزكي . وانقض حندوسة على علي فركله في بطنه فتهاوى
على الأرض وهو يشن من أعماقه . وفي الوقت ذاته هم جابر و خالد
باللتحاق بالهاربين ولكن بيومى قال باستهانة :

ـ لا خوف من هؤلاء فلن ينبع أحدهم بكلمة وإلا هلك .
وقال رفاعة وقد انحنى رأسه نحو قبضة بيومى لشدة ضغطها :

- لم يفعلوا شيئاً يستحق العقاب .

فهو يومي بكفه على وجهه وهو يقول متنه كمما :

- خبرني ألم يسمعوا الجبلاوى كما سمعته؟

ثم دفعه أمامه وهو يقول :

- سر أمامى ولا نفتح فاك .

سار مستسلماً للمقادير . هبط السلم المظلم محاذراً ووقع الأقدام الثقيلة يتبعه . وغشيه الظلام والخيرة والشر الذى يتهدده فلم يكدر يفكر فيمن هرب ولا فيمن خان . وران عليه حزن شامل عميق فغطى حتى على مخاوفه . وخيل إليه أن ذلك الظلام سيسمى صفة الدنيا الملازمة . وانتهوا إلى الحارة فقطعوا الحى الذى لم يبق فيه مريض بفضله وتقدمهم حندوسة نحو حى آل جبل فمروا تحت ربع النصر المغلق حتى خيل إليه أنه يسمع تردد أنفاس والديه . وسائل نفسه لحظة عنهم فخيل إليه أنه يسمع تحبيب عبدة فى الليل الصامت ولكن سرعان ما استرده الظلام والخيرة والشر الذى يتهدده . وبذا حى آل جبل هيأكل أشباح عمالقة غارقة فى الظلام ، ما أشد الظلام وما أعمق النوم ! أما وقع أقدام الجنادين فى الظلمة الحالكة وأطيط نعالهم فكانه ضحكات شياطين تعثى فى الليل . ومضى حندوسة نحو الخلاء بحداء سور البيت الكبير فرفع رفاعة عينيه إلى البيت لكنه رأه مظلماً كالسماء . ولاح شبح فى نهاية سور فتساءل حندوسة :

- المعلم خنفس؟

فأجابه الرجل :

- نعم .

وانضم إلى الرجال دون كلام . وطللت عينا رفاعة مرفوعتين نحو البيت . ترى هل يدرك جله بحاله؟ إن كلمة منه تستطيع أن تنفذه من مخالب هؤلاء الجبارين وتردعه كيدهم . إنه قادر على أن يسمعهم صوته

كما أسمعه إيه فى هذا المكان . وجبل وجد نفسه فى مأزق مثل مأزقه ثم نجا وانتصر . لكنه جاوز السور دون أن يسمع شيئاً سوى وقع أقدام الجبارين وتردد أنفاسهم . وأوغلو فى الخلاء فشلت خطواتهم فوق الرمال . وشعر رفاعة بالغرابة فى الخلاء وذكر أن المرأة خانته وأن الأصحاب لاذوا بالقرار . أراد أن يلتفت إلى الوراء صوب البيت ولكن يد بيومى دفعته فى ظهره بغنة فسقط على وجهه . ورفع بيومى نبوته وهتف :

- معلم خنفس؟

فرفع الرجل نبوته قائلاً:

- معك إلى النهاية يا معلم .

وتساءل رفاعة في يأس :

- لماذا تبغون قتلني؟

فهوى بيومى بنبوته على رأسه بشدة فصرخ رفاعة صرخة عالية وهتف من أعماقه : «يا جلاوى»!

وفي اللحظة التالية كان نبوت خنفس يصيب عنقه ، واستبقيت النبأيت .

وساد صمت لم تسمع خلاله إلا حشرجة .
وأخذت الأيدي تحفر الأرض بقوة فى الظلام .

٦١

غادر القتلة المكان متوجهين نحو الحارة ، فسرعان ما ذابوا فى الظلام . وإذا بأربعة أشباح تنهض قائمة من موضع غير بعيد من موقع الجريمة . وندت عنهم تنهادات وأصوات بكاء مكتوم حتى صاح أحدهم :

- يا جبناء ، أمسكتم بي وكمتم أنفاسي فقتل دون دفاع .
قال له آخر :

- لو أطعنك لهلينا جميعاً دون أن ننقذه .
فعاد علي يقول غاضباً :

- يا جبناء ! ما أنتم إلا جبناء .
قال كريم بصوت باك :

- لا تضيئوا الوقت في الكلام ، أمامنا عمل شاق يجب أن ننجذه قبل الصباح .

ورفع حسين رأسه إلى السماء يقلب فيها عينيه الدامعتين وكم تم بجزع :

- الفجر قريب فلنسرع .
فهتف ذكي متاؤها :

- يا له من وقت فصير كالحلم لكننا فقدنا فيه أعز من عرفنا في الحياة !
وانげه علي نحو موقع الجريمة وهو يصر على أسنانه مغمماً :
- يا جبناء .

فمضوا خلفه ، ثم جلسوا جميعاً على ركبهم في هيئة نصف دائرة
واراحوا يتحسون الأرض مفتشين .

وبغتة صرخ كريم كالملدوع :
- هنا !

وتشمم يده وهو يقول :
- إن هذا هو دمه !

وفي الوقت ذاته صاح ذكي :
- وهذا الموضع الهش مدفنه .

وتجمعوا حوله وأخذوا يزيلون الرمال براحتهم. لم يكن في الأرض من هو أتعس منهم، لضياع العزيز، ولموقف العجز الذي وقفوه عند مصروفه. واعتبرت كريم لحظة جنون فقال في بلاهة:

ـ لعلنا نجده حياً!

فقال علي بازدراه ويداه لا تكفار عن العمل:

ـ اسمعوا أوهام الجناء!

وامتلأت خيالاتهم برائحة التراب والدم. وترامى من ناحية الجبل عواء. وهتف علي بإشراق:

ـ تمهلو، فهذا جسده.

فانخلعت قلوبهم، ورقت أيديهم، وتلمسوا أطراف ثوبه بعجز، ثم ارتفعت أصواتهم بالبكاء، وتعاونوا على استخلاص الجثة من الرمال وقاموا بها في رفق، وكان صياح الديكة يتراهم من المغارات والأزقة. وحث البعض على الإسراع ولكن لفتهم علي إلى وجوب ردم الحفرة، فخلع كريم جلبابه وفرشه على الأرض فطروا الجثة عليه، وتعاونوا مرة أخرى على ردم الحفرة. وخلع حسين جلبابه فغطى به الجثة ثم حملوها، وساروا نحو باب النصر. وأخذ الظلام يخف فوق الجبل ويشف عن السحاب، وتساقط الندى فوق الجبار والدموع. وكان حسين يذلهم على طريق مقبرته حتى بلغوها. وانهملوكوا في فتح القبر صامتين، والضياء يتشر رويداً، حتى تراءى للأعين الجنمان المسجني، وأيديهم الملطخة بالدم، وأعينهم الحمراء من البكاء. وحملوا الجثة وهبطوا بها إلى جوف القبر. وقفوا حولها خاشعين وهم يضغطون جفونهم ليزيلوا الدموع التي تحول دون رؤيتها. وهمس كريم والغيرات تخنه:

ـ كانت حياتك حلمًا قصيراً، لكنها ملأ قلوبنا بالحب والتقاء. وما

كنا نتصور أن تغادرنا بهذه السرعة فضلاً عن أن تقتل بيد أحد من الناس ، أحد من أبناء حارتنا الجاحدة التي داويتها وأحبيتها ، حارتنا التي أبىت إلا أن تقتل الحب والرحمة والشفاء ممثلة في شخصك فقضت على نفسها باللعنة حتى آخر الزمان .

وتساءل زكي متوجهاً :

- لماذا يذهب الطيبون؟! لماذا يبقى المجرمون؟!

وتأنوه حسين قائلاً :

- لو لا حبك الباقى فى قلوبنا لقتنا الناس إلى الأبد!

عند ذاك قال علي :

- لن يرتاح لنا بال حتى نكفر عن جبنا .

وعندما غادروا المقبرة متوجهين نحو الخلاء ، كان النور يصبح الآفاق

بمثيل ذوب الورد الأحمر .

٦٢

لم يعد أحد من الصحابة الأربعة يظهر في حارة الجبلawi . وظن ذووهم أنهم غادروا الحارة خفية وراء رفاعة اتقاء لتحرش الفتوات . وعاش الرفاق في أطراف الخلاء في حال نفسية متوترة ، يصارعون بكل قواهم وطأة الألم وحز الندم . كان فراق رفاعة أشد من الذبح على قلوبهم ، وكان تخليهم عنه معذباً قاتلاً . لم يبق لهم من أمل في الحياة إلا أن يتحدون موته بإحياء رسالته ، وأن يتزلوا العقاب بقاتلية كما صمم علي . أجل لم يكن في وسعهم العودة إلى الحارة ولكن كان في مأمولهم أن يقابلوا من يشاءون خارجها . وذات صباح استيقظ ربع النصر على

صوات عبدة فهرع الجيران إليها يستطلعون الخبر فصاحت بصوت
مبوح:

- قتل ابني رفاعة.

ووجه الجيران وتطلعوا إلى عم شافعى الذى كان يجفف عينيه فقال
الرجل:

- قتله الفتوات فى الخلاء.

وعادت عبدة تنوح هائفة:

- ابني الذى لم يؤذ أحداً فى دنياه.

فتساءل البعض:

- وهل علم بذلك فتوتنا خنفس؟

فقال شافعى غاضباً:

- كان خنفس ضمن القاتلين.

وقالت عبدة باكية:

- وخانته باسمينة فدلت بيومى عليه!

فلاخ الاستكفار فى الوجوه وقال صوت:

- لذلك فهى تقيم فى بيته بعد أن هجرته زوجته.

وانتشر الخبر فى حى آل جبل، فجاء خنفس إلى بيت شافعى
وصاح به:

- أجيتنك يا رجل؟ ماذا قلت عنى؟

فوقف شافعى أمامه دون مبالاة وقال بشدة:

- إنك اشتراك فى قتله وأنت فتوته وحاميه!

فتظاهر خنفس بالغضب وصاح:

- أنت مجرتون يا شافعى، لا تدرى عما تقول شيئاً، ولن أبقى حتى لا
أضطر إلى تأدبك.

وغادر الربع وهو يرغى ويزيد. وانتقل الخبر إلى حى رفاعة الذى أقام فيه عقب مغادرته لحى آل جبل فذهل الناس له، وارتقت الأصوات بالسخط والبكاء، ولكن الفتوات خرجوا إلى الحارة يقطعنها ذهاباً وإياباً، النبابيت فى أيديهم والشر يتقد فى نظراتهم. ثم سرى نبأ يقول: إن الرمال غربى صخرة هند وجدت ملطخة بدم رفاعة. وذهب عم شافعى وخاصة أصحابه للبحث عن الجثة هنالك، ففتحوا وحرروا ولكنهم لم يعثروا على شيء. ولغط الناس بالخبر وتبللت الأفكار وتوقع كثيرون أن تحدث فى الحارة أمور. وراح الناس فى حى رفاعة يتساءلون: ماذا فعل رفاعة حتى يقضى عليه بالقتل؟ وقال آل جبل: رفاعة قتل وباسمية مقيمة فى بيت بيومى. وتسلل الفتوات بليل إلى المكان الذى قتل فيه رفاعة، وحرروا مدفنه على ضوء مشعل، ولكنهم لم يعثروا للجثة على أثر. وتساءل بيومى:

- هل أخذها شافعى؟

ولكن خنفس أجابه:

- كلا، لم يعثر على شيء كما أخبرتني العيون.

فضرب بيومى الأرض بقدمه وصاح:

- إنهم أصحابه، لقد أخطأنا بتركهم يفلتون، وهما هم أولاء يحاربوننا من وراء وراء.

وعند عودتهم مال خنفس على أذن بيومى وهمس قائلاً:

- إن احتفاظ المعلم باسمية لما يسب لنا المتاعب.

فقال بيومى ساخطاً:

- بل اعترف أنك فتوة ضعيف في حيّك!

وودعه خنفس ساخطاً. واشتد التوتر بحى جبل ورفاعة، وتكرر اعتداء الفتوات على الساخطين. وساد الإرهاب فى الحارة حتى كره

أهلها الخروج إليها إلا لضرورة . وفي ليلة من الليالي - وكان يومي في
قهوة شلضم - تسلل أهل زوجته إلى بيته بقصد الاعتداء على ياسمينة ،
فشعرت بهم ، وفرت بجلبابها إلى الخلاء وهم يطاردونها . وظللت تعلو
في الظلام كالجنونة ، حتى بعد أن كف المطاردون عن مطاردتها .
وظللت تعلو حتى أوشكت أنفاسها أن تنقطع فاضطررت إلى التوقف
وهي تلهث بعنف وقد طرحت رأسها إلى الوراء وأغمضت عينيها .
ولبشت كذلك حتى استردت أنفاسها . ونظرت وراءها فلم تر شيئاً
ولكنها جفت من فكرة العودة إلى الحرارة ليلاً . ونظرت أمامها فرأت
عن بعد نوراً ضئيلاً لعله ينبعث من كوخ فسارت نحوه آملة أن تجد عنده
ماوى يؤويها حتى الصباح . وطال بها المسير قبل أن تبلغه . وكان كما
ظننت كوخاً فاقربت من بابه وهي تنادي أهله . وبعثة وجدت نفسها أمام
أصدقاء زوجها الحميمين : علي ووزكي وحسين وكريم .

٦٣

تسمرت ياسمينة بالأرض وهي تقلب في وجههم بصرًا زانغاً .
تراءوا لها كجدار يعترض مطارداً في كابوس . كانوا يحدفون فيها
باشمتاز ، وبدأ الاشمتاز في عبني علي في إطار حديدي من القسوة .
وهتفت بلاوعي :

- إنى بريئة ، ورب السماوات بريئة ، ذهبت معكم حتى هاجمنا
فهربت كما هربتم !
وكلحت الوجه . وتساءل علي حانقاً :
- ومن أدرك بأننا هربنا ؟

فقالت بصوت متهدج :

- لولا الهرب ما بقيتم على قيد الحياة؛ لكنى بريئة، وما فعلت شيئاً إلا أنى هربت!

فقال علي وهو يغض أسنانه :

- هربت إلى سيدك يومي.

- أبداً، دعوني أذهب.. أنا بريئة.

فصاح بها علي :

- ستذهبين إلى جوف الأرض!

فهمت بالهرب لكنه وثب عليها فقبض على منكبها بشدة

فصرخت :

- أعتقدنى إكراماً له، فإنه لم يكن يحب القتل ولا القاتلين!

فقبض على عنقها بيديه، حتى قال كريم جزعاً :

- انتظر حتى نفك فى الأمر.

فصاح به :

- أصمتوا يا جبناء!

وشد على عنقها بكل ما يتعلّج في صدره من حنق وحقد وألم وندم. حاولت التخلص من قبضته عيناً، قبضت على ساعديه، ركلته، هزت رأسها، كان كل مجهد عبئاً ضائعاً فخارت قواها، وجحظت عيناهما، ثم نفت أنفها دماً، وارتج جسدها بعنف، وسكتت إلى الأبد، وتركها فسقطت جثة تحت قدميه.

وفي صباح اليوم التالي وجدت جثة باسمينة ملقاة أمام بيت يومي. وانتشر الخبر كغبار الخمسين فجرى الناس نساء ورجالاً نحو بيت الفتوة. وارتفعت الضوضاء، واحتلّت التعليقات، ودارى الجميع

مشاعرهم الحقيقة . وفتح باب بيته يومي ، واندفع منه الرجل كالثور الهائج ، وراح يضرب بنوته كل من يصادفه فركض الجميع في فزع ، ولاذوا بالدور والمقاهي ، ووقف الرجل في الحارة الخالية يسب ويلعن ويهدد ويتوعد ، ويضرب الهواء والجدران وأديم الأرض .

وفي اليوم نفسه هجر عم شافعى وزوجته الحارة ، ويداً أنى أثر رفاعة قد اختفى .

ولكن ثمة أشياء كانت تذكر به على الدوام ، كبيت عم شافعى بربع النصر ودكان النجارة ومسكن رفاعة في الحي الذي أطلقوا عليه دار الشفاء ، ومصرعه غربى صخرة هند ، وفوق كل أولئك أصحابه المخلصون الذين واصلوا اتصالاتهم بمحببه ، ولقائهم أسرار علمه بتخلص الأنفس من العفاريت ليزاولوها في مداواة المرضى ، اقتنعوا أنهم بذلك يعيدون رفاعة إلى الحياة . أما علي فلم يكن ليهدأ له بال حتى يقضى على المجرمين . وقد قال له حسين معاذًا :

- إنك لست من رفاعة في شيء !

فقال علي بقوه :

- إنى أعرف رفاعة أكثر مما تعرفونه ، قضى حياته القصيرة في قتال عنيف مع العفاريت .

فقال كريم :

- إنك تريد العودة إلى الفتونة وما كان أبغضها إليه .

فهتف علي بحماس :

- كان فتونة ولا كل الفتوات ولكن خدعتكم رقته .

وتثبت كل فريق للعمل على رأيه بإيمان صادق . وتناقلت الحارة قصة رفاعة على حقيقتها التي كان الأكترون يجهلونها ، وتنقل أيضاً أن

جثته ظلت ملقة في الخلاء حتى حملها الجبلاوي بنفسه فواراها التراب في حديقته الغناء . وكادت الأحداث الخطيرة تتلاشى عند ذلك لو لا أن اختفى الفتوة حندوسة اختفاء مريباً . وإذا بجثته تكتشف ذات صباح ملقاء مشوهه أمام بيت الناظر إيهاب . وتزلزل بيت الناظر كما تزلزل بيت بيومي . ومرت بالحارة فترة رهيبة من الرعب . انصب الاعتداء كالملط على كل من له صلة أو شبهة صلة برفاعة أو بأحد من رجاله . انهالت النباليت على الرءوس ، وهربت الأقدام البطنون ، وحفرت الكلمات الصدور ، وألهبت الأيدي الأفقيه ، حتى حبس نفسه في الدور من حبس ، وهجر الحارة من هجر ، وقتل في الخلاء من استهان بالخطر ، فضجت الحارة بالصوات والعويل ، وغشتها السواد والظلام ، وفاحت منها رائحة الدم .

ومن عجب أن ذلك كله لم يقض على عمل العاملين ، فقد قتل الفتوة خالد وهو خارج من بيت بيومي قبيل الفجر . واشتد خطر الإرهاب حتى بلغ الجنون . لكن حارتنا استيقظت في الهزيع الأخير من الليل على حريق هائل التهم بيت الفتوة جابر وأهلك أسرته . وصباح بيومى :

- إن مجانيين رفاعة متشرون كالبيق ، والله ليقتلن ولو في بيوتهم !
ذاع في الحارة أن البيوت ستهاجم بليل فركب الفزع الناس حتى جنوا . وخرجوا من الربوع في ثورة هوجاء يحملون العصى والمقادع وأغطية الخلل والسكاكين والقباقيب والطوب . وصمم بيومى على أن يضرب قبل أن يستفحـل الأمر فرفع نبوته وخرج من بيته في حالة من الأعوان .

وظهر على لأول مرة ومعه رجال أشداء على رأس الثنائيـن . وما إن رأى بيومى قادماً حتى أمر بقذف الطوب فأرسل الهائجون أسراب

الطوب كالجراد فانصبـت على بيومى ورجاله وتفجرت الدماء . وهجم
بيومى بجنون وهو يصرخ كالوحش ولكن حجراً أصاب أعلى رأسه
فتوقف على رغم الغضب ورغم القوة ورغم الفتونة ، ثم ترنح وسقط
مقطعاً بدمه . وسرعان ما فر الأعوان ، واكتسحت أمواج الغاضبين بيت
الفتوة حتى ترامت أصوات الكسر والتحطم إلى مثوى الناظر في بيته .
 واستطار الشر ، وانقض العقاب على من بقى من الفتوات وأعوانهم ،
 وخربت بيوتهم ، واستفحـل الخطـر ، وأوشـك أن يفلـت الزـمام . عند ذاك
أرسل الناظر في طلب على فذهب على لقابلته . وكف رجال علي عن
الانتقام والتخيـب انتظاراً لما تـسفر عنه المقابلـة فهدـأت الأحوال وسـكتـت
الخواطر .

وتخضـت المقابلـة عن عـهد جـديد في الحـارة . فقد اعـترـف بالـرافـاعـين
كـحـي جـديـد مـثـلـ حـيـ آلـ جـبـلـ فيـمـاـهـ منـ حـقـوقـ وـامـتـياـزـاتـ ، وـنـصـبـ
عـلـيـ نـاظـرـاـ عـلـيـ وـقـفـهـ ، بـعـنىـ فـتـوـةـ لـهـمـ ، يـتـسلـمـ نـصـيـبـهـمـ فـيـ الـوـقـفـ
وـيـوزـعـهـ عـلـيـهـمـ عـلـىـ أـسـاسـ الـمـساـوـةـ الشـامـلـةـ . وـعـادـ إـلـىـ الـحـيـ الجـديـدـ
جـمـيـعـ الـمـهاـجـرـينـ الـذـيـنـ فـرـواـ مـنـ الـحـارـةـ فـيـ فـتـرـاتـ الـإـرـهـابـ ، وـعـلـىـ
رـأـسـهـمـ عـمـ شـافـعـيـ وـزـوـجـتـهـ وـزـكـىـ وـحـسـيـنـ وـكـرـيمـ . وـحظـىـ رـفـاعـةـ فـيـ
مـوـتـهـ بـالـمـ بـكـنـ لـيـحـلـمـ بـهـ فـيـ حـيـاتـهـ مـنـ التـكـرـيمـ وـالـإـجـلـالـ وـالـحـبـ حـتـىـ
سـارـ قـصـةـ باـهـرـةـ يـرـدـدـهـاـ كـلـ لـسانـ ، وـتـغـنـىـ بـهـاـ الـرـبـابـ ، وـبـخـاصـةـ رـفـعـ
الـجـبـلـاـوىـ جـلـسـتـهـ وـدـفـنـهـ فـيـ حـدـيـقـتـهـ الـغـنـاءـ . وـقـدـ أـجـمـعـ الـرـفـاعـيـوـنـ عـلـىـ
ذـلـكـ ، كـمـ أـجـمـعـواـ عـلـىـ الـولـاءـ وـالـتـقـدـيسـ لـوـالـدـيـهـ . لـكـنـهـمـ اـخـتـلـفـواـ فـيـماـ
عـدـاـ ذـلـكـ فـأـصـرـ كـرـيمـ وـحـسـيـنـ وـزـكـىـ عـلـىـ أـنـ رـسـالـةـ رـفـاعـةـ يـجـبـ أـنـ
تـقـتـصـرـ عـلـىـ مـداـواـةـ الـمـرـضـىـ وـاحـتـقـارـ الـجـاهـ وـالـقـوـةـ ، فـسـارـوـاـ وـمـنـ تـبعـهـمـ فـيـ
الـحـيـاةـ مـسـارـهـ ، وـغـالـىـ مـنـهـمـ قـوـمـ فـتـجـبـنـواـ الزـوـاجـ حـبـاـ فـيـ مـحاـكـاتـهـ
وـاستـعادـةـ لـسـيرـتـهـ . أـمـاـ عـلـيـ فـتـمـسـكـ بـكـافـةـ حـقـوقـهـ فـيـ الـوـقـفـ وـتـزـوـجـ وـدـعاـ
إـلـىـ تـجـدـيدـ حـيـ رـفـاعـةـ . وـقـالـ فـيـ ذـلـكـ إـنـ رـفـاعـةـ لـمـ يـكـرـهـ الـوـقـفـ لـذـاتهـ

ولكن ليبرهن على أن السعادة الحقة مباحة بدونه، وليقضى على الشرور
التي يستثيرها الطمع، فإذا وزع الريع بالعدل، ووجه للبناء والخير، فهو
الخير كل الخير.

وعلى أي حال استبشر الناس خيراً، واستقبلوا الحياة بوجوه مشرقة،
وقالوا بشارة واطمئنان إن اليوم خير من الأمس، وإن الغد خير من اليوم.
فلمـاـذاـ كـانـتـ آـفـةـ حـارـتـنـاـ النـسـيـانـ؟ـ

قاسِم

٦٤

لم يكدر شىء يتغير فى الحارة. الأقدام ما زالت عارية تطبع آثارها الغليظة على التراب. والذباب ما زال يلهو بين الزبالة والأعين. والوجوه ما زالت ذابلة مهزولة، والثياب مرقعة، والشتائم تتبادل كالتحبيات، والنفاق يضم الآذان. والبيت الكبير ما زال قابعاً وراء أسواره غارقاً في الصمت والذكريات، وإلى اليمين بيت الناظر، وإلى اليسار بيت الفتوة، ثم يجئ حى آل جبل، ويليه حى آل رفاعة في وسط الحارة. أما بقية الحارة وهي الناحية المنحدرة إلى الجمالية فكانت مقام من لا صفة لهم ولا نسب، أو الجرايع كما كانوا يدعونهم، وهم أتعس أهل الحارة وأضيعهم.

وفي هذا العهد ولى النظارة السيد رفت، وكان كسابقيه من النظار. وكان فتوتها الهيبة وهو رجل قصير دقيق لا يوحى مظهره بالقرفة، لكنه ينقلب عند المعركة لساناً من نار في سرعته وحده وتدمره، وقد نال الفتونة بعد سلسلة من المعارك سالت خلالها الدماء في جميع الأحياء. أما فتوة آل جبل فكان يدعى جلطة، وما زال حيئه معتداً بنفسه مباهايا بقرباته للواقف وبأنه خير حى، وأن رجلهم جبل كان أول وأخر من كلمه الجبلاوى وفضله، ولذلك قل أن أحبهم أحد. وكان حجاج فتوة آل رفاعة، لكنه لم يحتذ منى على في نظارته وإنما سار على درب خنفس وجلطة وغيرهما من المغتصبين. كان يستأثر بالريع ويضرب المتذمرين ويبحث آله على اتباع سنة رفاعة في اختصار الجاه والشراهة.

وحتى الجرایع كان لهم فتوتهم، ويدعى سوارس ، لكنه لم يكن طبعاً بناظر وقف . على هذا النحو استقرت الأوضاع ، وأكذ حملة النبات وشعراء الرباب أنه نظام عادل ، جرت به شروط الواقع العثرة وسر على تنفيذه ورعايته الناظر والفتوات .

وفي حى الجرایع عرف عم زكرييا بيع البطاطة بالطيبة ، وامتاز بين الناس بقرباته البعيدة للمعلم سوارس فتوة الحى . كان يطوف بأحياء الحارة سائقاً عربته منادياً على البطاطة ، وفي وسط العرية تقوم الفرن نافحة دخاناً معبقاً برائحة شهية ، تجذب غلمان رفاعة وجبل ، كما تجذب الغلمان بالجمالية والعطوف والدراسة وكفر الزغارى وبيت القاضى . وكانت فترة غير قصيرة من حياة عم زكرييا الزوجية قد مضت دون أن يرزق بمولود ، ولكن آنس وحشته في تلك الفترة صغير ينتمي هو قاسم - ابن شقيق زكرييا . عقب وفاة والديه ولم يجد الرجل في الصغير عبئاً يئده ، إذ إن الحياة وخصوصاً في هذا الحى من الحارة لم تكن تعلو كثيراً عن حياة الكلاب والقطط والذباب التي تعثر على رزقها في النفايات وأكواخ الزباله . وأحب زكرييا قاسم كما كان يحب أباه من قبل ، ولما حملت زوجته عقب انضمام الصغير للأسرة تفأله به خيراً وازداد عليه عطفاً ، ولم يقل عطفه عندما رزق بابنه حسن .

ونشأ قاسم شبه وحيد ، إذ كان اليوم يمضى وعمه بعيد عن الحارة وزوجة عمه مشغولة بدارها ووليدتها . ثم اتسع عالمه بنموه فأخذ يلعب في حوش الربيع أو في الحارة ، وصادق أقرانه في حيّه وحيّي رفاعة وجبل ، وذهب إلى الخلاء ليلعب حول صخرة هند ، وشرق في الصحراء وغرب ، ورقى في الجبل . وكان يتطلع مع الصغار إلى البيت الكبير مفاحراً بجده ومقام جده ، لكنه لم يكن يجد ما يقوله إذا تكلم البعض عن جبل والبعض الآخر عن رفاعة ، كما لم يكن يجد ما يفعله إذا انقلب الكلام تشاقاً وتماسكاً وعراكاً .

وكم نظر إلى بيت الناظر بدهش واعجاب ، وكم رمق الشمار فوق الأشجار برغبة واشتئاء . ويوماً رأى الباب ناعساً فتسدل إلى الحديقة بخفة ، دون أن يرى أحداً أو يراه أحد ، وراح يقطع الماشي في بهجة وسرور ، ويلتفت ثمار الجوافة من فوق الحشائش وياكلها بلذة ، حتى وجد نفسه أمام الفسقية ، وعلقت عيناه بعمود الماء المتتصاعد من النافورة . استخفه الفرح فخلع جلبابه ونزل إلى الماء ومضى يخوض فيه ويضرب سطحه بيديه ويدلك به جسده وقد ذهل عما حوله . وما يدرى إلا وصوت حاد يصبح بغضب : « يا عثمان يا ابن الكلب ، تعال يا أعمى يا ابن الأعمى ». التفت رأسه نحو مصدر الصوت فرأى على السلاملك رجلاً متلفعاً بعباءة حمراء ، يشير نحوه بأصبعه المرتعف ، والغضب يشتعل في وجهه ، فاندفع نحو حافة الفسقية وصعد إلى أرض الحديقة مرتكزاً على مرفقيه ، وعند ذلك لمح الباب قادماً مهرولاً ، فجرى نحو عريشة الياسمين المللاصقة للسور ، ناسياً جلبابه حيث خلعه ، وركض نحو الباب ، فمرق إلى الحرارة . عدا بكل قواه ، ورأه أطفال فتبعدوه مهليين ، ففتح كلاب ، ثم خرج عثمان الباب إلى الحرارة وراح يجري وراءه حتى أدركه في منتصف حيّه ، فقبض على ذراعه وتوقف وهو يلهث ، وعلا صراخ قاسم حتى ملاً الحيّ . وسرعان ما جاءت زوجة عمه حاملة ولیدها ، وخرج المعلم سوارس من القهوة . دهشت زوجة عمه لمنظره ، وأمسكت بيده وهي تقول للباب :

- وحد الله يا عم عثمان ، أرعبت الولد ، ماذا فعل ؟ وأين جلبابه ؟

فصاح الباب في تكبر :

- رأه حضرة الناظر وهو يستحم في الفسقية . هذا العفريت يجب جلده ، دخل الملعون وأنا نائم ، لماذا لا تريحوننا من عفاريتكم ؟

فقالت المرأة برجاء :

- السماح يا عم عثمان، الولد يتيم، وحقك علىّ.
واستنقذته من يده قائلة:
- أضير به عنك ولكن وحياة شبيتك إلا ما أعدت له جلباه الوحيد!
فلوح الباب بيده متسخطاً وولاه ظهره راجعاً وهو يقول:
- بسبب هذه الحشرة لعنت وسببت، أولاد عفاريت وحاربة بنت
كلب!
وعادت المرأة إلى الربع، متوركة حسن، جارّة قاسم من يده وهو
يشهد باكيًا.

٦٥

وقال عم زكريا لقاسم وهو يرميه بياعجب: - لم تعد طفلاً يا قاسم، فأنت تقارب العاشرة وأن لك أن تعمل
فالتعلمت علينا قاسم السوداوان ابتهاجاً وقال:
- طالما رجوتك أن تأخذنى معك يا عمى.
فضحك الرجل قائلاً:
- كان غرضك اللعب لا العمل، أما اليوم فأنت ولد عاقل وتستطيع
أن تعاوننى.
فهرع الغلام إلى العربة محاولاً دفعها لكن عم زكريا منعه، وقالت
زوجة عمه:
- حاسب أن تنزلق البطاطة فنموت جوعاً.
وقبض زكريا على يدي العربة وهو يقول له:

- سر أمم العربية وناد: «بطاطة العمدة.. بطاطة الفرن». وخذ بالك من كل ما أقول أو أعمل، وستصعد بالبطاطة إلى الزبائن بالأدوار العليا، وعلى العموم فتح عينيك.

فقال قاسم وهو ينظر إلى العربية بحسرة:

- لكنني قادر على دفعها!

وساق الرجل العربية وهو يقول:

- افعل كما أمرتك ولا تكن عتيداً، كان أبوك ألطاف الناس.

انحدرت العربية نحو الجمالية وقاسم يصبح بصوت رفيع كالصفير: «بطاطة العمدة، بطاطة الفرن». لم يكن كمثل فرحة شئ وهو ينطلق إلى الأحياء الغريبة ويعمل كالرجال. وما بلغت العربية حارة الوطاويط نظر قاسم فيما حوله وقال لعمه:

- هنا اعترض إدريس سبيل أدهم!

فهز زكريا رأسه بلا اكتراث، فعاد الغلام يقول ضاحكاً:

- كان أدhem يسوق عربته مثلث يا عمى.

ومضت العربية في تجوالها اليومي، من الحسين إلى بيت القاضي، ومن بيت القاضي إلى الدراسة، وقاسم يتطلع بدھش إلى العابرين والدكاكين والجواجم حتى انتهت إلى ميدان صغير قال العم إنه سوق المقطم، فتأمله الغلام بامتعاجب وقال:

- وهذا سوق المقطم حقاً! إلى هنا هرب جبل، وهنا ولدر فاغعة.

فقال زكريا بلا حماس:

- نعم، لأننا في هذا ولا ذاك!

فقال قاسم:

- لكننا جميعاً أولاد الجبلاوى، فلماذا لا نكون مثلهم؟

فضحك الرجل وقال ساخراً:

- على الأقل جميتنا في الفقر سواء
ووجه الرجل عربته نحو أطراف السوق المشرفة على الخلاء،
وبخاصة نحو كوخ من الصفائح على هيئة دكان لبيع المسابع والبخور
والأخجنة، جلس أمامه على فروة عجوز ذو لحية بيضاء.
أوقف زكريا العربة أمام الكوخ وصافح العجوز بحرارة، فقال
الرجل:

- عندى اليوم كفاياتي من البطاطة.
فجلس زكريا إلى جانبه وهو يقول:
- مجالستك خير عندى من الربع.
ونظر العجوز نحو الغلام مستطلعاً فصاح به زكريا:
- تعال يا قاسم وقبل يد المعلم يحيى.
فاقترب الغلام من العجوز وتناول يده المعروقة فلشمها في أدب.
وراح يحيى يداعب قصبة قاسم ويتأمل وجهه الوسيم ثم تساءل:
- من الغلام يا زكريا؟
فقال زكريا وهو يد ساقيه في الشمس:
- ابن المرحوم أخي.
فأجلسه إلى جانبه على الفروة وهو يسأله:
- هل تذكر أباك يا بنى؟
فهز قاسم رأسه قائلاً:
- كلا يا عمي.
- كان أبوك صديقاً لي، وكان لطيفاً.

ورفع قاسم عينيه إلى البضائع يتأمل ألوانها، فمد يحيى يده إلى رف
قريب وتناول حجاباً، ثم علقه بعنق الغلام وهو يقول:

- احتفظ به فيحفظك من كل سوء .
- وإذا بعم زكريا يقول لقاسم :
- المعلم يحيى كان من حارتنا ، ومن حي آل رفاعة .
- فنظر قاسم إلى يحيى وتساءل :
- لماذا تركت حارتنا يا عم؟
- فأجاب زكريا قائلاً :
- غضب عليه فتوة آل رفاعة منذ عهد بعيد فأثر الهجرة .
- فقال قاسم بدهش :
- فعلت كما فعل عم شافعى والدر رفاعة .
- فضحك يحيى عن فم فارغ طويلاً ثم قال :
- أعرفت ذلك يا غلام؟ ما أعرف أولاد حارتنا بالحكايات ، فما بالهم لا يعتبرون !
- وجاء صبي قهوة حاملاً صينية شاي فوضعها أمام يحيى ثم رجع وأخرج يحيى من صدره لفافة صغيرة وجعل يفكها قائلاً برضاء :
- لدى شيء ثمين ، مفعوله أكيد حتى الصباح .
- فقال زكريا باهتمام :
- دعنا نجريه .
- فقال يحيى ضاحكاً :
- ما سمعتك تقول لا قط .
- كيف أرفض النعمة يا يحيى؟
- وتقاسما القطعة ، وراحوا يلوكانها ، وقاسم يتبعهما بشغف حتى أضحك عمه . وأخذ العجوز يحسو الشاي ، ويسأل قاسم :
- هل تحلم بالفتونة كأهل حارتنا؟

فقال قاسم مبتسمًا :

- نعم.

فقهه زكريا وقال كالمعتذر :

- اعذره يا معلم يحيى فأنت تعلم أنه في حارتنا إما أن يكون الرجل
فتوة وإما أن يُعدّ فقاء للصفع .

فقال يحيى متاؤها :

- ليرحمك الله يا رفاعة، كيف نبت في حارتنا الجهنمية؟!

- لذلك كانت نهايته كما تعلم .

فقال يحيى مقطبًا :

- رفاعة لم يمت يوم مصرعه، ولكنه مات يوم انقلب خليفته فتوة!

فسؤاله قاسم باهتمام :

- أين دفن يا عمى؟ أهله يقولون إن جدنا دفنه في حديقته، ويقول آل
جبل إن جثته ضاعت في الخلاء .

ثم صاح يحيى غاضبًا :

- الملائين الأشقياء، ما زالوا يحقدون عليه حتى اليوم!

ثم مستدركاً في تساؤل :

- خبرني يا قاسم هل تحب رفاعة؟

فنظر الغلام نحو عمه في حذر ولكنه قال ببساطة :

- نعم يا عمى، أحبه كثيراً.

- أيهما أحب إليك: ألا تكون مثله أم أن تكون فتوة؟

فرفع إليه عينيه تترتج فيهما الحيرة والابتسام وتحركت شفتيه للكلام
ولكنه لم ينبع، فقال زكريا مقهقها:

- فلتقنع مثلى ببيع البطاطة!

وساد الصمت بينهم على حين قامت ضجة في السوق حول حمار طرح أرضاً فمال بالكارو المربوطة به، وأخذت الراكبات يثنن منها، أما السائق فقد انهال على الحمار ضرباً. ونهض زكرييا وهو يقول:

- أمامنا مشوار طويل، سلام عليكم يا معلم.

فقال يحيى :

- أحضر الغلام معك كلما جئت.

وصافح قاسم وهو يداعب قصته قائلاً :

- ما أظرفك!

٦٦

لم يكن في الخلاء من مكان يستظل به من وقده الشمس الغاضبة إلا صخرة هند. هنالك اقتعد قاسم الأرض ولا أنيس له إلا الغنم. بدا في جلباب أزرق نظيف - نظيف بالقدر المتأه لراع - متلحف الرأس بلاستة غليظة وقاية من الشمس، ومتعللاً مركوباً قدّيماً باليّاً تهتك أطرافه. وكان يخلو إلى نفسه حيناً ويراقب النعاج والخرفان والمعز والجدهاء حيناً آخر، وعصاه مطروحة إلى جانبه. ولاح المقطم من مجلسه القريب عالياً ضخماً متوجهماً، كأنه المخلوق الوحيد تحت القبة الصافية الذي يتحدى غضبة الشمس في عناد وإصرار، كما ترامي الخلاء حتى الآفاق مشمولاً بصمت ثقيل وهواء ساخن. وكان إذا أضته أفكاره وأحلامه ونوازع شبابه الفائز سرح الطرف في الغنم ملاحظاً لهوها وعبتها، وتخاصيمها وتواطدها، ونشاطها وكسلها، وبخاصة البهم والحملان منها

التي تستدر عطفه ومحبته . وكانت أعينها الكحلاوات تعجبه وتهز
فزواده بنظراتها كأنما تخاطبه ، وكان بدوره يخاطبها فيقارن بين ما تلقى
في رعايته من عطف وما يلقى أولاد حارته تحت غطربة الفتوت من
هوان . ولم تهمه نظرة الاستعلاء التي يلقى بها أهل الحارة على الرعاة ، إذ
آمن من يادى الأمر بأن الراعي خير من البلطجي والبرمجي والمتسول .
وفضلاً عن ذلك فقد أحب الخلاء والهواء النقى وأنس إلى المقطم
وصخرة هند وقبة السماء ذات الأطوار العجيبة . إلا أن الرعى كان يقوده
دائماً إلى المعلم يحيى ! وتساءل المعلم يحيى أول ما رأه راعياً :

- من باع بطاطة إلى راعى غنم؟ !

فقال قاسم دون حرج :

- ولم لا يا معلم؟ إنه عمل يحسدى عليه مئات من التعسae فى
حيناً !

- ولماذا تركت عمك؟

- ابن عمى حسن كبر وهو أحق بمراقبة عمى فى ثجواله ، ورعى الغنم
خير من التسول !

ولم يكن يوم يمر دون أن يزور معلمه . كان يحبه ويسعد بأحاديثه .
ووجد فيه رجالاً محيطاً بأخبار حارته ، حاضرها وماضيها ، ويعرف ما
يتغنى به شعراء الرباب وأكثر ، ويعرف أيضاً ما يتجلبونه أحياناً . وكان
يقول ليحيى : «إنى أرعى أغناناماً من كل حى ، عندى غنم بلبل وأخرى
لرفاعة وثالثة للموسرين من حيناً ، ومن عجب أنها جميعاً ترعى فى
إخاء لا ينعم بهن أصحابها القساة من أولاد حارتنا!». وقال له أيضاً :
«كان همام راعياً . ومن الذين يحتقرون الرعاة؟ إنهم متسولون
وعاطلون وتعسae ، وهم فى الوقت نفسه يحترمون الفتوات ، وما
الفتوت إلا لصوص فجرة وسفاكو دماء! سامحكم الله يا أولاد
حارتنا!». ومرة قال له فى دعابة :

- إنى فقير قانع ، لم تعتد يدى بالأذى لـإنسان ، حتى غنمى لأنلى
منى إلا المودة ، أفلأ ترى أننى مثل رفاعة؟

فرمقه الرجل باستكار و قال :

- رفاعة؟! أنت مثل رفاعة؟! رفاعة قضى عمره في تخلص إخوانه
من العفاريت كى تخلص لهم السعادة!

ثم ضحك العجوز واستدرك قائلاً :

- وأنت شاب مولع بالنساء ، ترصد عند المغيب فتيات الخلاء!
فابتسم قاسم متسائلاً :

- وهل في ذلك من عيب يا معلمي؟

- أنت شأنك ، ولكن لا نقل إنك مثل رفاعة!
فتأمل قوله مليأ ثم قال :

- وجبل ألم يكن كرفاعة من أبناء حارتنا الطيبين؟ كان كذلك
بـما معلمي ، وقد أحب وتزوج واستخلص حق الله في الوقف
ووزعه بالعدل.

فقال يحيى بحـلة :

- لكنه جعل من الوقف غايتها!

فتفكر الشاب قليلاً ثم قال بصراحة :

- بل حسن العاشرة والعدل والنظام أيضاً كانت غاياته.
فتساءل يحيى في استياء :

- إذن فأنت تفضل جبل على رفاعة؟

فامتلأت العينان السوداوان بالحـرة ، وتردد طويلاً ، ثم قال :

- كلـهمـاـ كانـ رـجـلاـ طـيـباـ ، وـماـ أـقـلـ الطـيـبـينـ فيـ حـارـتـناـ ، أـدـهـمـ وـهـمـامـ
وـجـبـلـ وـرـفـاعـةـ ، أـولـثـكـ هـمـ كـلـ حـضـنـاـ مـنـ الطـيـبـةـ ، أـمـاـ الـفـتوـاتـ فـمـاـ
أـكـثـرـهـمـ !

فقال يحيى في أسى :

- وأدهم مات كمداً، وهمام قتل، ورفاعة قتل !

أولئك هم الطيبون حقاً من أهل الحرارة. سيرة عطرة ونهاية مؤسفة. هكذا كان ينادي نفسه وهو جالس في ظل الصخرة الكبيرة. وانبعثت من صدره رغبة حارة في أن يكون مثلهم. أما الفتوات فما أصبح فعالهم. وداخله حزن غامض وساوره قلق. وقال لنفسه ليهدى خاطره: كم شهدت هذه الصخرة من أحداث وأناس، كفرام قدرى وهند، ومقتل همام، ولقاء جبل والجبلاوي، وحديث رفاعة وجده، ولكن أين الأحداث؟ وأين الناس؟ إن الذكرى الطيبة تبقى وهي أثمن من قطعان المعز والضأن! وشهدت أيضاً جدنا العظيم وهو يجوب هذه الآفاق وحده، يتلوك ما يشاء ويُرعب الأشقياء. ترى كيف حاله في عزلته؟

هل ما زال يعقل أم خرف؟ وهل يذهب ويجيء أم أقعده الكبر؟ وهل يدرى بما يقع حوله أم عن كل شيء ذهل؟ وهل يذكر أحفاده أم نسي نفسه؟

وعند الأصيل نهض ثم نعطاً متشائباً. وتناول عصاه وهو يصفر صفيرًا منفماً، ثم لوح بعصاه ونعن بالفنم فمضت تجمع وتتحرك قافتتها نحو العمران. وبدأ يشعر بالجوع ولم يكن تناول في نهاره إلا سردية ورغيفاً، ولكن عشاء طيباً يتظره في بيت عمه. وحث السير حتى بدا له أول ما بدا من بعيد البيت الكبير بأسواره العالية ونوافذه المغلقة وراءوس أشجاره. ترى ما شكل الحديقة التي يتغنى بها الشعراة والتي مات أدهم حسرة عليها؟ ولدى اقترابه من الحرارة ترامت إلى مسامعه الضوضاء. ومضى بحذاء السور الكبير إلى الداخل والمغيب يضفي على الجو سمرة. وشق طريقه بين جماعات من الغلمان يلعبون ويتناذرون بالطين، ومنلات أذنيه نداءات الباعة وأحاديث النساء وسخريات الساخرين وشتمهم، واستغاثات المجدوبيين وجرس عربة

الناظر، على حين أفعم أنفه برائحة المعسل النافذة، والزيادة العطنة، والتقليلية المثيرة. وعرج إلى الربع بحى آل جبل يعيد إليها أغذامها، كذلك فعل بحى آل رفاعة، فلم يبق لديه إلا نعجة واحدة، تملكتها ست قمر، السيدة الوحيدة التي تملك مالا في حى الجرابيع. وكانت تقيل فى بيت مكون من دور واحد ذى حوش متوسط تتوسطه نخلة وفى ركته الأقصى شجرة جوافة. ودخل الحوش سائقاً أمامه «نعمـة»، فصادف فى طريقه الجارية سكينة بشعرها المقلقل الذى وَخَطَّه الشيب، فحيـاما فرـدت تحـبـته بـابـتسـامـة وـسـأـلـتـه بـصـوـتـ نـحـاسـى :

ـ كيف حال نعمة؟

فأعرب لها عن إعجابه بالنعجة، وتركها لها، ومضى فى سـبيلـه، وإذا بصاحبة البيت والـنـعـجـة تدخل الحوش عائـدـة منـالـحـارـةـ. بـدـتـأـمـامـهـ فىـمـلاـءـةـ لـفـ حـوتـ جـسـمـهـ الـمـلـىـءـ، وـطـالـعـتـهـ منـبـرـقـهـ عـيـنـانـ سـودـاوـانـ يـنـدـيـانـ بـالـخـنـانـ. تـنـحـىـ جـانـبـاـ وـهـوـ يـغـضـ بـصـرـهـ فـقـالـتـ لـهـ بـرـقةـ مـهـذـبـةـ:

ـ مساءـ الخـيـرـ.

ـ مساءـ الخـيـرـ ياـ سـتـىـ.

وـتـهـلـتـ المـرـأـةـ فـيـ سـيرـهـ وـهـيـ تـتـفـحـصـ نـعـمـةـ، ثـمـ نـظـرـتـ نـحـوـهـ، وـقـالـتـ:

ـ نـعـمـةـ تـسـمـنـ يـوـمـاـ بـعـدـ يـوـمـ وـالـفـضـلـ لـكـ!

فـقـالـ مـتأـثـراـ مـنـ نـظـرـتـهـ الـخـنـونـةـ قـبـلـ كـلـمـاتـهـ الـطـيـبـةـ:

ـ الفـضـلـ لـلـمـولـىـ وـلـرـعـاـيـتـكـ.

وـالـنـفـتـ سـتـ قـمـرـ نـحـوـ سـكـيـنـةـ وـقـالـتـ:

ـ أحـضـرـىـ لـهـ عـشـاءـ!

فـرـفـعـ يـدـيهـ بـالـشـكـرـ إـلـىـ رـأـسـهـ وـقـالـ:

ـ خـيـرـكـ سـابـقـ يـاـ سـتـىـ.

وفاز بنظرة أخرى وهو يحييها مودعا، ثم ذهب. ذهب شديد التأثر برقتها وعطفها، كحاله كلما أسعده الحظ بلقائهما. وذلك عطف لم يعرف مثله إلا فيما يسمع أحياناً عن عطف الأمهات الذى لم يجربه. ولو امتد العمر بأمه لكان اليوم فى مثل عمر هذه السيدة الأربعينية. وكم بدا هذا العطف عجياً فى حارته التى تباهى بالقوة والعنف. وليس أعجب منه إلا جمالها المحتشم وما ينفحه فى روحه من بهجة غامرة. ليست كذلك مغامرات الخلاء المحرقة، بجوعها الملتهب الأعمى وشبعها الخامد المكتسب.

وهرول نحو دار عمه ملقياً عصاه على كتفه، لا يكاد يرى ما بين يديه من شدة انفعاله. وجد أسرة عمه مجتمعة فى الشرفة المطلة على حوش الربع تتنتظره. جلس مع ثلاثة حول الطلبة وقد أعد عليها عشاء من طعمية وكرااث وبطيخ. وكان حسن فى السادسة عشرة من عمره، طوبيل القامة متين البناء حتى حلم عم زكريا بأن يراه يوماً فتوة الجرابيع. ولما انتهى العشاء رفعت المرأة الطلبية وغادر عم زكريا الربع، ولبث الصديقان فى الشرفة حتى ترافق إلبيهما صوت من الحوش بنادى:

- يا قاسم.

فقام الشابان وقاسم يجيبه:

- نحن قادمان يا صادق.

ونتقاهمَا صادق ببشر متألق، وكان مقاريًّا لقاسم فى سنه وطوله ولكنه أنحل منه عوداً. وكان يعمل مساعدًا لمبيض النحاس فى أول دكان بحى الجرابيع فيما يلى الجمالية. مضى الأصدقاء إلى قهوة دنجل، وطالعهم لدى دخولهم الشاعر طازة متربعاً على أريكته فى الصدر، على حين جلس سوارس على كثب من مجلس دنجل عند المدخل، فاتجهوا نحو الفتوة وصاقحوه فى خضوع على رغم ما يعتز به قاسم وحسن من قرابته. واتخذوا مجلسهم على أريكة واحدة وسرعان ما

جاء لهم صبيّ القهوة بطلباتهم المألفة . وكان قاسم مغرماً بالجوزة والشاي المنعنع . وإذا بسوارس يتفحص قاسم بنظرة ازدراء وتساءل بغلظة :

- مالك يا ولد متألقاً كالبنـت؟

فنور دوجه قاسم حيـاء وقال في نبرة المعـذر:

- ليس في النظافة ما يعيـب يا معلم!

فقطـب في استيـاء وقال:

- لكنـها في مثل سنـك فـلة أـدب!

وساد الصمت في القهـوة كـأن روادـها وأـدواتـها وجـدرانـها تـنـصـت لـكلـمـاتـ الفتـوة . ولـحظـ صـادـقـ صـاحـبـهـ بـعـطـفـ لـماـ يـعـلـمـ عنـ رـقةـ مشـاعـرهـ . أماـ حـسـنـ فـأـخـفـيـ وـجـهـ فـىـ قـدـحـ الزـنجـبـيلـ حتـىـ لاـ يـكـتـشـفـ فـيـهـ الفتـوةـ الغـضـبـ . وـتـنـاـولـ طـازـةـ الـرـبـابـ ، فـانـبـعـثـتـ منـ أـوـتـارـهـ الـأـنـغـامـ ، وـتـنـابـعـتـ التـحـيـاتـ لـرـفـعـتـ النـاظـرـ وـلـهـيـطـةـ الفتـوةـ وـسـوارـسـ سـيدـ الحـىـ ، وـمضـىـ الشـاعـرـ يـقـولـ :

«وـخـيـلـ إـلـىـ أـدـهـمـ أـنـهـ يـسـمـعـ وـقـعـ أـقـدـامـ . أـقـدـامـ بـطـيـةـ وـنـقـيـلـةـ اـسـتـشـارـتـ ذـكـرـيـاتـ غـامـضـةـ كـرـائـحةـ زـكـيـةـ مـؤـثـرـةـ تـسـتعـصـيـ عـلـىـ الإـدـرـاكـ وـالـتـحـدـيدـ . حـولـ وـجـهـ نـحـوـ مـدـخـلـ الـكـوـخـ فـرـأـيـ الـبـابـ يـفـتـحـ ، ثـمـ رـأـهـ يـمـتلـئـ بـشـءـ كـجـسـمـ هـائـلـ . حـمـلـقـ فـيـ دـهـشـ ، وـأـحـدـ بـصـرـهـ فـيـ أـمـلـ يـكـتـفـهـ يـأـسـ ، وـنـدـتـ عـنـ آـهـةـ عـمـيقـةـ ، وـغـمـغـمـ مـتـسـائـلـاًـ :

- أـمـيـ؟ـ !ـ

وـخـيـلـ إـلـىـ أـدـهـمـ أـنـهـ يـسـمـعـ الصـوتـ الـقـدـيمـ وـهـوـ يـقـولـ :

- مـسـاءـ الـخـيـرـ يـاـ أـدـهـمـ .

فـاغـرـ وـرـقـتـ عـيـنـاهـ ، وـهـمـ بـالـقـيـامـ فـلـمـ يـسـتـطـعـ وـوـجـدـ غـبـطـةـ وـبـهـجـةـ لـمـ يـجـدـهـمـاـ مـنـذـ أـكـثـرـ مـنـ عـشـرـينـ عـامـاًـ .

قالت سكينة الجارية :

ـ انتظري يا قاسم، عندي شيء لك.

فوقف قاسم حيث ربط النعجة بجذع النخلة، وقف يتضرر الجارية التي ذهبت إلى الداخل، وكان قلبه يخفق، وحدثته نفسه بأن الخير الذي وعد به صوت الجارية إنما يجيء من خير أبل في قلب صاحبة الدار. ووجد تشوّفاً عميقاً إلى أن يرى نظرتها أو يسمع صوتها ليبرد بالبهجة جسده الذي احترق في الخلاء طيلة النهار. وعادت سكينة بلفافة فأعطته إياها وهي تقول:

ـ فطيرة بالهنا والشفا!

فتلقاها بيديه قائلة :

ـ اشكرى عنى السيدة الكريمة.

فجاءه صوتها من وراء النافذة وهي تقول برقة:

ـ الشكر للمولى يا ابن الطيبين.

فرفع بالشكر يده من دون بصره ومضى. وردد قولها: «يا ابن الطيبين» في سعادة مخدرة. لم يسمع راعي الغنم قوله كهذا من قبل. ومن قائلته؟ السيدة المحترمة في حبه البانس وألقي نظرة ودية على الحارة المسربلة بالغريب، وقال لنفسه: «على رغم تعasse حارتنا فهي لا تخلي من أشياء تستطيع إذا شاءت أن تبعث السعادة في القلوب المتعبة!» وانتبه من حلمه متزعجاً على صوت يصرخ: «نقودي.. نقودي.. سرقت!» رأى رجلاً معمماً يهرول في جلباب أبيض فضفاض نحو

داخل الحرارة قادماً من أول حيهم. وتحولت الحرارة نحو الرجل الصارخ، فجري نحوه الصغار، واشرأبت أعناق الباعة والجالسين بالأبواب، وأطلت الرءوس من النوافذ، وارتفعت أوجهه من تحت الأرض خلال كوات البدرومات، وخرج رواد المقامات، وأحيط بالرجل من كل ناحية. ورأى فاسم رجلاً قريباً منه، يحك ظهره بعود خشبي من طوق جلبابه، ويتابع المنظر بعينين كليلتين، فسأله عن الرجل قائلاً:

- من الرجل؟

فأجاب ويده لا تمسك عن الحك:

- مُنجدٌ كان يعمل في بيت الناظر!

وأتجه نحو الرجل سوارس فتوة الجرابيع وحجاج فتوة آل رفاعة وجبلة فتوة آل جبل، وسرعان ما أمروا الناس بالابتعاد فتراجعوا خطوات بلا تردد. وقالت امرأة من نافذة ربع في حي آل رفاعة:

- عين أصابت الرجل!

فقالت امرأة أخرى من نافذة بأول ربوع آل جبل:

- صدقت، ما من أحد إلا وحسده على ريحه المنتظر من تنجيد فرش الناظر، اللهم اكتفنا شر العين.

فقالت امرأة ثالثة واقفة أمام باب بيت وهي تفلق رأس غلام:

- وكان يا عيني يضحك وهو خارج من بيت الناظر، لم يكن يدرى أنه سيصرخ ويسكي، قطعت الفلوس وقرفها!

وكان الرجل يصبح بأعلى صوته:

- سرق كل ما كان معى من نقود، أجراة عمل أسبوع، وأخرى كانت فى جيبي، نقود البيت والدكان والأولاد، عشرون جنيهاً وقوروش، الله يخرب بيت أولاد الحرام!

وقال جبلة فتوة آل جبل:

- هُس ، الكل يسكت ، اسكتوا يا غنم ، سمعة الحرارة في الميزان ،
وأى عيب في النهاية سيلبس الفتوات !
فقال حجاج فتوة رفاعة :

- وربك لن يقع عيب ، ولكن من أدرانا أنه فقد نقوده في حارتنا ؟
فهتف المنجد بصوت مبحوح :

- علىَّ الطلاق ما سُرْقت إلا في حارتكم ، سلمتها من بباب حضرة
الناظر ، وتحسست صدرى في آخر الحارة فلم أجده لها أثراً .
وارتفعت الأصوات فصاح حجاج :

- اسكتوا يا مواشى ! واسمع يا رجل ، أين عرفت أن نقودك ضاعت ؟
فأشار الرجل إلى آخر حى الجراكيع وقال :
- أمام دكان مببض النحاس ، لكنى والحق يقال لم يقترب مني أحد
هناك ..

فقال سوارس :
- إذن سرق قبل أن يدخل حيناً !
فقال حجاج فتوة رفاعة :
- كنت في القهوة حين مروره فلم أر أحداً في حيناً يقترب منه .
فصاح جلطة بحنق :

- ليس في آل جبل لص ، إنهم أسياد هذه الحرارة !
فأجابه حجاج غاضباً :

- حاسب يا معلم جلطة ، عيب قولك أسياد الحرارة !
- لا ينكر ذلك إلا مكابر !

فصاح حجاج بصوت كالرعد :
- لا توقف عفاريتى ! ملعون دين قلة الذوق .

فصاح جلطة بنفس القوة:

- ألف لعنة، ألف لعنة على قلة الذوق التي لا توجد في حينا! .
وهنا قال المنجد بصوت باك:

- يارجال! نقودي فقدت في حارتكم، كلکم أسياد على العين
والرأس، لكن أين نقودي؟ يا خراب بيتك يا فنجرى!
فقال حجاج بتحدى:

- عليکم بالتفتيش، فلنفتشر كل جيب، كل رجل، كل امرأة، كل
ولد، كل ركن.

فقال جلطة بازدراء:

- فتشوا، وستسود وجوه غير وجوهنا!

فقال حجاج:

- خرج الرجل من بيت الناظر فصر أول ما مر بحى آل جبل فلنبدأ
بالتفتيش فى حى آل جبل!
فسخر جلطة وقال:

- لن يكون هذا وجلطة حى، يا حجاج اذكر من تكون أنت ومن
أكون أنا.

- يا جلطة، إن ندوب الطعنات في جسدي أكثر من شعره!
- أما أنا فلا مكان للشعر في جسدي!

- اللهم أبعدك يا شيطانا!

- إلى يا شياطين الأرض جميعا!

وعاد فنجرى بصريح:

- يا هوه، نقودي، لا يبيثكم أن يقال إنى سرت في حارتكم؟!
وغضبت امرأة فصاحت به:

- غور يا وجه البومة ، ستنهلك الحرارة بسبيك !

وإذا بصوت يتساءل :

- ولماذا لا تكون النقود قد سرقت في حي الجراكبيع وأكثرهم لصوص وشحاذون ؟

فصاح سوارس :

- لصوصنا لا يسرقون في حارتنا !

- ومن أدرانا بذلك ؟

فقال سوارس بعينين محمرتين من الغضب :

- لا حاجة بنا إلى مزيد من قلة الأدب ، سيكشف التفتيش عن اللص ، وإلا فقولوا على حارتنا السلام !

ونادى أكثر من صوت :

- ابدعوا بحى الجراكبيع !

فصاح سوارس :

- أى خروج عن الترتيب الطبيعي للتفتيش سيلقى نبوتي في وجهه .

ورفع سوارس نبوته فانحاز إليه رجاله ، وفعل حجاج مثله ، وترابع جلطة إلى حبه وفعل مثلهما ، فلاذ المنجد بباب الريع وهو يبكي ، وكان الليل على وشك الهبوط . وتوقع الجميع أن تبدأ معركة دامية . وإذا بقايس يندفع إلى وسط الحرارة ، ويصبح بأعلى صوته :

- انتظروا ، لن يكشف الدم عن النقود المفقودة ، وسيقال في الجمالية والدراسة والعطوف إن داخل حارة الجبلاوي مسروق ولو احتوى بناظرها وفتراتها !

تساءل أحد رجال جبل :

- ماذا يريد راعي الغنم ؟

قال قاسم بسماحة:

- عندى حيلة ترد بها النقود إلى صاحبها دون عراك!

فجرى المنجد نحوه هاتفاً: «أنا في عرض دينك». فقال قاسم

يخاطب الجميع:

- سترد النقود إلى صاحبها دون أن يفتضح أمر السارق.

وساد الصمت، وتركزت الأعين في قاسم باهتمام شديد، فعاد

يقول:

- فلتنظر حتى يستحكم الظلام وهو قريب. لن تضاء شمعة واحدة في الحرارة، ثم نسير جميعاً من أول الحرارة إلى آخرها كيلاً تنحصر الشبهة في حي دون آخر، وفي أثناء ذلك سيجد حائز النقود فرصة للتخلص منها في الظلام من غير أن يفتضح أمره، فنعاشر على النقود وتتجوّل الحرارة من شر العراق.

وشدّ المنجد على ذراع قاسم في ضراعة يائس وهتف: «نعم الخل، أقبلوه جبراً لخاطري». وصاح صوت: «حل معقول يا جدعان»! وصاح آخر: «هذه فرصة للسارق كي ينجو وينجي الحرارة». وزغردت امرأة طويلاً. ونقل الناس أعينهم بين الفتوّات الشلّاثة وهم بين الرجاء والخوف. وأبي أى فتوة أن يكون البادئ بإعلان القبول علواً واستكباراً، فلبت أهل الحرارة يتسلّلون: هل يغلب العقل أو تتلاطم النباییت وتسلّل الدماء. وإذا بصوت يعرفه الجميع يصبح:

ـ هوه!

فانجذبت الرءوس نحو مصدره، حيث وقف لهيبة فتوة الحرارة غير

بعيد من بيته. وساد الصمت وقد تعلقت بما سيقول القلوب جميعاً.

وقال الرجل بازدراء:

- أقبلوا الخل يا غجر، لولا غباونكم ما كان منفذكم راعى غنم.

وسرت في القوم هممة ارتياح . وتعالت زغاريد . فاشتد خفقات
قلب قاسم . ولحظ دار قمر وهو موقن بأن عينيها السوداين تراقبانه من
وراء أحد الشباكين المطلتين على الحارة ، فداخله زهو سعيد ، وشعر بذلك
فوز كبير لا عهد له به . وبذا الجميع وهم يترقبون الظلام ، فينظرون إلى
السماء تارة وينظرون صوب الخلاء تارة أخرى . وتابعوا هبوطه درجة
فدرجة . ومضت العالَم تتوارى والوجوه تختفي والناس ينقلبون
أشباحاً . أما الممران حول البيت الكبير المفضيّان إلى الخلاء فقد أغلقتهما
الظلمة . ودبّت الحركة بين الأشباح فمشوا نحو البيت الكبير ثم قطعوا
الحارة مهرولين حتى الجمالية ، ثم نفرقوا كلُّا إلى حية . عند ذلك صاح
لهيبة بصوته الأمر :

- نوروا !

وكان أول ما لاح من نور في دار قمر بحى الجراكيع ، ثم أضيئت
مصالح عربات اليد ، ثم كلوبات المقاھى ، فعادت الحارة إلى الوجود .
وراح قوم يتفحصون الأرض على ضوء كلوب ، حتى تعالي صوت
قائلًا :

- ها هي ذى المحفظة !

وجرى فجرى من فوره نحو الضوء فتناول المحفظة ، وعدّ نقوده ،
ثم هرول لا يلوى على شيء نحو الجمالية مخلفاً وراءه ضجة عالية من
الضحكات والزغاريد . ووجد قاسم نفسه محظ الأنظار ، ومركز
استقبال للتهانى والمزاح ، ومحور تعليقات شتى تساقطت عليه كالورد .
وعندما ذهب قاسم وحسن وصادق إلى قهوة الجراكيع ذلك المساء
استقبله سوارس بابتسامة ترحيب وقال :

- جوزة على الحساب لقاشم .

موردة الوجه، متألق النظارات، صافى القسمات، مبتهج القلب،
دخل حوش قمر ليأخذ النعجة وهو يقول: «يا ساتر». وراح يفك رباط
النعجة فى بشر السلم، وإذا بصرير باب الحريم يسمع وهو يفتح وصوت
الست تقول:

- صباح الخير.

فقال بفؤاده ولسانه:

- صبحك المولى بالسعادة يا ستي.

- صنعت أمس خيراً كبيراً لحارتنا.

فقال وروحه ترقص طرباً:

- الله هو الهدى.

فقالت فى نغم وشى ياعجبها:

- علمتنا أن الحكمة أجل من الفتونة.

وعطفك أجل من الحكمة، هكذا قال لنفسه، ثم قال لها:

- ربنا يكرمك.

فنم صوتها عن ابتسامة وهى تقول:

- رأيناك ترعى أولاد الحارة كما ترعى الغنم، صحبتك السلامه.

ذهب بنعمة، وكلما مر بربع انضم إلى قافلته ماعز أو ماعزة أو جدى
أو تيس. وكان يلقى بالترحاب، حتى الفتوات ردوا عليه تحبياته وكانوا
يتجاهلونها من قبل. واحتقر الممر الملائق لسور البيت الكبير وراء

طابور طويل من الأغنام في طريقه إلى الخلاء . واستقبل شمساً لافحة
تربع فوق الجبل ، وجواً يزفر أنفاساً حارة في الصباح المشرق . وتراءى
عند سفح الجبل بعض الرعاة ، ومر رجل مهلهل الثياب ينفتح في ناي ،
وانطلقت في القبة الصافية حدأت مدومة . وفي كل نسمة استنشق صفاء
نقى ، وحال الجبل الضخم يحوى كثوزاً من الآمال الوعادة . وسرح
الطرف في الخلاء بارتياح عجيب حتى استخفه طرب جواد فراح يغنى :

يا حلو يا زين يا صعيدي اسمك منجوش على إيدى

وجالت عيناه بين صخرة قدرى وهند وبين البقاع التي جرت بها
مصارع همام ورفاعة ، ولقاء الجبالوى وجبل ! هنا الشمس والجبل
والرمال والمجد والحب والموت ، وقلب يبزغ فيه الحب لكنه يتساءل عن
معنى هذا كله ، ما مضى منه وما هو آت ، عن الحرارة ذات الأحياء
المتحاصنة والفتوات المتباذلين ، عن الحكايات التي تروى في كل مقهى
على شكل .

وقبيل الظهرية ساق أغنامه نحو سوق المقطم ثم مضى إلى كوخ المعلم
يعين وجلس . وهتف به العجوز :

- ما هذا الذي يقال عما فعلت أمس بحارتنا ؟

ودارى قاسم حياء باحتساء الشاي ، فعاد المعلم يقول :

- كان الأفضل أن تتركهم يتطاون حتى يهلكوا جميعاً .

فقال دون أن يرفع عينيه :

- ما تقول هذا إلا بلسانك .

فقال يحيى محذراً :

- تخنب المعجبين خشية أن تستفز الفتوات .

- وهل يستفز الفتوات أمثالى ؟

فتنهد العجوز قائلاً :

- ومن كان يتصور أن يغدر غادر برفاعة؟

فقال قاسم بدھشة:

- وما وجوه التشابه بين رفاعة العظيم وبيني أنا؟

وعندما هم بالعوده ودعا العجوز قائلاً:

- احتفظ دائمًا بحجابي.

وعند العصر كان يجلس في الظل المدود وراء صخرة هند، وإذا به يسمع صوت سكينة وهي تناشد: «نعمـة» فوثب قائماً ودار حول الصخرة فرأى الجارية واقفة عند رأس النعجة تداعب ذقنها. حياماً بابتسامة فقالت بصوتها النحاسي:

- أنا ذاهبة في مشوار في الدراسة فمررت من هنا اختصاراً للطريق.

فقال قاسم:

- لكنه طريق شديد الحرارة.

فقالت ضاحكة:

- لذلك سأستريح قليلاً في ظل الصخرة.

وجلسا متقاربين في الظل حيث ترك عصاه. وقالت سكينة:

- عندما شهدت صنيعك بالأمس آمنت بأن أملك دعت لك من قلبها قبل وفاتها.

فتساءل مبتسمًا:

- وأنت ألا تدعين لي؟

فقالت وهي تداري نظرة ماكرة:

- لئن ذلك يدعى بنت الحلال!

فقال ضاحكاً:

- ومن ذا الذي يرضي براعي غنم؟!

- الحظ يصنع العجائب ، وأنت اليوم بمنزلة الفتوات من دون حاجة
إلى سفك دماء!
- أقسم أن لسانك أحلى من الشهد!
فرمقته بنظره من عينيها الذابلتين وقالت:
- هل أذلك على طريق عجيب؟
فتولاه انفعال طارئ وهو يقول:
- نعم.
- فقالت بصراحة زنجية:
- جرب بختك وانخطب سيدة حينا!
وبدا كل شيء غير نفسه . وتساءل:
- من تعنين يا سكينة؟
- لا تتجاهل ما أعني ، فليس في حينا إلا سيدة واحدة.
- ست قمر؟!
- من دون غيرها!
- فقال بصوت متهدج:
- كان زوجها من الأكابر ، ولست إلا راعي غنم!
- لكن الحظ إذا ضحك ضحك معه كل شيء حتى الفقر .
- وتساءل وكأنما يسائل نفسه:
- لا يغضبها طلبى؟
- قامت سكينة وهي تقول:
- لا يدرى أحد متى ترضى النساء ومتى تنقضب ، فتوكل
على الله .
- ثم وهي تنقضب:

- فتك بعافية.

رفع رأسه نحو السماء وأغمض عينيه كأنما دهمه نعاس.

٦٩

حملق عم زكريا في وجه قاسم بذهول؛ ومثله فعلت زوجته،
ومثلهما فعل حسن، وهم يستريحون في الدليلز أمام شقتهم عقب
العشاء. وقال العم:

- قل كلاماً غير هذا الكلام، عرفتك مثال العقل والكرامة على رغم
فقرك، وعلى رغم فقرنا، فماذا انتاب عقلك؟
وتخلى في عيني زوجة عمه نهم الاستطلاع فقال قاسم:
- لدى ما شجعني، فجاريتها هي التي فتحت لي الباب!
- جاريتها؟!

ندت الكلمة عن زوجة عمه وصرخت عيناها بطلب المزيد. أما العم
فانطلقت من فيه ضحكة مقتضبة أكدت حيرته، ثم قال في ارتياه:
- لعلك أسللت فهمها!

قال قاسم بهدوء يعطي به على انفعاله:
- كلاماً يا عمي.

فهتفت زوجة عمه:

- فهمت! إذا قالت الجارية فقد قالت السيدة!
وقال حسن مدفوعاً بحبه لابن عمه الذي لا يخفى على أحد:
- وقاسم رجل ولا كل الرجال!
فهز عم زكريا رأسه وغمغم: «بطاطة العمددة.. بطاطة الفرن». ثم
قال:

- لكنك لا تملك مليماً.

فقالت زوجته:

- إنه يرعى نعجتها فهى لا تجهل ذلك . . (ثم وهى تضحك) انذر يا قاسم ألا تذبح نعجة فى حياتك إكراماً لنعمتك !
وقال حسن فى تفكير :

- عم عويس البقال هو عم ست قمر، أغنى رجل فى حيناً، سيكون نسيباً، كما كان سوارس قريباً، ما أجمل ذلك !
فقالت أمه :

- ست قمر على قربة مع أمينة هانم حرم الناظر. كان المرحوم زوجها قريباً للهانم .

فقال قاسم بقلق :

- هذا مما يزيد الأمر عسرأً !

وإذا بعم زكريا يقول بحماس طارئ كأنما قدر ما يعود عليه من رفعه بالنسب المترقب :

- تكلم كما تكلمت يوم واقعة المنجد، إنك شجاع حكيم، وستذهب معًا إلى السيدة لنفاتحها في الأمر ثم نكلم عويس، إذ إننا لو بدأنا بعويس لأرسلنا إلى مستشفى المجاذيب !

وأجرت الأمور كما رسم عم زكريا. لذلك جلس عم عويس في حجرة الاستقبال بدار قمر ينتظر مجيئها وهو يبعث بشاربه الغزير مداراة لاضطراب خاطره. وجاءت قمر في ثوب محتشم مغطاة الرأس بمنديل بنى فصاحت به بأدب وجلست وفي عينيها نظرة جمعت بين الهدوء والتصميم. قال عويس :

- حيرتني يا بنتي ! بالأمس رفضت يد عم مرسى وكيل أعمالى بحجة أنه غير كفاء لك، واليوم ترضين براوى غنم ؟

فأجابت ووجهها يتورد حياء:

- عمي، إنه رجل فقير حقاً ولكن ليس من أحد في حيناً إلا ويشهد له
ولأهلة بالطيبة!

فقال عم عويس مقطباً:

- نعم ولكن على نحو ما نشهد لخادم بالأمانة أو النظافة، والكفاءة
في الزواج شيء آخر.

فقالت قمر بأدب:

- دلني يا عمي على رجل مهذب مثله في حارتنا، دلني ولو على
رجل واحد لا يسامي بعمل من أعمال الباطحة أو الخسأة أو
الوحشية؟

وكاد الرجل أن ينفجر غاضباً لولا تذكره بأنه لا يخاطب ابنة أخيه
فحسب ولكن المرأة التي تسهم في تجارتة بمال غير قليل، لذلك قال
برجاء:

- قمر، لو شئت زوجتك من أي فتوة في الحارة، لهيطة نفسه يودك
لو قبلت أن تقاسميه مع زوجاته.

- لا أحب هؤلاء الفتوات! ولا هذا النوع من الرجال. كان أبي رجلاً
طيباً مثلث، وكم قاسي من عتهم حتى أورثنى كراهتهم، أما قاسم
 فهو رجل مهذب، لا ينقصه إلا المال وعندي منه الكفاية.

فتنهى عويس، ثم نظر إليها طويلاً، ثم قال برجاء أخير:

- إنى مبلغك رسالة أمينة هامن حرم حضرة الناظر، قالت لي قل لقمر
أن تعقل، وأنها مقدمة على غلطة ستجعل منها أحdonة الحارة.

فقالت قمر بحدة:

- أنا لا تهمني أوامر الهاشم، ويبدو للأسف أنها لا تعرف من هم
الذين تجعلهم فعالهم أحdonة في الحارة.

- يا بنت أخي إنها تود لك الكرامة .

- يا عمى لا تصدق أنها نهتم بنا أو حتى تذكرنا ، ومنذ وفاة المرحوم من عشرة أعوام لم أجر لها على خاطر .

فتردد الرجل ملياً في حرج ظاهر ، ثم قال في تألف :

- إنها تقول أيضاً إنه ليس من العقل أن تتزوج امرأة من رجل غير كفاء لها وبخاصة إذا كان لظرف ما يتربّد على بيتها !

فانطلقت قمر واقفة بوجه مصفر من الغضب وهفت :

- قطع لسانها ، لقد ولدت ونشأت وتزوجت وترملت في هذه الحرارة ، الكل يعرفني ، وسيرتني كالعطر على كل لسان .

- طبعاً يا بنتي طبعاً ! ليس الأمر إلا أنها تشير إلى ما قد يقال .

- عمى ، دعنا من الهمام فلا يجيء منها إلا وجع الدماغ ، إنني أخبرك وأنت عمى بأنني قبلت الزواج من فاسم ، وسيكون ذلك برضاك وحضورك !

وصمت عروس متفكراً . لم يكن في الوسع منعها ، ولا من الهين إغضابها للحد الذي تسحب عنده أموالها من تجارتة . وراح ينظر بين قدميه في ارتباك وحزن . وفتح فاه ليقول شيئاً ولكن لم تخرج منه غير غمغمة مبهمة . ولبثت قمر تنظر إليه في ثبات وصبر .

٧٠

وهب عم زكرييا ابن أخيه بضعة جنيهات - افترض أكثرها - ليصلح بها شأنه قبل الزواج . وقال العم :

- لو كنت قادرًا لغطيتك بالمال يا قاسم ، كان أبوك أخًا كريماً ، ولا
أنسى فضلـه على يوم زواجي .

وابتاع قاسم جلباباً، وثياباً داخلية، ولasse مزركشة ومركمبًا فاقع
الاصرفـار، وعصـا خيزران، وحقـن شـوق. وذهب في أعقـاب الفجر إلى
الحمام، فاستـسلم للـبخار، وغـاص في المـغضـس، ثم مضـى إلى المـدـلـك،
ثم استـحم، ثم تـبـخـر، ثم تـمـددـ في الـخـلـوة يـحـسـي الشـاي وـيـحلـمـ بالـهـنـاءـ.
أما قـمـرـ فـتـكـفـلـ بـالـفـرـجـ. أـعـدـتـ سـطـحـ الدـارـ لـاستـقـبـالـ المـدـعـوـاتـ،
وـدـعـتـ عـالـمـةـ مـعـرـوفـةـ وـاسـتـأـجـرـتـ أـمـهـرـ طـاهـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ. وـأـقـيمـ فـيـ الـحـوشـ
سـرـادـقـ لـلـمـدـعـوـينـ وـالـمـطـربـ. وـجـاءـ أـهـلـ قـاسـمـ وـأـصـحـابـهـ وـرـجـالـ الـحـلـيـ
وـعـلـىـ رـأـسـهـ الـمـلـعـمـ سـوارـسـ. وـدـارـتـ أـقـدـاحـ الـبـوـظـةـ وـعـشـرـونـ جـوـزـةـ
حتـىـ غـامـتـ الـكـلـوـبـاتـ بـالـدـخـانـ وـسـطـعـتـ رـائـحةـ الـحـشـيشـ الـمـفـتـخـرـ.
وـتـجـاوـيـتـ الـأـرـكـانـ بـالـزـغـارـيدـ وـالـتـهـلـيلـ وـالـقـهـقـهـةـ. وـرـاحـ عـمـ زـكـرـيـاـ يـقـولـ
فـيـ فـخـفـخـةـ مـنـ دـارـتـ الـخـمـرـ بـرـأسـهـ:
ـ نـحـنـ أـسـرـةـ كـرـيـةـ أـصـلـهـاـ عـرـيقـ!

فـكـتمـ عـمـ عـوـيـسـ غـيـظـهـ وـهـوـ يـجـلـسـ بـيـنـ سـوارـسـ وـزـكـرـيـاـ وـقـالـ
بـاقـضـابـ:

ـ حـسـبـكـ قـرـابـتـكـ لـلـمـلـعـمـ سـوارـسـ!
فـصـاحـ زـكـرـيـاـ بـقـوـةـ:
ـ الـمـلـعـمـ سـوارـسـ أـلـفـ مـرـةـ!

فـحـيـاـ التـختـ سـوارـسـ مـنـ فـورـهـ، حـتـىـ جـاءـ الرـجـلـ بـابـتـسـامـةـ وـلـوحـ
بـيـدهـ. وـكـانـ الـفـتـوـةـ فـيـماـ مـضـىـ يـضـجـرـ مـنـ قـسـعـ زـكـرـيـاـ بـقـرـابـتـهـ الـبـعـيـدةـ مـنـهـ،
وـلـكـنـهـ أـخـذـ يـغـيـرـ مـنـ مـشـاعـرـهـ مـنـذـ عـلـمـ بـزـواـجـ قـاسـمـ مـنـ قـمـرـ، بـلـ قـرـدـ
فـيـماـ بـيـنهـ وـبـيـنـ نـفـسـهـ أـلـاـ يـعـتـقـ قـاسـمـ مـنـ الـإـتـاوـةـ. وـعـادـ زـكـرـيـاـ يـقـولـ:
ـ وـقـاسـمـ شـابـ مـحـبـوبـ، مـنـ فـيـ حـارـتـناـ لـاـ يـحـبـهـ؟

وكأنما قرأ شيئاً من الاستياء في نظرة سوارس فأردد يقول:
ـ لولا حكمته يوم السرقة ما وجدت رءوس رفاعة وجبل من يدفع
عنها ثبات فتوتنا سوارس!
وانبسطت أسرير سوارس وصدق عويس على قول زكريا قائلاً:
ـ صدقت ورب السماوات والأرض.
وغنى المطلب: زمان الوصل قرب بالتهانى.

وازداد قاسم اضطراباً، ففطن صادق إلى حاله كشأنه دائمًا فقدم إليه قدحًا جديداً من الشراب وما زال به حتى أفرغه في جوفه حتى الشمالة، وكانت الجوزة ما تزال في يده. وأفرط حسن في الشراب حتى تراقصت تهاويل السرادق أمام عينيه. ولاحظ عم عويس ذلك فخاطب عم زكريا قائلاً:

ـ حسن يشرب أكثر مما يليق بيته.
فوقف زكريا والقدح بيده وقال لابنه وكأنما ينصحه:
ـ يا حسن لا تشرب هكذا.

وترجم «هكذا» بـ«فراوغ القدح في جوفه في ضجة من الضحك والانبساط فتلوي الغيط في باطن عويس حتى قال لنفسه: «لولا حمامة ابنة أخي لكلفك ما شربت الليلة جميع ماقولك!»

وعند منتصف الليل دعى قاسم للزفة، فقصد المدعوون قهوة دنجل، وعلى رأسهم سوارس سيد الزفة وحاميها. كان الحبي خارج الدار مكتظاً بالغلمان والمسؤولين والقطط التي تجمعت تلبية لرائحة المطبخ. وجلس قاسم بين حسن وصادق فحياتهم دنجل قائلاً بصيغة:

ـ يا ليلة الها، جوزة دنجل يا ولد للجد عان.
ثم إن كل موسر قدم جوزة على حسابه للجميع.

أما صادق فأخرج من صدره بليوعة في حجم البلية أدارها بين
أصبعيه تحت ضوء الكلوب وقال في أذن قاسم:
ـ معجونة بالهريسة ولها مفعول يا سلام!

فتناولها قاسم وأودعها فاه باسما وقد احمرت عيناه السوداوان من
الشراب فعاد صادق يقول:
ـ امضغ ثم استحلب ..

وجاء المنشدون يتقدمهم حاملو المزامير والطبول، فوقف سوارس
وقال بصوت أمر:
ـ لنبدأ الزفة.

تقدم كعبورة الزفة، في جلباب على اللحم، يرقص حافياً ومركزاً
على قمة رأسه نبوتاً. وخلفه سار المنشدون، فسوارس، ثم موكب
العریس بين صاحبيه، وأحاط بالجميع حملة المشاعل. وراح المنشد يغني
بصوت مليح:

الأوله آه من عيني دي
والثانية آه من إيدى دي
والثالثة آه من رجلى دي

أصل اللي شبكتنى مع المحبوب عيني دي
لما سلمت عليه سلمت بإيدى دي
وادي اللي ودتني للمحبوب رجلى دي

وتعالت الآهات من الأفواه المخمرة المخدرة والموكب يشق طريقه
إلى الجمالية فبيت القاضى فالحسين ثم الدراسة، والليل ينطوى فى
غفلة من السعداء. وعادت الزفة كما ذهبت فى بهجة وانشراح فكانت
أول زفة فى الحارة تمر بسلام، فلا نبوت ارتفع ولا دم سال. وبلغ
الطرف من زكريا متنه فتناول عصاه وراح يرقص. لعب بالعصا وغایل

في اختيال، وهز الرأس مرة والصدر أخرى كما هز الوسط. وصور بحركاته المرأة هيئه القتال وهيئه الوصال. ثم دار حول نفسه مؤذناً بحسن الختام بين التهليل والتصفيق.

عند ذلك انتقل قاسم إلى الحريم. رأى قمر جالسة عند ملتقى صفين من المدعوات، فاتجه نحوها يخوض أمواجاً من الزغاريد. وتناول يدها فقامت، ثم سارا معاً تقدمهما راقصة كأنما تلقى عليهما الدرس الأخير، حتى احتوتهما حجرة العرس. وبإغلاق باب الحجرة انفصلتا انتصاراً كلياً عن العالم الخارجي الذي سارع إليه الصمت عدا تهامس خفيف أو وقع أقدام. وفي لمحات عين مر قاسم بالفراس الوردي والأريكة الوثيرة والسجادة المنمنمة، أشياء لم تقع له في خيال، ثم استقر بصره على المرأة التي جلست تتنزع الزينة عن رأسها. بدت فخيمة مليئة بضئيلة ذات بهاء. كانت الجدران تنظر إليه متلازمة بالضياء، وكان يرى كل شيء من خلال اضطراب وجيشان ونهاء زاد عن حده. اقترب منها بجلباه الحريري وجسده ينفتح حرارة خمرية ممزوجة بسطول حتى وقف أمامها ينظر من عل و هي غاضبة البصر فيما يشبه الانتظار. وتناول وجهها بين راحتيه ثم همّ بأن يقول شيئاً لكنه فيما بدا عدل. وانحنى حتى اضطربت خصلات شعرها تحت أنفاسه، ثم لثم الجبين والخددين. وسرت إلى أنفه رائحة بخور تسربت من عقب الباب، وترامي إلى سمعه صوت سكينة وهي تتلو رُقْبة مبهمة.

٧١

أيام وليلات مرت في محبة ومودة وراحة بال، فما أعدب السعادة في هذه الدنيا. لم يكن ليغادر الدار إلا استحياء أن يقال إنه لا يغادر. منذ

تزوج - الدار . ارتوى قلبه من أفانين المسرة حتى ثمل ، وحظى بكل ما
تمناه من الحنون والاعطف والرعاية . كان يهوى النظافة فرأى منظراً
مهندماً ، ووجد جواً معبقاً بالبخور ، وامرأة لا تطالعه إلا آخذة زيتها ،
مشرق الوجه ، بادية الود . وقالت له يوماً وهما جالسان جنباً إلى جنب
في حجرة الجلوس :

- أراك كالحمل الوديع ، لا تطلب ولا تأمر ولا تزجر ، وجميع ما في
الدار ملك يديك !

فداعب خصلة من شعرها المصبoug بالحناء وقال :

- بلغت حالاً لا يطلب عندها شيء !

فسدت على يده بقوه وقالت :

- حدثني قلبي من بادي الأمر بأنك خير الرجال في حيننا لكنك
لأدبك تبدو أحياناً كالغرير في دارك ، ألا تدرى أن ذلك
يؤلمنى ؟

- إنك تخاطبين رجلاً نقله حظه السعيد من الرمال المحروقة إلى جنة
هذا البيت السعيد .

فتظاهرت بالجد وإن غلبها الابتسام وقالت :

- لا تظن أنك ستلقى راحة في بيتي ، ستحل اليوم أو غداً محل عمى
في إدارة أملاكى ، فهل تستقبل ذلك يا ترى ؟
فضحك قائلة :

- إنه اللهو بالقياس إلى رعي الغنم .

وتولى إدارة أملاكها الموزعة بين حى الجرابيع والجمالية . وكانت
معاملة السكان الشرسين تتطلب لباقه لكن مرونته عاجلت الأمور بخیر
ما يمكن أن تعالج به . ولم يكن العمل يشغل من وقته إلا أياماً كل شهر ،
وفيما عدا ذلك وجد فراغاً لم يألقه من قبل . ولعل أكبر نصر أحرزه في

حياته الجديدة كان اكتسابه لثقة عويس عم زوجته. أولاه من باديه الأمر احتراماً وعناية، وتطوع لمعاونته في بعض أعماله، حتى أنس الرجل إليه وبادله ودّا بود واحتراماً باحترام. ولم يملّك الرجل إلا أن قال له يوماً في صراحة:

- حقاً إن بعض الظن إنتم! ألا تدرى أننى كنت أظنك من برمجية حارتني؟ وأنك سستغل عاطفة ابنة أخي لتبتز أموالها فتبعثرها في ملذاتك أو تتزوج بها امرأة أخرى؟! ولكنك أثبتت أنك رجل أمين حكيم، وأنها أحسنت الاختيار.

وفي قهوة دنجيل كان صادق يضحك في سرور ويقول له:

- قدم لنا جوزة على الحساب كما ينبغي للأعيان أمثالك!
وكان حسن يقول له:

- لماذا لا تذهب بنا إلى الحانة؟
لكنه أجابهما جاداً:

- لا مال لي إلا ما أستحقه نظير إدارة أملاك زوجتي أو مقابل خدمات أؤديها لعم عويس.

فتعجب صادق ثم قال ناصحاً:

- المرأة المحبة لعبة في يد الرجل!
فقال قاسم غاضباً:

- إلا إذا كان الرجل محباً مثلها!
ثم وهو يحدجه بنظرة عتاب:

- أنت يا صادق كأهل حارتني لا يرون في الحب إلا وسيلة للاستغلال!

فابتسم صادق في حياء وقال كالمعتذر:

- هكذا يفكر الضعفاء! لست في قوة حسن، ولا حتى في مثل قوتك

أنت، فلا مطعم لى بحال فى الفتونة، وفى حارتنا إما أن تكون
ضاربًا، وإما أن تكون مضروباً!

فغير قاسم من حدة نبرته كأنما قبل عذرها وقال:
ـ يالها من حارة عجيبة، صدقت يا صادق، إن حال حارتنا يبعث
على الأسى!

فقال حسن باسمًا:

ـ آه لو كانت كما يشعر الناس نحوها فى الخارج!

فقال صادق مصدقًا لقوله:

ـ يقولون حارة الجبلاء! حارة الفتوات المجدع!

فلاحت الكآبة فى وجه قاسم، واحتلست نظرة إلى مجلس سوارس
في أول القهوة ليطمئن إلى أنهم بمنجاة من سمعه، وقال:

ـ كأنهم لا يسمعون عن تعاستنا!

ـ الناس يبعدون القوة حتى ضحاياها!

فتفكر قاسم مليا ثم قال:

ـ العبرة بالقوة التى تصنع الخير، كقوة جبل وقوة رفاعة، لا قوة
البلطجية وال مجرمين!

وكان الشاعر طازة يواصل حكايته قائلاً:

ـ ووهتف به أدهم:

ـ احمل أخاك!

فقال قدرى بصوت كالأنين:

ـ لا أستطيع.

ـ إنك استطعت أن تقتله.

ـ لا أستطيع يا أبي.

- لا نقل «أبى» قاتل أخيه لا أب له، ولا أم له، ولا أخ له.
- لا أستطيع.

فشد قبضته عليه وقال:

- على القاتل أن يحمل ضحيته».

ثم تناول الشاعر الرباب وأخذ في الإنشاد. وعندها قال صادق مخاطباً قاسم:

- اليوم أنت تحيا الحياة التي كان بها يحلم أدهم!
فيما الاحتجاج في وجه قاسم وقال:

- لكن يصادفني عند كل خطوة سبب من أسباب الكدر وتنفيص الصفو، وأدهم لم يحلم بالفراغ والرزق الموفور إلا باعتبارهما طريق السعادة الصافية.

ولاذ ثلاثة بالصمت ملياً حتى قال حسن في براءة:

- هذه السعادة الصافية لا يمكن أن توجد أبداً!

فلاحت في عيني قاسم نظرة حملة وقال:
- إلا إذا توافرت أسبابها للجميع!

وفكك في الأمر، في أنه يحظى بالمال والفراغ، ولكن تعasse الآخرين تفسد عليه سعادته. وهو هو ذا يؤدى الإتاوة لسواروس صاغراً. لذلك يود أن يشغل بالعمل فراغه، كأنما ليهرب من نفسه، أو يهرب من حرارة القاسية. ولعل أدهم لو نال مائتى وهو على مثل حاله هذه لضاق بالسعادة ذرعاً، ولناقت للعمل نفسه.

وفي تلك الأيام طرأت أعراض غريبة على قمر، فقالت سكينة إنها أعراض الوحش. ولم تكدر قمر تصدق. كان أملها في الحبل حلمًا من الأحلام. لذلك استخفها الفرج. وامتلاً قلب قاسم بالغبطة حتى أذاع الخبر في كل ركن له فيه حبيب فعلم به بيت عمه وذكوان مبيض النحاس

وبقالة عم عويس وكوخ المعلم بحى . وغالت قمر فى العناية بنفسها حتى قالت لقاسم بلهجة ذات معنى :
- يينبغى أن أتجنب أى مشقة .

فقال وهو يبتسم ابتسامة المدرك لما تعنى :
- على سكينة أن تحمل عنك أعباء البيت ، وعلى أن تجمل بالصبر !
فقبلته قائلة فى جذل الأطفال :
- أود أن أقبل الأرض شكرًا !

وانطلق إلى الخلاء ليزور المعلم بحى لكنه توقف عند صخرة هند ، فمضى إلى ظلها وجلس . ورأى على مرمى البصر راعيَا يرعى غنمَا فامتلاً قلبه بالعاطف وتنى لو يقول له : لا يسعد الإنسان بالفتونة وحدها ، بل لا يسعد الإنسان بالفتونة إطلاقاً . لكن أليس الأجدر أن يقول ذلك للفتوت من أمثال لهيطة وسوارس ؟ ما أعطفه على أولاد حارته الذين يحلمون بالسعادة عيناً ثم سرعان ما تلقى الأيام بأحلامهم مع التفاسيات في أ��واز الزيالة . لماذا لا ينعم بالسعادة المتاحة ويغمض العين عما حوله ؟ لعل هذا التساؤل حير يوماً جبل كما حير يوماً آخر رفاعة . كان في وسعهما أن ينعوا بالراحة ويخلدا إلى السكينة والسلام ، فما سر هذا العذاب الذي يطاردنا ؟ كان يتأمل وهو ينظر إلى السماء فوق الجبل ، سماء صافية ما عدا قطعاً صغيرة من السحب متفرقة كأوراق الورد الأبيض . وخفض رأسه فيما يشبه الإعباء فوق بصره على شيء يتحرك ، وضع أنها عقرب تسرع نحو حجر . ورفع عصاه بسرعة وهو يها عليها فهرسها . وتفرس فيها ملياً بتقزز ، ثم قام ليواصل رحلته .

استقبل بيت قاسم حياة جديدة، شارك في فرحتها فقراء الحى .
وسُمِّيَتْ إحسان كأمه التي لم يرها . وبيوٍلدها ألف البيت ألواناً جديدة
من البكاء والقذارة والأرق ، ولكنه ازداد بها غبطة ورضا . لكن لماذا
يبدو الأب أحياناً شارد اللب والنظرة كأن هموماً تناوبه؟ شدّ ما ساورها
لذلك الفلق حتى سأله مرة :

- أليست الصحة على ما يرام؟

- بلـى ..

- لكنك لست كعادتك !

فقال وهو يغض البصر :

- المولى أدرى بحالى .

تساءلت بعد تردد :

- هل بذلك منا مانكره؟

فقال بقوه :

- ليس هناك أحب إلى منك ولا حتى العزيزة الصغيرة .

فتهجدت فائلة :

- لعلها عين !

فقال باسماً :

- لعلها !

فرقته وبخرته وهي تدعوه من صميم قلبها . واستيقظت ذات ليلة

على بكاء إحسان فلم تجده إلى جانبها. ظنت لأول وهلة أنه لم يرجع بعد من سهرته في القهوة، ولكن لما كفت الصغيرة عن البكاء تنبهت المرأة إلى أن الحرارة غارقة في صمت عميق لا يستحكم بها عادة إلا بعد إغلاق المقاهي بفترة غير قصيرة، فدخلتها ارتياح، فقامت إلى النافذة وأطلت منها فرأت ظلاماً شاملاً يلف حرارة مستغرقة في النوم. وعادت إلى الصغيرة التي عاودت البكاء فألقتها ثديها، وراحت تسأله عمما أخره إلى هذا الوقت لأول مرة في حياتهما المشتركة. ونامت إحسان فغادرت الفراش إلى النافذة مرة أخرى. ولما لم تسمع نائمة، خرجت إلى الصالة فأستيقظت سكينة. وجلست الجارية كالمسطولة، ثم هبت واقفة في جزع، فأخبرتها سيدتها بما دفعها إلى الالئناس بها. وقررت الجارية من فورها أن تذهب إلى عم زكريا للسؤال عن سيدتها. وسائلت قمر نفسها عمما يبيه في بيت عمها حتى هذا الوقت، فجاء الجواب قاطعاً للأمل، ولكنها مع ذلك لم تقنعها من الذهاب، ربما جريأة وراء غير المتظر، أو في الأقل استعانت بالعم على حيرتها. ولما ذهبت سكينة جعلت تسأله مرة أخرى عمما آخره. بذلك سبب بما طرأ على مزاجه من تغير؟ أله علاقة بتزهاته في الخلاء التي يقوم بها في الأصائل والأماسي؟

واستيقظ عم زكريا وحسن متزعجين على نداء سكينة. وقال حسن إن قاسم لم يشاركه سهرته الليلة. وسأل عم زكريا متى غادر ابن أخيه بيته؟ فأجابت سكينة بأن ذلك كان قبيل العصر. وغادر ثلاثة منهم الربيع، ومضى حسن إلى الربيع المجاور ثم عاد ومعه صادق الذي قال في نبرة فلقة:

ـ الفجر يوشك أن يطلع ! ترى أين ذهب؟

فقال حسن :

ـ لعل النوم غلبه عند الصخرة.

وأمر عم زكريا الجارية أن تعود إلى سيدتها لتخبرها بأنهم ذاهبون للبحث عنه في مظانه. ومضى ثلاثة صوب الخلاء. واستشعروا رطوبة ليل الخريف فجربوا اللالسات فوق رؤوسهم. وساروا على هدى هلال آخر الشهر وقد تجلى في رقعة مرصعة بالنجوم انحسرت عنها سماء متشحة بالسحب. وصاحت حسن بصوت شق الفضاء كالشهاب: «فاسم.. يا فاسم!» فارتدى إليه الصدى من جانب المقطم مكرراً النداء. وحثوا السير حتى بلغوا صخرة هند، فداروا حولها متفحصين المكان ولكنهم لم يعثروا له على أثر. وتساءل عم زكريا بصوت غليظ: «أين ذهب؟ لا هو من أهل المجنون ولا من ذوى العداوات!

فتتم حسن في حيرة:

«ولا من سبب آخر يدعوه للهروب!

وتذكر صادق أن الخلاء لا يخلو من قطاع طرق ففاصل قلبه في صدره دون أن ينبس. وإذا بزكريا يتساءل في فتور: «أيكون عند المعلم يحيى؟

وهوتف الشابان معا فيما يشبه استغاثة يائس:

«المعلم يحيى؟!

لكن زكريا تسأله في نكد:

«وماذا دعاه للبقاء عنده؟

ومضوا نحو أطراف الخلاء صامتين، تتناويم الأفكار السود. وترامى إلى مسامعهم من بعيد صباح الديكة، لكن الظلام لم يخف لتكاشف السحب. وند عن صادق صوت كالزفرة وهو يقول: «أين أنت يا فاسم؟». وبدت الرحلة عقباً لكتهم وأصلوا السير حتى وقفوا أمام كوخ يحيى الغارق في النوم. وتقدم زكريا يدق الباب بقبضته حتى جاءه صوت المعلم وهو يتساءل:

- من بباب؟

وفتح الباب فبدأ شبحه متوكلاً على عصاه فقال زكريا بأسف:

- عدم المؤاخذة، جتنا نسأل عن قاسم.

فقال المعلم بهدوء:

- زيارة متوقعة!

فأحيا قوله نفوسهم لأول وهلة، لكن سرعان ما ارتد إليهم القلق

فتساءل زكريا:

- عندك أخبار عنه؟

- هو نائم في الداخل!

- بخير؟

- إن شاء الله!

ثم مردفاً في بساطة مقصودة:

- هو الآن بخير، لكن بعض جيرانى كانوا قادمين من العطوف فعثروا عليه عند صخرة هند وهو مغمى عليه، فحملوه إلى، فرششت على وجهه عطرًا حتى أفق، لكنه بدا متعيناً فتركته لينام، وما لبث أن استغرق في النوم.

فقال زكريا معايباً:

- ليتك أبلغتنا الخبر!

فقال بالهدوء نفسه:

- جاءوا به عند منتصف الليل فلم أجده من أرسله إليك!

فقال صادق في قلق:

- إنه مريض بلا شك.

فقال العجوز:

- سيصحو على أحسن حال.

فقال حسن :

- فلنوقظه لنطمئن عليه .

ولكن يحيى قال بحزم :

- بل علينا أن نتظر حتى يستيقظ بنفسه .

٧٣

كان جالساً في الفراش ، مستند الظهر إلى وسادة ، ساحجاً الغطاء عليه حتى أعلى الصدر ، تعكس عيناه نظرة متفكرة . وكانت قمر متربعة عند قدميه ، حاملة على صدرها إحسان ، وهذه تحرك يديها الصغيرتين دون توقف ، وتتصدر أصواتاً رقيقة غريبة لا يدرك أحد عن سرها شيئاً . وتصاعد من مبخرة في وسط الحجرة خيط بخور ، يتلوى ، ثم ينكسر ، ثم يتشر ، نافثاً أريجاً كأثماً يوح بسر لطيف . ومد الرجل يده إلى خوان قرب الفراش فتناول قدح كراوية ، واحتسى منه قليلاً قليلاً ، ثم أعاده وليس به إلا ثمالة ، والمرأة تناغي الطفلة وتداعبها ، ولكن نظراتها القلقة المسترقية إلى زوجها دلت على أن مناغاتها ومداعباتها ليست إلا مداراة لشاعرها . وأخيراً سأله :

- كيف أنت الآن؟

فاتجه رأسه بحركة عفوية نحو باب الحجرة المغلق ، ثم أعاده إليها ،

وقال بهذه دوء :

- ليس ما بي مرض !

فنجلت في عينيها نظرة حائرة وقالت :

- يسرنى أن أسمع هذا، ولكن خبرنى بالله عما بك!

فبدا كالمتردد قليلاً، ثم قال:

- لا أدري! كلا فليس هذا ما ينبغي أن يقال، إنى أدري كل شيء،
ولكن.. الحق إنى أخشى أن تكون أيام الراحة قد ولت.

ويكث إحسان فجأة، فالقيمتها ثديها فى عجلة، ثم نظرت إليه
مستطلعة فى قلق، وتساءلت:

- لماذا؟

تنهد، وأشار إلى صدره قائلاً:

- لدى هنا سر كبير، أكبر من أن أحمله وحدى!
فازدادت المرأة قلقاً وقالت بلهفة:

- خبرنى عنه يا قاسم.

اعتدل فى جلسته قليلاً، وعكست عيناه جداً وتصميماً وقال:

- سأبوح به لأول مرة. أنت أول شخص يسمعه، ولكن ينبغي أن
تصدقيني، فما أقول إلا الحق. ليلة أمس حدثت شئ عجيب،
هنا لك تحت صخرة هند، وأنا وحدى فى الليل والخلاء.

وازدرد ريقه وهى تست Husthe بنظرة حارة، ثم قال:

- كنت جالساً أتابع سير الهلال الذى سرعان ما وارت السحب،
وساد الظلام حتى فكرت فى القيام، وإذا بصوت قريب يقول
بغنة: «مساء الخير يا قاسم». فارتعدت من وقع المفاجأة التى لم
يسبقها صوت أو حركة. ورفعت رأسي فرأيت شبح رجل واقفاً
على بعد خطوة من مجلسى، لم أتبين وجهه ولكن ميزت لاسته
البيضاء والعباءة التى يتلفع بها، وقلت له وأنا أدري غنيطى: «مساء
الخير! من أنت؟». فأجابنى ولكن به تظنبته أجاب؟

لحركت قمر رأسها فى جزع وقالت:

- تكلم فلم يعد لي صبر .
- قال لي : « أنا قنديل ! ». فعجبت لشأنه وقلت له : « لا تؤاخذنى
فأنا . . . ». فقاطعني قائلاً : « أنا قنديل خادم الجبلawi ! ».
وهتفت المرأة :
- ماذا قال الرجل ؟ !
- قال أنا قنديل خادم الجبلawi .

وكان الشىء قد أفلت من ثغر إحسان فى أثناء اضطراب الأم فتغلص وجهها إيذاناً بالبكاء ولكن المرأة أعادته إليها ، ثم قالت بوجه شاحب :
- قنديل خادم الواقف ؟ لا يدرى أحد عن خدم الواقف شيئاً .
حضررة الناظر هو الذى يتولى بنفسه إعداد لوازم البيت الكبير ، ثم يحملها خدمة إلى البيت الكبير ليتسلّمها بعض خدم الواقف فى الحديقة .

- نعم ، هذا ما تعرفه حارتنا ، لكنه قال لي ذلك !
- وهل صدقته ؟

- وقفت من فوري ، تأدباً من ناحية واستعداداً للدفاع عن نفسي إن لزم الأمر من ناحية أخرى ، وقلت له متسائلاً : من أدراني أنك صادق فيما تقول ؟ فقال لي بهدوء مطمئن : « اتبعنى إذا شئت حتى تراني وأنا أدخل البيت الكبير ». فاطمأن قلبي ، وقلت لنفسي فلأصدقه حتى يتبيّن لي أمره ، ولم أخف عنه فرحي بلقياه ، وسألته عن جدنا ، كيف حاله ؟ وماذا يفعل ؟

فقاطعه صوت قمر قائلاً في ذهول :

- كل ذلك دار بينك وبينه ؟ !

- نعم ، بالله أنصتني ، قال لي : إن جدنا بخير . ولم يزد على ذلك شيئاً . فسألته : هل يدرى بما يجري في حارتنا ؟ فأجاب بأنه يعلم

كل شيء، وبأن المقيم في البيت الكبير يستطيع أن يطلع على كل صغيرة وكبيرة مما يقع في حارتنا، وأنه لذلك أرسله إلى إليك أنت؟

فقطب قاسم فيما يشبه الاستياء وقال:

- هكذا قال. ونذر عنى ما يفصح عن دهشتى ولكنه لم يبال بي، وقال: «العله اختارك حكمتك يوم السرقة والأمانتك في بيتك. وهو يبلغك بأن جميع أولاد الحرارة أحفاده على السواء، وأن الوقف ميراثهم على قدم المساواة، وأن الفتونة شر يجب أن يذهب، وأن الحرارة يجب أن تصير امتداداً للبيت الكبير». وساد الصمت، وكأنما فقدت القدرة على النطق، ولمحت عيناي المتلمعتان إلى هامته السحب وهي تنحسر عن الهلال في رقعة صافية، فسألت بأدب: «ولماذا يبلغنى ذلك؟». فأجاب: «لكى تتحققه بنفسك!».

- أنت؟!

بذلك هفت قمر، فقال قاسم بصوت متهدج:

- هكذا قال. وهمنت بأن أستوضحه، ولكنه جياني وذهب، فتبعته حتى خيل إلى أنى رأيته يصعد إلى أعلى سور المشرف على الخلاء على سلم خارق الطول أو شيء شبيه بذلك، فورقت ذاهلاً. ثم عدت إلى مكانى السابق وفي نيتى أن أقصد المعلم يحيى، لكنى غبت عن الوجود، ولم أعد إلى رشدى إلا فى كوخ المعلم.

وعاد الصمت يغشى الحجرة وقمر لا تحول عن وجهه عينيها الذاهلتين. وتسلل النوم إلى أجنان إحسان وهى ترطع فمال رأسها إلى أسفل من فوق ساعد أمها فارقدتها برفق على الفراش، وعادت تنظر

إلى زوجها بعين قلقة ووجه شاحب . وارتفع من الحارة صوت سوارس الأجنش وهو يسب رجلاً ، وصراخ الرجل وتأوهاته التي وشت بما ينهاه عليه من ضرب أو صفع ، ثم صوت سوارس مرة أخرى وهو يبتعد متذرًا متوعدًا ، وصوت الرجل وهو يرتفع في نبرة حنق ويأس هاتفًا : «يا جبلاوي !». وسائل قاسم نفسه المرهقة بنظرات زوجته : ترى ماذا تظن بي؟ وحداث المرأة نفسها : إنه صادق ، لم يكنبني فقط ، فلماذا يختلف هذه الحكاية؟ وهو أمين لم يطمع في مالي مع ما في ذلك من أمان ، فكيف يطمع في مال الوقف على ما في ذلك من خطر؟! وتري هل ولت أيام الراحة حقاً؟ وقالت :

ـ أنا أول من أفضيتك إليه بسرك؟

فأحنى رأسه بالإيجاب ، فعادت تقول :

ـ قاسم ، حياتنا واحدة ، وأنا لا تهمني نفسى بقدر ما تهمنى أنت ، وسرك هذا شيء خطير ، وعواقبه لا تخفي عليك ، ولكن أعمل ذاكرك لك جيداً وخبرنى أكان واقعاً ما رأيت أم لعله كان حلمًا؟

فقال بتصميم وفي شيء من الامتعاض :

ـ كان واقعاً ملمساً ولم يكن حلمًا!

ـ وجدوك مغمى عليك؟!

ـ كان ذلك بعد اللقاء !

فقالت بإشفاق :

ـ ربما اختلط الأمر عليك؟!

فتنهى في عذاب لم تدر به وقال :

ـ لم يختلط شيء على ، كان اللقاء واضحًا كالنهار المشمس !

فترددت قليلاً ثم تسألت :

- من يدرينا أنه حقا خادم الواقف ورسوله إليك؟ ولماذا لا يكون مسطولاً من مساطيل حارتنا وما أكثرهم؟!

فقال في نبرة عناد:

- رأيته وهو يصعد إلى سور البيت الكبير.

فنتهدت قائلة:

- ليس في حارتنا سلم يمكن أن يصل إلى نصف ارتفاع السور!

- لكنني رأيته!

بدت كفار في مصيدة، لكنها أبىت أن تستسلم.

فتساءلت:

- ألم تكن تعاطبت الكيف؟

فتحهم وجهه حزنا وقال:

- أنت لا تصدقيني يا قمر وأنا لا أطالبك بتصديقى.

فارناعت المرأة وقالت:

- ليس بي شيء إلا أنت أخاف عليك، وأنت تعلم ما أعنى، أخاف عليك وعلى بيتنا وابتتنا وسعادتنا، وإنى أسائل نفسى : لماذا قصدك أنت بالذات؟ ولماذا لا يحقق إرادته بنفسه وهو صاحب الوقف وسيد الجميع؟

فتساءل بدوره:

- ولماذا قصد جبل ورفاعة؟

اتسعت عيناهما، وتقلص ركن فمها كالطفل الموشك على البكاء،
وغضت بصرها في جفول، فقال:

- أنت لا تصدقيني وأنا لا أطالبك بتصديقى.

فأجهشت في البكاء، واسترسلت فيه كأنما لتهرب من أفكارها.
فمال قاسم نحوها، ثم مد يده إلى يدها فجذبها نحوه، وسألها في رقة:

- لماذا تبكي؟

فنظرت إليه خلال دموعها، وقالت وهي تشهق شهقات متقطعة:
- لأنني أصدقك، نعم أصدقك، وأخشى أن تكون أيام الراحة
قد ولت.

ثم في صوت خافت مشفق:
- ماذا أنت فاعل؟

٧٤

شُحن جو الحجرة بالقلق والتوتر. بدا عم زكرييا مفكراً مقطباً، وراح
عم عويس يبعث بشاربه، وكأن حسن كان يحادث نفسه، أما صادق
فلم يحول ناظريه عن وجه صديقه قاسم، على حين انزوت قمر في
ركن حجرة الاستقبال وهي تدعوا الله أن يهدى الجميع إلى السداد
والرشاد. وكانت فناجيل الفهوة قد فرغت وأخذت ذبابتان تخومان
 حولها، فنادت قمر سكينة لتأخذ الصينية، فجاءت الجارية وحملتها ثم
ذهبت وأغلقت الباب وراءها كما كان. وقال عويس وهو ينفخ:
- يا له من سر يهد الأعصاب هذا!

وعوى كلب في الحارة كأنما أصيب بطوبية أو عصا، وارتفع صوت
بياع بنادي متربعاً بالبلح، وامرأة عجوز هفت في أسي: «يا رب خلصنا
من عيشتنا». والتفت زكرييا إلى عويس قائلاً:

- يا معلم عويس، إنك أكبرنا مقاماً وجاهًا، فصار حنا برأيك!
نقل الرجل عينيه بين زكرييا وقاسم وقال:
- أقول الحق إن قاسم رجل ولا كل الرجال، ولكن حديثه أدار
رأسى!

فقال صادق بعد ثواب طويل للكلام:

- إنه رجل صادق، أتحدى أى مخلوق أن يذكرنا بكتبة صدرت عنه،
 فهو عندي مصدق، وأقسم لكم على ذلك بترية أمي!
 وقال حسن بحماس:

- وأنا كذلك. وسيجدني دائمًا إلى جانبه..

وابتسم قاسم لأول مرة في امتنان وهو يرمي جسم ابن عمه القوي
باعجاب، لكن زكرياء ألقى على ابنه نظرة انتقاد وقال:

- ليس الأمر لعباً، فكرروا في حياتنا وسلامتنا.

فأمن عويس على قوله بمحنة من رأسه وقال:

- صدقت، لم يسمع أحد من قبل مثل ما سمعنا اليوم.

فقال قاسم:

- بل سمعوا مثله وأكثر عن جبل ورفاعة!

فدهش عويس وحدجه بإنكار متسللاً:

- أتظن أنك مثل جبل ورفاعة؟

وغض قاسم بصره متلماً وقر تراقبه بإشفاق، ثم قالت:

- عمي! من يدرى كيف تقع هذه الأمور؟!

فعاد الرجل يعيث بشاربه، وقال زكرياء:

- وأى خير في أن يظن نفسه كجبل أو رفاعة؟ قتل رفاعة شر قتله،
 وكاد جبل أن يقتل لو لا انضمام أهله إليه، ومن لك أنت يا قاسم؟
 أنسنت أنهم يدعون حيناً بحى الجرابيع، وأن أكثره ما بين متسلول
 وتعيس؟

فقال صادق بقوه:

- لا تنسوا أن الجبالوا اختاره من دون الجميع من فيهم الفتوات،
 ولا أظنه يتخلّى عنه عند الشدة!

فقال زكريا متعضاً:

- هكذا قيل عن رفاعة في أيامه، ولقد قتل رفاعة على بعد أذرع من
بيت الجبلاوي!

وقالت قمر محذرة:

- لا ترفعوا أصواتكم!

واسترق عويس إلى قاسم النظر وهو يفكّر. ما أعجب ما يسمع وما
يقال. هذا الراعي الذي جعلت منه ابنة أخي سيداً! أقرّ له بالصدق
والأمانة، ولكن هل يكفي هذا ليجعل منه جبل أو رفاعة؟! وهل
يجيء الرجال الكبار بهذه البساطة؟ وماذا يحدث لو صدقت الأحلام؟
وقال عويس:

- يبدو أن قاسم لا يتأثر بتحذيراتنا، ترى ماذا يريد الفتى؟ هل عز
عليه أن يبقى حيناً وحده الذي لا نصيب له في الوقف؟ أتريد
يا قاسم أن تكون فتوة وناظراً لحياناً؟

فبان الاحتداد في وجه قاسم وقال:

- لم يبلغني بذلك، وإنما قال: إن جميع أولاد الحارة أحفاده، وإن
الوقف لهم على قدم المساواة، وإن الفتونة شر!

برق الحماس في عيني صادق وحسن، وذهل عويس، أما زكريا
فتساءل:

- أتعرف ماذا يعني هذا؟

فقال عويس بغضب:

- قل له!

- أن تتحدى قوة الناظر ونبأيته لهيبة وجلاطة وحجاج وسوارس!

فامتنع وجه قمر، أما قاسم فقال بهدوء كالحزن:

- هو ذلك!

فندت عن عويس ضحكة انعكس صداها استباء في وجوه قاسم وصادق وحسن ، ولم يحفل زكريا بذلك ومضى يقول :

- سيقضي علينا جميعاً بالهلاك ، سنوطأ بالأقدام كالنمل ، ولن يصدقك أحد . إنهم لم يصدقو من قابل الواقع ولا من سمع صورته وحاوره ، فكيف يصدقون من أرسل إليه خادماً من خدمه؟

وقال عويس بنبرة جديدة :

- دعونا ما تقول الحكايات ، لم يشهد أحد لقاء الجبلاوي وجبل ، ولا الجبلاوي ورفاعة ، تلك الأخبار تروى عادة ولكن لم يشهدها أحد ، غير أنها عادت بالخير على أصحابها ، فصار لحي آل جبل كيانه المحترم ، كذلك حي آل رفاعة ، ومن حق حيناً أن يكون مثلهما ، لم لا؟ كلنا من صلب ذلك الرجل المعتكف في بيته الكبير ، ولكن علينا أن نأخذ الأمر بالحكمة والحذر ، فاهتم يا قاسم بحيك ، دعك من الأحفاد والمساواة وما هو خير وما هو شر ، ومن يسير أن نضم سوارس إلينا وهو قرييك ، ويكون الاتفاق معه على أن يترك لنا نصيباً في الريع .

وقطب قاسم غاضباً ، وقال :

- يا معلم عويس ، أنت في واد ونحن في واد . أنا لا أروم مساومة ولا نصيباً في الريع ولكنني عقدت العزم على تحقيق إرادة جدنا كما أبلغتها .

وتأنوه زكريا قائلاً :

- يا ماتر يا رب !

لم يزل قاسم مقطباً . ذكر أشجانه وخلواته وأحاديث معلمه يحيى . وكيف جاء الفرج على يد خادم لم يعرفه من قبل . وكيف تلوح الخطوب في الأفق . وكيف أن زكريا لا يفكرا إلا في السلامة وأن عويس

لا يفكر إلا في الريع . وكيف أن الحياة لن تطيب إلا بمواجهة الأفق الملىء بالخطوب . وتنهد قائلًا :

- عمي ، كان يجب أن أبدأ بمشاورتكم ولكنني لن أطالبكم بشيء !
فشد صادق على يده قائلًا :
- إنني معك .

وكور حسن قبضته قائلًا :
- وأنا معك ، في الخير والشر معك .
فقال زكرياء في ضجر :

- لا تغتر بكلام العيال ! عندما ترتفع النباتات تمتليء الجحور بأمثالكم ، وفي سبيل من تعرّض نفسك للهلاك ؟ ليس في حارتنا إلا حيوان أو حشرة ، ولديك من الأسباب ما يضمن لك حياة رغيدة طيبة فاعقل وتنعم بحياتك .

وسائل قاسم نفسه : ماذا يقول الرجل ؟ كأنما يستمع لبعض هواتف نفسه عندما تقول له ، ابنته ، زوجتك ، بيتك ، نفسك . لكنك أخترت كما أختار جبل ورفاعة فليكن جوابك كما كان جوابهما . قال :
- فكرت يا عمي طويلاً ثم اخترت سبيلي .

فضرب عويس كفأ بكف وقال :
- لا حول ولا قوة إلا بالله !
وقال عويس محذراً :

- سبقتك الأقوباء وبهزأ بك الضعفاء !
وقلبت قمر عينيها بين عمها وبين عم زوجها في حيرة ، مشفقة من خذلان زوجها ، وفي الوقت نفسه خائفة عليه عاقد التبادل في رأيه .
وقالت مخاطبة عمها :

- عمي ، أنت سيد الأعيان ، ويوسعك أن تؤيده بنفوذك !

فسألها عويس مستهجنًا :

- فبم تطمئن يا قمر؟ لك مال وابنة وزوج فماذا يعنيك وزع الوقف على الجميع أم استأثر به الفتوات؟ إننا نعد الطامح إلى الفتونة مجنوناً، فما بالك من يطمع إلى نظارة الحرارة جميـعاً!

فهب قاسم واقفاً في قائم شديد وقال:

- لست طامحاً إلى شيء من هذا، إنما أريد الخير الذي أراده جدنا.

فاسترضاه عويس بابتسمة متكلفة وقال:

- أين هو جدنا؟ فليخرج إلى الحرارة ولو محمولاً على عنق خدمه، ثم فليتحقق شروط وقفه كما يشاء. أحسب أن أحداً في الحرارة مهما بلغت قوته يستطيع إذا تكلم الواقف أن يرفع نحوه عيناً أو أصبعاً؟
وقال زكريا مكملاً:

- وهل هو إذا وثب الفتوات لنبحنا سحرك ساكتاً أو يكرث لما يصيـنا؟
فقال قاسم في وجوم شديد:

- لن أطلب أحداً بتصديقى أو بتـأيـدى.

فقام زكريا إليه ووضع يده على منكبه بعطف وقال:

- يا قاسم، أصابتك عين، أنا أعلم بهذه الشرور. طلما تحدثوا عن عقلك وسعيد حظك، حتى أصابتك العين. استعذ من الشيطان بالله، وأعلم أنك اليوم من وجهاء حينـا وبوسـعك إذا شـئت أن تاجرـي بعض مـال زوجـتك فـتحـظـى بالـشـراء الـوـفـير، فأـقـلـعـ عـماـ في رأسـكـ وارـضـ بماـ وـهـبـكـ اللهـ منـ خـيرـ وـنـعـمةـ.

فأطرق قاسم محـزـونـاـ، ثم رفع رأسـهـ إلىـ عـمـهـ، وقالـ بـتـصـمـيمـ عـجـيبـ:

- لن أـقـلـعـ عـماـ فيـ رـأـسـيـ وـلـوـ مـلـكـتـ الـوـقـفـ كـلـهـ وـحدـىـ.

ماذا أنت فاعل؟ وحتماً تفكّر وتنتظر؟ وماذا تنتظّر؟ وما دام القريب
 لم يصدقك فمن ذا الذي يصدقك؟ وما فائدة الحزن؟ وما جدوى
 الانفراد تحت صخرة هند؟ النجوم لا تحيّب ولا الظلام ولا يجيئ القمر
 كأنك تأمل في لقى الخادم مرة أخرى ولكن أي جديد عنده ترتفق؟
 وتحوس في الظلام حول البقعة التي قيل إن جدك قابل فيها جبل . وتقف
 طويلاً وراء السور الكبير في الموضع الذي قيل إنه خاطب عنده رفاعة.
 لكن لا شخصه رأيت ولا صوته سمعت ولا خادمه رجع . ماذَا أنت
 فاعل؟ سيطرك هذا السؤال كما تطارد الشمس في الخلاء راعي الغنم .
 وسيقتلك دواماً من راحة البال ومن طيبات النعم . وجبل كان مثلك
 وحيداً لكنه انتصر . ورفاعة عرف سبيله ومضى فيه حتى قتل ثم انتصر .
 ماذَا أنت فاعل؟

وقالت له قمر معايبة:

- شد ما تهمل طفلات الجميلة ، نبكي فلا ترحمها ، وتلعب فلا
 تلاعها .

فابتسم إلى الوجه الصغير مسترورة حانسة منه لسعير فكره ،
 وغمغم :
 - ما ألطفها !

- حتى الساعة التي تجالستنا فيها تغيب عنا كأننا لم نعد من أهل
 دنياك .

فاقترب منها على الكتبة التي تجمعهما ولثم خدها ، ثم قبل وجه
 الطفلة في أكثر من موضع وقال :

- ألا ترين أننى بحاجة إلى عطفك؟

- ولك قلبى كله بما فيه من عطف وحب ومحبة، ولكن ينبعى أن
ترحم نفسك.

وناولته الطفلة فاحتضنها وراح يهددها برفق وحنان مصغياً إلى
أنقامها السماوية. وبعنته قال:

- إذا نصرنى المولى فلن أحرم النساء من ربع الرقف.
فقالت قمر بدھشة:

- لكن الوقف للذكور دون الإناث.

فرنا إلى العينين السوداويين في وجه الصغيرة وقال:

- قال جدي على لسان خادمه إن الوقف للجميع، والنساء نصف
كيان حارتانا، ومن عجب أن حارتانا لا تخترم النساء، ولكنها
ستخترمنهن يوم تخترم معانى العدالة والرحمة.

ونجلى الحب والإشفاق في عيني قمر. وقالت لنفسها: إنه يذكر
النصر، فأين منا هذا النصر؟ وكم ودت أن تصصحه بما فيه الأمان
والسلامة ولكن خانتها شجاعتها. وساءلت نفسها عما يخبئ لهم الغد.
ترى أيكون لها حظ شفيفة زوجة جبل، أم تصاب بما أصبت به عيدة أم
رفاعة؟! واقشعر بدنها فنظرت بعيداً حتى لا يقرأ في عينيها ما يربيه.

وعندما جاءه صادق وحسن ليذهبوا جميعاً إلى القهوة عرض عليهما
أن يزوروا المعلم يحيى ليقدمهما إليه. ولما بلغوا الكوخ وجدوه يدخن
المجوزة ورائحة الحشيش الغنائية عابقة بالجحو. وقدم إليه صاحبيه،
وجلسوا جميعاً في دهليز الكوخ والبدر من كوة يلوح كأنه السعادة.
وكان يحيى ينظر إلى وجوه الثلاثة بعجب وكأنه يتساءل: أهؤلاء حقاً
هم الذين سبقلبون الحرارة رأساً على عقب؟! ومضى يعيد على مسامع
قاسم ما سبق أن ردده له، قال:

- احضر أن يعلم أحد بسرك قبل أن تستعد .
ودارت الجوزة دورة مليحة ، وكان ضوء القمر النافذ من الكوة يتوج
رأس قاسم وينظرح على الكتف من صادق ، على حين توهجت
جمرات الموقد في ظلمة الدهليز . وتساءل قاسم :

- وكيف أستعد ؟

فضحك العجوز قاتلاً في دعاية :

- ليس من حق من اختاره الجبلاوي أن يستعين برأي عجوز مثلى !
وأخلى الصمت لقرقرة الجوزة حتى قطعه العجوز قاتلاً :
- لديك عمل وعم زوجتك . أما عملك فلا فائدة منه ولا ضرر ، وأما
الآخر فهو سعك أن تكسبه إلى جانبك لو متنبه بشيء !
- لماذا أمتنبه ؟

- عده بنظارة الجرابيع !

فقال صادق بإخلاص :

- لن يميز أحد بشيء من ريع الوقف ، هو ميراث الجميع على قدم
المساواة كما قال الجبلاوي .
فضحك يحيى قاتلاً :

- ما أعجب جدنا ، كان قوة في جبل ، ورحمة في رفاعة ، واليوم له
شأن آخر !

فقال قاسم :

- إنه صاحب الوقف ، ومن حقه أن يغير ويبدل في الشروط العشرة !
- لكن مهمتك شاقة يابني ، إنها تخص الحارة كلها لا حياء من
الأحياء .
- هكذا أراد الواقف .

وسعى يحيى سعالاً متواصلاً تركه كالقتيل فنطوع حسن لخدمة
الجوزة محله . ومد الرجل ساقيه وهو يتهدب بعمق . ثم تساءل :

- ترى أتعمد إلى القوة كجبل أم تؤثر الحب كرفاعة؟
 فجاست يد قاسم خلال لاسته، ثم قال:
 - القوة عند الضرورة والحب في جميع الأحوال.
 فهز يحيى رأسه، وجعل يتنسم، ثم قال:
 - لا عيب فيك إلا اهتمامك بالوقف، سوف يسوقك ذلك إلى
 متاعب لا حصر لها.
 - كيف يعيش الناس بغير الوقف؟
 فقال العجوز في مباهة:
 - كما عاش رفاعة.
 فقال قاسم بجد وأدب:
 - عاش بمعونة أبيه ومحبيه، وخلف أصدقاء لم يستطع أحدهم أن
 يحدو حذوه، والحق أن حارتنا التعيسة في حاجة إلى النظافة
 والكرامة.
 - ألا يجيء ذلك إلا بالوقف؟
 - بل يا معلم، بالوقف وبالقضاء على الفتنة، هنالك تتحقق
 الكرامة التي أهدتها جبل إلى حبيه، والحب الذي دعا إليه رفاعة،
 بل والسعادة التي حلم بها أحدهم.
 فضحك يحيى متسائلاً:
 - ماذا أبقيت لمن يجيء بعذرك؟
 ففکر ملياً، ثم قال:
 - إذا نصرني المولى فلن تجد الحرارة حاجة إلى أحد بعدي.
 ودارت الجوزة كملائكة في حلم، وغنى الماء في القنبة. وتشاءب
 يحيى تناوب الانسجام. ثم تسأله:
 - ماذا يبقى لأحدكم إذا وزع الريع بالتساوي؟

فقال صادق:

- إنما نريد الوقف لستغله وبذلك تصير الحرارة امتداداً للبيت الكبير!
- وماذا أعددتم من عمل؟

واختفى ضياء القمر وراء سحابة عابرة فasad الدهلiz الظلام، ولكن
لم تمض دقيقة حتى انهل الضياء. ونظر يحيى إلى جسم حسن المفتول
وتساءل:

- هل يستطيع ابن عمك أن يهزم الفتوات؟

وإذا بقاسم يقول:

- إنني أفكر جاداً في مشاوراة محام شرعى!

فصاح يحيى:

- أى محام يقبل أن يتحدى الناظر رفعت وفتواته؟

واختلط ذهول الكيف بوجوم الفكر. ورجع الأصدقاء الثلاثة فيما
يشبه القنوط. وعاني قاسم في خلواته من العذاب، وركبه الهم والكدر
حتى قالت له قمر ذات يوم:

- ما ينبغي أن نهتم بسعادة الناس إلى حد إشقاء أنفسنا!

فقال بحدة:

- ينبغي أن أكون عند حسنظن الذي وضع فيـ.

- ماذا أنت فاعل؟ لماذا لا تنزع حزح عن حافة الهاوية؟ هاوية اليأس
المليئة بالصمم والركود. مقبرة الأحلام المغطاة بالرماد. ذئب
الذكريات الجميلة والأنغام المطربة. طارحة الغد في كفن الأمس.

لكنه دعا يوماً صادق وحسن إليه وقال لهما:

- آن لنا أن نبدأ!

فنهلل وجهاهما وقال حسن:

- هات ما عندك.

فقال بصوت دبت فيه الحياة:

- انتهيت من تفكيرى إلى قرار، وهو أن ننشئ نادياً للرياضة البدنية!

وعقدت الدهشة لسانهما فابتسم وهو يقول:

- سنجعله في حوش بيته، والرياضة هواية منتشرة في أكثر الأحياء.

- وما علاقة ذلك بعملنا؟

وتساءل صادق بدوره:

- ناد لرفع الأنفال مثلاً! ما علاقة ذلك بالوقف؟!

فقال قاسم وعيناه تبرقان:

- سيجيء إلينا الشبان، جبًا في القوة واللعب، وسيقع الاختيار على من هم أهل للثقة والاستعداد.

فاتسعت الأعين، وهتف حسن:

- سنكون عصبة وأي عصبة!

- نعم، وسيجيء إلينا شبان من جبل وأخرون من رفاعة.

وشملتهم فرحة غناء، وبدا قاسم في مشيته وكأنه يرقص.

٧٦

جلس قاسم لصن النافذة بحيث يشاهد الحرارة في يوم العيد، وما أبهج العيد في حارتنا.

لقد رش السقاءون الأرض بالقرب. وزينت عنان الحمير وأذياها بالورود الاصطناعية. ورقص الفراغ بالألوان الفاقعة يرتديها الصغار وتنطلق بها البالونات. وركزت في عربات اليد الأعلام الصغيرة. واحتللت الصياح والهتاف والتهليل بأصوات الزمامير. وتمايلت العربات

الكارو بالراقصات والراقصين . وأغلقت الدكاكين واكتظت المقاهي والحانات والغرز . وعند كل ركن بزغت البشاشة ، وقال قائل : «كل عام وأنتم بخير» . وجلس قاسم في ثوب جديد وإحسان وافقة في حجره متأبطة راحتية ، تجوس بيديها الصغيرتين في قسماته أو تشب أظافرها في خديه . وارتفع صوت تحت النافذة يغنى :

أصل اللي شبكتني مع المحبوب عيني دي

فذكر لتوه زفته السعيدة حتى رق قلبه . وهو رجل يحب الغناء والطرب . وكم تمنى أدهم أن يتفرغ للغناء في الحديقة الغناء . وماذا يعني الرجل في العيد؟ أصل اللي شبكتني مع المحبوب عيني دي؟ صدق الرجل . فمنذ ارتفعت عيناه في الظلام إلى قنديل سُلْب قلبه وعقله وإرادته . وهذا هو ذا حوش بيته يستحيل نادياً لتنمية الأبدان وتطهير الأرواح . وهو مثلهم يرفع الأنفال ويتعلم التخطيب . وصادق امتلات عضلات ذراعيه كما امتلات من قبل . - بفضل عمله في تبييض النحاس . عضلات ساقيه . أما حسن فياله من مارد عملاق . والآخرون ما أبهر حماستهم . وكان صادق حكيماً يوم نصحه بدعاوة المتعطلين والمسولين إلى ناديه ، وسرعان ما تمحسوا للألعابه كما تمحسوا لأنقواله . أجل إنهم قلة ولكنهم لطموحهم إذا وزنوا بأضعاف أضعافهم رجحوا بهم . وهتفت إحسان : «آد .. آد ..» فقبلها كثيراً ، وكان طرف جلبابه الجديد مبتلاً تحتها . وترامي إليه من المطبخ دق الهاون وصوتاً قمر وسكونة ومواء القطة . ومرت عربة كارو تحت الشباك وهي تشد مصففة :

الفاتحة للمسكري قلع الطريوش وعمل ولی

وابتسم قاسم فتذكر ليلة غنى المعلم يعني هذه الأنشودة وهو في تمام السطول . آه لو تستقيم الأمور فلا يبقى لك إلا الغناء يا حارتنا ! غداً ينتلي النادى بالأغوان الأقزباء والصادقين . غداً أتحدى بهم الناظر والفتوات وجميع العقبات . كى لا يبقى في المخارة إلا جدر حريم وأحفاد

برة. ويحقن الفقر والقذارة والتسلول والطغيان. وتحتفى الحشرات والذباب والنباليت. وتسود الطمأنينة فى ظل الحدائق والغناه.

واستيقظ من أحلامه على صوت قمر وهى تنهى سكينة فى غضبة داهمة. أنصت متعجباً ثم نادى زوجته، وسرعان ما فتح الباب وجاءت قمر وهى تدفع الجارية أمامها وتقول:

- انظر إلى هذه المرأة! ولدت فى بيتنا كما ولدت أمها من قبل، ولا تتعرف عن التجسس علينا!

فنظر إلى سكينة بإنكار حتى هتفت بصوتها النحاسى:

- لست خائنة يا سيدى ولكن سى لا ترحم!

وقالت قمر وفي عينيها فزع أخفقت فى مداراته:

- رأيتها تبسم وتقول لي: «سيجي العبد القادر إن شاء الله وسيدى قاسم سيد الحرارة كلها كما كان جبل فى حى حمدان». . سلها عما تعنى بذلك؟

وقطب قاسم مهتماً، وسألها:

- ماذا تعنين يا سكينة؟

فقالت الجارية بجرأة غير غريبة عليها:

- أعني ما قلت. لست خادمة كالخدمات، أعمل اليوم هنا وغداً هناك. إنى رببة هذا البيت، وما كان يجوز أن يخفى عنى سر.

فتتبادل الرجل نظرة سريعة مع زوجته، وأشار إلى الطفلة فجاءت وتلقتها منه، وأمر الجارية أن تخلس فجلست عند قدميه وهى تقول:

- أىچع أن يعلم بسرك غرباء عن البيت وأظل أجهله أنا؟!

- أى سر نقصددين؟

فقالت الجارية بنفس الجرأة:

- حدث قنديل إليك عند صخرة هندا!

ندت عن قمر آهة، ولكن قاسم أشار إلى الجارية أن تستمر
قالت:

- كما حدث بجبل ورفاعة من قبل، لست دونهما يا سيدى. أنت
سيد، حتى على عهد الرعى كنت سيداً، وكنت الوسيط الذى
جمع بينكما، إلا تذكر؟ كان يجب أن أعلم قبل الآخرين، كيف
تأمين الغرباء ولا تأمن جاريتك؟ سامحكما الله، لكنى أدعوك
بالنصر، نعم أدعوك بالنصر على الناظر والفتوات، من ذا الذى
لا يدعوك بذلك؟!

فصاحت قمر وهي تهدهد الطفلة بحركة عصبية:

- ما كان يجوز أن تتجسس علينا، وسيظل العيب لا صقاً بذقتك.
قالت سكينة في حرارة صادقة:

- لم أقصد التجسس وربى شهيد، ولكن نفذ إلى من الباب كلام لم
يسعني إلا متابعته، وما كان في وسع إنسان أن يغلق أذنيه دونه، إن
ما يقطع قلبي يا ستي هو أنك لا تطمئنين إلى، لست خائنة، أنت
آخر من أخون، ولحساب من أخونك؟ سامحك الله يا ستي.
كان قاسم يتفحصها بعناية، بعينيه وبقلبه، فلما انتهت قال بهدوء:
- أنت مخلصة يا سكينة، لا شك في إخلاصك.

فحذجته بنظرة مستطلعة مؤملة، وتمتنع:

- عشت يا سيدى، أنا والله كذلك.

قال بصوت خفيض:

- أنا أعرف المخلصين، ولن تنتخب الخيانة في بيتي كما نبنت في بيته
أخرى رفاعة. يا قمر.. هذه المرأة مخلصة مثلك فلا تسيئ إليها
بالظن، هي منا كما نحن منها، ولن أنسى أنها كانت رسول
السعادة إلى..

قالت قمر بصوت نم عن بعض الارتفاع:

- لكنها استرقت السمع !

فقال قاسم باسماً :

- لم تسترق السمع ، ولكن الصوت نفذ إليها بمشيئة المولى ، كما سمع رفاعة صوت جده دون تدبير منه . مباركة أنت يا سكينة !

فخطفت الجارية يده وانهالت عليها اللثماً وتقبلاً وهي تقول :

- روحى فداوك يا سيدى ، والله لتنصرن على أعدائك وأعدائنا حتى تسود الحرارة كلها .

- ليست السيادة مطلباً يا سكينة !

فبسطت يديها داعية :

- اللهم حق مطالبه !

- آمين ..

ثم نظر إليها باسماً وهو يقول :

- وستكونين رسولى إذا احتجت إلى رسول ، وبذلك تشتريken في عملنا !

فنهل وجه المرأة بشراً ، ونطقت عيناه بالعزءة ، فأردف قائلاً :

- إذا أذنت الأقدار بأن يوزع الوقف كما نريد فلن تحرم منه امرأة ، سيدة كانت أم خادمة !

عقدت الدهشة لسان المرأة ، فعاد يقول :

- قال الواقف إن الوقف للجميع ، وأنت يا سكينة حفيدة الواقف مثل قمر سواء بسواء .

واكتسى وجه المرأة بالبهجة ورنت إلى سيدها بامتنان . وترامت من الحرارة أنغام مزمار راقصة . وصاح صالح : «الهبيطة .. ألف مرة». فتحول قاسم نحو الطريق فرأى موكب الفتوات وهم يخطرون على

الجیاد المزينة ، والناس تستقبلهم بالهتاف والإتاوات ، ثم مضوا نحو
الخلاء ليتنافسوا كعادتهم في الأعياد في مضمار السباق والتحطيب ..
وما إن اختفى موكبهم حتى ظهر عجمة في الحارة وهو يترنح سكرا .
ابتسם قاسم لدى ظهور الشاب الذي يعد من أصدق شباب النادي ،
وتتابعه بعينيه حتى وقف في مركز الوسط من حى الجراكibus وصاح :
- أنا جدع ..

فهبط عليه صوت ساخر من أول ربع في حى آل رفاعة قائلاً :
- يازين الجراكibus !

فرفع عجمة نحو النافذة عينين حمراوين وصاح بصوت مخمور :
- جاء دورنا يا غجراء

والتف حوله غلمان وسكارى ومساطيل فى ضجة عالية من الغناء
والزغاريد والطلب والزمر ، وإذا بصوت يصيح :
- اسمعوا .. جاء دور الجراكibus .. ألا تريدون أن تسمعوا؟!
فهتف عجمة وهو يترنح :

- جد واحد للجميع ، وقف واحد للجميع . والسلام على الفتونة .
ثم غاب في الزحام . وسرعان ما وثب قاسم واقفاً فتناول عباءته ،
وغادر الحجرة مسرعاً وهو يقول :
- الله يلعن الخمرة وزمانها !

- تجنبوا الظهور بين الناس وأنتم سكارى .
قال قاسم ذلك جاداً مقطباً وهو جالس تحت صخرة هند يقلب عينيه

في وجوه أصحابه المقربين من أعضاء النادي: صادق وحسن وعجمة
وشعبان وأبو فصادة وحمروش. كان الجبل يلوح من ورائهم شامخاً
وهو يتلقى طلائع الليل الهاشطة، ولم يكن في الخلاء إلا راعي غنم يقف
معتمداً على عصاه في أقصى الجنوب. ويداً عجمة مطرقاً أسيفاً وهو
يقول:

- ليتني مت قبل ذلك.

فقال قاسم في فتور:

- من الأخطاء ما لا يجدي معه الاعتذار، المهم عندي الآن أن أعرف
مدى أثر هذيانك في أعدائنا!

قال صادق:

- من المؤكد أنه سمع على نطاق واسع.

وقال حسن متوجهما:

- لمست ذلك بنفسي في قهوة جبل حيث دعاني صديق من آل جبل
إلى مجالسته، فسمعت رجلاً يحكى بصوت مرتفع ما كان من أمر
عجمة. أجل كان يحكى وهو يضحك هازئاً، ولكنني لا أستبعد
أن تشير حكايته ريبة في بعض التفوس، كما أخشى انتقالها من فم
إلى فم حتى تبلغ أحد الفتوات.

فقال عجمة متنهداً:

- لا تبالغ يا حسن.

قال صادق:

- المبالغة خير من التهاؤن وإنما أخذنا من حيث لا نتوقع!

فقال عجمة:

- أقسمنا ألا نخاف الموت!

قال صادق محتداً:

- كما أقسمنا أن نحفظ السر!

فقال قاسم:

- وإذا هلكنا اليوم تبددت الآمال الكبار.

واشتد الوجوم مع الظلام الزاحف حتى عاد قاسم إلى الكلام فائلاً:

- ينبغي أن تتدبر الأمر.

فقال حسن:

- فلنذهب أمنا على افتراض أسوأ الاحتمالات.

فقال قاسم بصوت كثيف:

- هذا معناه القتال.

وتحركت الرؤوس تتبادل النظرات في الظلام، ومن فوقها انشقت النجوم تباعاً، وهب هواء يطوى في تضاعيفه بقايا من حر النهار كالنوايا السبعة. ثم قال حمروش:

- سنقاتل حتى الموت.

فقال قاسم متعضاً:

- ويستمر الحال كما كان!

فقال صادق:

- ما أسرع ما يقضون علينا!

فقال أبو فصادة مخاطباً قاسم:

- من حسن الحظ أن هناك أسباب قربى تجمع بينك وبين سوارس، كما تجمع بين حرمك وحرم الناظر، وفضلاً عن هذا وذاك كان لهيبة من أصدقاء أبيك في شبابه.

فقال قاسم بفتور:

- ربما أجل هذا القضاء، ولكنه لن يمنع وقوعه.

فـسـأـل صـادـق بـرـجـاءـ :

- ألا تذكر أنك فكرت يوماً في الالتجاء إلى محام شرعى؟
- وقيل لنا إنه لن يجرؤ محام على تحدي الناظر والفتوات.

فقال عجرمة محاولاً التخفف من ذنبه :

- هناك محام فى بيت القاضى معروف بالجرأة.

ولكن صادق عاد يقول متراجعاً :

- أخـشـىـ ماـ أـخـشـاهـ أـنـ نـجـهـرـ بـالـعـدـاـوـةـ عـنـ طـرـيـقـ الـقـضـيـةـ وـتـكـونـ مـخـاـوـفـاـ مـنـ عـوـاقـبـ كـلـامـ عـجـرـمـةـ سـابـقـةـ لـأـوـانـهـ.

فقال عجرمة :

- فـلـنـشـاـورـ الـمـحـاـمـىـ فـىـ الـأـمـرـ ،ـ وـلـتـفـقـ مـعـهـ عـلـىـ تـأـجـيلـ رـفـعـ الـدـعـوىـ حـتـىـ تـدـفـعـنـاـ الـضـرـورـةـ إـلـىـ ذـلـكـ ،ـ وـسـنـجـدـ مـنـ يـوـالـيـهـاـ مـاـنـ وـلـوـ مـنـ خـارـجـ الـحـارـةـ .ـ

ووافق قاسم والآخرون على هذا الرأى كإجراء احتياطى . وقاموا من فورهم فذهبوا إلى مكتب الشنايفيرى المحامى الشرعى ببيت القاضى . وقابلهم الشيخ فشرح له قاسم قضيتهم ، وأخبره عن نيتهم فى تأجيل رفع الدعوى إلى حين ، على أن يستعد هو للأمر بدراسة الموضوع والتأهب لاتخاذ الإجراءات كافة . وعلى خلاف ظن أكثرهم قبل المحامى القضية ، وبغض مقدم الاتهام ، فانصرفوا من لدنها مغبطين . وتفرقوا ، فعاد الصحاب إلى الحارة ومضى قاسم إلى المعلم يحيى . وجالسه فى دهليز الكوخ يدخنان ويتبادلان الرأى . وبدا المعلم آسفاً على ما وقع ووصى قاسم باليقظة والحذر .

وعاد قاسم بعد ذلك إلى داره ، ولما فتحت له قبر رأى فى وجهها ما أزعجه فسألها عما وراءها فقالت :

- أرسل حضره الناظر فى طلبك !

فخفق قلب قاسم، وتساءل:

- متى؟

- آخر مرة منذ عشر دقائق!

- آخر مرة؟!

- أرسل إليك ثلاث مرات في ظرف ساعة.

واغرورقت عيناهما وهي تتكلم، فقال:

- ليس هذا ما أنتظره منك.

فانتجحت قائلة:

- لا تذهب.

قال وهو يظاهر بالهدوء:

- الذهاب آمن من التخلف، ولا تنسى أن هؤلاء اللصوص لا يعتدون على أحد في بيوتهم.

وبكت إحسان في الداخل فهرعت إليها سكينة، وقالت قمر:

- أجل ذهابك حتى أقابل أمينة هامن.

قال بحزن:

- هذا لا يليق بنا. سأذهب من فوري، ولا داعي للخوف فلا أحد منهم يعرف عنى شيئاً.

فتثبتت به قائلة:

- دعاك أنت لا عجرمة، أخشى أن يكون بعضهم قد وشى بك.

فتخلى منها برفق وهو يقول:

- قلت لك منذ اللحظة الأولى إن أيام الراحة ولت، وجميعنا يعلم بأننا سنواجه الشر عاجلاً أو آجلاً، فلا تخزع عن هذا، وأبقى بخير حتى أرجع.

عاد الباب من داخل بيت الناظر وقال لقاسم في فنور وجفاء:
- ادخل.

ومضى أمامه فتبعد قاسم باذلاً جهده للسيطرة على مشاعره، وسطعته رائحة الحديقة الزكية دون أن يلتفت إليها حتى وجد نفسه أمام مدخل البهو. وتنحى الباب عن طريقه فدخل ثابت الجنان بدرجة لم يكتشفها في نفسه من قبل. ونظر أمامه فرأى في أقصى البهو الناظر جالساً على ديوان، وكان هناك شخصان، يجلس أحدهما على مقعد إلى بين الناظر والأخر إلى يساره، لكنه لم يتبعيهما أو يعني بالالتفات إلى أحدهما، واقترب من مجلس الناظر حتى وقف على بعد أذرع منه، فرفع يده بالتحية وقال بأدب:
- مساء الخير يا حضرة الناظر.

ولمح دون قصد الجالس إلى يمينه فإذا به لهيطة، ولحظ الآخر لكن عينيه حملقنا فيه بلاوعي منه، وتلقى صدمة كادت أن تهيضه. لم يكن الرجل إلا الشيخ الشنايفري المحامي الشرعي! أدرك خطورة الموقف، إن سره انكشف، إن المحامي النذل خان الأمانة، وإن وقع التهم في قلبه اليأس بالغليظ والغضب. وعرف أنه لن ينجيه المكر أو الدهاء فصم على الصمود والتحدي. ولم يكن في الوسع أن يتراجع خطوة فكان عليه أن يتقدم أو يثبت على الأقل. وقد ذكر موقفه هذا فيما تابع من أيام، وكان يؤرخ به مولد شخص جديد في ذاته لم يكن يتصور وجوده. وانتزعه من دوامته صوت الناظر الجاف وهو يتساءل:

- أنت قاسم؟

فأجاب بصوت طبيعي:

- نعم يا سيدى!

فسأله دون أن يأذن له بالجلوس:

- هل أدهشك وجود الأستاذ؟

فأجاب بنفس النبرة:

- كلا يا سيدى.

فتساءل بازدراء:

- أأنت راعى الغنم؟

- انقطعت عن رعى الغنم منذ أكثر من عامين.

- وماذا تعمل الآن؟

- وكيلًا لزوجتى فى أملاكها.

فندت عن الناظر هزة رأس ساخرة، ثم أشار إلى المحامى آذنًا له بالكلام فقال الشيخ مخاطبًا قاسم:

- لعلك تعجب من موقفى باعتبارى محاميك، ولكن لحضرتة الناظر مكانة تعلو على هذه الاعتبارات جميـعاً. وسيفسح تصرفى لك مجالاً للتبوية وهو خير من التورط فى عداوة كانت ستؤدى بك إلى الهلاك. وقد آذن لي حضرتة الناظر فى أن أخبرك بأننى تشفعت لك عنده بالعفو إذا أعلنت التبوية، فأرجو أن تقدر حسن نيتى، وهـاك مقدم الأتعاب أرده إليك.

فرمـقه قاسم بنظرـة قاسـية وتسـاءل:

- لماذا لم تـصحـنى بالحق وأـتاـتـ فى مـكتـبـكـ؟

فأخذ المحامى بجرأـتهـ، ولكن الناظر أسعـفـهـ بـقولـهـ:

- أنت هنا لتسأل لا لتسأل!

ونهض المحامي مستأذناً بالانصراف، ثم مضى وهو يحبك جبته مداراة لارتكابك. وعند ذلك تفحص الناظر قاسم بنظرة قاسية وقال بنبرة كالسب:

- كيف سولت لك نفسك الشروع في رفع دعوى على؟

ووجد نفسه محاصراً، فإما القتال وإما القتل، ولكنه لم يدر ماذا يقول؟ فقال الآخر:

- انطق، خبرني عما وراءك، هل أنت مجنون؟

فقال قاسم في وجوم:

- أنا عاقل بحمد الله.

- لا يبدو هذا مؤكداً، لماذا أقدمت على فعلتك المنكرة؟ لم تعد فقيراً مذر رضيتك المجنونة زوجاً لها، فماذا أردت من فعلتك؟

فزمجر قاسم كأنما ليأمن الغضب وقال:

- لا أريد شيئاً لنفسي.

فنظر الناظر نحو لهبطة كأنما يشهده على غرائب ما يسمع، ثم أعاد عينيه إلى قاسم فيما يشبه الثورة، وصاح:

- إذن لماذا فعلت ما فعلت؟!

فأجاب قاسم:

- ما أردت إلا العدل.

فضيق الرجل عينيه في حقد وتساءل:

- أتحسب أن علاقة زوجتك بالهامن قادرة على حمايتها؟

فغض بصره وهو يقول:

- كلا يا سيدى.

- هل أنت فتوة قادر على تحدي فتوات الحرارة جميعاً؟

- كلا يا سيدى .

فصرخ الرجل :

- قل إنك مجنون وأرحنى .

- أنا عاقل والحمد لله .

- لماذا شرعت فى رفع دعوى على؟

- أردت العدل .

- لمن؟

فارتسم التفكير فى عينيه وهو يقول :

- للجميع .

فتفرس فى وجهه مرتباً فى عقله ، وتساءل :

- وما شأنك أنت؟

فقال قاسم وكأنه ثمل بشجاعته :

- بذلك تتحقق شروط الواقف !

فصرخ الناظر :

- أنت يا جريوع تتكلم عن شروط الواقف؟!

فقال قاسم بهدوء :

- إنه جدنا جميعاً .

فهم الناظر واقفاً فى غضب وهو يشعر منشته على وجه قاسم
بأقصى قوته وصاحت :

- جدنا؟! ليس فيكم من يعرف أباء ، ولكنكم تقولون بكل وقاحة
جدنا ، يا الصوص يا جرابيع يا سفلة ، إنما تتمادى فى وقاحتكم
استناداً إلى حماية هذا البيت لك وزوجتك ، ولكن كلب البيت
يفقد حمايته إذا عض يد المحسنين إليه .

- ووقف لهيطة ليسكن من ثورة الناظر فقال :
- عد إلى مجلسك مطمئنا فلا يصح أن تقدر صفوك ذبابة.
- فجلس رفت وشفتاه ترتعشان من الغضب ، وصاح :
- حتى الجرایع يطمعون في الوقف ويقولون بكل وقاحة جدنا .
- وعاد لهيطة إلى مجلسه وهو يقول :
- الظاهر أن ما تناقله الناس عن الجرایع صحيح ، ومن سوء حظ حارتنا أنهم يسعون إلى الهلاك بأقدامهم .
- والنفت إلى قاسم وقال :
- كان أبوك من أعنوانى الأوائل فلا ترغمنى على قتلك .
- فصاح الناظر :
- إنه يستحق ما هو أفعى من القتل جزاء فعلته ، ولو لا الهاشم لكان الساعة في الهالكين !
- وواصل لهيطة استجواب قاسم قائلاً :
- أصغ إلى يابني ، وخبرنى عنمن وراءك ؟
- فتساءل قاسم وهو ما زال يستشعر الألم عند موقع المنشة من وجهه :
- من تقصد يا سيدى ؟
- من دفعك إلى رفع الدعوى ؟
- لا أحد سوى نفسي .
- كنت راعى غنم ثم ابتسم لك الحظ ، ففيما نطعم أكثر من ذلك ؟
- العدل ، العدل يا معلم .
- চচ্চর নাতের উপর দুঃখ পেয়ে বলে :
- العدل ؟! يا كلاب يا أراذل ، هذه الكلمة السر عندكم إذا اعتمتم النهب والسرقة .

ثم ملتفتا نحو لهيطة :

- قرره حتى يقرأ

فعاد لهيطة يقول بصوت تجمع في نبراته نذر الوعيد :

- خبرني عمن وراءك !

فقال قاسم بتحدى خفي :

- جدنا ..

- جدنا ؟!

- نعم ، اطلع على شروط وقفه وستعلم أنه هو الذي دفعني .

وهب رفعت واقفا مرة أخرى وهو يصيح :

- أبعده عن وجهي .. ارميه خارجا .

وقام لهيطة فأخذ قاسم من ذراعه ، ومضى به نحو الباب ، وشد على

ذراعه بقبضة من حديد تحملها الآخر متصررا ، ثم همس في أذنه :

- اعقل إكراما لنفسك ، ولا تضطرني إلى أن أشرب من دمك .

٧٩

دخل قاسم داره فوجد بها زكريا وعويس وحسن وصادق وعجمة
وشعبان وأبو فصادة وحمرؤش . تطلعوا إليه في إشفاق وصمت ، ولما
جلس إلى جانب زوجته قال عويس :

- ألم أنصحك ؟

فقالت قمر في عتاب :

- مهلا يا عمى حتى يستريح .

فهتف الرجل :

- شر المتابع ما تخيء صاحبها من نفسه!

وجعل زكرييا يتفحص وجه قاسم بعناية ثم قال :

- أهانوك يا ابن أخي ، إنني أعرفك كما أعرف نفسي ، ما كان أعناك عن هذا كله !

وقال عويس :

- لولا أمينة هامن ما رجعت إلينا سالما .

وقلب قاسم عينيه في وجوه صحبه وقال :

- خاننا المحامي اللثيم !

فتصلبت وجوههم ، وتبادلوا النظرات في اتزاع ، فسبقهم عويس إلى الكلام قائلاً :

- انقضوا بسلام ، وليرحمد كل منكم الله على نجاته .

وسأله حسن :

- ما قولك يا ابن عمى ؟

فتفكر قاسم قليلا ثم قال :

- لا أخفى عنكم أن الموت يتهدّدنا ، وأنني أُغنى من معاونتي من يشاء .

فقال زكرييا :

- فليتبه الأمر عند هذا الحد .

فقال قاسم بهدوء وتصميم :

- لن أتخلى عن الأمر مهما تكون العواقب ، ولن أكون دون جبل أو رفاعة برابجدي وأهل حارتنا .

فقام عويس غاضباً وغادر حجرة الجلوس وهو يقول :

- هذا الرجل مجنون، وكان الله في عونك يا بنت أخرى .
أما صادق فوثب إلى قاسم وقبل جبينه وهو يقول :
- رددت إلى روحى بما قلت .
وقال حسن متھمساً :
- الناس في حارتنا يقتلون بسبب مليم ، وبلا سبب ، فلماذا تخاف
الموت عندما تجده له سببا حقا؟ !
وارتفع صوت سوارس من الحارة منادياً زكريا فأطل الرجل من
النافذة ودعاه إلى الدخول ، وما لبث أن دخل الحجرة وجلس وهو
مقطب متوجه . ثم نظر إلى قاسم وقال :
- لم أكن أدرى أن في حينها فتوة سواي .
فقال زكريا مشفقاً :
- ليس الأمر كما قيل لك .
- ما قيل لي أدهى وأمر .
فقال زكريا متأوحاً :
- عبث الشيطان بعقول أولادنا .
فقال سوارس بجفاء :
-

أسمعنى لهيطة كلاماً ثقيلاً بسبب ابن أخيك ، كنت أحسبه فتى
عاقلاً ، فإذا بجنونه يفوق كل جنون . اسمعوا جيداً ، إذا تهاونت
معكم جاء لهيطة ليؤدبكم بنفسه ، ولكنني لن أسمح لأحد بأن
يعرض كرامتي للمهانة ، فالزموا حدودكم ، والويل لمن تحدثه نفسه
بالعناد .

وراح سوارس يرافق أغوان قاسم فلم يسمح لأحد منهم بالاقتراب
من بيته ، وفي سبيل ذلك أهان صادق ولهم أبو فصادة ، وطلب إلى

ذكر يا أن ينصح قاسم بالتزام داره حتى تنسى الزوبعة . ووْجَدْ قاسِمْ
نفسه سجينًا في بيته ، لا يزوره أحد سوى ابن عمه حسن . ولكن ما من
قوة تستطيع أن تسجن الأخبار في الحرارة . فقد تسللت إلى حبي رفاعة
وجبل همسات عما يضطرب في حرى الجرابيع ، عن دعوى كادت أن
ترفع على الناظر ، وعن مزاعم خاصة بالشروط العشرة ، بل عن اتصال
وقع بين قنديل خادم الجبلاوي وبين قاسم . وثارت التفوس بشتى
الافعالات ، وتطايرت التهم والسخريات . وقال حسن يوماً لقاسم :

ـ الحرارة تتهامس بالخبر ، وفي كل غرزة لا حديث إلا عنك .

فرفع قاسم إليه وجهًا غائماً بالهم والفكير كشأنه في الأيام الأخيرة
وقال :

ـ انقلبنا سجناء ، والأيام تمر بلا عمل .

فقالت قمر بإشفاق :

ـ لا يطالب مخلوق بما فوق طاقة البشر .

وقال حسن :

ـ إخواننا على أشد ما يكون من الحماس .

فسألَ قاسم :

ـ أحق أن آل جبل وآل رفاعة يرمونني بالكذب والجنون؟!

فضض حسن بصره متآملاً وقال :

ـ الجن أفسد الرجال !

فهزَّ قاسم رأسه في حيرة وتساءل :

ـ لماذا يكذبني آل جبل وآل رفاعة ومنهم من قابله الجبلاوي أو
حادته؟ لماذا يكذبونني وهم أولى الناس بتصديقي وتأييدي؟!

ـ إن داء حارتنا الجن ولذلك فهم ينافقون فتوانهم !

وارتفع من الطريق صوت سوارس كالخوار وهو يسب ويلعن فأطلت الأسرة من الشباك فرأوا سوارس ممسكا بتلابيب شعبان وهو يصرخ فيه :

- ماذا جاء بك هنا يا ابن الزانية؟

وعبئا حاول الشاب التخلص من قبضته ، وإذا بسوارس يقبض على عنقه بيسراه وينهال باليمني ضربا على وجهه ورأسه . غضب قاسم غضبا شديدا فتراجع عن الشباك وهرع نحو الباب غير مبال بتسلات قمر . وفي أقل من دقيقة كان يقف أمام سوارس ويقول له بحزم : وتصميم :

- اتركه يا معلم سوارس .

فلم يكفل الرجل عن تكبيل الضربات لفريسته وصاح بقاسim :

- احترم نفسك وإلا أبكىت عليك عدوك .

وقبض قاسم على يده الضاربة وشد عليها بقوه هاتفا بغضب :

- لن أدعك تقتله ، وافعل ما تشاء .

وترك سوارس شعبان فانهار على الأرض في غيبة ، وخطف مقطف تراب من فوق رأس امرأة عابرة وألبسه رأس قاسم . وهم حسن بالوثوب عليه لولا أن طوقه زكرييا بذراعه في الوقت المناسب الذي وصل فيه . ورفع قاسم المقطف عن رأسه فيما وجده كالختن وانسال التراب على رأسه وثوبه حتى غطاه ، وسرعان ما تحملته نوبة سعال . وصرخت قمر وصوتت سكينة ، وجاء عويس مهرولا ، وانطلق النساء والرجال والصغار من الأبواب نحو الموقعة فعلا اللعنة والضوضاء . وكان زكرييا يشد على ذراع ابنته حسن بكل قواه وينظر في عينيه الجاحظتين بتسل وتحذير . واقترب عويس من سوارس قائلا :

- امسح العيب في وجهي أنا يا معلم سوارس .

و هتف أكثر من صوت : « شفاعة لله يا معلم ! » .. حنى صرخ
سوارس قائلاً :

- هذا قريب وذاك شفيق ، وبين هذا وذاك ضاع سوارس وانقلب مرة
بعد ما كان فتوة !

فصاح زكريا :

- أستغفر الله يا معلم ، أنت سيدنا وناج رأسنا .

ومضى سوارس إلى القهوة ، فرفع رجال شعبان ، وراح حسن
ينفض التراب عن وجه قاسم وثوبه ، واستطاع المجتمعون - بعد اختفاء
سوارس - أن يعبروا عن أسفهم .

٨٠

وفي مساء ذلك اليوم ضج أحذ الربوع بحى الجرابيع بالصوات ينعي
ميتا . أطلقته حنجرة متهاكلة وسرعان ما رددته عشرات الحناجر فى
الربوع . وأطل قاسم من النافذة فسأل فطين بياع اللب فأجابه الرجل :
« تعيش أنت ، شعبان مات ! ». وغادر الرجل داره فزعًا فقصد ربع
شعبان على مبعدة ربعين من داره . وهنالك وجد الحوش مظلما ومكتظا
بسكان الشقق التحتانية الذين راحوا يتداولون كلمات الرثاء والحزن
والسخط ، على حين تجاویت دهاليز الأدوار الفوقانية بالصوات . وسمع
امرأة تقول بعنف :

- لم يمت ولكن قتله سوارس .

- إلهي يخرب بيتك يا سوارس !

فاعتبرضت ثلاثة تقول :

- ماقتهل إلا قاسم! يفترى الأكاذيب ورجالنا تقتل.

فانقبض قلب قاسم حزناً، وشق طريقه في الظلام حتى صعد إلى أول دور حيث توجد شقة القتيل. ورأى على ضوء سراج مثبت في حائط الدهلiz أمام الشقة أصحابه حسن وصادق وعجمة وأبو فصادة وحمروش وآخرين، فأقبل صادق نحوه وهو يبكي فعائقه دون أن ينبس. وقال حسن وقد بدا وجهه مروعاً تحت الضوء الشاحب:

- لن يذهب دمه هدرا.

واقتراب عجمة من قاسم وهمس في أذنه:

- زوجته في حالة سيئة حتى إنها حملتنا مقتله.

فهمس قاسم له:

- كان الله في عنانها.

وقال حسن في نبرة انتقامية:

- القاتل لا بد أن يقتل.

فقال أبو فصادة بغيط:

- من ذا الذي يشهد عليه في حارتنا؟

فقال حسن:

- لكننا نستطيع أن نقتل الآخرين.

فلكرزه قاسم ليسكته وقال:

- من الحكمة ألا تسيرا في جنازته ولكننا سنجتمع في القرافة.

وانجه قاسم نحو شقة الفقيد فاعتربه صادق ليمنعه ولكنه نحاه جانبها ودخل. ونادي زوجته فجاءت متعجبة تطالعه بعينين دامعتين، ثم تجررت نظراتها وسألته:

- ماذا تريدين؟

فقال بحزن:

- جئت أعزبك.

فقالت بحده:

- أنت قتله، ما كان أغنانا عن الوقف، وأحو جنا إليه هو.

فقال برقة:

- ربنا يصبرك، وبهلك المجرمين، ونحن أهلك كلما احتجت إلى
أهلك، ولن يضيع دمه.

رمقته شرّاً واستدارت راجعة. ويرجوعها انفجراً التواح والعويل،
فغادر المسكن كثيماً مفتماً.

وعندما طلع الصباح رأى الناس سوارس جالساً عند مدخل قهوة
دبخل يقلب في المارين وجهها مدموعاً بالتحدي والإجرام. وحياته الناس
مضاعفين له التودد مداراة لسخطهم. وتجنبوا الاشتراك في العزاء فلبثروا
في دكاكينهم أو وراء عرباتهم أو فوق التراب. وخرج النعش محمولاً
عند الضحى واقتصر الشيعة على الأهل والأقارب، ولكن قاسم
انضم إليهم غير مبال بنظرات الفتورة المحرقة. وغضب صهر القتيل فقال
لقاسم محظياً:

- تقتل القتيل وتتشمسي في جنازته؟!

فلاذ بالصمت والصبر حتى سأله آخر بخشونة:

- لماذا جئت؟

فقال بإصرار:

- لأقاتل كما قاتل صديقي - رحمه الله - كان شجاعاً، ولست كما
كان، وتعرفون القاتل وتصبون غضبكم علىّ.

فوجم أكثرهم. وتجمهرت النساء وراء الرجال، حافيات يهرونلن
بالسود، يحيثون التراب فوق رءوسهن ويلطممن الخدوود. واخترت
الجنازة الجمالية نحو باب النصر. ولما قت مراسم الدفن تفرق الشيعة

إلا قاسم، فقد تباطأ في السير حتى تخلف عنهم، ورجع إلى القبر فوجد أصحابه في الانتظار. وأغرورقت عيناه بالدموع فأجهشا جميعاً بالبكاء. وجفف عينيه براحته وقال:

- من يرد السلامة فليذهب.

فقال حمروش:

- لو كنا نريد السلامة ما وجدتنا حولك.

فقال وهو يطرح يده على شاهد القبر:

- عز على فقده. كان شجاعاً متحمساً، وذهب غدراً ونحن في أشد الحاجة إليه.

فقال صادق:

- قتله فتوة غادر، وسوف يبقى منا بعض ليشهدوا مصرع آخر فتوة في حارتنا.

فقال حمروش:

- ولكن لا ينبغي أن نضيع غدراً كما ضاع فقيتنا، فكرروا في الغد وكيف نحقق النصر؟! وكيف نجتمع لتبادل الرأي؟

فقال قاسم:

- لم يكن لي من أنيس في سجنى إلا التفكير في هذا، واهتديت إلى رأي، ليس باليسير ولكن لا محيد عنه.

فاستطلاعوه متسائلين فأردد:

- اهجروا حارتنا، فليذهب كل شأنه وليهاجر. سنهاجر كما هاجر جبل قدماً وكما هاجر المعلم يعني بالأمس، ولنقم نادينا في مكان آمن بالخلاء حتى يستند ساعدنا ويكثر عدتنا.

فهتف صادق:

-نعم الرأى .

-لن نظهر حارتنا من الفتونة إلا بالقوة ، ولن نحقق شروط الواقف
إلا بالقوة ، ولن يسود العدل والرحمة والسلام إلا بالقوة ،
وستكون قوتنا أول قوة عادلة غير بااغية .

استمعوا بقلوب واعية . وتطلعوا إلى قاسم ، وإلى القبر وراء ظهره ،
فحيل إليهم أن شعبان يشاركهم الاستماع ويباركه . وقال عجرمة
متاثراً :

-نعم فبالقوة تحمل المشاكل ، القوة العادلة غير البااغية ، كان شعبان
يقصدك عندما اعترضه سوارس . لو كنا معه لا اعترض الفتونة قوة لا
يسهل قهرها ، لعنة الله على الخوف والتفرق .

استروح قاسم لأول مرة نسمة ارتياح وابتهاج فقال :

-لقد وضع جدنا ثقته بين أيدينا وهو عن يقين يؤمن بأن في أبنائه من
هم أهل لحملها .

٨١

ورجع قاسم إلى بيته عند متصف الليل ، لكنه وجد قمر مستيقظة
تنتظره . وبالغت أكثر من عادتها في العناية به والحنون عليه ، وكان يؤله
بقاوها مستيقظة حتى تلك الساعة ، ثم تبين له ذبول في عينيها وأحمرار
يخلقه البكاء كما تخلف الشمس الشفق ، فتساءل في كآبة :

-هل كنت تبكين؟

لم تجبه كأنما شغلت عنه بكوب اللبن الدافئ الذي تعدد له ، فعاد
يقول :

- موت شعبان أحزننا جميعاً - رحمة الله .

فبادرته قائلة :

- بكىت على شعبان قبل ذلك ، لكتنى كنت أبكي كلما تذكرت اعتداء الرجل عليك ، أنت آخر رجل يستحق أن يهال التراب على رأسه وجهه .

فقال محزوناً :

- ما أخاف هذا بالقياس إلى ما أصاب صاحبنا المسكين !
فجلست إلى جانبه وهي تقدم له الكوب وتمتنع :
- وكم يضايقني ما يقال عنك .

فابتسم متظاهراً بالاستهانة ورفع الكوب إلى فيه ، فأردفت مغيبة :
- إن جلطة يؤكّد لآل جبل أنك طامع في الوقف لستأثر به وحدك ، وهكذا يقول حجاج في آل رفاعة ، ويشيعان عنك أنك تنتقص من جبل ورفاعه .

فقال دون أن يخفى ضيقه :

- أعرف ذلك ، كما أعرف أنه لو لاك لما كنت حتى اليوم حيا .
فربت كتفه بحنان . وإذا بها تتذكر الأيام الماضية لغير ما سبب . أيام لم تكن لأحاديثهما نهاية ولا لسعادتهما غاية . وأفراح الليالي المضيئة بعد مولد إحسان . هي اليوم لا تملك منه شيئاً ولا يملك هو من نفسه شيئاً . حتى آلام المرض التي تتتابها أحياناً تخفيها عنه . إنه لا يفكر في نفسه فكيف تشغله بنفسها ؟ وهي تخجل أن تُقل عليه حتى لا تعين أعداءه بغير قصد عليه . من ذا الذي يطمئنها عليه وأيام العمر تولى كما ولت أيام الراحة ؟ سامحك الله يا حارتنا . وعاد قاسم يقول :

- لا يغيب عن الأمل ولو في الظلام ، وما أكثر الأصدقاء الصادقين وإن بدت وحيداً تخدى أحدهم سوارس ، فمن كان يجرؤ على

ذلك من قبل، والآخرون مثله، والشجاعة أخطر ما يلزم حارتنا
كى لا تقضى العمر تحت الأقدام، فلا تنصحينى بالسلامة، إن
الذى قُتل، قُتل وهو فى طريقه إلى دارى، وأنت لا ترضين
لزوجك بذلة الجبن.

ابتسمت قمر وهى تسترد الكوب فارغاً، وقالت:
ـ إن زوجات الفتوات يزغرن عن المعارض وهى شر، فكيف أرضى
بأن أكون دونهن للخير؟

وادرك أن حزنها أخطر مما تبديه فربت خدها بحب وقال معزياً:
ـ أنت كل شيء لى فى دنیاى، أنت خير رفيق فى الحياة.
فابتسمت استدعاء للسکينة التي يجب أن تسقى النوم.

وعجب عم شنطح مبيض النحاس من اختفاء صادق، وكان سعى
إليه فى داره فلم يجد له ولا لأحد من ذويه أثراً. وعبد الفتاح الفسخانى
كذلك لم يجد لعامله عجرمة أثراً فى الحارة. ولم يعد أبو فصادة إلى
مقلى حمدون ولم ينذره بغيابه. وأين حمروش؟ قال حسونة الفران:
إنه اختفى كأن نيران الفرن التهمته. وأخرون ذهبوا بلا عودة. وانتشر
الخبر فى حى الجراكيع وامتدت منه أصدائء إلى بقية الحارة حتى قال الناس
فى حى جبل ورفاعة هازئين: إن الجراكيع يهاجرون وإن سوراس لن
يجد مع الأيام من يحصل منه الإناثة. واستدعي سوراس زكريا إلى
قهوة دنجعل وقال له منذراً:

ـ ابن أخيك خير من يدلنا على سر الهاريين.
فقال زكريا:

ـ يا معلم سوراس لا تظلمه، مضت أيام وأسابيع وأشهر والرجل لا
يغادر داره.

فقال الفتاة مزمجراً:

- الأعيب أطفال، لكنني استدعوك لأحذرك عما قد يصيب ابن أخيك.

- قاسم من دمك، ولا تُشمّت بنا العدو!

- هو عدو نفسه وعدوى، إنه يتوهّم نفسه جبل هذا الزمان، وهذه اللعنة هي أقرب سبيل إلى باب النصر.

فقال زكريا في جزع:

- حلمك يا معلم سوارس، نحن جميعاً في حمايتك!

ولما رجع زكريا إلى مسكنه صادف حسن راجعاً من بيت قاسم فأفرغ فيه الحنق الذي ملأه به سوارس، غير أن حسن قاطعه قائلاً:

- صبرك يا أبي، قمر مريضه، مريضه جداً يا أبي.

وعلمت الحارة بمرض قمر حتى بيت الناظر. ولازمها قاسم وهو في غاية من الكآبة والحزن. وكان يهز رأسه في حيرة ويقول:

- في لحظة واحدة ترقددين بلا حول!

فقالت المرأة بصوت ضعيف:

- كنت أخفي عنك حالى رحمة بقلبك المثقل بالتأعب.

فقال في حزن شديد:

- كان ينبغي أن أشاركك آلامك من أول الأمر.

فانفرجت شفاتها الشاحبتان عن ابتسامة كالزهرة الذابلة في عود ناضب، وقالت:

- ستعود الصحة إلى سابق عهدها.

بذلك دعا قلبه. لكن ما هذا الغيم يغشى العين؟ وما هذا الجفاف يسرى في الوجه؟ وما تلك القدرة على إخفاء الألم؟ ذلك كله من أجلك أنت. يا إلهي احفظها برحمةك. وأبقها إلى ، واعطف على بكاء الطفلة الذي لا ينقطع !

- سماحك معى جعلنى لا أسامع نفسي .

فابتسمت مرة أخرى فيما يشبه العتاب . وجيء بأم سالم لتخبرها ، وأم عطية لتعذر لها بعض المعاجين ، وإبراهيم الخلاق ليحجنها ، ولكن أم إحسان استعصت فيما بدا على الشفاء . وقال لها قاسم :

- وددت لو أفتديك من الملك .

فأجابت بصوت واهن كالصمت :

- لا أصابك سوء .

ثم مردفة :

- يا أحب الناس إلى قلبي .

وقال لنفسه : «لنظرها تسود الدنيا في عيني !» ، وقالت هي :

- العاقل مثلك آخر من يعز عليه العزاء .

وجاء زائرون وزائرات ، ولكنها ضاقت بالمكان ففر إلى سطح البيت . كانت أصوات النساء ترتفع من نوافذ الربوع ، واللعنة تختلط بنداءات الباعة في الطريق ، وبكاء طفل حسبي لأول وهلة صوت إحسان حتى رأى صاحبه وهو يتعرج في تراب سطح مجاور . وكان الظلام يهبط وثيدا ، وسرب من الحمام يعود إلى برجه ، وبجمة وحيدة تومنض في الأفق . وتساءل عن معنى النظرة الغربية التي تلوح في عيني قمر ، كأنها لا ترى ، وعن اهتزازات جانب فمها غير الإرادية ، وعن الزرقة التي تصبغ شفتيها ، وعن شعوره البالغ بالانقباض . ولبث ساعات ثم نزل ، فقابل سكينة في الصالة حاملة إحسان بين يديها فقالت له همسا :

- ادخل على مهل كيلا توقفتها .

واستلقى على الكتبة المواجهة للفراش في ضوء خافت ينبعث من مصباح فوق أرضية الشباك . ولم يكن ثمة صوت في الحي إلا نوح الباب ، ثم تلاه طاطا الشاعر قائلًا : «فقال الجد بهدوه :

-رأيت أن أعطيك فرصة لم تتح لأحد من في الخارج، وهي أن
تعيش في هذا البيت، وأن تتزوج به، وأن تبدأ حياة جديدة فيه.
فتتابعت دقات قلب همام في نشوة من الأفراح، وقال:
- الشكر لك على نعمتك.
- إنك تستحقها.

واختل菊 نظر الشاب بين جده وبين السجادة، ثم تساءل في إشفاق:
- وأسرتني؟
فقال الجبلاوي في عتاب:
- قلت ما أريد بوضوح.
فقال همام باستعطاف:
- إنهم يستحقون رحمتك وعفوك».

وندت عن النائمة حركة لا تخلو من عنف فوثب من فوق الكبة
إليها. رأى في عينيها بريقاً جديداً حل محل الغيم، فسألها عما بها
فهتفت بصوت قوي:
- إحسان! أين إحسان؟!

غادر الحجرة مسرعاً، ثم عاد وفيه أثر سكينة حاملة الصغيرة
النائمة. وأشارت قمر نحو إحسان فقربتها سكينة إليها حتى لثمت
خدتها، على حين جلس قاسم على حافة الفراش. ومالت عيناهما إليه،
ثم همست:
- ما بي أعظم!
فمال نحوها متتسائلاً:
- ماذا تعنين؟
- آملتك كثيراً ولكن ما بي أعظم.

فغض شفته ثم قال :

- قمر، أنا حزين لأنني عاجز عن تخفيف ألمك !

فقالت بإشفاق :

- أخاف عليك من بعدي.

فقال في حزن شديد :

- لا تتحدى عنـي .

- قاسم، ارحل ، الحق بأصحابك ، سيفنونك إن بقيت .

- نرحل معا.

فقالت بمشقة :

- ليس الطريق واحدا.

- لا تريدين أن ترحميني كما عودتنى .

- آه، كان ذلك في الأيام الماضية !

وبدت كأنها تقاوم ضغطا شديدا فلوحـت بيـدهـا . واشتـدـ مـيلـهـ نحوـهاـ حتىـ اـمـتـلـأـ بـأـنـفـاسـهـاـ . وـتـلـوـتـ ، وـامـتـدـتـ رـقـبـتـهاـ كـالـسـتـغـيـثـةـ ، وـانـطـلـقـ صـدـرـهـاـ فـيـ عـنـفـ ، وـزـفـرـ حـشـرـجـةـ فـاسـيـةـ ، فـصـاحـتـ سـكـيـنـةـ :

- أـجلـسـهـاـ ، تـرـيدـ أـنـ تـجـلـسـ .

فـأـحـاطـهـاـ بـذـرـاعـيهـ لـيـجـلـسـهـاـ وـلـكـنـ نـدـتـ عـنـهـاـ شـهـقـةـ كـأـنـهـاـ وـداعـ أـبـكـمـ ، وـانـهـارـ رـأـسـهـاـ عـلـىـ صـدـرـهـ . وـهـرـولـتـ سـكـيـنـةـ بـالـطـفـلـةـ إـلـىـ الـخـارـجـ . وـمـنـ الـخـارـجـ دـوـيـ صـوـاتـهـ يـمـزـقـ الصـمـتـ .

وفي الصباح ازدحم بيت قاسم والطريق أمامه بالمعزين. إن لصلات القربي في الحارة احتراماً متأصلةً لا تخظى بجزء منه شتى الفضائل مجتمعة. فلم يكن بد من أن يجيء سوارس معزيماً، وما أسرع أن أقبل وراءه الجرایع. ولم يكن بد من أن يجيء الناظر رفعت معزيماً فتبعده على الأثر لهيطة وجلطة وحجاج، وما أسرع أن أقبل وراءهم كل من هب ودب، فانتظمت الجنائز جموعاً غفيرة لم تشهد لها الحارة مثيلاً من قبل إلا في جنائزات الفتوات. وتخلى قاسم ببصر الرجل الحكيم على رغم آلامه الدفينة. وحتى في ساعة الدفن بكت جميع حواسه وجوارحه إلا عينيه. وانصرف المعزون حتى لم يبق في المدفن إلا قاسم وزكريا وعويس وحسن، وعند ذلك ربت زكريا عضد قاسم وقال بأسى:

-شد حيلك يا ابن أخي، كان الله في عننك.

فانحنى عوده قليلاً وهو يزفر من الأعمق، وغمغم:

-قلبي دفن في التراب يا عمى.

فتقلص وجه حسن تأثراً، وساد صمت المدفن كأشد ما يكون الصمت. وانقل زكريا خطوة وهو يقول:

-آن لنا أن نذهب.

لكن قاسم تثبت بموقفه وهو يقول في استحياء:

-ما الذي جاء بهم؟

فقطن زكريا إلى من يعني بقوله فقال:

-لهم الشكر على أى حال.

فتشجع عويس قائلاً:

- أبداً معهم من جديد، فهذه الخطوة منهم تتطلب منك خطوات،
ومن حسن الحظ أن ما يقال عنك خارج حيناً لا يؤخذ مأخذ
الجد!

فأثر أن يغوص في الصمت والحزن على مجادلته. وإذا بجماعة تقبل
على رأسها صادق وكأنما كانوا يرصدون اختفاء المعزين. كانوا كثرة
وليس فيهم غريب فعائقوا قاسم حتى دمعت عيناه. وقلب عويس
عينيه فيهم بامتعاض ولكن أحدهما يأبه له، وقال صادق مخاطباً قاسم:
- لم يعد ثمة ما ييقيك في الحرارة.

لكن زكرياء قال معترضًا في حدة:

- ابته وداره وأملاكه هناك.

وقال قاسم بلهجة ذات مغزى:

- كان بقائي في الحرارة ضروريًا بفضله أزددتم مع الأيام عدداً!
ونظر إلى الوجوه المتلعلة إليه كأنما يستشهد بكثرتها على صدق
قوله. فأكثرهم من أغراهم بالهجرة واللحاق بأصحابه حينما كان ينسلي
من داره كل ليلة عقب نوم الحرارة فيقصد من يأنس فيهم مودة وحسن
استعداد للاتصال ب بكلامه. وسأله عجرمة:

- هل يطول بنا الانتظار؟

- حتى يتجمع عندكم عدد كاف.

وانتحى به صادق جانباً فقبله وهمس له:

- قلبى يتقطع حزناً لك ، فإنى أدرى الناس بقسوة فجيئك.
فعاوده التأثر ، وهمس :

- صدقت ، ما أقسى الألم !

ورمقه بإشراق ثم قال:

- عجل باللحاد بنا فإنك اليوم وحيد.

- كل شيء رهن بوقته.

وقال عويس بصوت مرتفع:

- ينبغي أن نعود.

وتعانق الصحاب مودعين، وعاد قاسم ورفاقه. ومضت الأيام وهو في داره وحيد كثيـب حتى خافت عليه سكينة عوـاقب الحـزن. ولكـنه واصل جولاته الليلـية الخـفـية بهـمة لا تـعـرـفـ الوـهـنـ. ومضـىـ عـدـدـ المـخـفـينـ فـيـ النـمـوـ وـأـخـذـ النـاسـ يـتـسـائـلـونـ حـيـارـيـ. وـاشـتـدـتـ السـخـرـيـةـ بـحـيـ الـجـرـاـبـ وـفـتـوـتـهـمـ فـيـ بـقـيـةـ الـحـارـةـ، وـقـالـواـ: إـنـ نـوـيـةـ سـوـارـسـ فـيـ الـهـرـبـ سـتـجـيـءـ الـيـوـمـ أـوـ غـدـاـ. وـقـالـ لـهـ عـمـهـ زـكـرـيـاـ ذـاتـ يـوـمـ مـحـذـراـ:

- هذه حال تدعـوـ إـلـىـ أـشـدـ القـلـقـ، وـتـخـشـىـ عـوـاقـبـهاـ.

ولـكـنـ لمـ يـكـنـ منـ الـانتـظـارـ بـدـ. وـكـانـ أـيـامـ مـلـيـنةـ بـالـعـمـلـ وـالـخـطـرـ، وـكـانـ إـحـسانـ الـبـسـمـةـ الـوـحـيدـةـ فـيـ وـجـهـ الـمـجـهمـ. وـكـانـ تـعـلـمـ الـوـقـوفـ مـعـتـمـدةـ عـلـىـ أـطـرـافـ الـمـقـاعـدـ ثـمـ تـنـطـلـعـ إـلـيـهـ بـوـجـهـاـ الصـافـيـ وـتـخـدـثـهـ بـلـغـةـ الـعـصـافـيرـ وـبـلـابـلـ. وـكـانـ يـنـعـمـ الـنـظـرـ فـيـ وـجـهـاـ بـحـانـ وـيـقـولـ لـنـفـسـهـ: سـتـكـونـ طـفـلـةـ جـمـيـلـةـ وـلـكـنـ الأـهـمـ عـنـدـيـ أـنـ تـكـونـ كـأـمـهـاـ طـيـةـ وـحـنـانـاـ. وـسـرـهـ أـنـ تـطـالـعـهـ بـعـيـنـيـهاـ السـوـدـاوـيـنـ فـيـ وـجـهـ قـمـرـ الـمـسـتـدـيرـ لـتـظـلـ رـمـزاـ باـقـياـ لـلـعـلـاقـةـ الـمـحـبـوـيـةـ التـىـ مـزـقـهـاـ الـدـهـرـ. وـتـرـىـ هـلـ يـتـدـبـهـ الـعـمـرـ حـتـىـ يـرـاهـاـ عـرـوـسـاـ فـيـ الـمـحـسـانـ أـوـ كـتـبـ عـلـيـهـاـ أـلـجـيـنـىـ مـنـ دـارـ مـوـلـدـهـ إـلـاـ أـلـيـمـ الـذـكـرـيـاتـ؟

ويـومـاـ طـرـقـ بـابـ الدـارـ طـارـقـ فـذـهـبـتـ سـكـيـنـةـ تـسـاءـلـ: مـنـ الـقـادـمـ؟

فـجـاءـهـ صـوـتـ يـافـعـ قـائـلاـ: .

- اـفـتـحـيـ يـاـ سـكـيـنـةـ.

فتحت الباب فرأة فتاة في الثانية عشرة أو تزيد، ملفوفة على غير المألوف في ملأة وعلى الوجه حجاب. دهشت سكينة وسألتها عما تريده، ولكنها سارعت إلى حجرة قاسم وهي تقول بلهوجة:

- مساء الخير يا عمى.

ونزعت النقاب فبدا وجه بدرى قمحى بديع القسمات، يقطر خفة، فقال قاسم متعجبًا:

- أهلاً بك، أجلسنى، أهلاً وسهلاً.

قالت وهي تجلس على حافة الكنبة:

- أنا بدرية، وأرسلنى إليك أخي صادق.

فقال قاسم باهتمام:

- صادق!

- نعم.

ورنا إليها مستطلعاً، ثم قال:

- ماذا دفعه إلى هذه المخاطرة؟

فقالت باهتمام زادها ملاحة:

- لا يمكن أن يعرفنى أحد في الملأة.

وادرك أن جسمها أكبر من سنها فهز رأسه كالمطمئن فأردفت في مزيد من الاهتمام:

- إنه يقول لك أن غادر الحارة فوراً، فإن لهيطة وجلطة وحجاج وسوارس تأمرها على قتلك الليلة.

قطب كالمزتعج على حين شهقت سكينة، وسألها:

- كيف علم بذلك؟

- أخبره المعلم يحيى.

- ولكن كيف عرف بمعنى ذلك؟
- أفسى سكران السر في حانة كان بها صديق للمعلم يحيى . هذا ما قاله أخي .

وجعل ينظر إليها صامتاً حتى قامت وأخذت تحبك الملاعة حول جسدها الغض ، فقام بدوره وهو يقول :
- أشكرك يا بدرية ، تخفي جيداً ، وبلغني تخيانى إلى أخبك ، واذهبى سلام .

فأسدلت النقاب على وجهها وتساءلت :
- ماذا أقول له؟

- خبريه بأننا سنلتقي قبل الصباح .
فصافحته ثم ذهبت .

٨٣

اصفرَّ وجه سكينة ونطق بعينيها الذعر ، وهتفت قائلة :
- فلنغادر البيت دون إبطاء .
وتوثبت للتحرك فقال لها :
- لفَّي إحسان وأخفِّيها في شملتك وآخر جي كأنك ذاتبة لبعض شأنك ثم اقصدى مدفن المرحومة وانتظرى هنالك .
- وأنت يا سيدى؟!
- سألحق بك في الوقت المناسب .
فترددت عيناها بين الحيرة والجزع فقال بنبرة مطمئنة :

- سيدھب بكمما حسن إلى المكان الذى سنقيم فيه .
وفي ثوان تأهبت للرحيل فلثم إحسان مرات ، ثم قالت له المرأة وهي تمضى نحو الباب :

. استودعتك الحى الذى لا يموت .

ووقف وراء المخصص يراقب الطريق فرأى الجارية وهى تسير نحو الجمالية حتى غيبها المنعطف . وجعل قلبها يخفق وهو يرثى إلى ثانية ذراعها حول الحمل الشمين . وأجال بصره فى الحى فرأى رجالاً من أعون الفتوات ، بعضهم يجلس بقهوة دنجول والبعض يتسلك هنا وهناك ، وتقاد معالهم تذوب في الظلام الزاحف . الدلالات تقطع بأنهم يتآهبون . ولكن هل يتربصون به حتى يخرج لجولته الليلية إن كان سرّها انكشف لهم ؟ أو سيطبقون على داره في آخر الليل ؟ إنهم يتشارون منذ الآن على سبيل الحيطة أن يكون سر مؤامرتهم انكشف . وها هم أولاء يديرون في الظلام كالحشرات تفوح من أنفاسهم رائحة الجريمة ، فهل يلقى مصير جبل أو مصير رفاعة ؟ هكذا وجد رفاعة نفسه في ليلة من الليالي المظلمة . وتواري في داره بقلب مفعم بالنرايا الطيبة وأسفل الدار تدب أقدام غليظة تنضح جلود أصحابها بشهوة الدم . متى تكفين عن سفك الدماء يا حارتنا التعيسة ؟ ومضي يتمشى في الحجرة ذهاباً وجيئة حتى طرق الباب وترامى إليه صوت حسن وهو يناديه . وجاء حسن بجسمه الضخم وعيناه تعكسان نظرة قلقة ، فقال :

. في الحى حركة غريبة .. مريبة ..

فسؤاله دون اكتراض ظاهر للاحظته :

. هل عاد عمى من تجواله ؟

- كلا ، لكنني أقول إنه توجد في حيننا حركة مريبة ، انظر من شيش الشباك .

-رأيت ما أزعجك وعرفت ما وراءه. حذري صادق في الوقت المناسب بإرسال أخيته الصغيرة إلى، وإذا صدقت رسالته فالفتوات سيحاولون قتلني الليلة، لذلك هربت إحسان مع سكينة وهما يتظارانك في مدفن المرحومة، فاذهب إليهما وسيروا جميعاً إلى مقر إخواننا.

-وأنت؟

-سوف أهرب بدوري وألحق بكم.

فقال حسن بعزم:

-لن أتركك وحدك.

فقال برجاء لم يخل من استياء:

-افعل ما قلت لك دون تردد، سأهرب بالحيلة لا بالقوة، ولن تنفعني قوتكم إذا أبلغتنا الظروف إلى المقاومة، ولكن ذهابكم سيحمي ابنتي، ويمكنك أن تضع بعض رجالنا على رؤوس الطرق من الجمالية حتى الجبل لعلهم يهبون إلى مساعدتي إن احتجت لهم عند الهرب.

أذعن حسن لإرادته، فصافحه بقوه وقال:

-ليس كمثل عقلك شيء، فلعملك أعددت للأمر عدته.

فأجابه بابتسمة مطمئنة، وذهب حسن بوجه عابس. ولم يمض طويلاً وقت حتى جاء عم زكريا وهو يلهث، فأيقن أنه عائد من عند المعلم يعني بالخبر فبادره قائلاً:

-أرسل إلى صادق بالخبر.

فقال الرجل باضطراب ظاهر:

-علمت به منذ قليل لدى مرورى بالمعلم فخشيت ألا يكون بلغك.

فأجلسه قاسماً وهو يقول كالمعتذر:

- اعف عما أسبب لك من متابع .
- كنت أتوقع هذا من زمن ، ووجدت من سوارس تغيرا في المعاملة فرحت أكذب نفسي ، ورأيت اليوم الشياطين منتشرين كالجراد ، وأنت وحيد ويتذر عليك الهرب .
- فأشتد عوده في تصميم وهو يقول :
- سأحاول ، وإذا فشلت فهناك في الجبل رجال لا يغلبون .
- فقال زكريا في ضجر :
- ما قيمة هذا كله بالنسبة لحياتك أو طفلك !
- فقال قاسم معايناً :
- إنى أعجب كيف لم تكن على رأس أعوانى !
- فقال وكأنه لم يسمع قوله :
- تعال معى إلى سوارس نساومه ونتعهد له بما يشاء !
- فضحك قاسم ضحكة مقتضبة ، سخرت من اقتراح عمه دون كلام .
- والنفت زكريا إلى الشيش يطالع من خلاله الطريق فبدأ مظلما مخيفا .
- وانتبه على صوت قاسم وهو يتساءل :
- ـ لماذا اختاروا الليلة بالذات ؟
- فأجاب زكريا :
- أول أمس جهر رجل من جبل بأن قضيتك كانت لخير الجميع ، وقيل مثل ذلك عن رجل من رفاعة ، فلعل ذلك ما دفعهم إلى التعجيل .
- فنهل وجه قاسم وقال :
- أرأيت يا عمى ؟ أنا أعدو الناظر والفتوات ولكنني صديق حارتنا ، وسيعلم الجميع ذلك .
- فكرا الآن فيما يتظرك .

فقال قاسم باهتمام:

- إليك خطتي، سأهرب عبر الأسطح حتى يبتلك تاركاً مصباحي
مضاء للتضليل.

- قد يراك أحد.

- لن أشرع في الهرب حتى تخلو الأسطح من السماء.

- وإذا سبقو بالهجوم على دارك؟

- لن يقع هذا حتى تنام الحرارة.

- قد يبلغ بهم الاستهتار حداً لا تتصوره.

فقال باسمًا:

- في هذه الحال أموت، ومن ذا يدفع الأجل؟

فرفع الرجل إليه وجهها ينطق بالرجاء لكنه طالع ابتسامة هادئة ثابتة
أنها التصميم مجدًا فقال يائسًا:

- قد يفتشون داري.

- من حسن الحظ أنهم لا يعلمون بتسرب مؤامرتهم إلينا، ولذلك
أسبقوهم إلى الهرب إن شاء الله.

وبتادلاً نظرة طويلة، أفصح من الدمع، ثم تعاقباً. ولما وجد نفسه
وحيدًا تغلب على تأثره واقترب من النافذة يراقب الطريق. بدا الحين في
حياته المألفة. فالصغار يلعبون حول مصابيح العربات، والقهوة تجج
بالسماء، والأسطح تضج بأحاديث النساء؛ وسعال المدخنين يتخلله
الفحش والسباب، ونواح الرباب يرتفع، وهذا سوارس رايبض على
عتبة القهوة، ورسل الموت تحفل الأركان. يا سلالة الخيانة يا المصوّص
البشر. منذ أطلق إدريس ضحكته الباردة وأتّم تتوارثون الجريمة
ونغرقون الحرارة في بحر من الظلمات. ألم يتنّ للطير الحبيس أن ينطلق؟
ومضى الوقت وئيدًا ثقيلاً، ولكنه حمل ليل السماء إلى غايتها.

صمتت الأرض، وخلال الطريق من العربات والصغرى، وأقفرت المقاهى، وعلت إلى حين أصوات الأشباح العائدة، ورجم من الجمالية السكارى وهم يهلوسون، حتى الغرز أطفال المجامير، ولم يبق في الظلام إلا ندامى الموت. وقال لنفسه: «حان وقت العمل». وسارع إلى السلم فرقاه إلى السطح. ومضى إلى السور الفاصل بين سطحه والسطح الملائم فعبره دون عناء وهم بالجري وإذا بشبح يعترضه قائلاً: «قف»! فأدرك أن الأرض محتلة بالقتلة وأن حصاره أحكم مما قدر. واستدار ليرجع ولكن الآخر وثب نحوه وأحاطه بذراعين قويتين. واستدعي قوته التي ضاعفها الخوف وفاجأه بصرية في بطنه ففك حصار ذراعيه، وثنى بركلة في بطنه أيضاً فسقط وهو يشقق ثم لم يقم. وجاءت سعلة مكتومة من السطح الثالث أو الرابع جعلته يعدل عن التقدم فتراجع مضطرباً إلى سطحه. وقف عند السلم يتنصلق فسمع وقع أقدام صاعدة! وتكتل الصاعدون أمام باب شقته. وخطوا الباب خبطه شديدة فانفتح وهو يكاد يقتلع، ثم تدافعوا إلى الداخل. وهبط سرعاً دون أن يضيع ثانية حتى انتهى إلى الحوش. وسارع إلى الباب. ولمح خارج الدار شبحاً يتحرك فانقض عليه قابضاً على عنقه، ثم نطحه برأسه، وطعن بطنه برقبته، ودفعه فاستلقى على ظهره دون حراك. واندفع نحو الجمالية وضربيات قلبه تتلاحق. الآن تبين لهم خلو الدار، ولعل بعضهم يصعد إلى السطح ليغتصر على أصحابهم الملقى، ولعل الآخرين يهبطون في أعقابه. مر بربع عمه دون أن يتوقف، ولما اقترب من نهاية الحارة أطلق ساقيه. وعند اتصال الحارة بالجمالية وثب شبح في طريقه وصاح بصوت كالرعد لينبه الآخرين: «قف يا ابن اللثيصة». ورفع نبوته قبل أن يحيد قاسم عن طريقه. ولكن شبحاً آخر ظهر من زاوية المنعطف وضرب الشبح الأول بهراوته على رأسه فهو صارخاً، ثم قال لقاسمه:

- فلنجر بكل ما فينا من قوة .

وانطلق قاسم وحسن يجريان في الظلام دون مبالاة بما قد يعترضهما من حجر أو نقرة .

٨٤

عند مدخل حارة الوطاويط انضم صادق إليهما . وعند نهايتها وجدوا عجرمة وأبو فصادة وحمروش حول عربة كارو ذات أربع عجلات ، فاستقلوها مبادرين وانطلق الجرود بهم يلهب سوط الحوذى . انطلقت العربية بسرعة على رغم الظلام ، محدثة في سكون الليل صوتا مزعجا كالفرقة المتواصلة ، وهم يتلفتون إلى الوراء من خشية وتوجس . وقال صادق جلبا للطمأنينة :

- سيجرون نحو باب النصر ظنا بأنك تلوذ بالخلاء حول المقابر .

فقال قاسم بارتيا :

- لكنهم يعلمون أنكم لا تقيمون عند المقابر .

غير أن سرعة العربية بدت حاسمة ، وبفضلها غالب شعور بأنهم يتبعدون حقا عن الخطر . وعاد قاسم يقول في شيء من الارتباط :

- أحستم التنظيم والتدبير ، وشكرا لك يا صادق فلولا تحذيرك لكتلت الساعية في الهالكين .

فشد صادق على يده في صمت . وتواصل اندفاع العربية حتى لاح سوق المقطم على ضوء النجوم ، يلفه الظلام والوحشة عدا نور مصباح ينبعث من كوخ المعلم يحيى . وعن حذر أو قفوا العربية وسط الميدان ، ثم تركوها متوجهين نحو الكوخ . وما لبث أن جاءهم صوت المعلم متسائلا

عن القادمين فأجابه قاسم، فارتفع صوته مرة أخرى بالحمد. وتعانق
الرجلان عنقاً حاراً، وقال له قاسم:

-إنى مدين لك بالحياة.

فقال العجوز ضاحكاً:

-إنها المصادة وحدها! لكنها وقعت لتنفذ رجلاً هو أول من يستحق
الحياة، أسرعوا إلى الجبل، فالجبل خير حصن لكم.

وشد قاسم على يده، ونظر على ضوء المصبح إلى وجهه في موعدة
وامتنان، فعاد العجوز يقول:

-اليوم أنت كرفاعة أو كجبل، وسوف أعود إلى حارتنا عندما يقيض
لنك النصر.

ابتعدوا عن الكوخ شرقاً يوغلون في الخلاء نحو الجبل. وتقدمهم
صادق إذ كان أخبرهم بالطريق. وكانت ثمة رقة تمازج الظلام مبشرة
بالفجر. والسماء تقطر ندى رطيباً. وترامي من بعيد صياح الديكة
كصرخة المخاض لمولدي يوم جديد. وبلغوا السفح فساروا بحذائه نحو
الجنوب حتى عثروا على المر الضيق الذي يصعد إلى مقامهم الجديد
فوق الجبل. وصعدوا وراء صادق في طابور فرداً فرداً لضيق المشي.
وقال صادق لقاسم:

-أعدنا لك داراً وسط ديارنا، وفيها الآن تنام إحسان.

فقال عجرمة:

-بيوتنا من الصفائح والخيش.

فقال حسن في مرح:

-ليست أسوأ كثيراً من بيوتنا في الحرارة!

فقال قاسم:

-حسبنا ألا نجد بيتاً ناظراً أو فتوة.

و هبطت إليهم أصوات ف قال صادق :
- حارتنا الجديدة مستيقظة تنتظرك .

ورفعوا الرؤوس فرأوا خيوط الضياء الأولى تطارد فلول الظلام .
وصاح صادق بأعلى صوته : « هُوَ » فأطلت رؤوس رجال ونساء ،
ونعالى الهتاف والزغاريد ، وانطلقت الحناجر تنشد :

يا محنى ديل العصفورة

فاستخف قاسم الابتهاج وقال بإكبار :
- ما أكثرهم !

قال صادق بفخار :

- حارة جديدة فوق الجبل ، سكانها يتزايدون مع الأيام ، وقد انضم
إلينا بإرشاد المعلم يحيى جميع المهاجرين من حارتنا .

وقال حمروش :

- لا يتبعنا إلا أننا نسعى إلى أرزاقنا في الأحياء البعيدة خشية أن يعثر
عليينا أحد من حارتنا .

ولما صعد قاسم إلى السطح تلقاء الرجال بالعنق ، وصافحه النساء ،
وارتفعت الأصوات بالتحيات والتهليل والتکبير ، وكانت سكينة بين
المستقبلين فأخبرته بأن إحسان نائمة في الكوخ الذي أعد لهم داراً .
وساروا جمِيعاً نحو الحارة الجديدة التي أقيمت على هيئة مربع من
الأكواخ فوق مسطح من الجبل ، وهم يهملون وينشدون ، وقد ابتهج
الأفق بالنور المتدقق كأنه بحيرة من الورد الأبيض . وهتف رجل :

- أهلاً بفتوننا قاسم .

فتغير وجه قاسم وصاح مغضباً :

- ألا لعنة الله على الفتوات جميعاً ، فلا سلام ولا أمان حيث
يوجدون .

وتطلعت إليه الوجوه الجديدة فقال:

- سترفع النبات كما رفعها جبل ، ولكن في سبيل الرحمة التي نادى بها رفاعة ، ثم تستغل الوقف لغير الجميع حتى تحقق حلم أحدهم . هذه هي مهمتنا لا الفتونة .

ودفعه حسن برفق نحو الكوخ الذي أعد له وهو يقول مخاطبا الجميع :

- مضى الليل دون أن يغمض له جفن فدعوه الآن ليأخذ بعض حقه من الراحة .

استلقى قاسم على خيشة جنب بيته وسرعان ما استغرق في النوم . واستيقظ فيما بين الظهيرة والعصر برأس مثقل وجسد متعب . وجاءته سكينة بإحسان فوضعها في حجره وراح يلشمها في حنان . وقدمت له المرأة كوز ماء وهي تقول :

- هذا الماء يحمل إلينا من الحنفية العمومية كما كانت تحمله زوجة جبل !

فابتسم الرجل ، وكان يحب كل ما يربطه بذكريات جبل أو رفاعة . وألقى نظرة على داره الجديدة فرأى جدرانا مغطاة بالخشش ولا شيء بعد ذلك ، فضم إحسان إلى صدره بحنان أكثر . ونهض قائما فأعطى سكينة ابنته وغادر الكوخ ليجد صادق وحسن في انتظاره ، فجلس بينهما وهم يتبادلون نحبة الصباح . وألقى نظرة على الحارة فلم تقع عينيه إلا على امرأة أو طفل ، فقال صادق موضحا :

- ذهب الرجال إلى السيدة وزينهم سعياً وراء الأرزاق وتخلينا نحن حتى نطمئن عليك .

ونابت عيناه النسوة العاملات في الطهي أو الغسل أمام الأكواخ ، والأطفال اللاهين هنا وهناك ، ثم تساءل :

- ترى هل هن راضيات ؟

فقال صادق :

- إنهم يحلمن بامتلاك الوقف والتعيم الذي تهنا به أمينة هاتم حرم
الناظر !

فابتسم ابتسامة عريضة ثم ردد بصره بينهما في بطء وتساءل :
ـ ماذا يدور في رأسي كما عن الخطوة التالية ؟

ـ فرفع حسن رأسه فوق منكبيه العريضين وقال :
ـ نحن على بيته مما نريد .

ـ ولكن كيف ؟

ـ ننتهز غفلة ثم نهجم .

ـ لكن صادق قال معتراضا :

ـ بل نصبر حتى نضم إلينا أكبر عدد من أهل حارتنا ثم نهجم فنضمن
النصر من ناحية وقلة الضحايا من ناحية أخرى .

ـ فهتف قاسم وأساريره تنبسط :

ـ أحسنت !

ـ وشملتهم طمأنينة حالمه ، وإذا بصوت يقول في استحياء :
ـ الطعام !

ـ فرفع قاسم عينيه فرأى بدريه حاملة إماء فول وأرغفة وهي ترنو إليه
بعينين باسمتين فما ملك إلا أن ابتسם قائلا :

ـ أهلا برسول الحياة إلى .

ـ فوضعت الإناء بين يديه وهي تقول :
ـ أطال الله عمرك .

ـ وذهبت إلى كوخ صادق فيما يلى كوخه . ودخلت نفسه رقة ورضا
ـ فتناول طعامه بشهية . وفي أثناء ذلك قال :

-لدى قدر من المال لا بأس به سينفعنا عند الحاجة .

ثم مردفا بعد قليل :

- علينا أن نقتناد كل من نائس فيه استعدادا إلى مشاركتنا من أهل حارتنا ، وما أكثر المظلومين الذين يتمنون لنا النصر ولا يقعدهم إلا الخوف !

وما لبث أن ذهب الرجال إلى حيث سبقهما الآخرون فوجد نفسه وحده . وقام فمضى يتجول في المكان كأنما يتفقده . مر بأطفال لاعبين فلم يلتفت إليه أحد منهم . أما النساء فكن يحيينه بالدعاء . واستوقفت نظره عجوز بالغة في الكبر ، ذات رأس مكبل بالبياض الناصع ، وعيين تغشاهما سحابة الهرم ، وذقن متقلقل كأنها تزدرد لحيتها ، فاقترب منها محييا فرددت التحية بالدعاء فسألها :

- من أمي ؟

فأجابت بصوت كخشخشة الأوراق الجافة :

- أم حمروش .

- أهلا بأمنا جميعاً ، كيف هان عليك أن تهجرى حارتنا ؟

- أطيب المكان ما يوجد فيه ابني .

ثم كالمستدركة :

- والبعد عن الفتوات غنيمة .

ثم تشجعت بابتسامته فقالت :

- رأيت رفاعة وأنا شابة !

فسألها باهتمام :

- حقا ؟

- نعم وحياتك ، كان لطيفا جميلا ، ولكن لم يجر لي في خاطر أنه سيكون عنوان حى وحكاية من حكايات الرباب .

فسألها باهتمام متزايد:

ـ ألم تقصديه كالآخرين؟

ـ كلا، لم يكن يدرى بنا فى حيناً أحد، ولا كنا ندرى بأنفسنا،
ولولاك ما جرى ذكر للجرأي على لسان.

ونفحصها بغرابة. وتساءل: ترى كيف يكون جدنا اليوم؟! لكنه ظل
يبيسم لها برقة فدعت له طويلاً حتى ذهب. وواصل المشى حتى وقف
عند رأس المشى على حافة الجبل. ألقى نظرة على الخلاء أسفل ثم مد
البصر نحو الأفق. تراءت على بعد القباب والأسطح كأنها ملامح
متباعدة في كائن واحد. وقال إنه ما ينبغي أن تكون إلا شيئاً واحداً.
وهذا الشيء ما أصغره من عل! فلا معنى للناظر رفعت ولا للفتوة
لهيطة. ولا فرق هنا بين رفعت وعمه زكريا. ومن العسير أن تهتدى من
موقفك إلى الحارة المثيرة للمناعب، لو لا بيت الواقف الذي يبدو أنه يميز
من أي موقع. بيت جدنا بسورة العجيبة وأشجاره العالية. لكنه طعن
في السن وخفت خشيته كهذه الشمس المائلة نحو الأفق. أين أنت؟
وكيف أنت؟ ولم تبدو وكأنك لم تعد أنت؟ المزيرون لوصيتك على بعد
أذرع من منزلتك. وهولاء النسوة والصغار المبعدون في الجبل أليسوا
أقرب الناس إلى قلبك؟ ستعود إلى مكانتك عندما تنفذ شروط وقفيتك
دون اغتيال ناظر أو اعتداء فتوة. كعود الشمس غداً إلى كبد السماء.
ولولاك ما كان لنا أب أو حارة أو وقف أو أمل.

وأيقظه من تهويته صوت عذب يقول:

ـ القهوة يا معلم قاسم.

التفت وراءه فرأى بدرية باسطلة راحتها بالفنجال فتناوله قائلاً:

ـ لم التعب؟

ـ تعبك راحة يا سيدى.

وترحم على قمر. وراح يحسو القهوة في رفق. وبين الحسوة والحسوة تلتقي عيناهما في ابتسامة. ما أللذ القهوة عند طرف الجبل فوق الخلاء!

-ما عمرك يا بدري؟

فتحت شفتيها داخل فيها ثم غممت:
لا أدرى.

-لكنك تدررين بما جاء بنا إلى الجبل؟

فترددت في استحياء ثم قالت:
أنت!

-أنا؟!

-تريد أن تضرب الناظر والفتوات وتجعل الوقف لنا، هذا ما يقول
أبي.

فابتسم. وانتبه إلى أنه أتى على ما في الفنجان لكنه سها عن رده،
فرده إليها وهو يقول:

ليت عندي من الشكر بعض ما تستحقين.

فاستدارت باسمة موردة وجرت، فتمتم قائلاً:
تصحبك السلام.

وكان وقت الأصيل هو وقت التحطيب فينبرى الرجال لممارسة التمارين الشاقة بالنبایت. ويبدأ ذلك عقب عودتهم بنقود قليلة

وطعام بسيط بعد يوم شاق كادح ينقضى سعيا وراء الرزق، هكذا يعودون نساء ورجالاً. وكان قاسم أول المتبارين. وكم سره أن يرى حماسة رجاله وتوبتهم لليوم العصيب. أشداء بين الرجال ولكنهم يكنون له من الحب ما لم تعرفه حارتهم المزقة بالبغضاء. وترتفع البابات وتهاوى وتلاقي فى ارتطامات شديدة، ويترجح الغلمان ويقلدون، على حين تخلى النساء إلى الراحة أو يعددن العشاء. وصف الأكواخ يتد طولاً بما ينضم إلى الحارة الجديدة من رجال جدد. وأثبت صادق وحسن وأبو فصادة أنهم صيادون مهرة. كانوا يرصدون رجالاً من الحرارة في مطانهم ولا يزالون بهم حتى يقنعواهم بالانضمام إليهم فيهجروا الحرارة خفية وراء آمال لم تشتعل من قبل في صدورهم. وكان صادق يقول لقاسim :

ـ لا أضمن مع هذا النشاط ألا يهتدى أعداؤنا إلى مقرنا.
ـ فيقول له :

ـ لا سبيل إلينا إلا خلال الممر الضيق، وسيكون الهلاك نصيبهم إذا جاءوا منه.

وكانت إحسان هي سعادته الباقيه، حين يلاعبها وحين يهددها وحين يناغيها، لكنها لم تكن كذلك حين تذكره بالراحلة فتطبق عليه الوحشة وتلفحه أنفاس الحنين. تلك التي خطفت من بين يديه في أول الطريق، فتركته فريسة للوحشة كلما خلا إلى نفسه، وأحياناً للندم كما حدث عند حافة الجبل يوم الفهوة، أو يوم النظرة الرقيقة كنسمة العصاري.

وذات ليلة حرر النوم أمام عينيه فوقع صيداً معذباً للوحشة والأرق في ظلمة الكوخ، فقام من فراشه وانطلق خارجاً. ومضى في الساحة بين الأكواخ تحت التجوم الساحرة يستقبل هواء منعشًا، هواء

الصيف عند متصرف الليل فوق الجبل . وإذا بصوت يناديه ثم تسامل صاحبه :

- إلى أين أنت ذاهب في هذه الساعة من الليل؟

فاللتفت وراءه فرأى صادق وهو يقترب منه ، فسأله :

- ألم تتم بعد؟

- لمحتك وأنا راقد أمام الكوخ ، وأنت أطيب عندي من النوم .

وسارا جنبا إلى جنب حتى حافة الجبل ، فوفقا هنالك وفاسم يقول :

- الوحدة أحيانا لا تطاق .

فقال صادق ضاحكا :

- تبأ لها في جميع الأحيان .

ومدا البصر نحو الأفق فبدت الدنيا سماء متلازمة فوق أرض غارة في الظلام . وعاد صادق يقول :

- أكثر رجالك أزواج أو ذوى أهل فهم لا يعرفون الوحشة .

فتساءل قاسم كالمستذكر :

- ماذا تعنى؟

- مثلك لا يستغني عن امرأة .

واشتد الاحتجاج في صوته بقدر ما استشعر في قول الرجل من صدق ، فتساءل :

- أتزوج بعد قمر؟!

فقال الرجل بإيمان :

- لو استطاعت أن تسمعك صوتها لأعادت على مسمعك رأني .

واضطرب قاسم وجاش بالانفعال صدره ، وقال وكأنه يخاطب نفسه :

- كأنها الخيانة بعد الحب والرعاية .
- ما أعني الأموات عن إخلاصنا !

ماذا يعني الرجل الطيب؟ يقرر الصدق أم يسرر الهوى؟ ولكن للحقيقة طعماً مرا في بعض الأحوال . وأنت نفسك لا تواجه نفسك بالصراحة التي واجهت بها الأوضاع في حارتك . والذى سوى هذه الأمور في عالمك هو الذي سوى هذه النجوم في السماء . والحق الذي لا مرية فيه أن قلبك يخفق كما خفق أول مرة . وتنهد بصوت مسموع فقال صادق :

أنت أول من يحتاج إلى أنيس .
ولما راجع إلى كوخه لمح سكينة واقفة عند الباب فتطلعت إليه كالمتسائلة وهي تقول بقلق :

لمحتك خارجا حين كنت أظنك في عز النوم !
فقال دون تمييد لشدة ضغط أفكاره على رأسه :
- انظرى إلى صادق كيف يحضنى على الزواج؟!
فقالت سكينة كأنما تتلقف فرصة من السماء :
- وددت أن أسبقه !
- أنت؟!

- نعم يا سيدي ، شد ما يحز في قلبي أن أراك جالساً وحدك مستسلماً للوحشة والتفكير .
فأشار بيده إلى الأكواخ النائمة وقال :
- جميع هؤلاء معى .
- نعم ولكن لا أحد لك في ذارك وأنا عجوز ، رجل فوق الأرض
ورجل في القبر .

وشعر بأن تلبشه دليل تقبل لما تريده، ولكن مع ذلك لم يدخل إلى
كوخه وقال في نبرة رثاء:
ـ لن أجد زوجة مثلها!
ـ هذا حق، ولكن توجد بنات يشرن بالسعادة!
وبتبادل نظرة خلال الظلام، أرددت بهنيئة صمت، ثم غنت
الجازية:
ـ بدرية! ما ألطفها من فتاة!
ـ فقال بدهشة تعذر حفقة قلبه:
ـ البنت الصغيرة؟!
ـ فقالت وهي تداري ابتسامة ماكرة:
ـ ما أنضجها وهي تقدم الطعام أو القهوة!
ـ فتحول عنها وهو يقول:
ـ يا شيطانة! لعنة الله على سلالتك!
ـ وكان للخبر رنة فرح في حارة الجبل جميعاً. كاد صادق أن يرقص.
ـ وزغردت أمّه حتى أسمعت الخلاء. وانهالت التهاني على قاسم.
ـ واحتفلت الحارة بالزفاف دون استدعاء لأحد من المحترفين، فرقضت
نساء من بينهن أم بدرية. وغنى أبو فصادة بصوت مليح:
ـ أنا كنت صياد سمك وصيد السمك غية
ـ وسارت الزفة حول الأكواخ مستضيئة بأنوار السماوات. وانتقلت
ـ سكينة بإحسان إلى كوخ حسن على حين خلا كوخ قاسم
ـ للعروسين.

لذله حقاً أن يراقب - من مجلسه على الفروة أمام الكوخ - بدرية وهي تعجن . هي صغيرة بلا جدال ولكن أى امرأة تفوقها في النشاط وتدبر الشئون؟! وتعطى من جهد ، وبظهر راحتها رفعت ما تهدل من شعرها فوق الجبين ، فبدت فاتنة غازية لسويداء القلب . ونم تورد وجهها عن إحساسها بتتابعه عينيه حتى توافت في دلال ، فضحك بسرور ومال نحوها فتناول ضفائرتها وقبلها مرارا ثم عاد إلى جلسته . وكان سعيدا خالىibal كشأنه في الأويقات التي يعتزل فيها أصدقاءه وأفكاره ، وعلى بعد يسير مضت إحسان تنقل من موضع إلى موضع على مرمى النظر من سكينة الرابضة فوق حجر . وتعالت ضجة عند رأس المحر .رأى صادق وحسن وبعض الأصدقاء قادمين نحوه حول رجل عرف فيه خردة الزبال من حى رفاعة فوق من فوره لاستقبالهم على حين زغردت نساء كما يفعلن كلما انضم إلى الجبل رجل جديد من أهل الحرارة . وعائقه والرجل يقول :

- إنى معكم ، وجئت معى بنبوت !

قال له هاشا باشا :

- أهلا بك يا خردة ، نحن لا نفرق بين حى وحى ، فالحرارة حارتنا ، والوقف للجميع .

فضحك الرفاعى قائلا :

- يتسمون عن مكانكم ويتوهعون من ناحيتكم شرا ، ولكن قلوايا كثيرة تتمنى لك النصر .

وألقى نظرة على ما حوله فشملت الأكواخ والناس ثم قال ياعجباب:
ـ كل هؤلاء معك؟!

وقال صادق:

ـ جاء خردة بخبر مهم.

فحذجه قاسم بننظرة متسائلة فقال خردة:

ـ اليوم يتزوج سوارس للمرة الخامسة. وستسير زفته هذه الليلة.

فقال حسن بحماس:

ـ هذه فرصة لا تكرر للقضاء عليه.

وتحمس الرجال. وقال صادق:

ـ سنهاجم يوماً على الحارة، فكلما تخلصنا من فتوة جاء الهجوم أيسر
عناء وأضمن نتيجة.

ونفكر قاسم ملياً ثم قال:

ـ سنهاجم الزفة كما يفعل الفتوات، ولكن اذكروا دائماً أننا نهاجم
للقضاء على الفتنة.

وقبيل متصف الليل تجمع الرجال عند حافة الجبل، ثم مضوا
ييهطون رجلاً رجلاً وراء قاسم وأيديهم قابضة على نبایتهم. كانت
السماء صافية، والبدر يحتل منها الكبد، ونوره يضفي على الدنيا وشى
الأحلام. وانتهوا إلى الخلاء فاتجهوا ناحية الشمال من وراء سوق المقطم
ثم ساروا بحذاء الجبل حتى لا يضلوا الطريق. ولما اقتربوا من صخرة
هند أقبل نحوهم شبح رجل كان يتحسس لهم الأخبار فقال لقاسم:
ـ ستسيير الزفة نحو باب النصر.

وتعجب قاسم قائلاً:

ـ لكن زفاتنا تسير عادة نحو الجمالية.

قال خردة:

- لعلهم يتعدون عن الأماكن التي يظنون مقامكم قريبا منها!

وفكر قاسم بسرعة ثم قال:

- سيدهب صادق وبعض الرجال إلى ما وراء بوابة الفتوح، ويمضي عجرمة وأخرون إلى خلاء باب النصر، وسانظر أنا وحسن وبقية الرجال وراء باب النصر، وعندما أدعوكم إلى الهجوم اهجموا.

وببدأ الرجال ينقسمون جماعات، وقبل أن يهموا بالرحيل قال:

- ركزوا الضرب على سوارس وأعوانه، أما الآخرون فسيكونون إخوانكم غدا.

ومضت كل جماعة في طريقها وأوغل هو وحسن ومن معهما شمالة بحذاء الجبل، ثم عدلوا إلى اليسار في طريق القرافة حتى كمنوا وراء البوابة. وكان هو ورجاله يحاصرون الطريق، فصادق يتربص مينا، وعجرمة يتوب يسارا، وهو يكمن وراء البوابة. وقال حسن:

- ستجمع الزفة في قهوة الفلكل.

قال قاسم:

- علينا أن نهاجمها قبل الوصول إلى القهوة كيلا نعتدي على قوم لا شأن لنا بهم.

ولبشا في الظلام ينتظرون وقد توترت منهم الأعصاب. وبغتة قال حسن:

- شد ما ذكر مقتل شعبان.

قال قاسم:

- للفتوتان ضحايا لا يحصيهم العد.

وأرسل صادق صفيراً وتبغه عجرمة فاشتدت عزيمتهم وقال حسن :
- إذا هلك سوارس تسارع أهل حيناً إلينا ، وإذا جاء الآخرون للقضاء
 علينا أهلكناهم في المعر .

هذه الأحلام مثل ضوء القمر . وما هي إلا ساعة حتى يتقرر النصر
 لهم أو تتبخر الآمال مع أرواحهم المهدورة . وخيل له أنه يرى شبح
 قنديل ، وأنه يسمع نبرة قمر ، وكأن دهرًا مضى منذ كان يرعى الغنم .
 وشدت قبضته على نبوته وقال لنفسه : لا يمكن أن نهزم . وسمع حسن
 وهو يسأله :

- ألا تسمع ؟

وأرهف السمع قليلاً حتى التقط أصداه من أنغام فنال :
 - استعدوا ، الزفة قادمة .

وأخذت الأصوات تقترب ، وتتضبع ، ثم ترامى الزمر والطبل ،
 وتعالت الآهات ، وأطبق التهليل . ثم على ضوء المشاعل بدت الزفة
 وهي تقدم ، وتراءى سوارس للعين وسط حالة من الراقصين اللاعبيين
 بالبابيات . وتساءل حسن :

- أصفر لعجرمة ؟

فنال قاسم بشبات :

- عندما تصل طليعة الزفة إلى وكالة الثوم .

واستمر تقدم الزفة ، واشتد الرقص واللعل . وأخذ راقص بنشرة
 الرقص يجعل يشب في الهواء ثم يدور أمام الزفة في سرعة رشيقه راسما
 دائرة متموجة ، والنبوت يدور منكزاً على راحته المرفوعة فوق رأسه
 كالملوحة ، ومضى يتقدم خطوة عقب كل دورة حتى جاوز وكالة الثوم
 والزفة من ورائه تقدم في بطيء شديد حتى بلغ رأسها الوكالة . عند ذلك
 صفر حسن ثلاثة . فهبط عجرمة ورجاله من عطفة الطماعين وانقضوا

على مؤخرة الزفة تسبّهم نباليتهم فاجتاز الاضطراب صفوّها وارتفع صراغ الغضب والخوف . وصفر حسن ثلثاً مرة أخرى فاندفع صادق ورجاله من السمّاكيّن على وسط الزفة من الناحية الأخرى قبل أن تفتق من الهجمة الأولى . وفي الحال هجم قاسم ورجاله من تحت البوابة على مقدمة الزفة هجّمة رجل واحد .

استرد سوارس ورجاله أنفاسهم من شرك المفاجأة فرفعوا النباليّة واشتبكوا في معركة مريرة . وتطاير كثيرون من المسلمين فلاذوا بالخواري والأزقة . واشتهد ارتظام النباليّة . وسالت الدماء من الأوجه والرءوس . وتحطم كلوبات وتناثر الورد فطحّته الأقدام . وانطلق الصوات من التوافد وأغلقت المقاهي أبوابها . وضرب سوارس بقصوة ، وبخفة ، فانطلق نبوته كالجنون ، مرة في هذه الناحية ومرة في تلك . واشتهد الضرب وتکائف الحقد كقطع الليل . ووُجد سوارس نفسه بفتحة أمام صادق فصرخ :

- يا ابن النجسة !

ووجه إليه ضربة فتلاقت مع ضربة وجهها صادق الذي ارتج وترنح . ورفع سوارس نبوته وهو في مرّة أخرى عليه فتلقاء بنبوته المرتكز على قبضته ، غير أنه سقط على ركبتيه من شدة الصدمة . وهم بتوجيه الضربة الثالثة والقاضية ، لكنه لمح حسن منقضاً عليه كالوحش لإنقاذ صاحبه فتحول نحوه وهو يطّح بالغضب صائحاً :

- وأنت أيضاً يا ابن زكرياء ! يا ابن الزانية .

وأطلق نحوه ضربة هائلة ، لو لم يتفاد منها بوابة جانبية لهلك ، ثم طعن سوارس في أثناء وثوبه برأس نبوته فأصاب عنقه . عطلت الطعنة سوارس لحظات عن تسديد الضربة التالية ، فسيطر حسن على توازنه ووجه ضربة شديدة بقوّتها الحارقة فأصابت جبهة سوارس ، وفجرت

نافورة من الدم ، وسرعان ما تراخت قبضته عن نبوته فهوی ، وتراجع خطوات متزنة ، ثم سقط على ظهره دون حراك ، وعلا على أصوات النيابية المتلاطمة صباح رجل :

-سوارس قتل !

فأدريك عجرمة بضرية نبوت فوق أنفه فصرخ ، وتراجع فعثر بطريرح سقط . وقويت عزيمة رجال قاسم فاشتدت ضرباتهم ، وتحاذل رجال سوارس ، وهالتهم كثرة الساقطين من رجالهم فتقهقرت ، ثم أسلموا أرجلهم للفرار . وأخذ رجال قاسم في التجمع حوله وهم يلهثون ، البعض تسيل دماءهم ، والبعض يحملون جراحهم . ونظروا صوب الأرض على ضوء الفوانيس الصادر من شراعات أبواب المقاهي أجسادا مطروحة ، منها مالقى حتفه ومنها ما راح في غيبة . ووقف حمروش فوق ظل سوارس وهتف :

-ليطمئن جثمانك يا شعبان !

فجذبه قاسم إلى جانبه وقال :

-يوم النصر قريب ، يوم يلقى بقية الفتوات نفس المصير ، يوم نصبح سادة حارتنا وأصحاب وقفنا وأحفادا ببرة لجدنا .

وعند عودتهم إلى الجبل استقبلتهم النساء بالزغاريد ، وجرت مع الهواء أنباء النصر . وأوى قاسم إلى كوخه وبدرية تقول له :

-عليك غبار كثير ودم ، يجب أن تستحم قبل النوم .

ولما استلقى عقب الاستحمام تأوه من الألم . وأتت له بطعام وانتظرت أن يجلس ليتناوله ، ولكن استولت عليه حال بين اليقظة والنام . وشعر بارتياح كأنه السعادة ولكن شابه إحساس قلق كأنه الحزن ، وقالت بدرية :

-تناول طعامك .

نظر إليها بعينين مثقلتين حالمتين وقال :
- ستشهدين النصر قريبا يا قمر .
وانتبه إلى هفوة اللسان على أثر وقوعها ، ورأى تغير وجهه بدريّة ،
فجلس في فراشه الأرضي وقال في تودّد وارتباك :
- ما أشهى طعامك !
لكنها نفرت من توادده متوجهة فتناول قطعة من الطعمية قائلاً :
- جاء دورى لأدعوك للطعام !
فولت عنه وجهها وقامت :
- كانت طاعنة في السن ولا جمال لها !
فتقوضت قامته المتتصبة في كابة كأنه تهدم وقال في عتاب وحزن
شديدين :
- لا تذكريها بسوء ، فمثلها لا ينبغي أن يذكر إلا بالرحمة .
فارتد إليه رأسها متوبًا لكنها رأت على صفة وجهه حزناً مخيماً ،
فلاذت بالصمت .

٨٧

رجع المغلوبون يركبهم الخزى . ابتعدوا ما استطاعوا عن الأنوار
المبعثة من بيت سوارس حيث يتألق الجواب بهجة الفرح والطرب ،
وانحجز كل رجل في ربعه . وإذا بالأبناء السود تنتشر كالحريق ، فتعالى
الصوات في مساكن كثيرة وانطفأ العرس كأنما أهيل عليه التراب .
انطلقت الحناجر تتعى سوارس ، ثم تتعى من قتل معه من رجاله . وامتد
المصاب فشمل رجالاً من الرفاعية وأخرين من آل جبل من اشتراكوا في

الزفة . ومن المجرم المعتدى؟ قاسم، قاسم الغنام ، قاسم الذى كان ينبعى أن يظل متسولاً مدى عمره لولا قمر! وشهد رجل بأنه تبع عصابة قاسم فى عودتها حتى اهتدى إلى ملجئها فوق المقطم . وتساءل كثيرون: هل يعتصم بالجبل حتى يقضى على رجال الحرارة؟ واستيقظ النائمون وخر جوا إلى الحارة والرابع تجاوب بالصوات . وصرخ أحد رجال جبل فى غضب:

- أقتلوا الجرایع .

لكن جلطة أوقفه صائحاً:

- لا ذنب لهم ، قتل فتوتهم ، وعدد وافر من رجالهم .

- أحرقوا المقطم !

- هاتوا جثة قاسم لتأكلها الكلاب .

- على الطلاق لأشرين من دمه .

- الجربوع اللثيم الجبان .

- يحسب أن الجبل سيرحميه!

- لن يرحميه إلا القبر .

- كان يأخذ الملبيمن من يدي وييوس التراب .

- ويظهر بيتنا بمظهر اللطيف الودود ثم يغدر بنا فيقتل الرجال .

وفي اليوم التالي بدت الحرارة في مأتم شامل . وفي اليوم الثاني اجتمع الفتوات في بيت الناظر رفعت الذي ركب الغضب والحنق حتى قال لهم في تهكم مر:

- لنحبس أنفسنا في حارتنا كى نأمن الموت .

وكان لهيبة أشدتهم حرجا ، لكنه أراد أن يهون من الخطب تخففاً من مسئoliته فقال:

. ما هي إلا معركة بين فتوة وبعض رجال حيّه!

فقال جلطة معترباً:

- قتل من حيناً رجل وجرح ثلاثة.

وقال حجاج:

- وقتل مناً رجل.

فقال رفعت بمكر مخاطباً لهيطة:

- اللطمة لاصقة بسمعتك يا فتوة الحارة!

فامتقع وجه الرجل غضباً وقال:

- راعى غنم! والله لقد هزلت!

ولم يخف الناظر قلقه فقال:

- راعى غنم؟ فليكن، لكنه أصبح ذا خطر. استخففنا بهذيانه زماناً

وأغمضنا عنّه العين إكراماً لزوجته فاستفحـل شره، وقد تمسـ肯

حتـى عـكـنـ فـقـضـىـ عـلـىـ فـتـوـةـ وـأـعـوـانـهـ،ـ وـهـوـ الـآنـ مـعـتـصـمـ بـالـجـبـلـ

وـلـنـ تـقـفـ أـطـمـاعـهـ عـنـدـ حدـ.

وبـادـلـواـ النـظـرـاتـ فـيـ غـضـبـ فـوـاـصـلـ النـاظـرـ حـدـيـثـ قـائـلاـ:

- وـهـوـ يـلـوحـ لـلـنـاسـ بـإـغـرـاءـ.ـ هـذـهـ هـىـ مـصـيـبـةـ حـارـتـناـ،ـ لـاـ يـنـبـغـىـ أـنـ

نـتـجـاهـلـ ذـلـكـ،ـ إـنـهـ يـعـدـ النـاسـ بـالـوـقـفـ،ـ وـمـعـ أـنـ الـوـقـفـ لـاـ يـكـفـيـ

أـصـحـابـهـ إـلـاـ أـنـ أـحـدـاـ لـاـ يـصـدـقـ ذـلـكـ،ـ الـمـسـؤـلـونـ لـاـ يـصـدـقـونـ ذـلـكـ

وـمـاـ أـكـثـرـهـمـ،ـ حـارـتـناـ حـارـةـ الـمـسـؤـلـينـ!ـ وـهـوـ يـعـدـ بـالـقـضـاءـ عـلـىـ الـفـتـوـةـ

فـيـطـرـبـ لـذـلـكـ الـجـبـنـاءـ وـمـاـ أـكـثـرـهـمـ!ـ حـارـتـناـ حـارـةـ الـجـبـنـاءـ،ـ وـسـتـجـدـونـ

أـهـلـهـ دـائـمـاـ مـعـ الغـالـبـ،ـ فـفـيـ الـقـعـودـ هـلـاـكـناـ.

فـهـتـفـ لـهـيـطـةـ:

- حـولـهـ مـجـمـوعـةـ مـنـ الـفـتـرـانـ وـمـاـ أـيـسـ إـيـادـهـمـ!

فتساءل حجاج :

- لكنهم يعتصمون بالجبل !؟

فقال جلطة :

- نراقب الجبل حتى نجد إليهم منفذًا .

فقال رفعت بتحريض :

- اعملوا في القعود كما قلت هلاكنا .

واشتد الغضب بلهية ف قال للناظر بلهجة ذات مغزى :

- أتذكري يا سيدى أننى دبرت قتلته فى حياة زوجته فعارضت الهاشم .

فحول الناظر عينيه عن الأعين المحدقة وقال فى شبه اعتذار :

- لن يجدننا تذكر الأخطاء .

ثم مردفا بعد هنئية صمت :

- وهذه العلاقات تراعى فى حارتنا منذ القدم !

وتعالت ضجة فى الخارج غير مألوفة كأنما تنذر بشر مستجد ، وكانت

الأعصاب متوتة ، فنادى الناظر الباب و سأله عما هنالك فقال الرجل :

- يقولون إن الغنام انضم إلى قاسم سائقا معه جميع أغنام الحارة !

فوقف لهيبة ثائرا وهو يصيح :

- الكلب .. حارة كلاب ، الويل له !

وتساءل الناظر :

- من أى حى هذا الغنام ؟

فقال الباب :

- من حى البحريين ، ويدعى زفلة .

أهلابك يا زقلة .

وعانقه قاسم فقال الغنام بحماس :

لم أكن ضدك فقط ، وكان قلبي معك دائمًا ، ولو لا الخوف لكنت بين أوائل المنضمين إليك ، وما إن سمعت بمقتل سوارس أحجممه الله حتى سارعت إليك سائقاً أمامي أغناه أعدائك !

وألقى قاسم نظرة على مجمع الأغنام في الساحة بين الأكواخ حيث التف حولها النساء وارتفع ضوضاء الحبور ، ثم ضحك قائلاً :

هـ حلال لنا لقاء ما نهبوه من أموالنا في الحرارة .

وفي أثناء النهار انضم إلى قاسم أفراد من الحرارة بكثرة لم تعهد من قبل فاشتدت العزائم ورسخت الآمال . لكن قاسم استيقظ في الصباح الباكر للليوم التالي على صورة غريبة فغادر كوهه من فوره فرأى رجالهقادمين نحو كوهه في عجلة واضطراب ، وقال له صادق :

ـ جاءت الحرارة للانتقام وهم مجتمعون أسفل الممر .

ـ وقال خردة :

ـ كنت أول ذاهب للعمل فرأيتهم وأنا على مبعدة خطوات من الخلاء فرجعت مسرعاً ، وطاردنـ بعضهم فأصابوني بحجر في ظهرـ ، وجعلـت أناـ صادـق وحسنـ حتى جاءـ جمـاعة من إخـوانـا إلى رأسـ المـمر فـانتـبهـوا إلىـ الخـطر وـرمـواـ المـهاـجمـينـ بالـأـحـجـارـ حتى تـرـاجـعواـ .

ونظر قاسم نحو رأس الممر فرأى حسن وبعض الرجال واقفين عنده
بأيد قابضة على الأحجار فقال:

. نستطيع أن نصد هم هناك بعشرة رجال.

فقال حمروش:

- إن الصعود على هذه الحال انتحار فليصعدوا إذا شاءوا.

وتجمع الرجال والنساء حول قاسم حتى خلت الأكواخ. جاء الرجال
بالنبایت والنساء بمقاطف طوب أعدت لذلك اليوم. وانطلق أول شاعر
للشمس من سماء صافية. وتساءل قاسم:

. أما من مسلك آخر إلى المدينة؟

فقال صادق واجما:

- يوجد مسلك في الجنوب على مسيرة ساعتين في الجبل.

وقال عجرمة:

. لا أظن أن لدينا من الماء ما يكفينا أكثر من يومين.

فسرت فيهم همهمة قلق وبخاصة النساء فقال قاسم:

- لقد جاءوا للانتقام لا للحصار، وإذا حاصروا نا عملنا إلى المسلح
الأخر لفك الحصار.

ومضى الرجل يفكرون وهو يحافظ على هدوء وجهه الذي تتطلع إليه
الأبصار. لو حاصرواهم لوجدوا أكبر المشقة في إحضار المياه من المسلح
الجنوبي. ولو هجم برجاله عليهم فهل يضمن الانتصار على رجال فيهم
لهيبة وجلطة وحجاج؟ وأي مصير يخبئه مغيب هذا اليوم لهم؟ ورجع
إلى كوهه ثم عاد قابضا على نبوته ثم سار إلى حسن ورجاله عند رأس
الممر، فقال له حسن:

. لا يجرؤ أحد منهم على الاقتراب.

ودنا قاسم من حافة الجبل فرأى أعداءه متجمعين على هيئة هلال في
الخلاء بعيداً عن مرمى الحجر. هاله عددهم لكنه لم يستطع أن يميز
الفتوات بينهم. ومد بصره خلال الفضاء حتى استقر على البيت الكبير،
بيت الجبلاوى، الغارق في صمتة كأنه لا يبالى بصراع الأبناء من أجله.
ما أحوجهم إلى قوته الخارقة التي دانت لها هذه البقاع في الزمان الحالى!
ولعل القلق لم يكن ليساورة لولا ذكرى مصرع رفاعة على كثب من بيت
جده. ووجد دافعاً من أعمقه بدعوه إلى أن يصبح بأعلى صوته
فائلاً: «يا جبلاوى!»، كما يفعل أهل حarte في أحوال شتى، لكن
جذب سمعه أصوات النساء المقتربة فاستدار ناظراً حوله فرأى الرجال
منتشرين على حافة الجبل ينظرون إلى أعدائهم، والنساء متوجهات إلى
المواقع نفسها فصالح بهن أن يرجعن، وشدد في الصياغ لدى
ترددهن، وأمرهن بأن يعددن الطعام وأن يزاولن مألف الأعمال،
ومازال بهن حتى صدعن بأمره. فاقترب منه صادق فائلاً:
- أحسنت، فإن أخوف ما أخاف علينا تأثير اسم لهيطة.

فقال حسن:

- ليس أمامنا إلا أن نضرب!

ولوح بنبوته مردفاً:

- سيتعذر علينا التجوال سعياً وراء أرزاقينا بعد أن عرفوا مكمننا،
فليس أمامنا إلا أن نهجم.

فأدبر قاسم رأسه مادا البصر نحو البيت الكبير وقال:

- بالصواب نطقت، ما قولك يا صادق؟

- ننتظر حتى يجيء الليل.

فقال حسن:

- سيفسرُّ بنا الانتظار، ولن ينفعنا الليل في عراك.

وتساءل قاسم :

- ترى ما هي خطتهم؟

فقال صادق :

- أن يجبرونا على التزول إليهم.

وتفكر قاسم مليانا ثم قال :

- إذا قتل لهيبة ضمنا النصر.

وردد عينيه بين الرجلين ثم أردف :

- إذا سقط تقاتل جلطة وحجاج على الفتنة.

ومضت الشمس في الارتفاع فتوهج الحصى وانتشرت نذر الحر.

وتساءل حسن :

- خبرانى ما العمل؟

فبدأت سأله كالحصار ولكن لم يطل بأحد التردد، فقد انطلق صرخ امرأة من ناحية الساحة، وتلته على الفور صرخات، وتميز الصوت وهو بصيح :

هوجمنا من الناحية الأخرى!

وارتد الرجال عن الحافة فانطلقوا نحو الساحة فيما يلى الجنوب. أوصى قاسم المدافعين عن الممر بمزيد من الانتباه. أمر خردة أن يدعو النساء القادرات إلى الانضمام إلى المدافعين عن الممر. جرى بين صادق وحسن نحو الساحة حتى توسيط رجاله. لاح للجميع لهيبة وهو يقود عصابة كبيرة من الرجال قادمين من جنوب الجبل. قال قاسم بعثق :

- شاغلنا برجاله حتى يقوم برحلته حول الجبل ثم يجيئنا من مسلك الجنوب.

فصاح حسن وجسمه العملاق ينتفع بالتوثب :

- جاء بقدميه إلى موته !

قال قاسم :

- يجب أن ننتصر وستنتصر .

وامتد رجاله من حوله كذراعين قويتين . ومضى القادمون يقتربون ،
بنبابيت مرفوعة ، كأنهم دغل من الأشواك . ودخلوا في مجال الأ بصار
قال صادق :

- ليس فيهم جلطة ولا حجاج !

وأدرك قاسم أن جلطة وحجاج على رأس المحاصرين أسفل الجبل ،
وحدس أنهم سيفهاجمان المر مما كل فهما ذلك من مشقة ، لكنه لم
يفض بوساوسه إلى أحد . وتقدم خطوات وهو يلوح بنبوته فشد الرجال
على نبابيتهم . وجاء الصوت الغليظ ، صوت لهيطة وهو يصيح :
- لن تدفنوا في قبر يا أولاد الزوانى .

واندفع قاسم مهاجمًا فاندفع حوله الرجال ، وأقبل الآخرون
كالصخور المقلدة حتى اصطكت النبابيت واختلطت الزمرة وارتفع
الزئير . وفي الوقت ذاته انهال الطوب من المدافع عن رأس المر على
هجوم من أسفل الجبل بدأ . لكن كل رجل من رجال قاسم مع آخر من
العدو اشتباك . تضارب قاسم ودخل بعنف ومكر . وهو نبوت لهيطة
على ترقوة حمروش فانكسر . والتحم صادق وزينهم في هجمات
متابعة . ودك حسن بنبوته الغضبان فسكت . وضرب لهيطة زفة في
رقبته فانقلب ، وتمكن قاسم من إصابة دخل في أذنه فصرخ وتراجع ثم
اندلق . وحمل زينهم على صادق حملة شديدة لكن هذا بادره بطعنة في
بطنه فخذلتة يداه فتشى بطعنة أخرى فجندله . وتغلب خردة على
الحفناوى ولكن لهيطة شل ذراعه قبل أن يهنا بنصرته . ووجه حسن

ضربة إلى لهيطة لكنه زاغ عنها برشاقة ورفع نبوته ليهوى به على الشاب غير أن قاسم عاجله بضربيه تلقاها ببنوته ، وجاء أبو فصادة كالريح ليقذفه بالضربيه الثالثة لكن لهيطة نطحه برأسه في أنه فحطمها . بدا لهيطة كأنه قوة لا تغلب .

واشتهد القتال . تلاطم النبایت بلا هواة . واندفعت سیول الشتايم واللعنتا . وانبشت الدماء تحت أشعة الشمس المحرقة . وتتوال الإصابات فخر الرجال تبعا من الفريقين . واحترق لهيطة غضبا للمقاومة المستبسنة التي لم يتوقعها فتضاعفت هجماته وضررها وقوتها . ومن الناحية الأخرى أمر قاسم حسن وعجرمة بأن يتحينا الفرصة للهجوم معه على لهيطة حتى يهدموا الحصن الذي يلوذ به المهاجمون . وإذا بأمرأة من المدافعت عن المرتحن وهي تصرخ محذرة :

- إنهم يصعدون تحت لواح العجين !

ففزعوا قلوب رجال الجبل ، وصاح لهيطة :

- لن تدفنوا في قبر يا أولاد الزوانى ! .

فصاح قاسم في رجاله :

- انتصروا قبل أن يصعد المجرمون .

واندفع نحو لهيطة بجناحين من حسن وعجرمة ، فاستقبله الفتورة بضربيه شديدة تلقاها ببنوته ، وأراد عجرمة أن يعاجله بضربيه ولكن العفس أصاب ذفنه فانطبع على وجهه . ووثب حسن أمامه وهما يتبدلان ضربتين ، ورمى حسن بنفسه عليه فالتحما في صراع مميت . وارتفع صراغ النساء عند رأس المرو وأخذ بعضهن بذلك بالفرار ، وخرج الموقف . وسارع قاسم بيارسال صادق وبضعة رجال إلى حافة الجبل ، ثم انقض على لهيطة لكن اعترضه زحلفة فاشتبكا في قتال عنيف . ودفع

حسن لهيطة بكل قوته فتراجع خطوة، فبصق على عينه وهو يهدى، ثم ركله فأصاب ركبته، وبسرعة خاطفة هجم عليه متقوساً فنطع بطنه كأنه ثور غاضب فاختل توازن الجبار ووقع على ظهره فبرك الآخر فوقه وأطبق بنبوته على رقبته بكلتا يديه وضغط بكل قواه. وأقبل رجال للدفاع عن فتوتهم فتصدى لهم قاسم وبعض رجاله. واصطكى قدماء لهيطة، وجحظت عيناه، واحتقن بالدم وجهه، وأخذ يختنق. وبفترة وشب حسن واقفاً فوق غريم الخائن القوة وهو على رأسه بنبوته بضرية شرسة حانقة فتحطم جمجمته واتهى. وصرخ حسن بصوت كالرعد:

-لهيطة قتل، فتوتكم قتل، انظروا إلى جثته!

وأحدث مقتل لهيطة غير المتوقع أثراً عنيفاً، فاشتدت عزائم ووهنت عزائم، واندفع الأمل واليأس في قتال مرير. وانضم حسن إلى قاسم في صراعه فلم تخب له ضربة. وشهد الميدان رجالاً تتويث ثم تشب، ونبأيت ترتفع ثم تنقض. وثار الغبار وانتشر ثم أطبق على المتعاركين كليل دموي. وقدفت الصدور بجيشيات وصيحات ولعنات وصرخات متاؤهة وز مجرات متوعدة. وبين كل آونة وأخرى يتربع رجل ثم يسقط، أو يتراجع ثم يفر، وانتشر المنظر حون على الأرض والتعمت الدماء تحت أشعة الشمس.

وانتحى قاسم جانباً فأرسل بصره نحو رأس الممر الذي أغلقه أمره فرأى صادق ورجاله يصبون الطوب بالمقاطف في توثر شديد دل على اقتراب الخطير المتصاعد. وسمع النساء. وبينهن زوجته، وهن يصرخن كالمستغيثات. وشاهد بعض رجال صادق وهم يقبضون على النبأيت استعداداً للقاء المصريين على الصمود تحت وابل الطوب. قدر خطورة الأمر فمضى من فوره إلى جثة لهيطة التي ابتعد عنها القتال لتقهقر رجال الحرارة، وراح يسحبها وراءه نحو رأس الممر. ونادي حسن فجاءه

مسرعا فتعاونا على حمل الجثة، وسارا بها حتى أول الممر، وقد فاتها
معافتها وافتراحت ثم تدحرجت حتى وقفت تحت أرجل الصاعددين تحت
الألواح. ووقع اضطراب واضح. وجلجل صوت حجاج وهو يصرخ
في غضب:

اصعدوا، تقدموا، الويل للمجرمين!

فصاح قاسم متهمكما، في ضبط نفس عجيب:

- تقدموا، هذه جثة فتوتكم، وورائي جثث رجالكم الآخرين،
تقدموا فنحن في انتظاركم!

وأشار إلى الرجال والنساء فانهال الطوب كالمطر حتى توقفت
طليعة المهاجمين وأخذوا في التراجع البطيء على رغم دفع حجاج
وجلطة لهم، وترامت إلى قاسم هممة تحرش واحتجاج وتذمر
فصاح قاسم:

يا جلطة، يا حجاج، أقدما ولا تهربا!

فارتفع إليه صوت جلطة كأنه نبرة الكراهة وهو يصبح:

- انزلوا إن كتم رجالا! انزلوا يا نسوان يا أولاد العواهر!

وصاح حجاج وهو واقف وسط الموجة المرتدة من الرجال:

- لا عشت إن لم أشرب من دمك يا أقدر من رعن الغنم!

فتناول قاسم حجرا وقذف به بكل قوته. وتواصل انهمار الأحجار.

وأسرعت الموجة المرتدة حتى أوشكـت أن تنقلب جريـا. وإذا بحسن
يجـي، فيقول وهو يسـعـ عن جـبهـه دـما سـائلـاـ:

- انتهي القـتـالـ، وفرـ الأـحـيـاءـ مـنـهـمـ نحوـ الجنـوبـ.

فهـتفـ قـاسـمـ:

- ادعـ الرـجـالـ لـتـبعـهـمـ!

لكن صادق قال له :

- إن الدم يسيل من أسنانك وذقنك !

فمسح فمه وذقنه براحته ويسطها فرأها حمراء قانية . وقال حسن
بأسف :

. قتل منها ثمانية ، وأصيب الأحياء بجروح بالغة فلن يستطيعوا
حراماً .

ونظر إلى أسفل من خلال الأحجار المتهادية فرأى أعداءه يركضون
في نهاية الممر . فقال صادق :

- لو أتوا رحلتهم ما وجدوا مقاتلاً يصد لهم .

ثم لثم ذقن قاسم الدامي وأردد بامتنان :
أنقذنا عقلك !

وأمر قاسم رجلين بالبقاء عند رأس الممر للحراسة ، وأرسل آخرين
في أعقاب الهاربين لاستطلاع الأنباء ، ثم عاد بين صادق وحسن وهم
ينقلون خطوات ثقلاً في إعياء وكلال نحو الساحة التي لم يبق فوق
أديتها إلا جثث القتلى . كانت مذبحة وأي مذبحة . قتل من رجاله ثمانية
ومن أعدائه عشرة غير لهيطة . ولم يسلم من رجاله الأحياء أحد من كسر
أو جرح ، وقد آوروا إلى الأكواخ فأخذت النساء في تضميد جراحهم ،
على حين ضجت أكواخ الضحايا بالبكاء والصوات . وجاءت بدريمة في
لهف ودعتهم إلى الكوخ لتفضل جروحهم ، ثم جاءت سكينة حاملة
إحسان وهي تبكي بكاء صارخاً . وكانت الشمس تقذف بنيرانها من كبد
السماء ، والحدائق والغربان تدور مدومة وهابطة في الفضاء ، والجو
يفسح برائحة الدم والتراب . ولم تكف إحسان عن البكاء ولكن لم
يعرفها أحد التفاتاً ، وحتى حسن العملاق بدا وكأنه يترنح . وعندم صادق
بصوت حزين :

- ليرحم الله قتلانا !

: فقال قاسم :

- ليرحم الله القتلى والآحياء على السواء .

وأخذت حسن صحوة ابتهاج طارئة فقال :

- سنتصر عما فريب فتودع حارتنا عهد الدم والإرهاب .

: فقال قاسم :

- سحقاً لعهد الإرهاب والدم .

٨٩

لم تشهد الحارة كارثة كهذه من قبل . رجع الرجال صامتين ذاهلين ذابلين غاضبين الأ بصار كأنما شدت جفونهم إلى أديم الأرض . ووجدوا أنباء الهزيمة قد سبقتهم إلى الحارة وأن الربوع ترتع باللطم والعويل . وانتشر الخبر في الحارات والأزقة وباتت سمعة الحارة الرهيبة أحدوثة تلوها السنة التشفى . وتبين أن حي الجرابيع بأسره قد غادر الحارة خوفاً من الانتقام فخللت الدور والدكاكين ، ولم يشك أحد في أنهم سينضمون حتماً إلى ابن حيهم المتصر فيزداد بهم عدداً وفوة . وخيم الحزن على الحارة المكللة بالحداد ، لكن أنفاس الحرارة قطرت حقداً ومقتاً ورغبة في الانتقام .

وإذا ب رجال من جيل يتساءلون عن فتونة الحرارة ولمن تكون ؟ وإذا بالسؤال نفسه يتردد على السنة في حي رفاعة ، فانتشر سوء الظن انتشار التراب في العاصفة . وعلم الناظر رفعت بما ته jes به الخواطر فدعا حاج وجلطة إلى مقابلته . وذهب الرجالان وحول كل منهما رجاله

الأشداء حتى غص بهم بهو الناظر، واحتل كل فريق جناحا من البهلو،
فكأنه لم يعد يأمن الاختلاط بغير انه، وقد أدرك الناظر مغزى ذلك
فازداد غما على غم، وقال:

- تعلمون أن كارثة حلت بنا، لكننا لم نمت، ولم يقض علينا، ولم
يزل في وسع سواعدنا أن تحقق لنا النصر على شرط أن نحافظ على
وحديتنا، إلا فقولوا علينا السلام.

فقال رجل من جبل:

- ستكون الضربة الأخيرة لنا، وما شدة إلا وبعدها الفرج.

وقال حجاج:

- لو لا انتقامهم بالجبل لهلكوا عن آخرهم.

وقال ثالث:

- لا قاهم لهيبة بعد رحلة طويلة شاقة تبرك بعدها الجمال.

فقال الناظر بامتعاض:

- حدثوني عن وحدتكم ما شأنها؟

فقال جلطة:

- نحن بفضل الله إخوان، وسنظل كذلك.

- هذا قولك، لكن مجئكم بعدهم الوفير هذا ينم على الارتياح
الذى يفرق بين قلوبكم!

فقال حجاج:

- بل دعت إلى ذلك رغبة الجميع في الانتقام!

فوقف الناظر متوتر الأعصاب وقال مقلبا عينيه في الوجه
الكافحة:

- كونوا صريحين، إنكم تنتظرون بعضكم إلى بعض عين،

وتنظرون بالأخرى إلى فتوة الحرارة، إلى مكان لهيطة الحالى، ولن تعرف الحرارة الأمان ما دامت هذه الحال، وأخشى ما أخشاه أن تتدخل النبأيت فى الأمر فتهلكوا جميعاً وأأكلكم قاسم لقمة سائفة!

فارتفعت أصوات كثيرة تقول في نفس واحد:
- نعوذ بالله من ذلك.

فقال الناظر بصوت قوى واضح:

- لم يعد بالحرارة إلا حيّاً جبل ورفاعة، فليكن عليهما فتوتان، ولا ضرورة للفتوة الواحد، ولتعاهد على ذلك، ولكن يداً واحدة على الخارجين.

وانقضت ثوانٍ صمت رهيبة ثم ردّت أصوات في فتور:
- نعم.. نعم.

وقال جلطة:

- سترضى بذلك على الرغم من أننا سادة الأحياء منذ القدم.
فقال حجاج محتاجاً:

- يكن القبول بلا من ^{*}، لا سادة هنا ولا خدم وبخاصة بعد ذهاب الجرابيع، ومن ذا ينكر أن رفاعة كان أئيل من عرفت حارتنا؟

فهتف جلطة محتداً حانقاً:

- حجاج! أنا عارف قلبك.

وهم رفاعى بالكلام ولكن الناظر صرخ غاضباً:

- خبرونى.. هل عزمتم على أن تكونوا رجالاً أو لا؟! إن أى نبا يطير عن ضعفكم سيعقبه زحف الجرابيع من الجبل كالذئاب.
خبرونى: هل تستطيعون أن تقفوا صفاً واحداً، أو أرى لنفسى وجهة أخرى؟

فصاح أفراد من هنا ومن هناك :

- هس ، عيب يا رجال ، حارتنا على وشك أن تفقد كل شيء .

ونتطلع إلى الوجه في تسليم ، فقال :

- ما زلتم متفوقين في العدد والقوة ، ولكن لا تهاجموا الجبل مرة أخرى .

وارتسم التساؤل على الوجه فأردف قائلاً :

- سنحبسهم فوق الجبل ، ستربص لهم أمام المسلكين المفضيين للجبل ، فإذا ميتوهن جوعاً ، وإنما يضطرون إلى النزول إليكم فتقضون عليهم .

فقال جلطة :

- نعم الرأي ، به أشرت على لهيطة - رحمة الله - ولكنه اعتدى الحصار علينا وأبى إلا أن يهاجم .

وقال حجاج :

. هو الرأي ، ولكن ينبغي تأجيل تنفيذه حتى يرتاح الرجال .
وطلب الناظر إليهم أن يتعاهدوا على الإخاء والتعاون ، فتصافحوا ورددوا الأقسام . وبذل كل ذي عيدين فيما تبع ذلك من أيام أن جلطة وحجاج يشتدان في معاملة أتباعهما للتغطية آثار الهزيمة التي لحقتهما .
وأذاع في الحرارة أنه لو لا حمامة لهيطة لقضى على قاسم بلا مشقة ، ولكن إصراره على صعود الجبل أنهك رجاله فذهب بقوتهم وشجاعتهم ، ولا قاهم عدوهم وهم على أسوأ حال . وصدق الناس ما قيل لهم ، ومن أبدى شيئاً من الارتياح سب ولعن وضرب . أما فتوة الحرارة فلم يكن يسمح لأحد بالخوض فيها ، على الأقل في الظهر ، ولكن كثيرين - من الرفاعية والجلبية على السواء - جعلوا يتسللون في الغرز عنمن سيختلف لهيطة بعد النصر .

وتولد في الحرارة على رغم التعاوه والأقسام جو خفى من الريبة، فاحتاط كل فتوة لنفسه فلم يكن ينأى عن مركزه إلا وسط جماعة من أعوانه. لكن الاستعداد ليوم الانتقام لم يتوقف لحظة واحدة. واتفقوا فيما بينهم على أن يعسّر جلطة ورجاله أمام مسلك المقطم عند السوق، وأن يعسّر حجاج ورجاله أمام مسلك القلعة. وسوف يلازمون أماكنهم ولو بقوا عمراً، وستسرح النساء للبيع والشراء ويجهثنهم بالطعام. وعند مساء اليوم السابق ليوم الخروج تجتمعوا في شتى الغرز، وجاءوا بقدور البوظة والنبيذ، وراحوا يحششون ويُسّرون حتى ساعة متأخرة من الليل. وودع الأعواان حجاج أمام ربعه بحي رفاعة وهو في نهاية من الانبساط والسلطنة. ودفع الباب ومضى في الدهلiz وهو يدندن:

الأوله آه ..

لكنه لم يتمها. انقض عليه شبح من ورائه، فسد فاه يده، وطعن بسکين قلبه بالأخرى. انتفض الجسم بقوه بين يديه فلم يتركه خشيه أن يحدث سقوطه صوتاً. وأنامه برفق على الأرض لا حرراك به في الظلام الدامس.

٩٠

استيقظت الحرارة في باكر الصباح على ضجة صارخة مفزعة. فتحت النوافذ وأطلت الرءوس، وسرعان ما اتجهت نحو الربع الذي يقيم فيه حجاج فتوة آل رفاعة، حيث تجمهر جمع غفير واختلط اللعنة بالصرخ والعويل. وامتلا دهلiz الرابع بالرجال والنساء، وكثر التساؤل والتعليق، وأندرت الأعين الحمراء بالبكاء بكل شر خطير. وهرع إلى

الربع الرفاعية من كل ربع ودار وجحر . وما لبث أن جاء جلطة ورجاله
فأواسع الناس لهم حتى انتهوا إلى الدهلiz ، وصاح جلطة :
ـ مصيبة ولا كل المصائب ، ليتنى كنت فداك يا حجاج .

ـ كف الباكون عن البكاء والصارخون عن الصراخ والخانقون عن
التساؤل ، ولكن لم يسمع كلمة مجاملة واحدة . فعاد يقول :

ـ مكيدة دنيئة ! ليس الغدر من شيم الفتوات ، لكن قاسم راعى غنم
متسلول لا فتوة ، ولن يهنا لى بال حتى أرمى بجثته إلى الكلاب .

ـ وصاحت امرأة في حدة ملتاعة :

ـ مباركة عليك فتونة الحرارة يا جلطة .

ـ وتقلصت سحنته بالغضب ، فوجم القريبون منه وسرت الدمدمة
فيما وراء ذلك ، وصاح بغلظة :

ـ فلتغلق النسوان أفواههن في هذا اليوم الأغبر !

ـ فعادت المرأة تقول :

ـ ليفهم كل ذي عقل !

ـ وصوت فهاج الصوات ، وانتظر جلطة حتى هدأت العاصفة وقال :

ـ مكيدة ماكرة دبرت بليل للإيقاع بيتنا .

ـ فهفت امرأة أخرى :

ـ مكيدة ؟ ! قاسم وجرابيعه في الجبل ، وحجاج قتل في حراته بين
ـ قومه وجيرانه الطامعين في الفتنة !

ـ فصاح جلطة :

ـ مرة مجنونة ، ومجنون كل من يتقبل ظنها ، وإذا ثماديتهم فسيقتل
ـ بعضنا بعضا كما دبر قاسم .

ـ وإذا بقلة تهوى فتشحط عن قدمي جلطة ، فتراجع هو ورجاله وهو
ـ يقول :

- عرف ابن الزانية كيف يفسد بيتنا .

ومضى من توه نحو بيت الناظر . واشتد اللغط عقب ذهابه . وإذا بر جلين . رفاعي وجبل . يتشابكان في شجار عنيف ، وتبعهما على الأثر أمرأتان . وتضارب غلمان من الحسين . واستعرت معارك قذف وسب من النوافذ . وشاع الاضطراب في الحرارة حتى تجمهر في كل حي رجاله وارتفعت النباليت . وخرج الناظر من بيته بين خدم ورجال ، فسار حتى توسيط الحسين وصالح بأعلى صوته :

- اعقلوا .. الغضب سيعميكم عن عدوكم الحقيقي ، قاتل المعلم

حجاج !

فصاح أحد الرفاعية :

- من أدرك بذلك ؟ وأى جربوع يتجرأ على دخول الحرارة ؟

فصاح رفت :

- كيف يقتلون حجاج اليوم وهم في أشد الحاجة إليه ؟

- سل المجرمين ولا تسألنا نحن .

- الرفاعية لا يخضعون لفتوة من جبل !

- سيدفعون ثمن دمه غاليا .

فعاد الناظر يصبح :

- لا تطعوا المكيدة والإرأتم قاسم زاحفا عليكم كالواباء .

- فليأت قاسم إذا شاء ، ولكن لن يكون جلطة فتوة علينا .

فقال الناظر وهو يضرب كفًا بكف :

- انتهينا وسيدركنا الخراب .

فتعالت الأصوات :

- الخراب خير من جلطة .

وقدفت طوبة من حى رفاعة فاستقرت بين الرجال فى حى جبل . وأجاب حى جبل بالمثل . ورجع الناظر مسرعا . وإذا بالطوب ينهمر من الجانبين ، وسرعان ما اشتبك الحيان فى معركة دامية . واشتد الضرب فى قسوة بالغة . وامتدت المعركة إلى بعض الأسطح حيث تبادل نساء من الحيين قذف الطوب والمحصى والتراب والأخشاب . وتواصل الاشتباك فترة طويلة على الرغم من أن الرفاعة كانوا يقاتلون بغير فتوتهم ، ولكن كثر صراعهم أمام ضربات جلطة التى لا تخيب . وإذا بأصوات نساء تنطلق من التواذ فى ضوضاء غير متميزة ضاعت فى ضوضاء المعركة . غير أن النساء بدون وهن يشنن بأيديهن فى فزع تارة نحو طرف الحارة الشرقي وطورا نحو الطرف الآخر . والتفت أناس إلى حيث تشير النساء . رأوا قاسم أمام البيت الكبير ، يتقدم فى عصبة من رجاله تسبقهم نباتتهم . ورأوا فى الطرف الآخر حسن يتقدم فى عصبة أخرى . ضج المكان بصيحات التحذير وتتابعت الأحداث فى سرعة خاطفة . أمسكت الأيدي عن الضرب كأنما شلت . ويدافع عفوى نكتلوا وتدخلوا ، الضارب منهم والمضروب ، وانقسموا فرقتين لمواجهة القادمين . وصاح جلطة بحقن :

- قلت إنها مكيدة فلم تصدقوا ..

استعدوا للقتال وهم من الجهد واليأس على أسوأ حال . لكن قاسم توقف فجأة عن التقدم ، ومثله فعل حسن كأنهما ينفذان خطة واحدة . وصاح قاسم بأعلى صوته :

- لا نريد أذى لأحد ، لا غالب ولا مغلوب ، أبناء حارة واحدة وجد واحد ، والوقف للجميع .

- فصاح جلطة :

ـ مكيدة جديدة !

فقال قاسم غاضباً :

ـ لا تدفعهم إلى القتال دفاعاً عن فتونك ، دافع عنها وحدك إذا
.. شئت ..

وصرخ جلطة :

ـ اهجموا ..

وانقض على مجموعة قاسم . تبعه رجال . وانقض آخرون على حسن ورجاله . تردد كثيرون . تسلل الجرحى إلى الربوع ، وكذلك المنهكون ، ثم تبعهم المترددون . لم يبق إلا جلطة وعصابته . ولكنهم خاضوا معركة شديدة على رغم ذلك واستمатаوا في الدفاع . تضاربوا بالنبابيت والرءوس والأقدام والأيدي . وركز جلطة هجومه على قاسم بحقد أعمى . تبادلا ضربات عنيفة ، ثم مضى قاسم يتلقى ضربات خصمه بنبوته في خفة وحذر ، لكن رجال قاسم أطبقوا بكثرتهم على عصابة جلطة حتى غابت تحت عشرات النبابيت ، وانقض حسن وصادق على جلطة وهو مشتبك مع قاسم ، فضرب صادق بنبوته وهو حسن بنبوته على رأسه ، مرة وثانية وثالثة ، فسقط البنبوت من يده واندفع يجري كالثور الذبيح ثم انكب على وجهه كمصارع بوابة .

انتهت المعركة . سكتت أصوات النبابيت وصرخات الرجال . وقف المتتصرون وهم يلهثون ويسخون الدماء عن الوجه والرءوس والمعاصم ، لكن ثغورهم افترت على رغم ذلك عن ابتسامة الفوز والسلام . كان العويل يتراهى من التوافذ ، ورجال جلطة مبعشرين على الأرض ، والشمس ساطعة ترسل أشعة حامية . وخاطب صادق قاسم قائلاً في ثقة وطمأنينة :

ـ انتصرت ، نصرك الله . إن جدنا لا يخطئ في اختياره ، ولن تسمع حارتنا العويل بعد اليوم .

فابتسم قاسم ابتسامة هادئة، ثم استدار في عزم موجهها بصره نحو
بيت الناظر فاتجهت الرءوس إليه ..

٩١

سار قاسم على رأس رجاله إلى بيت الناظر فوجدوا الباب والنوافذ مغلقة، والصمت والكآبة يخيمن عليه. وطرق حسن الباب بقوة، ولكن أحداً لم يرد، وتجمعت نفر من الرجال وراحوا يدفعون الباب بشدة حتى افتتح على مصراعيه. ودخل الرجل، ورجاله وراءه. فلم يعشروا للباب على أثر ولا لأحد من الخدم. وتسارعوا إلى البهو، فبقيمة الحجرات، ثم الأدوار الثلاثة، فتبين لهم أن الناظر وأهله وخدمه قد غادروا البيت هاربين. والحق أن قاسم لم يأسف على ذلك، إذ كان في أعماقه راغباً عن الفتوك بالناظر إكراماً لزوجته التي لولاه لقضى عليه من أول الأمر، ولكن حسن الآخرين غضبوا غضباً شديداً لنجاة الرجل الذي أذاق الحرارة الفقر والهوان طوال عهده بها.

وهكذا تم النصر لقاسم وأصبح رجل الحرارة دون منازع. وتولى شئون النظارة إذ إنه كان لا بد للوقف من ناظر. وعاد الجرابيع إلى حيهم، وعاد معهم كل من هاجر من الحرارة خوفاً من الفتوّات وعلى رأسهم المعلم يحيى. ومضت أربعون يوماً في هدوء فالتأمت الجراح وسكنت النفوس واطمأنت القلوب.

ويوماً وقف قاسم أمام البيت الكبير ودعا إليه أهل الحرارة رجالاً ونساء من جميع الأحياء فمضوا إليه في لهفة ونطلع وقلوبهم تخفق بشتى الخواطر. واكتظ بهم المكان واحتلّت جرایعهم بالجبل وأل

رفاعة . وبدا قاسم باسمه متواضعاً رقيقاً مهيباً معاً فأشار إلى أعلى ، إلى
البيت الكبير وقال :

- هنا يقيم الجبلاوي ، جدنا جميعاً ، لا تمييز في الانساب إليه بين حى
وحي ، أو فرد وفرد ، أو رجل وامرأة .

نهلت الوجوه في دهشة وبشر وبخاصة وجوه الذين توقعوا أن
يسمعوا مقالة رجل ملك وانتصر .

واردف قاسم قائلاً :

- وحولكم وقفه ، وسيكون لكم جميعاً على السواء كما وعد أدهم
حين قال له : «سيكون الوقف لذرتك» ، وعلينا أن نحسن
استغلاله حتى يكفى الجميع وفيض ، فنحبها كما ثمني أدهم أن
يحيا ، في رزق موفر وطمأنينة شاملة وسعادة صافية غباء .

وتتبادل الناس النظارات كأنهم في حلم . فواصل قاسم كلامه قائلاً :

- لقد ذهب الناظر إلى غير رجعة ، واختفى الفتوات ، لن يوجد في
حارتنا بعد اليوم فتوة ، لن تؤدوا إتاوة لجبار ، أو تخضعوا للعربيد
متواحش ، فتضى حياتكم في سلام ورحمة ومحبة .

وقلب عينيه في الوجه المستبشرة وقال :

- ويدكم أنتم ألا يعود الحال كما كان . راقبوا ناظركم ، فإذا خان
اعزلوه ، وإذا نزع أحدكم إلى القوة اضربوه ، وإذا أدعى فرد أو حى
سيادة أدبوه . بهذا وحده نضمنون ألا ينقلب الحال إلى ما كان ،
وربنا معكم .

في ذلك اليوم تعزى قوم عن موتاهم ، وأخررون عن هزيمتهم ، ونظر
الجميع إلى الغد كأنما ينظرون إلى بزوغ البدر في ليلة من ليالي الربيع .
وزع قاسم الريح على الجميع بالعدل بعد الاحتفاظ بقدر للتتجديد
والإنشاء . أجل كان نصيب الفرد ضئيلاً ولكن إحساسه بالعدل والكرامة
فاق كل حد . ومضى عهده في تجديد وبناء وسلام . ولم تعم حارتنا قبله

بمثل ما نعمت به في أيامه من الوحدة والألفة والسعادة. أجمل كان ثمة أحاد
في آل جبل يضمرون غير ما يظهرون ويتهامسون فيما بينهم:
«أنكرون من جبل وبحكمنا جربوع من الجرابيع؟!». ومثلهم وجده في
آل رفاعة. بل لم يدخل الجرابيع من نفر أخذتهم العزة والزهو. ولكن
صوتالم يرتفع لتعكير الصفو في عهده. ورأى الجرابيع فيه طرازاً من
الرجال لم يوجد مثله من قبل ولن يوجد مثله من بعد. جمع بين القوة
والرقابة، والحكمة والبساطة، والمهابة والمحبة، والسيادة والتواضع،
والنظارة والأمانة، وإلى ذلك كله كان ظريفاً بشوشًا أنيقاً، وحشاً يلذ
مجلسه، وعشيراً تطيب مودته، فضلاً عن ذوقه الجميل وحبه الغناء
والنكتة. لم يتغير من شأنه شيء اللهم إلا أنه توسع في حباته الزوجية
كأغاً جرى فيها مجراه في تجديد الوقف وتنميته. فعلى حبه بدريه تزوج
حسنة من آل جبل وأخرى من آل رفاعة، وتعشق امرأة من الجرابيع ثم
تزوج منها أيضاً. وقال أنس في ذلك: إنه يبحث عن شيء افتقده مذ
فقد زوجته الأولى قمر. وقال عمها زكرياً: إنه يريد أن يوثق أسبابه بأحياء
الحارة جميعاً. لكن حارتنا لم تكن بحاجة إلى تفسير أو تعليل لما حدث،
بل الحق إنها إذا كانت أعجبت به لأخلاقه مرة فقد أعجبت به حيويته
وحبه النسوان مرات. وإن حب النساء في حارتنا مقدرة يتبع بها الرجال
ويزدهون، ومتزلة تعدل في درجاتها الفتونة في زمانها أو تزيد.

ومهما يكن من أمر فإن حارتنا لم تشعر قبله بالسيادة حقاً، وبأن
أمرها قد آل إلى نفسها دون ناظر يستغل أو فتوة يستذل؛ ولا عرفت قبله
ما عرفت أيامه من الإخاء والمودة والسلام.

وقال كثيرون: إنه إذا كانت آفة حارتنا النسيان، فقد آن لها أن تبرأ
من هذه الآفة، وإنها ستبرأ منها إلى الأبد.

هكذا قالوا ..

هكذا قالوا يا حارتنا!

عرفة

٩٢

المتأمل لحال حارتنا لا يصدق ما تقول الرباب في القهوات . من جبل؟! ومن رفاعة؟! ومن قاسم؟! وأين الآثار التي تدل عليهم خارج نطاق القهوات؟ أما العين فلا ترى إلا حرارة غارقة في الظلمات وربابا تتغنى بالأحلام . وكيف آل بنا الأمر إلى هذه الحال؟ أين قاسم والحرارة الواحدة والوقف المبذول لخير الجميع؟ وماذا جاء بهذا الناظر الجشع وهؤلاء الفتوات المجانين؟ ستسمع حول الجوزة الدائرة في الغرز ، بين الحسرات والضحكات ، أن صادق خلف قاسم على النظارة فسار سيرته . وأن قوما رأوا أن حسن أحق منه بالنظارة لقرباته من قاسم وأنه الرجل الذي قتل الفتوات . وأنهم حرضوا حسن على رفع نبوته الذي لا يقاوم فأبى أن يعود بالحرارة إلى عهد الفتونة . لكن الحرارة كانت قد انقسمت على نفسها ، ومضى أناس في آل جبل وآل رفاعة يجاهرون بما كانوا يضمرون .

ولما رحل صادق عن الدنيا أسفرت الرغبات المكبوتة عن وجهها الشائه ونظراتها العدواية . واستيقظت النباتات بعد رقاد ، وسال الدم في كل حي على حدة ، وبين كل حي وآخر ، حتى قتل الناظر نفسه في إحدى المعارك . وأفلت الزمام ووئد الأمن والسلام ، فلم يجد الناس بدا من إعادة آخر ذرية الناظر رفعت إلى النظارة التي يتلقن الطامعون عليها .

هكذا عاد الناظر قدرى إلى النظارة. وانقلبت الأحياء إلى عصبيتها الفدية، وإذا كل حى يسيطر عليه فتوة، ثم دارت المعرك على فتونة الحارة حتى فاز بها سعد الله، فاحتل بيت الفتوة وصار الفتوة الأول، واستأثر يوسف بآل جبل، وعجاج بآل رفاعة، والسنطورى بآل قاسم. وزرع الناظر الريع بالأمسانة أول الأمر فاستمرت حركة التعمير والتجديد. وسرعان ما لعب الطمع بقلب الناظر، والفتوات من بعده كما كان المتوقع، فارتدوا إلى النظام القديم، أى أن الناظر يستأثر بنصف الريع ويوزع نصفه الآخر على الفتوات الأربع الذين استأثروا به من دون المستحقين، ولم يقفوا عند ذلك بل جاؤزوه بكل وقاحة إلى فرض الإتاوات على أتباعهم المساكين. وتعطلت حركة الإنشاء حتى توقف البناء في بيوت لم يشيد منها إلا نصفها أو رباعها. وبدا وكأن شيئاً من القديم لم يتغير إلا أن حى الجرابيع أصبح حى آل قاسم، يرأسه فتوة كالفتوات الآخرين، وتقوم على جانبيه الريع مكان الأكواخ، والخرائب.

أما أهل الحارة فانقلبوا إلى ما كانوا عليه في الزمان الأسود، بلا كرامة ولا سيادة، تنهكهم الفاقة وتهددهم النباليت وتهال عليهم الصفعات. وانتشرت القذارة والذباب والقمل، وكثير المسؤولون المشعوذون وذوو العاهات. ولم يعد جبل ورفاعة وقاسم إلا أسماء، وأغانى ينشدھا شعراً المقاهي المسطولون. وتباهى كل فريق برجله الذي لم يبق منه شيء وتنافسوا في ذلك إلى حد الشجار والعارك. وذاعت شعارات المساطيل، فيقول أحدهم وهو داخل إلى الغرزة: «ما فيها فائدة» يعني الدنيا لا الغرزة. ويقول آخر: «هناك نهاية واحدة هي الموت، فلنمت بيد الله خير من أن ثموت بنبوت فتوة، وأحسن ما نفعل سكرة أو تخشيشة!». وكانوا يتغذون بمواويل حزينة، ينسجونها من خيوط الخيبة والفقر والذل، أو يترجمون بأغانيات فاحشة داعرة يقذفونها

في آذان النساء والرجال الباحثين عن السلوى والعزاء ولو في خرابه مظلمة. وعندما يشتد الكرب بأحدهم يقول: «المكتوب مكتوب، لا جبل أجدى ولا رفاعة ولا قاسم، حظنا من الدنيا الذباب ومن الآخرة التراب».

ومن عجب أن تبقى حارتنا بعد ذلك كلها الأثيره بين الحواري، يشير إليها الرجل من جيراننا ويقول في إكبار: «حاره الجيلاوي». ونفع في أركانها ساهمين واجميين كأننا بتنا قاتعين بالذكريات العزيزة الماضية، أو أننا نجتاز الإصغاء إلى هاتف في أعماقنا بهمس بصوت خافت: «ليس من المستحيل أن يقع في الغد ما وقع بالأمس، فتحقق مرأة أخرى أحلام الرباب وتحتفى من دنيانا الظلمات».

٩٣

في يوم من الأيام، قبيل العصر، رأت الحارة فتى غريباً قادماً من ناحية الخلاء، يتبعه آخر كالقزم. كان يرتدي جلباباً تراهى اللون على اللحم، ويشد على وسطه حزاماً شطر جلباه شطرين اندفع أحلاهما وتدلل وأمتلاً بأشياء فيه، وانتعل مركوباً باهتاً متنهكاً. أما رأسه فبدا عارياً مشعث الشعر غزيره. وكان أسمراً اللون، مستدير العينين، حاد البصر، تلوح في محجريه نظرة قلقة نافذة، وفي حركاته ثقة واعتداد. وقف قليلاً أمام البيت الكبير ثم تقدم على مهل يتبعه صاحبه. وتطلعت نحوه الأ بصار وكأنما تتساءل: «غريب في حارتنا؟! يا للوقاحة!». قرأ ذلك في أعين الباعة وأصحاب الدكاكين والجالسين في القهوات والمظلات من النوافذ، بل في أعين الكلاب والقطط، حتى خيل إليه أن الذباب نفسه سيتجنبه ازدراء واحتجاجاً. والتفت نحوه الغلمان في

تخرش ، واقترب بعضهم منه ، وأخذ الآخرون يملئون النبال أو يبحثون في الأرض عن طوبة ، فابتسم لهم متودداً ، ودنس يده في عبه فأخرج شوية نعناع وراح يوزعه عليهم فأقبلوا نحوه فرحين ، ومضوا يصونون النعناع وهم يرمونه بإعجاب . وقال لهم والابتسامة لا تفارق وجهه :

- أما من بدرؤم حال للإيجار؟ هيا يا رجال ، من يدلني منكم عليه فله قرطاس نعناع .

وسأله امرأة كانت مقتعدة الأرض أمام أحد الربوع :
- يا ألف مصيبة عليك ، من أنت حتى تسكن في حارتنا؟
فضحك الرجل وقال :

- محسوبك عرفة ، من أولاد حارتكم كالآخرين ، وهو عائد بعد غيبة طويلة .

فدققت المرأة فيه النظر وتساءلت :
- ابن من ياروح أمك؟

فبالغ في الضحك تودداً وقال :

- خالدة الذكر جحشة ، ألا تعرفينها يا سنت النساء؟
- جحشة؟ نين زين؟!

- بعينها ولحمها .

وقالت امرأة مستندة إلى جدار ، كانت تتبع الحديث وهي تلفى رأس غلام :

- كنت تتبع أمك في تلك الأيام وأنت غلام ، ما زلت أذكرك ، وتغير كل شيء فيك إلا عينيك :
فقالت المرأة الأولى :

.أى والله ، وأين أمك؟ ماتت ! الله يرحمها ، ياما قعدت قدام
مقطفها سائلة عن الغيب ، أوشوش «الذكر» وترمى هى باللوع
وتتكلم ، الله يرحمك يا جحشة !

فقال بارتياح :

- الله يطول عمرك ، ستديتني أنت على بدروم حال ياذن الله .

فحذجته المرأة بنظر أعمش وسألته :

- وماذا عاد بك بعد الغيبة الطويلة ؟

فقال محاكيًا لهجة الحكماء :

- مصير الحى إلى حارته وأهله .

فأشارت المرأة إلى ربع في حى رفاعة وقالت :

- عندك هناك بدروم ، خلا مذ ماتت ساكته حرقا الله يرحمها ، ألا
يختلف ذلك ؟

فضحكت امرأة مطلة من نافذة وقالت :

- هذا رجل تخاف منه العفاريت .

فرفع رأسه منظاهرا بالضحك والانبساط وقال :

- يا حارتنا يا حلوة ، ما أرق ظرف أهلك ! الآن أعرف لماذا نصحتنى
أمى عند الوفاة بالعودة إليك !

ثم نظر إلى المرأة القاعدة وقال :

- الموت حق علينا يا زبونة المرحومة أمى ، سواء جاء من حرق أو غرق
أو عفريت أو نبوت .

وحياها ومضى نحو الربع الذى أشارت إليه . وأصبح محط أنظار
كثرين ، فقال رجل ساخرا :

- عرفنا أمها ، فمن ذا يعرف أباها ؟

فقالت عجوز :

- ربنا أمر بالسترا !

فقال ثالث :

. يمكنه أن يدعى أنه ابن رجل من جبل أو رفاعة أو قاسم، كما يشاء
أو تشاء مصلحته، الله يرحم أمها !

فهمس صاحبه في أذنه ساخطا :

- لماذا عدت بنا إلى هذه الحرارة ؟

فقال عرفة والابتسامة ما زالت في شفتيه :

. في كل مكان أسمع هذا الكلام، وهذه حارتنا على أي حال، وهي
الحرارة الوحيدة التي يمكننا الإقامة بها. حسينا تخبطا في الأسواق
ونوما في الخلاء والخرابات. ثم إن هؤلاء الناس طيبون على رغم
قداره ألسنتهم، أغبياء على رغم نياتهم، فهنا يسهل علينا كسب
رزقنا، تذكر هذا يا حنش !

فهز حنش منكبيه الضيقين كأنما يقول : «الأمر الله». واعتراضهما
رجل مسطول فسأل عرفة :

- ماذا اسميك ؟

- عرفة.

- ولقبك ؟

- عرفة بن جحشة !

فضج الواقفون بالضحك مسرورين بهوانه، فعاد المسطول يقول :
ـ طلما سألنا أنفسنا في ذلك الزمان حينما حملت أمك : ترى من
يكون أبوك ؟ فهل خبرتك بالحقيقة ؟

فقال عرفة مداريا ألم يزيد من الضحك :

- ماتت هي نفسها قبل أن تعرفه!
ومضى وهم يضحكون. وسرى نبأ عودته في الأحياء. وقبل أن يتسلل البدر على قمة قهوة الرفاعية وقال له:
ـ المعلم عجاج فتوة حينا يطلبك.

ذهب إلى القهوة على مبعدة قرية من الربع. استرعى نظره أول ما اقترب منها الصور المنقوشة على الجدار الأوسط فوق أريكة الشاعر. كانت تبدأ من أسفل بصورة لعجاج متظلاً جراوه، وفوقها صورة للناظر قدرى بشاربه الفخيم وعباته الأنبلة، ثم فوقهما صورة لجثة رفاعة بين يدى الجبلادى وهو يرفعها من الحفرة ليأخذها إلى بيته. تأمل ذلك المنظر باهتمام ولكن بسرعة، ثم دخل القهوة فرأى عجاج يجلس على أريكة تتوسط الجناح الأيمن، ومن حوله يجلس الآباء والأعون.

مضى عرفة إليه حتى مثل بين يديه فرمي القهوة بنظرة ازدراة طويلة كأنما ينومه بعينيه قبل أن ينقض عليه. وقال عرفة رافعا يديه إلى رأسه:

ـ التحيات المباركات على فتوتنا، من تحتمى بحماه ونسعد بجواره.
ـ فلاحت السخرية في العينين الضيقين وقال:
ـ كلام حلو يا ابن القديمة، ولكنه عملة لا نعرف بها وحدها!
ـ فقال عرفة باسمه:

ـ ستجيء العملة الأخرى في أقرب وقت إن شاء المولى.
ـ عندنا متسولون أكثر من الحاجة!
ـ فقال عرفة بكبرياء ضاحك:
ـ لست متسللا يا معلم ولكن ساحر اعترفت بفضلة الملائين!
ـ وتبادل الجلاس النظرات فقطب عجاج متسائلا:

-ماذا تعنى يا ابن المجنونة؟

فدس عرفة يده فى عبه وأخرج حقا صغيرا دقيقا فى حجم النبقة
وتقىد فى خضوع من المعلم ومدى به يده فتناوله المعلم بعدم اكتثار ،
وفتحه ، فرأى مادة قائمة ، ثم رفع إليه عينيه متسائلًا ، فقال عرفة فى ثقة
لا حد لها :

-قمحه منه على فنجان شاي قبل «لا مؤاخذة» بساعتين ، وبعدها فلما
ترضى عن محسوبك عرفة ، وإما تطرده من الحارة مشفوعا
باللعنة .

اشرأبت الأعناق باهتمام شديد لأول مرة ، وحتى عجاج لم يستطع
أن يخفى اهتمامه ، لكنه تسأله في استهانة مصطنعة :
-أهذا هو سحرك؟

-عندى أيضًا البخور النادر ، الوصفات العجيبة ، الطب والدواء ،
الأحاجة ، ويعرف قدرى حقا عند المرض والعقم والضعف .

فقال عجاج فيما يشبه الوعيد :

-الله.. الله.. فلنبشر بالإتاوات!

فانقضى قلب عرفة ، لكن وجهه زاد انبساطا وهو يقول :

-كل ما أملك تحت أمرك يا معلم .

فضحك الفتاة بفترة وقال :

-لكنك لم تخبرنا من أبوك!

فقال دون أن يزايله المرح :

-لعلك به أعلم !

وضجت القهوة بالضحك ، وتلاقت التعليقات الساخرة في شراريب
الدخان السابحة في الجو . ولما ابتعد عرفة عن القهوة قال لنفسه حانقا :

«من يدرى من يكون أبوه حقا؟ ولا أنت يا عجاج، آه يا أولاد الكلب!». وفقد هو وحنش البدروم فى ارتياح، ومضى يقول: أوسع ما كنت أتوقع، مناسب جدا يا حنش، فهذه الحجرة صالحة للمقابلات، والتى بالداخل للنوم، والأخيرة للعمل.

فسأله حنش بقلق:

- ترى فى أى حجرة احترقت المرأة؟

فضحك عرفة ضحكة عالية رنت بين الجدران الخالية وقال: - أتخاف من العفاريت يا حنش؟ إننا نتعامل معهم كما كان جبل يتعامل مع الشعابين.

ونظر فيما حوله بارتياح وقال:

- ليس عندنا إلا نافذة واحدة في الحجرة المطلة على الطريق، سترى الطريق من تحت من خلال النافذة ذات القضبان الحديدية، فلهذه المقبرة ميزة جليلة وهي أنها لا يمكن أن تسرق.

- قد تذهب!

- قد!

ثم وهو يتنهد:

- كل ما عندي فيه فوائد للناس، لكنى لم ألق فى حياتى إلا الإساءة.

فقال حنش :

- سيعوضك التجاحر عن كل ما نالك من أذى، أو ما نال المرحومة أمك من قبل.

في أوقات الفراغ كان يحلو له أن يجلس على كبة قديمة ليتفرج على ما يجري من النافذة المطلة على أرض الحارة. جلس مستند الجبين إلى قضبان النافذة فبدت الأرض على مستوى بصره بكل ما يدب عليها من أقدام وعجلات وكلاب وقطط وحشرات وأطفال، أما الوجوه والصدور فلم يكن ليراها إلا بتحفيف قامته ورفع رأسه. ووقف أمامه طفل عار وهو يلعب بفار ميت، ثم مر عجوز ضرير يحمل على يسراه صينية خشبية حملت لها فولاً وحلوى وذباباً ويتوكأ ييمناه على عصا غليظة، وكان صوت عويل يتراهمي من شباك بدرورم قريب، ومعركة تدور بين رجلين حتى تدفق الدم من وجهماهما. وابتسم للطفل العاري وسأله برقة:

- ما اسمك يا شاطر؟

فأجاب:

- أونه.

- قصدك حسنة، هل يعجبك هذا الفار الميت يا حسنة؟
فرماه به. ولو لا أن حجزه قضيب لأصاب وجهه، وجرى الصغير كقارب يتمايل. والتفت نحو حنش وكان يهوم عند قدميه وقال:
- في كل شبر من هذه الحارة تجد دليلاً على وجود الفتوات،
ولكنك لن تجد دليلاً واحداً على وجود أناس مثل جبل أو رفاعة أو
قاسم.

فقال حنش وهو يتاءب:

- نحن نرى أمثال سعد الله ويوسف وعجاج والسنطوري، ولكننا
نسمع فقط عن أمثال جبل ورفاعة وقاسم.
- لكنهم وجدوا، أليس كذلك؟
فأشار حنش إلى أرض الحجرة بأصبعه وقال:
- ربنا رفاعي، كل سكانه رفاعية، أى رجال رفاعة الذى تؤكى
الرباب كل مساء أنه عاش ومات فى سبيل الحب والسعادة، ومع
ذلك فنحن نغير ريقنا كل صباح على سبابهم ومشاجراتهم. هكذا
هم نساء ورجالا.
- فلوى عرفة شفتيه امتعاضاً وقال:
- لكنهم وجدوا، أليس كذلك؟
فواصل حنش كلامه قائلاً:
- السباب أهون ما يقع فى حى رفاعة، أما المعارك فأجبارك الله منها.
أمس فقط فقد ساكن عينه.
- وقف عرفة محتاباً وقال:
- حارة عجيبة! الله يرحمك يا أمى، انظر إلينا مثلاً، الكل يتتفع بنا
ولو أحد يحترمنا!
- إنهم لا يحترمون أحداً.
- فصر على أسنانه وقال:
- إلا الفتوات!
- فقال حنش ضاحكاً:
- حسبيك أنت الوحيد في هذه الحارة الذي يتعامل معه الجميع من
جبيلية ورفاعية وقاسمية.
- عليهم اللعنة جميعاً.

وصمت ملياً وعيناه تلمعان في ضوء البدروم الخافت ثم قال:
ـ كل واحد منهم يفاخر برجله بغباء وعمى، يفاخرون برجال لم يبق
منهم إلا أسماؤهم، ولا يحارلون فقط أن يجاوزوا الفخر الكاذب
بخطوة واحدة! أولاد كلب جبناء.

وكان أول من قصده من زبائن امرأة من آل رفاعة، في الأسبوع
الأول من استقراره في مسكنه، وإذا بها تسأله بصوت خفيض:
ـ كيف يمكن التخلص من امرأة دون أن يدرى أحد؟
فارتاع الرجل، ونظر إليها باستغراب، ثم قال:
ـ لست لذلك يا ستي، إذا أردت أدوية للجسد أو للروح فانا
خادمك!

فتساءلت بإنكار:
ـ أليست ساحرًا؟
ـ فقال بوضوح:
ـ في كل ما فيه فائدة للناس، أما القتل فله أناس آخرون!
ـ لعلك خائف؟! لكننا سنكون شريكين سرهما واحد.

فقال برقة تطوى سخرية:
ـ لم يكن رفاعة كذلك!
ـ فنهفت:

ـ رفاعة؟! عليه الرحمة، نحن في حارة لا تجدى فيها الرحمة، ولو
كانت تجدى ما هلك رفاعة نفسه!

وتركه يائسة، لكنه لم يندم. إن رفاعة نفسه - أول الطيبين - لم يظفر
بالسلامة في هذه الحارة، فكيف يأمل فيها من يبدأ عمله بالجريمة؟!
وأمه! كم لاقت من آلام دون أن تتعرض لأحد بأذى. فليكن على خير

صلة بالناس جميعاً كما يجدر بكل تاجر لبق. ومضى يتعدد على جميع المقاهي فيجد في كل قهوة زبونا يعرفه. واستمع إلى فصص الرباب في جميع الأحياء حتى اختلطت في رأسه وكان يدور بها ذلك الرأس. وكان أول زبون جاءه من حي قاسم رجلاً طاعناً في السن فقال له همساً:
وهو يبسم:

- سمعنا عن الهدية التي أخفت بها عجاج فتوة رفاعة.

فتفسر في وجهه المجدع باسماء، فقال الرجل:

- أخفنا بما عندك ولا تدهش، في وحياتك رقم!

وبتبادل ابتسامة كالسر، فقال العجوز متسلحاً:

- أنت قاسمي، أليس كذلك؟ هكذا يعتبرك أهل حيناً.
فسألته عرفة ساخراً:

- هل يعرفون أبي عندكم؟

قال الرجل بجد واهتمام:

- القاسمي يعرف بسيماه! لذلك فأنت قاسمي. نحن الذين رفعنا الحرارة إلى قمة العدالة والسعادة، ولكنها وأسفاه حارة مشتومة.

ثم تذكر الرجل الغرض الذي جاء من أجله فقال برقه:
- الهدية من فضلك.

وذهب الرجل وهو يقرب الحقن من عينه العمشاه وقد دبت في مشيته المتهالكة صحوة نشاط وأمل. وكان آخر من زاره شخصاً غير متوقع. كان يجلس في حجرة الاستقبال على شلتة أمامها مبخرة تفث دخاناً رقيقاً ساحراً حين دخل عليه حنش بين يدي نوبى عجوز وهو يقول:
- عم يونس بباب حضره الناظر.

فانتفض عرفة واقفاً ومد له يديه مرحباً وهو يقول:

- أهلاً.. أهلاً، زارنا النبي.. تفضل يا مولانا!

جلسا متباورين ، وقال الباب بصراحة معهودة :
- الهاشم ، نظيرة هامن حرم الناظر ، تحلم أحلاما مزعجة سيئة حتى قل
نومها .
بدأ الاهتمام في عيني عرفة ، ودق قلبه دقة الأمل والطموح ، لكنه
قال ببساطة :

- حال عارضة تمر بسلام ..

- لكن الهاشم متزعجة وقد أرسلتني إليك لتجد لها شيئاً مناسباً .
شعر عرفة بسعادة وسيادة لم يعرفهما طوال حياة التشرد التي ألفها
في ظل أمه الراحلة وقال :

- الأفضل أن أحادثها بنفسى !

فقال الباب بحدة :

- محال ! لن تجيء إليك ولن تدخل إليها !
وغالب عرفة اليأس مستميتا في الدفاع عن فرسته الذهبية فقال :
- يلزمتنى منديلها أو شئ من طرفها !
وأحنى الباب رأسه المعمم وقام ليذهب . وعندما بلغا باب البدروم
تكلأ الباب قليلا ثم مال على أذن عرفة قائلا في همس :
- سمعنا عن هديتك لعجاج فتوة رفاعة !

ولما ذهب الباب بالهدية ضحك عرفة وحنث طويلا ، وتساءل
الأخير :

- من أخذ الهدية يا ترى ؟ لنفسه أم للناظر أم للهاشم ؟
وهتف عرفة ساخراً :

- يا حارة الهدايا والنباییت !

ومضى إلى النافذة ينظر إلى الحرارة في الليل . بدا الجدار المواجه

لعينيه مفضضها بضوء القمر، وتعالت زفرات الصراصير، وارتفع صوت
الشاعر من قهوة الحى وهو يقول:

ـ اتساءل أدهم:

ـ متى تقر بأنه لم تعد تربطنا صلة؟

ـ فقال إدريس:

ـ لترحمنا السماء، ألمست أخرى؟ هذه رابطة ليس في الإمكان
ـ فضمها.

ـ إدريس! كفاك ما فعلت بي ..

ـ الحزن قبيح، ولكن كلينا مصاب، أنت فقدت همام وقدرى وأنا
ـ فقدت هند، أصبح للمجبلاوي العظيم حفيدة عاهرة وحفيد
ـ قاتل ! ..

ـ فعلا صوت أدهم وهو يهدر:

ـ إذا لم يكن جزاؤك من جنس عملك فعلى الدنيا العفاء». .
ـ وتحول عرفة عن النافذة فى سأم. متى تكف حارتانا عن حكى
ـ الحكايات؟ ومتى يكون على الدنيا العفاء؟ وأمى رددت يوما هذا
ـ القول: «إذا لم يكن الجزاء من جنس العمل فعلى الدنيا العفاء». أمى
ـ المسكونة ساكتة الخلاء. لكن ماذا أفادت من الحكايات يا حارتانا؟

٩٥

كان عرفة وحنش يعملان بهمة فى حجرة البدروم الخلفية على ضوء
ـ مصباح غازى مثبت فى الجدار. لم تكن الحجرة تصلح للحياة العادية
ـ لرطوبتها وظلامها ولم يقعها آخر البدروم فجعل عرفة منها مقرأً للعمل.

وبيت على أرضها وفي أركانها مجموعات من أوراق الأحاجبة، والأترية والجير، ونباتات وتوابل، وحيوانات وحشرات مجففة كالفسران والضفادع والعقارب، وأكواام من قطع الزجاج، وقوارير، ومياه في صفائح، وسوائل غريبة ذات رائحة نفاذة، وفحم، وكانون، وقد ركبت على الجدران رفوف حملت بأنواع شتى من الأوعية والأنية والأكياس. وكان عرفة منهمكا في خلط بعض الموارد وعجنها في وعاء من الفخار كبير، وكان العرق يتصلب من جسيمه فيجففه بكم جلياً من حين لآخر. هذا وحش راين عن كثب، يراقبه باهتمام، استعداداً لتلبية أي إشارة تصدر منه، وكانت أراد أن يعزبه أو يتهدى إليه فقال:

- هذا التعب لا يبذل جزءاً منه أكبر عامل في هذه الحارة المنكودة، وفي سبيل أي جراء يبذل؟ ملاليم أو قرش على خير الفروض!
فقال عرفة بارتياح:

- رحم الله أمي! لا يعرف فضلها سواي، ويوم سلمتني لذلك الساحر العجيب الذي يقرأ لك جميع ما يجول في خاطرك تغيرت حياتي تغيراً كليا، فلولاها لكونت على خير ظن نشالاً أو متسولاً..

فأصر حنش على أسفه قائلاً:
- ملاليم ..

- النقود تكثر بالصبر، لا تيأس من ذلك. ليست الفتونة هي السبيل الوحيد إلى الثروة، ولا تننس المترفة السامية التي أنتخ بها، فإن من يقصدني إنما يعتمد كل الاعتماد على ويسع سعادته أمانة بين يدي، وليس هذا بالشيء القليل. ولا تننس أيضاً لذة السحر نفسه، لذة استخراج مادة مفيدة من مواد قذرة، لذة الشفاء حين يأتمر بأمرك، وهنالك القوى المجهولة التي تشوف للاتصال بها وامتلاكها إن استطعت.

ونظر حنش إلى الكانون وقال منقطعاً فجأة عن تيار صاحبه:
ـ الأوفق أن أوقد الكانون في دهليز المtower وإلا اختنقنا.
ـ أوفده في جهنم، ولكن لا تخرجني عن أفكارى! إن أى مغفل من
يحسبون أنفسهم معلمين في هذه الحارة لا يستطيع أن يدرك
خطورة الأشياء التي تصنع في هذه الحجرة المعتمة القدرة ذات
الروائح الغريبة. أدركوا فائدة «الهدية» ولكن ليست الهدية كل
شيء. إن أ العجيب لا يحيط بها الخيال يمكن أن تخرج من هذه
الحجرة. المجانين لا يدركون قيمة عرفة الحقيقة، لعلهم يعرفونها
يوماً ما، وعند ذلك يجب أن يترحموا على أمي لأن يعرضوا بها
كما يفعلون.

وكان حنش قد قام نصف قومة فعاد يجلس القرفصاء وهو يقول
بامتياض:

ـ كل هذا الجمال قد تطييع به عصا فتوة أحمق.

فقال عرفة بحدة:

ـ نحن لا نؤذى أحداً وندفع الإنداوة فكيف نتعرض للأذى يا ابن
جلجل؟

فضحك حنش قائلاً:

ـ وما كان ذنب رفاعة؟

فحدخله بنظرة غاضبة وقال:

ـ لماذا تقرفي بهذه الأفكار؟

ـ أنت تأمل أن ترى وهنا لا يرى إلا الفتوات، وتأمل أن تصير قويًا
وهنا لا يسمع بالقوة إلا للفتوات، فاعمل حسابك يا أخي!
وصمت عرفة حتى يتأكد من حسن تقديره في الخلط بين الموارد، ثم

نظر إلى حنش فرأى سجنته ما زالت محفوظة بصورة التحذير فضحك
فائلًا :

- حذرتنى أمى من قبلك ، شكرابا حنش يا ابن جلجل ، لكنى عدت
إلى الحارة وفي رأسى خطة !

- ييدو أنه لم يعد يهمك إلا السحر .
فقال عرفة في جذل كالنشوة :

- السحر شيء عجيب حقاً ، لا حد لقوته ، ولا يدرى أحد أين يقف ،
وقد تبدو النباليت نفسها لمن يملكه لعب أطفال ، تعلم يا حنش ولا
تكن غبياً ، تصور لو كان جميع أولاد حارتنا سحرة ؟

- لو كانوا جميعهم سحرة لما توا جوعاً !

فضحك عرفة ضحكة كشفت عن أسنان حادة وقال :

- لا تكن غبياً يا حنش واسأله نفسك ماذا كان يمكن أن يصنعوا ! والله
كانت الأعاجيب تخرج من حارتنا في غزارة السباب والشتائم .

- نعم ، على شرط ألا يموتوا جوعاً قبل ذلك !

- نعم ، ولن يموتوا ما داموا في غير ...

لكنه سكت قبل أن يتم قوله ، ومضى يفكر في اهتمام حتى كفت يداه
عن العمل ، ثم رجع يقول :

- شاعر آل قاسم يقول إن قاسم أراد استغلال الوقف حتى يجد كل
 حاجته فيستغني عن العمل ويفرغ للسعادة الغناء التي حلم بها
أدهم .

- ذلك قول قاسم !

فقال وعيناه تلمعان بشدة :

- ولكن الغناء ليس هو الهدف الأخير ! تصور أن يمضى العمر في

فراغ وغباء؟ هو حلم جميل لكنه مضحك يا حنش ، الأجمل حقا
أن نستغنى عن العمل لتصنع الأعاجيب .

هز حنش رأسه الكبير - الذي يبدو منغرسا في جسده دون رقبة
تذكر . محتجاً على حديث لا معنى له ، ثم استرد لهجة العمل الجدية
وهو يقول :

- دعني الآن أوقد الكاتون تحت المنور .

- افعل ، وضع نفسك فوق اللهب فما تستحق إلا الحرق .

وغادر عرفة غرفة العمل بعد ساعة فمضى إلى الكتبة وجلس ينظر
من النافذة إلى الخارج . اقتحمت أذنيه ضجة الحياة بعد صمت فتلافت
فيهما نداءات الباعة وأحاديث النساء المتبدلة ونكات صارخة ومخترات
من الشتائم ، تصاحب تيار الرائحيين والغادين الذي لا ينقطع . وإذا به
يلاحظ أن شيئاً جديداً انخذ مكانه عند الجدار المواجه لنافذته . قهوة
متقللة مكونة من قفص مغطى بملاءة قديمة صفت عليه علب البن والشاي
والقرفة وموقد وكنجات وفناجيل وأكواب وملاعق ، وقد جلس عجوز
على الأرض يروح على الوقود ليُسخن ماء ، على حين وقفت وراء
القفص فتاة في ربيع العمر وهي تنادي بصوت دافع : «قهوة مزاج يا
جدع ! ». كانت القهوة تقع عند ملتقى القاسمية بالرفاعية ، ويداً أن أكثر
زيانها من أصحاب عربات اليد والمساكين . وجعل عرفة يطيل النظر إلى
الفتاة من بين القضبان . هذا الوجه الأسمر المثليع بخمار أسود ما
ألفه ، وهذا الجلباب البني الغامق الذي يغطيها من العنق حتى القدمين
ويتججرج منه طرف على الأرض إذا مشت بطلب أو عادت بفتح فارغ ،
هذا الجلباب حشمة وأدب ، وهذه القامة الرشيقه ، والعينان العسليتان ما
أجملهما لولا احمرار أشفار يسراهما لرمد أو قذارة ! هي ابنة العجوز
كما يشهد الوجهان وبيدو أنه أثجبها في سن متاخرة كما يقع كثيراً في
حارتنا . ودون تردد صالح بها :

-يا شابة.. فنجال شاي وحياتك.

فامتدت إليه عيناهما، وبسرعة ملأت قدحا من إبريق مدفون حتى
متصفه في الرماد، ومضت به إليه عبر الطريق فتسلمه وهو يقول
باسمها:

-عاشت يدك، كم ثمنه؟

-نكلة.

-غالا! ولكن لا يغلو لك ثمن!

فقالت باحتجاج:

-في القهوة الكبيرة بتعرية وهو لا يمتاز عما في يدك بشيء.

وذهبت دون انتظار ل الكلام، فراح يحسوه قبيل أن يبرد دون أن يحوال
عينيه عنها. ما أسعده أن يملك فتاة بهذا الشباب! لا عيب فيها إلا حمرة
عينها وما أسهل أن يداويها، ولكن الأمر يحتاج إلى قدر من التقدّم
يوجد بعد. والبدروم جاهز وما على حنش إلا أن ينام في الدليلز أو في
حجرة الاستقبال إذا شاء على شرط أن يفليها من البق أولا بأول. وانتبه
على همة غريبة، ورأى الناس ينظرون نحو أعلى الحارة ويقولون
بعض منهم: «السنطوري.. السنطوري» فنظر بعيل على قدر ما
سمحت به القضايان له فرأى الفتاة قادما في حالة من الأعوان. ولما مر
بالقهوة المتنقلة وقع بصره على الفتاة فسأل رجلا من رجاله:

-من الفتاة؟

-عواطف بنت عم شكرتون.

فلعب الرجل حاجبيه في ارتياح ومضى نحو حبيه. وشعر عرفة
بضيق وقلق. لوح للفتاة بالقدر الفارغ فجاءته في حفة فأخذته وتناولت
من يده النكلة. وعند ذاك سألهما وهو يشير بذقنه إلى الناحية التي ذهب
إليها السنطوري:

- ألم يضايقك شيء؟

فقالت ضاحكة وهي تستدير لذهب:

- سأستعين بك عند اللزوم، فهل تعين؟

فحزت في نفسه سخريتها. سخرية حزينة لا متحدية فتضاعف ضيقه. وهنا سمع صوت حنش وهو يناديه فوثب إلى أرض الحجرة واندفع إلى الداخل..

٩٦

تكاثر زياض عرفة مع الأيام، لكن قلبه لم يفرح بزيرون كما فرح بعواطف يوم رآها مقبلة عليه في حجرة الاستقبال. نسي مهابة المعلم التي يرتديها أمام زياضه فوقف مرحبا بها، ثم أجلسها على شلتة أمامه وترفع في مجلسه والدنيا لا تسعه من السرور. حيالها بنظرة شاملة لكنها سرعان ما وقفت على عينها اليسرى التي كادت تختفي وراء ورم ملتهب، فقال محتاجا:

- أهميتها يا شابة، كانت حمراء منذ أول يوم رأيتكم.

فقالت كالمعذرة:

- اكتفيت بغسلها بالماء الساخن، والمشغول بالعمل مثلى ينسى.

- لا يجوز أن تنسى صحتك، وبخاصة إذا تعلق الأمر بعضو عزيز مثل عينك الجميلة!

ابتسمت متأثرة بالثناء على حين كان هو يمد يده إلى رف خلفه ليجيء بكرز، ثم أخرج منه لفافة صغيرة وقال وهو يشير إليها:

- صرى ما فيها فى منديل، وحطىه فوق بخار ماء يغلى، ثم

اريطيه على عينك ليلة بعد أخرى حتى تعود عينك إلى جمال
أختها.

تناولت اللفافة، وأخرجت كيسا من جيبها وهي تسأله بعينها اليمنى
عن الشمن. فقال ضاحكا:

- لا عليك من هذا فنحن جيران وبيتنا صدقة!

- لكنك تدفع ثمن ما تشرب من شاي.

قال متهرئاً:

- إنني أدفع في الواقع لأبيك، هذا الرجل الوقور. كم أود أن أعرفه،
وكم أسفت على اضطراره للعمل حتى هذه السن المتأخرة!

فقالت في مباهاة:

- لكن صحته جيدة، وهو يأبى أن يقعد في البيت، غير أن طول
عمره من دواعي حزنه في الحياة، إذ إنه كان من شهدوا الأحداث
على عهد قاسم.

فتحلى الاهتمام في وجه عرفة وسألها:

- حقاً؟ أكان من أغوانه؟

- كلا، لكنه ذاق السعادة في أيامه وما زال يتحسر عليها.

- أريد أن أعرفه وأن أستمع إليه.

فبادرته قائلة:

- لا تجره إلى هذا الحديث، فإني أود أن ينساه إلى الأبد حرصا على
سلامته. كان مرة في خماره يشارب بعض أصحابه، ولما سكر
وقف بينهم يطالب بأعلى صوته بأن تعود الحياة إلى ما كانت عليه
أيام قاسم، وما أن عاد إلى حارتنا حتى وجد السنطوري أمامه
فانهال عليه ضربا وصفعا ولم يتركه حتى أغوى عليه.

تفكر عرفة في امتعاض شديد ثم لحظ عواطف بمكر وقال:

- لا أمان لأحد مع وجود هؤلاء الفتوات !
فرمكته بنظره خاطفة كأنما تتساءل عما وراء مقصده الظاهر ،
وقالت :

- صدقت ، لا أمان لأحد معهم .
وترىث وهو بعض شفتيه كالمردد ، ثم قال :
-رأيت السنطوري وهو ينظر إليك نظرة كلها وفاحة .
فدارت ابتسامة بحركة من رأسها إلى أسفل ، وقالت :
-ربنا يأخذنـه .

لكن عرفة تسأله في ارتياه :
- أليس مما يسر الفتاة أن يعجب بها فتوة مثله ؟

- إنه زوج لأربع !
فغاص قلبه في أعماقه ، وتسأله :
- وإذا كان عنده متسع ؟
فقالت بحده :

- كرهته منذ اعتدى على أبي ، وهكذا جميع الفتوات لا قلوب لهم ،
يأخذون الإتاوة وكأنهم لاستكبارهم هم الذين يعطون .
فانتعش بالارتياح وقال بحماس :

- أحسنت يا عواطف ! كما أحسن قاسم من قبل يوم قضى عليهم ،
لكنهم يعودون مثل بعض الدمامل القامضة .

- لذلك يتحسر أبي على أيام قاسم .

فهز رأسه في غير اكتراث طارئ وقال :

- ويوجد غيره من يتحسرون على أيام جبل ورفاعة ، لكن الماضي لا
يعود .

فقالت في استياء مليح:
ـ تقول ذلك لأنك لم تشهد قاسم مثل أبي.
ـ وهل شهدته أنت؟
ـ أبي قال لي.
ـ وأمي قالت لي ، ولكن ما جدوى ذلك؟ إنه لا يخلصنا من
الفتوات ، وأمي نفسها كانت ضحية لهم ، وها هم أولاء يعرضون
بها بعد موتها .
ـ حقاً؟

فقال بوجه متوجه كأنه قدح ماء صاف تعكر فجأة بإثارة رواسته :
ـ لذلك أخشى عليك يا عواطف . الفتوات يهددون الرزق والعرض
والحب والسلام . أصارحك بأنني اقتنعت منذ رأيت الوحش يتطلع
إليك بوجوب القضاء عليهم .

فقالت عواطف باهتمام :

ـ يقولون إنه في وصية جدنا الواقف ...
ـ أين جدنا؟!

فقالت ببساطة :

ـ في البيت الكبير .

فقال بهدوء وبوجه لا ينم عن السرور :

ـ نعم أبوك يحدث عن قاسم ، وقاسم حدث عن جدنا ، هكذا
نسمع ، ولكن لا نرى إلا قدرى وسعد الله وعجاج والسنطوري
ويوسف . نحن في حاجة إلى قوة تخلصنا من العذاب ، فماذا
تجددى الذكريات !

وانتبه إلى أن مجرى الحديث كاد يفسد عليه اللقاء ، فقال وهو يعدل
عن السيكا إلى للعصبا :

- الحرارة في حاجة إلى قوة كما أنا في حاجة إليك !
فحددجته بنظرة استنكار ، فابتسم في جرأة بدت غير غريبة عن عينيه
البارحةتين ، وقال بجدية ليتحاشى غضبة متوجبة في حاجبها :
شابة طيبة مجتهدة جميلة ، تنسى في غمرة العمل عينها حتى
تورمت ، ثم تخشنى وهي تظن أنها في حاجة إلى فتتضح لها الحقيقة
وهي أنني أنا الذي في حاجة إليها .

قالت وهي تهم بالقيام :
آن لى أن أصرف .

- بغير غضب من فضلك ، وادركى أنني لم أصرح بجديد ، فلا شك
في أنك استشففت إعجابي بك طوال الأيام الماضية إذ إن نظراتي
تذهب وتحب ما بين نافذتي وفهوتك . إن أعزب مثلى لا يمكن أن
يعيش وحده إلى الأبد ، وإن بيته المشحون بالعمل في حاجة
للرعاية ، وإن أرباحه تفيس عن حاجته فلابد أن يشاركه فيها
إنسان .

غادرت الحجرة . وقف في نهاية الدهليز ليودعها . وكأنها لم ترض
أن تذهب دون تحية فقالت :
ـ فتك بعافية .

ولبث مكانه وهو يترنم بصوت مهمس :
خدك العباس يا بدرى واملألى الكاس من بدرى
أنت أحلى الناس فى نظري
ثم مضى في فتوة ونشاط إلى حجرة العمل فوجد حنش منهمكاً في
واجباته ، فسأله :
ـ ماذا عندك ؟
ـ فعرض أمامه زجاجة وهو يقول :

معبةً ومحكمة الإغلاق، لكن ينبغي أن تجرب في الخلاء.
فتناولها عرفة وراح يمتحن سدادتها، ثم قال:
- نعم، في الخلاء ولا افتضاح أمرنا.
فقال حنش بقلق:
- الرزق بدأ يجيء والحياة تتسم، فلا تفرط فيما وهبك الله من
سعادة.

أخذ حنش يضيق بالحياة بعد أن حلّت في عينيه. ابتسم عرفة عند هذا
الاطار. ونظر إلى حنش مليا ثم قال:
- كانت أمك كما كانت أمي.
- نعم ولكنها توسلت إليك ألا تفكّر في الانتقام.
- كان رأيك غير ما تبدي الآن!
- سقتل قبل أن نتقم.
فضحك عرفة وقال:
- لا أخفي عنك أني كففت عن التفكير في الانتقام من زمن.
فنهلّل وجه حنش وهو يقول:
- هات الزجاجة لنفرغها يا أخي.
لكن عرفة شدد قبضته على الزجاجة وهو يقول:
- بل سنجريها حتى تبلغ الكمال.

فقطب حنش في استياء احتجاجا على الهزء به، فأردف عرفة
 قائلا:

- أنا أعني ما أقول يا حنش، ثق بأنني عدلت عن الانتقام، لا إذعانا
لتسلّات أمّنا، وإنما لافتتاحي بوجوب القضاء على الفتوّات
بصرف النظر عن انتقامنا.

فقال حنش محتداً:

- بسبب حبك لهذه الفتاة.

فضحك عرفة حتى بان حلقة وقال:

- حب الفتاة، حب الحياة، أسمه بما نشاء.. كان قاسم على حق!

- مالك أنت وقاسم؟! كان قاسم يتحقق رغبة جده!

فمعط بوزه وقال:

- من يدرى؟! حارتنا تمحکي الحکایات، أما نحن فنقوم بأعمال حاسمة في هذه الحجرة لا شک فيها، وأین الأمان في حياتنا؟ سیجي، عجاج غداً البنېب رزقنا، وإذا قدمت يداً للزواج من عواطف اعتبر ضنى نبوت السنطوري، وهذا حال كل رجل في حارتنا حتى المسؤول. فما يکدر صفوی هو ما يکدر صفو حارتني، وما يؤمتنى هو ما يؤمتنها. حقاً ما أنا بفتوة، ولا برجل من رجال الجبلاوي، ولكنى أملك الأعاجيب في هذه الحجرة، ومنها قوة لم يحز عشرها جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين. ورفع الزجاجة بيده متخدًا هيئة المتثبت للقذف بها، ثم أعادها إلى حنش قائلاً:

- سنجر بها الليلة بالجبل.. ابسط وجهك واستعد حماسك.

وغادر حجرة العمل إلى النافذة، وتقرفص فوق الكنبة مرسلًا ناظريه إلى القهوة المتنقلة. وكان الليل يهبط رويداً، وصوتها يعلو منادياً بالقهوة والشاي، وتجنبت النظر إلى نافذته فدل التتجنب على خطوره ببالها. وومض بالابتسام فمها مثل ذلك النجم. وابتسم عرفة، كيانه كله ابتسم، وفاض من قلبه الرضا حتى أقسم ليمشطن شعره كل صباح. وترامت من الجمالية ضجة أقوام يطاردون لصاً، ثم انبعثت من القهوة أنغام الرباب، وترامي صوت الشاعر مفتتحاً ليلته بقوله:

الأولى آه سى قدرى ناظرنا

والثانية آه سعد الله فتوتنا
والثالثة آه عجاج فتوة حتنا

فانتزع من حلمه بلا رحمة . وقال بلال وغمد : « سبداً الحكايات ،
متى تنتهي هذه الحكايات ؟ وماذا أفاد الاستماع إليها طوال
الليالي ؟ سيغنى الشاعر وستتيقظ الغرزايا حارة الحسرات . . . » .

٩٧

وطرأ على حياة عم شكرتون اضطراب غامض . كان يتكلم أحياناً
بصوت مرتفع جداً كأنه يخطب فيقولون بعطف : « الكبر .. إنه الكبر ».
وكان يغضب شديداً الغضب لأنّه سب أو لغير ما سب
فيقولون : « الكبر »، وكان يصمت طويلاً حتى حين تتطلب الحال الكلام
فيقولون : « الكبر ». وكان يقول أقوالاً تعدد في الحارة كفراً فيقولون في
إشراق : « الكبر .. اللهم احفظنا ». وكان عرفة يراقبه كثيراً من خلال
القضبان في عطف واهتمام . ومضى يراقبه ذات يوم وهو يقول لنفسه :
رجل مهيب على رغم أسمائه البالية وقدارته ، وعلى صفة وجهه
الناحية نقشت النكسة التي عدت على الحارة عقب أيام قاسم ، إذ إنه من
سوء حظه أنه عاصر قاسم ، فنعم أيام العدل والأمان ، ونال نصيبه
كاماًلاً من ريع الوقف ، ورأى الأبنية تشيد باسم الوقف ثم تتوقف بأمر
قدري . وبالجملة هو رجل يائس طال به العمر أكثر مما ينبغي ! ورأى
عواطف قادمة بوجه لا تشوبه شائبة بعد أن شفقت عينها فتحول عن
الرجل إليها وهتف باسماً :
- الشاي يا أهل النظر !

وجاءته باللقدح فقال قبل أن يتناوله من يدها ليضمن بقاءها :

- مبارك عليك الشفاء يا وردة حارتنا:

فقالت باسمه:

- الفضل لله ولنك.

وتناول القدح متعمداً أن تمس أنامله أناملها، فرجعت ومرح مشيتها
بنبي عن القبول والرضا. ما أبدر أن يخطو الخطوة الخامسة. وهو
رجل لا تعوزه الجرأة، غير أنه يجب أن يعمل للسنطوري ألف حساب.
الحق على عم شكرتون الذي جاء بفتاته إلى طريق السنطوري! لكنه
مسكين أعياد التجوال وراء عربته حتى عجز عن الاستمرار ففتح هذه
القهوة المشئومة.

وترامت من بعيد ضجة وهتاف فتطلعت الرءوس نحو الجمالية، وما
لبث أن ظهرت عربة كارو حملت النساء المغنيات المصنفات في وسطهن
عروس عائدة من الحمام، فجرى الغلمان نحو العربة مهليين وتعلقوا
بأطرافها وهي صاعدة نحو حى آل جبل، واضطربم الجو حيناً بالزغاريد
والتهاني والهمسات الفاحشة. ووقف عم شكرتون كالغاضب وصاح
بصوت كالرعد:

- اضرب.. اضرب!

فهربت إليه عواطف وأجلسته وهي تربت ظهره في أسى وحنان.
وتساءل عرفة: ترى هل يحلم الرجل أو يهلوس؟ ما أعن الكبر. كيف
إذن يعيش جدنا الجبلاوى؟ وجعل ينظر إلى الرجل حتى سكن ثم سأله
برقة:

- يا عم شكرتون هل رأيت الجبلاوى؟

فأجابه دون أن ينظر إليه:

- يا مغفل، ألا تدري أنه اعتكف في بيته من قبل أيام جبل!

فضحكت عرفة، كما ابتسمت عواطف، وقال بصوت باسم:

-ربنا يمد في عمرك يا عم شكرؤن.

فصاح شكرؤن:

-دعاء كان له قيمة حقاً عندما كان العمر له قيمة.

وجاءته عواطف لتأخذ القدر فقالت له همساً:

-دعه في حاله، إنه لا ينام من الليل ساعة!

فقال باهتمام حار:

-قلبي عنك يا عواطف.

ثم بسرعة قبل أن تهم بالسير:

-أود أن أحدهم في أمرنا.

فحذرته بأصعبها وذهب. وراح يتسلى برؤيه صغار يلعبون «وطى البصلة». وبفترة ظهر السنطوري قادماً من حي آل قاسم فتراجع رأسه عن القضبان بحركة غريزية. ماذا جاء به؟ من حسن حظه أنه أقام في حي آل رفاعة فأصبح له من عجاج حام، عجاج الفارق في «هداياه». اقترب الفتوة حتى وقف أمام قهوة شكرؤن، وتفحص وجه عواطف وهو يقول:

-واحد سادة.

لعلعت ضحكة امرأة في نافذة وتساءلت أخرى:

-أى شيء حمل الفتاة قاسم على طلب السادة من قهوة المسؤولين؟

بدأ السنطوري غير مكترث لشيء. قدمت عواطف له الفنجان فتلوي قلب عرفة في صدره. وانتظر الفتوة حتى تذهب حرارة المشروب وهو يتسم إلى الفتاة ابتسامة وفحة كشفت عن أسنانه المذهبة. وتوعده عرفة في نفسه بضربه بجبل المقطم. ورشف السنطوري رشقة وقال:

-تسلم يدك الجميلة.

وخفت أن تبتسم كما خافت أن تقطب على حين تطلع شكرتون
إليهما بارتياع. ثم أعطاهما الفتوة قطعة من ذات الخمسة القروش فدست
يدها في جيبيها لاحضار الفكرة ولكنه لم يتظر ولم يجد أنه يطالب بشيء،
وعاد إلى قهوة القاسمية. وحارت عواطف في أمرها فقال لها عرفة
بصوت منخفض:

- لا تذهب إلى إيه.

فتساءلت:

- وبأي النقود؟

فنهض عم شكرتون على رغم ضعفه وأخذ الباقي وذهب إلى
المقهى. وبعد قليل عاد العجوز إلى مجلسه. وما لبث أن أغرق في
الضحك حتى اقتربت منه ابنته وقالت برجاء:

- كفاك ضحكاً.

ونهض قائماً مرة أخرى. وقف مستقبلاً بيت الواقع في نهاية
الحارقة، وصاح:

- يا جبلاوي.. يا جبلاوي..

والنفت نحوه الأعين من النوافذ وأبواب الربوع والمقاھي
والبدروميات، وهرع نحوه الغلمان، حتى الكلاب رمقته بأعيتها..
وعاد شكرتون يصبح:

- يا جبلاوي، حتى متى تلازم الصمت والاختفاء؟! وصايك
مهملة وأموالك مضيعة، أنت في الواقع تسرق كما يسرق
أحفادك يا جبلاوي!

وهتف الصغار «هيـه»، وقهقه كثيرون. أما العجوز فاستدرك
صارخاً:

- يا جبلاوي ألا تسمعني؟ ألا تدرى بما حل بنا؟ لماذا عاقبت إدريس
وكان خيرا ألف مرة من فتوات حارتنا؟! يا جبلاوي!
خرج عند ذلك السنطوري من المقهى وهو يصيح به:
- يا مخرف احتشم.

فالتفت نحوه غاضبا و هتف:
- عليك اللعنة يا وغد الأوغاد!

همس كثيرون في إشراق: «ضاع الرجل». واتجه السنطوري نحوه
وقد أعماه الغضب و ضربه على رأسه بقبضته. ترتعش الرجل وكاد يهوي
لولا أن أدركته عواطفه. ورأها السنطوري فرجع إلى مجلسه.
وقالت الفتاة باكية:

- لنعد إلى البيت يا أبي.
وانضم إليها عرفة في مساندته، ولكن العجوز حاول في ضعف أن
يبعدهما عنه. وثقلت أنفاسه على حين ساد الأقربين وجوم. وقالت
امرأة من نافذة:

- الحق عليك يا عواطف، فالأحسن أنه كان يبقى في البيت.
فقالت عواطف وهي ما زالت تبكي:
- مالي حيلة.

وراح شكرهن يقول بصوت ضعيف:
- يا جبلاوي .. يا جبلاوي ..

وقبيل الفجر شق صوات مولول السكون، ثم عرف الناس أن شكرؤن قد مات. كانت حادثة غير غريبة على الحارة. وقالت بطانة السنطوري: «الله يرحمه، عاش قليل الأدب، وقلة الأدب كانت السبب في موته». وقال عرفة لحسن:

- قتل شكرؤن، كما يقتل كثيرون في حارتنا، والقتلة لا يبالغون بإخفاء جرائمهم، ولا يتجرأ أحد على الشكوى أو يجد شاهدا واحدا!

قال حسن بتقرز:

- يا للمصيبة! لماذا جئنا إلى هنا؟!
- إنها حارتنا.

- أمّا غادرتها منكسرة الخاطر، حارة ملعونة هي ومن عليها.
قال ياصرار:

- لكنها حارتنا.

- كأننا نكفر عن ذنوب لم نحنها.
- التسليم هو أكبر الذنوب جمیعا.

قال حسن بيأس:

- خابت تجربة الزجاجة في الجبل!
- لكنها ستتجعل في المرأة القادمة.

ولما حمل نعش شكرؤن لم يكن وراءه إلا عواطف وعرفة، هكذا بدا

أمام الربع . وعجب الجميع من اشتراك عرفة الساحر في الجنازة ،
وتهامسا بجرأته العجيبة . ذلك الساحر المجنون .

وكان الأعجب من ذلك أن السنطوري انضم إلى الجنازة عندما
توسطت حى آل قاسم . بأى جرأة وقحة فعل ؟ ! لكنه فعل بلا حياء وقال
عواطف :

- البقية في حياتك يا عواطف !

وأدرك عرفة أن الرجل يمهد بذلك لطلب القاتم . والمهم أن حال
الجنازة تغير في غمرة عين إذ تسارع إليها الجيران والمعارف الذين منعهم
الخوف حتى ملأت الطريق . وعاد السنطوري يقول :

- البقية في حياتك يا عواطف !

فنظرت إليه في تحدي وقالت :

- قتل القتيل وتمشى في جنازته ؟ !

فقال السنطوري بصوت سمعه كثيرون :

- قبيل مثل هذا لقاسِم من قبل .

وتعالت أصوات كثيرة وهي تقول :

- وحْدَى الله ، الآجال بيد الله وحده !

فصاحت به عواطف :

- قتل أبي بصرية بذلك !

فقال السنطوري :

- الله يسامحك يا عواطف ، لو كنت ضربته ضربة حقيقة لقتل في
الحال ، والحق إنى ما ضربته ولكن هو شنته والكل يشهدون بذلك .

واستبقيت الحناجر قائمة :

- هو شه ! مالمنته يده ، والله ما لمسه ، ولما يأكل الدود عيوننا إن كنا
كاذبين .

فهافت عواطف :

- ربنا المتقن !

فقال السنطوري بحلم ضرب مثلاً عهداً طويلاً :

- الله يسامحك يا عواطف .

ومال عرفة على أذن عواطف وقال فيما يشبه الهمس :

- خلى الجنائزة تسير بسلام .

وما يدرى عرفة إلا ورجل من أعوان السنطوري يدعى العضاف

يهوى بكفه على وجهه ويصبح به :

- يا ابن المحبولة، ما أدخلتك أنت بينها وبين المعلم؟!

اللفت عرفة نحوه في ذهول فتلقي ضربة أشد من الأولى، وأآخر

صفعه، وثالث بصنق على وجهه، ورابع أخذ بتلاييه، وخامس دفعه

بقوة فسقط على ظهره، وسادس قال له وهو يركله:

- ستدفن في القرافة إذا ذهبت إليها.

لبث مطروحاً على الأرض في ذهول، وتجمعاً، وقام في ألم غير

بسير وراح ينفض التراب عن جلابه ووجهه. وكان جمع من الصغار قد

التفوا حوله وراحوا يهتفون: «العجل وقع.. هاتوا السكين».. رجع

إلى البدرورم وهو يعرج وقد جن جنون غضبه. ونظر حنش إليه بأسى

وقال :

- قلت لك: لا تذهب!

فصرخ في حنق أهوج:

- اسكت، الويل لهم.

فقال له بلين وحزم معًا:

- اصرف النظر عن هذه الفتى وإنما فعلينا السلام.

فسمت مليا وهو ينظر إلى الأرض مفكرا، ثم رفع وجهها مكفهرا
بالإصرار المخيف وقال:

- سترانى متزوجا بها أقرب مما تتصور!

- هذا هو الجنون بعينه.

- وسوف يرأس عجاج الزفة.

- إنك تبلل ثيابك بالكحول وتترمى بنفسك في النار.

- وسأعادك تجربة الزجاجة اللليلة في الخلاء.

ولزم داره لا ييرحها أياما، ولكن صلته بعواطف لم تنقطع عن طريق النافذة ذات القصبان. ثم قابلها خفية عقب انقضاء أيام الحداد في دهليز ريعها وقال لها في صراحة:

- يحسن بنا أن نتزوج في الحال.

ولم تُفجأ الفتاة بطلبه ولكنها قالت في حزن:

- مستسبب موافقتي لك من المتأعب ما لا تحتمل.

فقال بشقة:

- قبل عجاج أن يشرف حفلنا، ولذلك معنى لا يخفى عليك.

واتخذت الخطوات في نكتم شديد حتى تم كل شيء. وعلمت الحرارة دون سابق إنذار أن عواطف ابنة شكرتون تزوجت من عرفة الساحر، وانتقلت إلى داره وأن عجاج فتوة آل رفاعة قد شهد الزواج. ذهل كثيرون وتساءل آخرون: كيف تم ذلك؟ كيف تجرأ عرفة عليه؟ وكيف أقنع عجاج بباركته؟ أما أهل الخبرة فقد قالوا: يا داهية دقى.

واجتمع السنطوري بأعوانه في قهوة آل قاسم، وعلم عجاج بذلك فاجتمع بأعوانه في قهوة آل رفاعة. ودرت الحارة بالاجتماعين فتوتر جوها، وسرعان ما خلا الموقع بين القاسمية والرفاعية من الباعة والمتسولين والأطفال وأغلقت الدكاكين والنواخذ. وخرج السنطوري برجاله إلى الحارة فخرج عجاج برجاله كذلك. واحتدم الشر حتى فاحت رائحته الكريهة فلم يبق على اندلاع اللهيب إلا لمسة. وصاح رجل طيب من فوق السطح:

- ماذا أغضب رجالنا؟ فكرروا قبل أن تجري الدماء.

فصاح عجاج من خلال صمت الرهبة وهو ينظر إلى السنطوري:

- لسنا غاضبين ولا داعي عندنا للغضب.

فقال السنطوري بغلظة:

- أنت خرجمت على حدود الزمالة يا معلم، ولا يمكن أن يفرك فتوة على ما فعلت.

- وما الذي فعلت؟

فقال السنطوري وكأن الكلام يخرج من فمه وعينيه معا:

- حميتك رجلا وهو يتحدانى.

- ما فعل الرجل إلا أن تزوج بتا وحيدة بعد وفاة أبيها، وأنا أشهد زواج كل رفاعي.

فقال السنطوري بازدراء:

- ما هو برفاعى ، ولا يعرف أحد أباه ، ولا هو نفسه ، وقد تكون أنت
أباه وقد أكونه أنا ، أو أى متسلط فى الحارة .

- لكنه يقيم اليوم فى حى .

- ليس ذلك إلا لأنه وجد بدرور ما خاليا !

- ولو !

فصرخ السنطوري بصوت مدوٌّ :

- أعرفت أنك خرجمت على حدود الزماله ؟

فصاح به عجاج :

- لا تصرخ يا معلم ، الأمر لا يستوجب أن نتنافر كالديوك !

- لعله يستوجب .

فقال عجاج بنبرة كأنها أمر بالاستعداد :

- اللهم طولك يا روح .

- عجاج .. انتبه لنفسك !

- ملعون أبو القفا .

- ملعون أبوك !

وارتفعت النبایت لو لا أن أدركها صوت كالخوار يصبح بلهجة
أمراه :

- عيب يا رجال .

انجذبت الرءوس نحو مصدره ، فرأوا المعلم سعد الله فتوة الحارة وهو
يشق طريقه بين الرفاعية حتى وقف في المنطفة بين العجين وهو يقول :
- نزلوا النبایت .

فهبيطت النبایت كرؤوس المصلين ، ونظر سعد الله مرة إلى
السنطوري وأخرى إلى عجاج وقال :

- لا أحب الآن أن أسمع كلام أحد . تفرقوا بسلام ، مذبحة من أجل
مرة؟ يا خسارة الرجلة!

تفرق الرجال في سكون ، ورجع سعد الله صوب داره .
وكان عرفة وعواطف داخل البدروم لا يصدقان أن الليلة ستمر
بسلام ، كانوا يتبعان ما يدور في الخارج بقلبين واجفين ووجهين
متعقلين ، ولم يبتل لهما حلق حتى سمعا صوت سعد الله بتبرته الأمرة
التي لا ترد . تنهدت عواطف من الأعماق وقالت :

- ما أفسى هذه الحياة !

وأراد عرفة أن يبيث في نفسها شيئاً من الطمأنينة فقال وهو يشير إلى
رأسه :

- أنا أعمل بهذا ، هكذا كان جبل ، وهكذا كان قاسم الماكر الظاهية !
فازدردت ريقها بشقة وقالت :

- ترى هل تدوم السلامة ؟

ضمهما إلى صدره في مرح ظاهري وقال :

- ليت كل زوجين يسعدان مثلنا .

فطرحت رأسها على كتفه ريشما تسترداً أنفاسها وهمست قائلة :

- ترى هل تنتهي المسألة عند ذلك ؟

ففnx قائلاً في صراحة :

- أى فتوة لا يؤمن جانبها .

فرفعت رأسها وهي تقول :

- أعرف ذلك ، وبى جرح لن يلتئم حتى أراه صريعاً .

وعرف من تعنى ، ونظر في عينيها بتفكير وقال :

- الانتقام في مثل حالتك واجب ولكنه لا يؤدي إلى نتيجة حاسمة .

إن سلامتنا مهددة لأن السنطوري يود البطش بنا، ولكن لأن
سلامة حارتنا كلها مهددة بيطش الفتوات، ولو تغلبنا على
السنطوري فمن يضمن لنا ألا يتحرش بنا عجاج غداً أو يوسف بعد
غد؟ فاماً أمن للجميع وإماً لا أمن لأحد.

فابتسمت في فتور متسائلة:

- أتريد أن تكون كجبل أو رفاعة أو قاسم؟

فقبل شعر رأسها وهو يتشمم رائحته القرنفلية دون أن يجيب،
فعادت تقول:

- أولئك كلغوا بالعمل من قبل جدنا الواقف.

فقال بضجر:

- جدنا الواقف؟! كل مغلوب على أمره يصبح كما صاح المرحوم
أبوك: «يا جبلاوي»! ولكن هل سمعت عن أحفاد مثلنا لا يرون
جدهم وهم يعيشون حول بيته المغلق؟ وهل سمعت عن واقف
يعيث العابثون بوقفه على هذا النحو وهو لا يحرك ساكنا؟

فقالت ببساطة:

- إنه الكبر!

فقال بارتياح:

- لم أسمع عن معمر عاش طول هذا العمر.

- يقال إنه يوجد رجل في سوق المقطم جاوز المائة والخمسين من
العمر. ربك قادر على كل شيء.

فصمت ملياً، ثم غمغم قائلة:

- كذلك السحر فهو قادر على كل شيء!

فضحكت من غروره وهي تنفر بأصبعها على صدره وقالت:

- سحرك قادر على مداواة العين .

- وعلى أشياء لا تمحى !

فتهدت قائلة :

- يا لنا من مساطيل ! تتسلى بالأحاديث كأننا لا يتهدى شيئاً !

لم يأبه لمقاطعتها فواصل حديثه قائلاً :

- وقد يتمكن يوماً من القضاء على الفتوان أنفسهم ، وتشييد المباني ،
وتوفير الرزق لأولاد حارتنا كافة .

فتساءلت ضاحكة :

- هل يمكن أن يحدث ذلك قبل قيام القيمة ؟

فرقت عيناها الحادتان بنظرة حالية وقال :

- آه لو كنا جمِيعاً سحرة !

- لو !

ثم أردفت قائلة :

- في زمن قصير حقق قاسم العدالة بغير سحرك !

- وسرعان ما ولت . أما السحر فأثره لا يزول ، لا تستخفى بالسحر
يا عسلية العينين . إنه لا يقل عن جبنا خطورة ، ويخلق مثله حياة
جديدة ، ولكنه لن يؤتى أثره الحق إلا إذا كان أكثرنا سحرة !

فتساءلت في دعابة :

- وكيف يتأتي ذلك ؟

ففكر طويلاً قبل أن يجيب قائلاً :

- إذا تحققت العدالة ، إذا نفذت شروط الواقف ، إذا استغنى أكثرنا
عن الكد وتوفروا على السحر .

- أتريدها حارة من السحرة !

وضحكـت ضـحـكة لـطـيفـة واستـدرـكت قـائـلة :

- وما السـبـيل إـلـى تـنـفـيـذ الشـرـوط العـشـرة وجـدـنا قـعـيدـ الفـراـش ، وـيـدـوـ آـنـه ما عـاد بـوـسـعـه أـن يـكـلـفـ أحـدـاـ من أحـفـادـه بـعـمـلـ !

فـنـظـر إـلـيـها نـظـرة غـرـيـبة وـتـسـاءـلـ :

- مـلـاـذا لـانـذهبـ نـحنـ إـلـيـهـ ؟

فـضـحـكتـ مـرـةـ أـخـرىـ وـقـالـتـ :

- هل تستـطـيعـ أـن تـدـخـلـ بـيـتـ النـاظـرـ ؟

- كـلـاـ، ولـكـنـ رـبـاـ استـطـعـتـ دـخـولـ الـبـيـتـ الـكـبـيرـ .

فـضـرـبـتـ يـدـهـ وـهـيـ تـقـولـ :

- كـفـاكـ مـزـاحـاـ حتـىـ نـطـمـئـنـ عـلـىـ حـيـاتـنـاـ أـلـاـ !

فـابـتـسـامـةـ غـامـضـةـ وـقـالـ :

- لوـكـنـ أـلـبـحـ المـزـاحـ مـاـ عـدـتـ إـلـىـ حـارـتـناـ .

فـأـفـرـعـهـاـ شـىـءـ فـيـ نـبـرـتـهـ ، فـحـدـجـتـهـ بـدـهـشـةـ وـهـتـفـتـ :

- أـنـتـ تـعـنـىـ مـاـ تـقـولـ .

فـطـالـعـهـاـ بـنـظـرةـ صـامـتـةـ فـعـادـتـ تـقـولـ :

- تـصـورـ أـنـ يـقـبـضـواـ عـلـيـكـ فـيـ الـبـيـتـ الـكـبـيرـ !

فـقـالـ بـهـدوـءـ :

- مـاـ الـعـجـبـ فـيـ وـجـودـ حـفـيدـ فـيـ بـيـتـ جـدـهـ ؟!

- قـلـ إـنـكـ تـمـزـحـ . رـبـاـ! مـالـكـ تـنـظـرـ جـادـاـ هـكـذـاـ ؟! شـىـءـ عـجـيبـ ، لـمـاـذاـ تـرـيدـ أـنـ تـذـهـبـ إـلـيـهـ ؟

- أـلـاـ تـسـتـحقـ مـقـابـلـتـهـ الـمـخـاطـرـ ؟

- كـلـمـةـ نـدـتـ عنـ لـسانـكـ فـكـيفـ اـنـقلـبـتـ حـقـيـقـةـ مـرـعـبـةـ ؟!

فـرـبـتـ رـاحـتـهاـ لـيـهـدـيـ خـاطـرـهـاـ وـقـالـ :

- مذ عدت إلى حارتنا وأنا أفكرو وحدى في أشياء لا تخطر ببال.

فتساءلت بتسلل:

- لم لأنعيش في حالنا؟

- يا ليت! إنهم لا يتركوننا نعيش في حالنا، ولابد للإنسان من أن يؤمن حياته.

- إذن نهرب من الحرارة.

فقال بإصرار:

- لا أهرب وفي يدي السحر!

وتجذبها برقة حتى الصدقها بنفسه، وجعل يربت منكبها وهو يهمس في أذنها:

- سنجدد للكلام فرضاً كثيرة؛ أما الآن فليطمئن قلبك.

١٠٠

ترى جن الرجل أم أعماء الغرور؟ هكذا جعلت عواطف تسأله وهى تراقب عرفة فى عمله وتفكيره. ومن ناحيتها لم يكن يقدر صفو أيامها السعيدة إلا رغبتها فى الانتقام من السنطوري قاتل أبيها، والانتقام فى الحرارة تقليد مقدس من قديم الزمان. وحتى هذا التقليد المقدس يمكن أن تتناساه ولو على مضمض إكراماً للحياة السعيدة التي وهبها إليها الزواج. لكن عرفة كان يؤمن بأن الانتقام من السنطوري ما هو إلا جزء من عمل كبير ألى على نفسه - كما خيل إليها - القيام به ولم تفهمه. أيحسب أنه أحد الرجال الذين تتغنى بهم الرباب؟ لكن الجبلاوي لم يعهد إليه بشيء، وهو لا يجدو كبير الثقة بالجبلاوي ولا

بما تحكى الرباب . ومن المؤكد أنه بات يعطي السحر من جهده ووقته أضعاف أضعاف ما يتطلبه الرزق . وإذا فكر جاوز تفكيره شخصه وأسرته إلى مسائل عامة لا يعني بها أحد ، كالحرارة والفتونة والنظارة والوقف والريع والسحر . وكان يحلم أحلاماً عريضة عن السحر المستقبل مع أنه كان الرجل الوحيد في الحارة الذي لم يقبل على الخشيش لحاجة عمله في الحجرة الخلفية إلى اليقظة والانتباه .

ولكن كل هذا هان إلى جانب رغبته الجنونية في التسلل إلى البيت الكبير . لماذا يا رجل؟ لأسأله المشورة فيما ينبغي أن تسير عليه الحارة . أنت تعلم بما ينبغي أن تسير عليه الحارة ، وكلنا نعلم ، فما الضرورة إلى تعريض نفسك للهلاك؟ أريد معرفة شروط الوقف العشرة . ليست العبرة في المعرفة ولكن في العمل فماذا تستطيع أن تفعل؟ الحق إنني أريد أن أطلع على الكتاب الذي طرد بسببه أدهم إن صدقت الحكايات . وماذا يهمك في ذلك الكتاب؟ لا أدرى ما الذي يجعلنى أؤمن أنه كتاب سحر ، وأعمال الج بلاوى في الخلاء لا يفسرها إلا السحر لا العضلات والنبوت كما يتصورون . وما الداعى إلى هذه المخاطر وأنت سعيد ورزقك موفور بغيرها؟ لا تظننى أن السنطوري نسينا .. كلما خرجت كدت أتعثر فى نظرات رجاله الخانقة . حسبك السحر ودع البيت الكبير جانبا . هناك الكتاب .. كتاب السحر الأول .. سرقوا الج بلاوى الذى ضن به حتى على ابنه ، قد لا يكون شيئاً مما تصور ، وقد يكون ، والأمر يستحق المخاطرة .

وإذا به يخطو خطوة حاسمة في طريق الصراحة فقال لها:

- هكذا أنا يا عواطف ، ما العمل؟ لست إلا ابنا حقيراً لامرأة تعيسة وأب مجهول والكل يعرف هذا ويتندر به ، ولكن لم يعد لي من هم في الدنيا إلا البيت الكبير ، وليس غريباً على مجهول الأب أن يتطلع بكل قوته إلى جده . وحجرتى الخلفية علمتني إلا أؤمن

بشيء إلا إذا رأيته بعيني وجربته بيدي، فلا محيد عن الوصول إلى داخل البيت الكبير، وقد أجد القوة التي أنشدها وقد لا أجد شيئاً على الإطلاق، ولكنني سأبلغ برا هو على أي حال خير من الحيرة التي أكابدها. ولست أول من اختار المتابعة في حارتنا، كان بوسع جبل أن يبقى في وظيفته عند الناظر، وكان بوسع رفاعة أن يصبر نجار الحرارة الأولى، وكان في وسع قاسم أن يهنا بقمر وأملاكها وأن يعيش عيشة الأعيان، ولكنهم اختاروا الطريق الآخر.

فقال حنش بأسى:

ـ ما أكثر الذين يجرون نحو الهالك بأرجلهم في حارتنا!

فقال عرفة بحدة:

ـ قليل منهم من عنده لذلك أسباب وجيهة.

غير أن حنش لم يختلف عن معاونة أخيه. تبعه كظلله في الهزيع الأخير من الليل إلى الخلاء. ولما يئست عواطف من مقاومته رفعت يديها بالدعاء له. كانت ليلة مظلمة ظهر الهاكل في أولها ساعة ثم اختفى. سار الأخوان بلصق الجدران حتى بلغا السور الخلفي للبيت الكبير فيما يلى الخلاء. وقال حنش همساً:

ـ كان رفاعة يقف في مكاننا عندما ترامى إليه صوت الجبالوى.

فقال عرفة وهو ينظر فيما حوله مدفقاً:

ـ هكذا تقول الرباب، وسوف أعرف حقيقة كل شيء.

فأشار حنش إلى الخلاء وقال برهبة:

ـ وفي هذا الخلاء كل الجبالوى بنفسه جبل وأرسل خادمه إلى قاسم.

فقال عرفة بامتعاض:

- وفيه أيضا قتيل رفاعة واغتصبت أمنا وضررت ولم يحرك جدك ساكنا!

وحط حنش مقطفا به أدوات حفر على الأرض، ثم شرعا في حفر الأرض تحت السور ورفع الأترية بالمقطف. عملا بجد وعزم حتى امتلأ صدراهما برائحة ترابية. وتبين أن حنش لم يكن دون عرفة حماسا، كأنما كانت الرغبة نفسها تدفعه وإن غلبه الخوف. ولم يكن رأس عرفة يعلو فوق الأرض إلا بشبر حين قال من جوف الحفرة:

- حسبنا هذا، الليلة.

ثم وثب إلى سطح الأرض معتمدا على راحتيه ثم قال:
- علينا أن نسد الفوهه باللوح الخشبي ثم نغطيها بالتراب حتى لا ينكشف أمرها.

ثم رجعا مسرعين والفجر في أعقابهما. كان يفكر في الغد. الغد العجيب. حين يسبر في البيت الكبير المجهول. ومن يدرى فلعله يلقى الجبلاوي ولعله يحداته، فيستوضحه عما مضى وعما هو راهن وعن شروط وقفه وسر كتابه. ذلك الحلم الذي لا يتحقق إلا بين سحابات الدخان الذي تنفسه الجوز. ومن يدرى فربما وجده وقد كبر وخرف وفقد ذاكرته، أو مات من زمن بعيد دون أن يدرى أحد إلا الناظر، ولن يقطع في هذه الأمور إلا المغامرة.

وفي البدر يوم وجد عواطف لا تزال ساحرة تتضرر، فلما رأته حدجته بنظرة عتاب ناعسة وغمغمة:

- كأنك راجع من مقبرة!

فقال بمرح يداري به قلقه:

- ما أحلاك!

وارتدى إلى جانبها فقالت:

- لو كنت عندك شيئاً لما استهنت برأيي .

فقال مداعباً :

- ستغرين رأيك عندما تشهدين ما يحدث غداً .

- لى في السعادة فرصة وفي ال�لاك ألف !

فضحك عرفة ثم قال :

- لو رأيت الأعين الحاقدة لأيقنت أن ما ننعم به من سلام ما هو إلا خيال .

ومرق سكون الفجر صوات حاد، وتبعه عويل، فعبست عواطف
وتنتمت :

- فأل غير حسن !

فهز منكبيه باستهانة ، ثم قال :

- لا تلوميني يا عواطف وأنت مسئولة بعض الشيء عما أنا فيه .
ـ أنا ؟ !

فقال جاداً :

- عدت إلى الحارة مدفوعاً برغبة خفية إلى الانتقام لأمي . ولما وقع
الاعتداء على أبيك تأصلت تلك الرغبة في الانتقام من جميع
الفتوات ، ولكن حتى لك أضاف إليها جديداً كاد يطمس على
الأصل ، وهو أن أقضى على الفتوات لا للانتقام ، ولكن ليها
الناس بالحياة ، وما قصدت بيت جدنا إلا لأحصل على سر
قوته .

ورنرت إليه بنظرة طويلة فرأ فيها بوضوح على ضوء الذبالة الإشراق
الأليم من أن تفقدك كما فقدت أباها ، فابتسم إليها مشجعاً متودداً ، وكان
العويل يستفحـل في الخارج .

شد حنش على يد عرفة مودعاً والأخير في أعماق المخفرة. وانطبع عرفة على وجهه وراح يزحف خلال الممر المعقق برائحة الأرض، وما زال في زحفه حتى برز رأسه من أرض الحديقة داخل البيت الكبير، استقبل أنه شذا عجيبة كأنه خلاصة الخلاصات من الورد والياسمين والحناء مذابة في ندى الفجر. أسركه الشذا على رغم شعوره البالغ بالخطورة، ها هو ذا يتسمم الحديقة التي مات أحدهم حسرة عليها. ما يبدو منها إلا ظلام ضارب تحت الأنجام الساهرة. وعليها صمت رهيب يند عنه من آن لأن هسيس الأوراق المستجيبة للنسائم. ووجد الأرض طرية رطيبة فيت في نيته أن يخلع نعليه عند تسلله إلى البيت كيلا يطبع على الأرض آثاره. ترى أين ينام البواب والبستانى وغيرهما من سائر الخدم؟ وزحف على أربع في حذر شديد أن يحدث صوتاً متوجها نحو البناء الذي بدا شبح هيكله متربعاً في الظلام. ولاقي في رحلته نحو البيت من الارتياح مالم يلاق في حياته على إيلافه خوض الظلمات والمبيت في الخلاء والخرائب.

ومضى يزحف لصق الجدار حتى مست يده أولى درجات السلالم الفضى إلى السلاملك إن صدق الريباب. هنا دفع الجبلاوي يادريس ليطرده خارجاً. ذلك كان مصير إادريس جزاء تحدبه لأمر أبيه، فما عسى أن يفعل الجبلاوي بمن يقتحم عليه داره ليسرق سر قونه؟ ولكن مهلاً فإن أحداً لا يمكن أن يتوقع تسلل لص إلى البيت الذي ظلل آمناً مدرعاً بعهابته طيلة الأعوام الماضية. دار زاحفاً حول الدرازبين ثم أخذ يرقى في الدرج على يديه وركبته حتى بسطة السلاملك. وخلع نعليه وتأبطهما

ثم زحف نحو الباب الجانبي الذى تقول الرباب انه يفضى إلى المخدع .
ويغتة سمع سعلة ! سعلة قادمة من الحديقة . فلبد أسفل الباب مرسلأ
ناظريه نحو الحديقة ، فرأى شبحا يقترب من السلاملك . كتم أنفاسه
لأنه خيل إليه أن اضطراب قلبه سيسمع مدويا . وأخذ الشبح يقترب
ومضى يرقى في الدرج . لعله الجبلاوى نفسه . ولعله يضبطه متلبسا
بجرينته كما ضبط أدهم من قبل في الساعة نفسها على وجه التقرير .
وبلغ الشبح بسطة السلاملك على بعد ذراعين من مكمنه . لكنه مضى
إلى الجانب الآخر من السلاملك ، ورقد على شيء يشبه الفراش ! خف
التوتر مخلفا وراءه إعياء . ولعل الشبح لم يكن إلا خادما ذهب لقضاء
حاجة ثم عاد إلى مرقده وهو ذا يعلو شخيره . استرد شيئا من جرأته
فرفع يده متحسسا موضع الأكرة حتى عشر عليها ، وأدارها بهوادة ،
ومضى يدفع الباب برفق حتى انفوج عن فتحة تسعه ثم زحف داخلها
ورد الباب وراءه . وجد نفسه في ظلمة حالكة ، فأجال يده أمامه حتى
مس أولى درجات السلم ، وجعل يصعد في خفة الهواء .

انتهى إلى ردهة طويلة مضاءة بمصابح في كوة الجدار . وكانت
تنعطف يمينا إلى الداخل ، وتمتد يسارا بعرض البيت ، ويتوسطها باب
المخدع مغلقا . عند ذلك المنعطف وقفت أمينة ، ومن موقفه انطلق
أدهم ، وهو ذا ينطلق وراء الشيء نفسه . تراكمت على صدره
الرهبة ، فنادى إرادته وجرأته ، وكان من السخرية أن يرجع . قد يظهر
خادم في أي لحظة ، وقد يفيق من جنونه على يد تقبض على كتفه ، فما
أجدره بأن يسرع .

سار على أطراف أصابعه نحو الباب . أدار المقبس اللامع فدار مع
يده ، ودفع الباب فانفتح برفق ، ثم تسلل راداً الباب وراءه . أنسد ظهره
إلى الباب في ظلام لا يرى فيه شيئا ، وتنفس بحذر وكأنما يضنه
بأنفاسه . وعبثا حاول أن يرى شيئا . وبعد قليل شم رائحة بخور زكية

أفعمت قلبه فلقاً وحزناً غريباً لم يدر له من سبب، ولم يعد يشك في أنه في مخدع الجبلاوي. متى يألف الظلمة؟ وكيف يلم نفسه المبعثرة؟ ومن وقف موقفه هذا من قبل؟ وكيف يشعر بأنه سينهار إلى الخضيض إذا لم يستمسك بكل ما أوتي من قوة وعزّم وجرأة؟! وتوعّد نفسه بالهلاك إذا لم يحسب لكل حركة حسابها الدقيق. وتذكر السحب في جريانها الذي يرسم لها أشكالاً غريبة بطريقة عفوية فيرسم جيلاً كما يرسم قبراً. ومن الجدار بأصبعه فاتخذ منه مرشداً وسار بحذائه متقوساً حتى لمس كتفه مقعداً.

لكن حركة مفاجئة ندت من ركن الحجرة البعيد تصلبت لها شرائنه. لبدوراء المقعد متوجه العينين نحو الباب الذي دخل منه. وسمع وقع أقدام خفيفة وخفيف ثوب. وتوقع أن يغمر الظلماء نور وأن يرى الجبلاوي واقفاً حياله. سيسجد عند قدميه مستعطضاً ويقول له إنني حفيظك، لا أب لي، ولا هدف إلا الخير، فافعل بي ماشاء. رأى على رغم الظلمة شيئاً يقترب من الباب. ورأى الباب وهو يفتح برفق ونور الردة الخارجية يتسلل إلى ما وراءه. وخرج الشبح تاركاً الباب موارياً واتجه يمنة فتبينه على ضوء المصباح الخارجي، امرأة عجوز سوداء نحيلة الوجه طولية بصورة لا يمكن أن تنسى. ترى أهي خادم؟ وهل يمكن أن تكون هذه الحجرة من جناح الخدم؟ ونظر من جانب المقعد إلى المكان ليراه على الضوء الباهت المتسلل من الباب، فميز أشباح المقاعد والكتب، وتراءى له في الصدر رسم فراش كبير ذي عمد وناموسية يليه عند قدميه فراش صغير لعله هو الذي غادرته العجوز. لن يكون هذا الفراش الفخم إلا للجبلاوي. إنه نائم الآن هناك غير داز بجريمته. كم يود أن يلقى نظرة عليه ولو من بعيد لو لا هذا الباب الموارب الذي ينذر بعودة الذاهبة.

ونظر إلى يساره فلمح رسم باب الخلوة مغلقاً على سره الرهيب.

هكذا تطلع إليه أدهم في القديم فله الرحمة. وزحف وراء المقاعد متناسباً الجبلاوي نفسه حتى صار أسفل الباب الصغير. لم يستطع مقاومة الإغراء فرفع يده حتى دس أصبعه في ثقب المفتاح ثم ضغط إلى أسفل جاذباً إياه إليه فأطاع. وسرعان ما رده وقلبه يرتجف انفعالاً وإحساساً بالفوز. وإذا بالضوء الضئيل يختفي وتغرق الحجرة مرة أخرى في الظلام. وسمع مرة أخرى كذلك وقع الأقدام الخفيفة، ثم طفقة فراش وشت باستلقاء العائدة، ثم ساد الصمت. وانتظر متصرراً حتى تنام العجوز. ومضى يمعن النظر نحو الفراش الكبير ولكنه لم ير شيئاً. واقتنع بأنه من الجنون أن يحاول الاتصال بجده، إذ قبل ذلك ستستيقظ العجوز وتغلأ الدنيا صرحاً ثم يكون الوداع. ولكن حبه الكتاب الخطير بما يتضمن من شروط الوقف وأيات السحر التي سيطر بها جده على الخلاء والناس في زمانه الأول. إن أحداً قبله لم يتصور أن الكتاب كتاب سحر لأن أحداً قبله لم يمارس السحر.

وعاد يرفع يده ويدس أصبعه ويجدب الباب، ثم تسلل زاحفاً ورده وراءه. وقف في حذر وهو يتنفس في عمق ليريح شيئاً ما أعضاه المرهقة. لماذا ضن الجبلاوي على أبنائه بسر كتابه؟ حتى أحجهم إلى قلبه أدهم! هنالك سر بلا ريب وسينكشف السر بعد ثوان، بعد إشعال شمعة. وقد يدعا أشعل أدهم الشمعة، وهذا هو ذا مجھول الآب يشعلها مرة أخرى في الموقف نفسه، وسوف تغنى الرباب بهذا إلى الأبد. أشعل الشمعة فرأى عينين تنظران إليه. على رغم ذهوله أدرك أن العينين لعجوز أسود يرقد على فراش في مواجهة الداخل. وعلى رغم ذهوله ورعبه تبين له أن العجوز يجاهد للخروج من الغيوبة الفاصلة بين النوم واليقظة التي ربما كان أحدهما صوت حك عود الثقايب، وبحركة غير إرادية ولا شعورية انقض عليه فأطبق يميناه على رقبته وشد بكل قوة أعضاه. تحرك العجوز بعنف وقبض على يده فضربه بقدمه في بطنه

وضاعف من قوة الضغط على عنقه . وسقطت الشمعة من يسراه فانطفأت وساد الظلام . وفي الظلام تحرك العجوز حركة أخبره من أعماقه ثم همد لكن يده المجنونة لم تكف عن الضغط حتى تراحت أصابعها .

وتراجع لاهما حتى التصق ظهره بالباب . ومرت الشوانى وهو في جحيم من العذاب الصامت ، وشعر بقواه تخور وبأن الزمن بات أغلب من الذنوب . سيقع على الأرض أو فوق جنة ضحيته إذا لم يتغلب على ضعفه . وناداه الهرب كفوة لا قبل له بها . لن يستطيع أن يتخطى الجنة إلى الكتاب الأخرى . الكتاب المشئوم . ولا شجاعة عنده ليشعل الشمعة من جديد . العمى أحبه إليه من ذلك . وشعر بألم في ساعديه لعله من أثر أظافر الرجل عند المقاومة اليائسة . وارتعد جسده لتلك الفكرة . كانت جريمة أدهم العصيان . أما جريمته هو فالقتل . قتلُ رجل لا يعرف ولا يعرف لصرعه على يده سبباً . وهو قد جاء سعيًا وراء قوة يناضل بها المجرمين فانقلب وهو لا يدرى مجرما . واتجه رأسه في الظلام إلى الركن الذي ظن الكتاب معلقا به . ودفع الباب ثم تسلل وهو يردد وراءه . وزحف بحذاء الجدار إلى الباب . وتريث وراء المقد الأخير . لا يرى في هذا البيت إلا الخدم فأين سيده؟ ستحول هذه الجريمة بينهما إلى الأبد . وشعر بالخيبة والفشل حتى أعمق أعمقه .

وفتح الباب برفق فأعشى النور عينيه وخيل إليه أنه ينقض عليه في ضوضاء صاحبة وميض صارخ . أغلق الباب ومضى على أطراف أصابعه . وهبط السلم في ظلمة حالكة . وعبر السلاملك إلى الحديقة وقد قل من الإعياء والحزن حذره . وإذا بالنائم في السلاملك يستيقظ متسائلًا : «من؟!» فلبد عرفة لصق الجدار أسفل السلاملك وقد أ منه الفزع بقوة . ونادي الصوت كرة أخرى فأجابت قطة بموائتها . لبث في مكمنه وهو يخشى أن يساق إلى جريمة جديدة .

ولما استقر الصمت زحف على أرض الحديقة الخلفية حتى السور، وراح يتحسس موضع الشغرة حتى عشر عليها. ودخلها زحفا كما جاء، ولما بلغ النهاية أو كاد ارتطم بقدم! وإذا بالقدم تركله في رأسه بسرعة فاقت خاطره.

١٠٢

وئب على صاحب القدم فاشتبكا في صراع لم يدم طويلا، إذندت عن الآخر صيحة غضب كشفت عن شخصه لعرفة فهتف في ذهول:
- حنش؟!

تعاونا على الخروج معا إلى سطح الأرض وقال حنش:
- طالت غيتك فدخلت لأنفس الأخبار.

فقال عرفة وهو يتنفس بشقة:

- أخطأت كعادتك ولكن هلم بنا.

عادا إلى الحارة المستفرقة في النوم. ولما رأته عواطف هتفت:
- أغسل.. رياه.. ما هذا الدم يسيل من يدك وعنقك!

فارتعد لكنه لم يجب. ومضى ليغتسل وسرعان ما أغنمى عليه. وأفاق بعد قليل وبمساعدة عواطف وحنش. جلس على الكتبة بينهما وهو يشعر بأن النوم بات أبعد عنه من الجبلاوي. ولم يعد يتحمل عباء سره وحده فقص عليهم ما وقع له في رحلته العجيبة. وانتهى والأعين تحملق فيه بربع وپاس. وهمست عواطف:
- كنت ضد الفكرة من أول الأمر.

- غير أن حنش قصد أن يخفف من وقع الكارثة فقال :
- ليس في الإمكان تجنب مثل هذه الجريمة !
- قال عرفة بحزن :
- لكنها أبغض من جرائم السنطوري وسائل الفتوات !
- قال حنش :
- هيئات أن تتجه الظنوں إليك .
- لكنني قتلت عجوزا لا ذنب له ، ومن يدرى ؟! فلعله الخادم الذي أرسله الجبلاوى إلى قاسم !
- وغضيthem فترة صمت فاقعه كالشهاد المرير حتى قالت عواطف :
- لا يحسن بنا أن ننام ؟
- قال عرفة :
- ناما أنتما ، أما أنا فلا نوم لي الليلة .
- وانحط الصمت مرة أخرى فوق رءوسهم . وإذا بحنش يسأله :
- ألم تلمح الجبلاوى أو تسمع صوته ؟
- فهز رأسه في ضيق قائلا :
- كلا .
- لكنك رأيت في الظلام فراشه !
- كما نرى بيته !
- قال حنش في حسرة :
- ظننت غيابك انقضى في محادثته !
- ما أسهل الخيال خارج البيت !
- قالت عواطف بقلق :
- أنت تبدو كالمحروم ومن الأفضل أن تنام .

- ومن أين يجيء النوم؟
لكنه شعر بصدق قولها فيما يتباhe من حرارة وذهول . وعاد حنش
يقول بحسرة :

- كنت على بعد ذراع من الوصية لكنك لم تنظر فيها!
وتقلاص وجهه من الألم فقال حنش :
- يا لها من رحلة شاقة وخاسرة!
- نعم !

ثم بنبرة جديدة حادة :
- لكنها علمتني أنه لا ينبغي أن نعتمد على شيء سوى السحر الذي
بين أيدينا! ألا ترى أننى غامرت برحلة جنونية جرياً وراء فكرة ربما
كانت أبعد ما يكون عن ظنى؟!

- نعم ، لم يقل غيرك أحد إن كتابة المشهور كتاب سحر .
فقال عرفة وقد بدا أكثر من قبل أنه يكابد حال اضطراب في العقل
والنفس :

- تجربة الزجاجة ستتجه أقرب مما تتصور ، وستكون جد نافعة إذا
احتلجنا للدفاع عن النفس !

وأنذر الصمت المخيف بالعودة ، فقال حنش :
- ليتك عرفت من السحر ما يمكنك من الوصول إلى البيت الكبير
وصاحبه دون تلك المغامرة!
فقال عرفة بحماس :

- السحر لانهاية له ، ليس بين بدئ منه اليوم إلا بعض الأدوية
ومشروع زجاجة للدفاع أو الهجوم ، أما ما يمكن أن يوجد فلا
يحيط به خيال .

فقالت عواطف في ضجر :

- ما كان ينبغي أن تفكك إطلاقاً في تلك المغامرة، جدنا من دنيا ونحن من دنيا أخرى، وما كنت لتفيد شيئاً من محادثته لو وقعت، ولعله نسى الوقف والنظر والفتوات والأحفاد والخارة! وغضب عرفة بلا سبب ظاهر، ولكن حالي الطارئة كانت تبرر كل غريب، وقال بحدة:

- هذه الحرارة المفروضة الجاهلة! ماذا تدرى من الأمر؟ لا شيء. ليس لديها إلا الحكايات والرباب، وهيئات أن تعمل بما تسمع. ويظنون حارتهم قلب الدنيا، وما هي إلا مأوى البطلجية والمسؤولين، وكانت في البدء مرتعاً للفحشات، حتى حل بها أكبر قاطع طريق رهيب وهو جدكم الواقف!

وأغفل حنش، على حين بللت عواطف خرقه وهمت بوضعها على جبينه، ولكنه أبعد يدها بحدة وقال:

- أنا عندي ما ليس عند أحد، ولا الجبلاوي نفسه، عندي السحر، وهو يستطيع أن يحقق لحارتنا ما عجز عنه جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين.

قالت عواطف بتسلل:

- متى تنام؟

- عندما تخمد النار المشتعلة في رأسي.

فتمتم حنش بإشفاق:

- أوشك الصبح أن يطلع.

فهتف عرفة:

- فليطلع، ولن يطلع حتى يقضى السحر على الفتوات، ويطره النّفوس من عفاريتها، ويجلب من الخير ما عجز الوقف عن جزء منه، ويصير هو الغناء المنشود الذي كان أدهم يحلم به.

وتهجد من أعماقه، ثم طرح رأسه على الجدار في إعياء، فأمللت عواطف أن يجيء النوم عقب ذلك. وإذا بصوت يجلجل في السكون بقوة هرت التفوس. وتبعته أصوات صرائح وعويل. وشب عرفة قائما وهو يقول برعبر:

- جنة الخادم اكتشفت!

فقالت عواطف من حلق جاف:

- من أدرك أن الأصوات قادمة من البيت الكبير؟
وجري عرفة إلى الخارج فتبعاه على الأثر. وقفوا أمام الريح برعوس متوجهة نحو البيت الكبير.

كانت آخر الظلمة ترق وتشف عن أمارات الصباح. وفتحت نوافذ وأطلت رءوس، واتجهت جمیعاً نحو البيت الكبير. وجاء رجل من أقصى الحرارة مهرولا نحو الجمالية فلما مر بهم سأله عرفة:

- ماذا جرى يا عم؟

فأجابه دون توقف:

- لله الأمر، من بعد العمر الطويل مات الجبلاوي!

١٠٣

انقلب ثلاثة إلى البدرورم، وعرفة لا تكاد قدماه تحملانه، فانحط على الكتبة وهو يقول:

- الرجل الذي قتله كان خادماً أسود تعيس المنظر، وكان نائماً في الخلوة.

لم ينبع أحد منها، ودفنا نظريهما في الأرض متحاشيين عينيه
الرائغتين، فقال بحده:

ـ أراكما لا تصدقان! أقسم لكما أنني لم أقترب من فراشه.
فتردد حنش ملياً لكنه شعر بأن الكلام خير على أي حال من تركه
للصمت فقال بحذر:

ـ لعلك لم تتبين وجهه من شدة المفاجأة؟
فهتف بيأس:

ـ أبداً، أنت لم تكن معى!
فهمست عواطف بخوف:
ـ أخفت من صونك.

وغادرهما مهرولا إلى الحجرة الخلفية، وقعد في الظلام وهو يرتجف
من الأضطراب. أى جنون دفعه إلى تلك الرحلة المشئومة؟! أجل كانت
رحلة مشئومة. إن الأرض تبكي به وتتنفس من جوفها الأحزان. ولم يعد
له منأمل إلا هذه الحجرة العجيبة.

وأشرق أول شعاع للشمس، فإذا الناس جمياً مجتمعون في الحرارة
حول البيت. وتسربت الأخبار وشاعت، وبخاصة عقب زيارة الناظر
للبيت زورة قصيرة ثم عودته إلى بيته. وتناقل الناس أن لصوصاً سطوا
على البيت الكبير من خلال نفق حفروه تحت سور الخلفي، فقتلوا
خادماً أميناً، ولما علم الجبلاوي بالخبر تأثر تأثراً لم تختمله صحته الراهبة
في تلك الذروة من العمر ففاضت روحه. وثار الغضب بالنفوس حتى
غطى دخانه الأسود على الدموع والصراخ. وهتف عرفة لما بلغته الأنباء
بزوجه وحنش:

ـ ها هي ذى الأنباء تصدقنى!
ثم ذكر من توه أنه على أي حال تسبب في موته، فلاذ بصمت
الخجل والألم. ولم تخجد عواطف ما تقوله فغمغمت:

- فليرحمه الله!
وقال حنش :
- لم يمت ناقص عمر؟
فقال عرفة بنبرة الرباب الحزينة :
- لكنى أنا سبب موته! أنا من دون أحفاده جمِيعاً حتى الأشْرَارُ منهم
وما أكثرهم!
فبكَت عواطف وهى تقول :
- ذهبت بنفس لا تشويها شائبة سوء.
وإذا بحنش يتسائل في قلق :
- ألا يمكن أن يستدل علينا؟
فهتفت عواطف :
- فلنذهب .
فأشار إليها عرفة حانقاً وهو يقول :
- وبذلك تقدم أسطع دليل على جريمتنا!
وترامت من الطريق المحتشد أصوات متلاطمة :
- يجب قتل الجاني قبل دفن الرجل!
- يا أعن جيل في حارتنا ، حتى كبار الأشْرَارُ احترموا هذا البيت
طيلة ما مضينا ، وحتى إدريس نفسه ، علينا اللعنة إلى يوم القيمة .
- ليس القتلة من حارتنا ، من ذا يتصور ذلك؟!
- سوف يعرف كل شيء .
- علينا اللعنة إلى يوم القيمة .
واشتد اللطم والندب ، حتى انهارت أعصاب حنش فقال :
- وكيف نقى في الماء بعد اليوم؟!

واقتصر آل جبل أن يدفن الجبلاوى فى مقبرة جبل لاعتقادهم من ناحية أنهم أقرب نسباً إليه من الآخرين، ولأنهم كرهوا أن يدفن فى المقبرة التى تضم إدريس فيما تضم من رفات أسرة الراوف من ناحية أخرى. وطالب آل رفاعة أن يدفن فى القبر الذى دفن فيه رفاعة بيديه! وقال آل قاسم إن قاسم خير أحفاد الراوف وإن قبره هو أليق قبر بجثمان الجد العظيم. وكادت أن تقع فتنة فى الحارة ولما يدفن الرجل. لكن الناظر قدرى أعلن أن الجبلاوى سيدفن فى المسجد الذى أقيم فى مكان حجرة الوقف القديمة بالبيت الكبير. ولاقى هذا الحل ارتياحاً عاماً ملحوظاً وإن أسف أهل الحارة على حرمانهم من مشاهدة جنازة الجد كما حرموا من قبل من مشاهدة الرجل فى حياته. وتهامس آل رفاعة فرحين بأن الجبلاوى سيدفن فى القبر الذى دفن فيه رفاعة بيديه. لكن أحداً غيرهم لم يكن يصدق تلك الحكاية القديمة، وراحوا يسخرون منهم حتى ثار عجاج فتوتهم وأوشك أن ياتحون فى معركة بالسنطورى. وعند ذاك تصدى سعد الله للجميع وصاحت متذراً:

- ساكس رأس أى مكابر يحاول النيل من احترام هذا اليوم الحزين
ولم يشهد الغسل إلا خدمه المقربون. وهم الذين كفنه وأودعوه نعشة. وحملوا النعش إلى البهو الكبير الذى شهد أخطر أحداث الأسرة كعهده بالنظراء إلى أدهم وثورة إدريس عليه. ثم دعى للصلوة عليه الناظر ورؤوس جبل ورفاعة وقاسم. وورى بعد ذلك فى قبره والشمس غيل نحو الغروب. وفي المساء أم السرادق جميع أولاد الحارة. وذهب إليه عرفة وحنىش فيمن ذهب من آل رفاعة. وبدا وجه عرفة الذى لم يذق طعم النوم منذ ارتكب جريته كوجه ميت. ولم يكن للناس من الحديث إلا أمجاد الجبلاوى، فاهر الخلاء وسيد الرجال ورمز القوة والشجاعة، صاحب الوقف والحرارة والأب الأول للأجيال المتعاقبة. وبذا عرفة حزيناً ولكن ما كان يدور بنفسه لم يخطر لأحد على بال.

ذلك الذى اقتحم البيت غير مبال بجلاله . الذى لم يتأكد من وجود جده
إلا عند موته ! الذى شذ عن الجميع ولوث يديه إلى الأبد .

وتساءل كيف يمكن التكفير عن هذه الجريمة؟ إن مأثر جبل ورفاعة
وقاسم مجتمعة لا تكفى . القضاء على الناظر والفتوات وانقاد الحرارة من
شروعهم لا يكفى . تعريض النفس لكل مهلكة لا يكفى . تعليم كل فرد
السحر وفنونه وفوائده لا يكفى . شيء واحد يكفى هو أن يبلغ من
السحر الدرجة التى تمكنه من إعادة الحياة إلى الجبلاوى ! الجبلاوى الذى
قتله أسهل من رؤيته . فلتذهب الأيام القوة حتى يضمد الجرح النازف فى
قلبه . وهؤلاء الفتوات ذرو الدمع الكاذبة . ولكن آه ثم آه لم يأتى
أحدهم كما أثم . وكان الفتوات يجلسون واجمدين ، يركبهم الخزى
والهوان . ستقول الحوارى إن الجبلاوى قتل فى بيته ومن حوله الفتوات
الكبار يخشون . لذلك تتوعد نظراتهم بالانتقام . الويل والموت يطلان
من عيونهم .

وعندما عاد عرفة إلى البدرورم فى آخر الليل جذب عواطف إليه
وسألها فى استغاثة يائسة :

- عواطف ، صارحينى برأيك ، هل ترىتنى مجرماً؟
فقالت برققة :

- أنت رجل طيب ، أنت أطيب من صادفت فى حياتى ، ولكنك
أتعسهم حظاً !

فأغمض عينيه وهو يقول :

- لم يتجرع أحد قبلى الألم كما تجرع عنه .
- نعم .. أعرف ذلك .

وقبلته بشفتين باردين وهمست :
- أخى أن تحمل بنا اللعنة .

فحول عنها وجهه، وقال حنش:

- لست مطمئناً، سيمكتشف أمرنا اليوم أو غداً. لأنصور أن يعرف كل شيء عن الجبلاوي، أصله، وقته، سيرته في أبنائه، اتصالاته بجبل ورفاعة وقادس، وأن يجهل فقط موته!

ففتح عرفة في ضيق وسأله:

- هل عندك حل غير الهرب؟

فلزم حنش الصمت، فعاد الآخر يقول:

- أما أنا فعندى خطة، غير أنى أود أن أطمئن إلى نفسي قبل الشروع فى تنفيذها، إذ لا أستطيع أن أعمل إن كنت مجرماً.

فقال حنش بفتور:

- إنك برىء.

فقال بحدة:

- سأعمل يا حنش، لا تخف علينا، فإن الحرارة ستشغل عن الجريمة الكبرى بالأحداث، ستقع عجائب، وستكون ذروة العجائب أن تعود الحياة إلى الجبلاوى.

تأوهت عواطف، أما حنش قال مقطباً:

- هل جنت؟

فقال بصوت المحموم:

- إن كلمة من جدنا كانت تدفع الطيبين من أحفاده إلى العمل حتى الموت، موته أقوى من كلماته. إنه يوجب على الابن الطيب أن يفعل كل شيء، أن يحل محله، أن يكونه، أفهمت؟!

تأهّب عرفة لغادر البدروم بعد أن سكت آخر صوت في الحارة.
أوصلته عواطف حتى الدهليز محمّرة العينين من البكاء، وكانت تقول
في تسلّيم من لا حيلة له:
- فلتتحرس العناية.

أما حنش فتساءل في إصرار:
- لم لا أصحابك؟!
فقال عرفة:

- الهرب أيسر على واحد منه على اثنين.
فقال له ناصحا وهو يربت ظهره:
- لا تستعمل الزجاجة إلا عند اليس.

فأومأ برأسه موافقاً وذهب. ألقى نظرة على الحارة الغارقة في الظلام ثم مضى نحو الجمالية. ودار دورة كبيرة شملت حارة الوطاويط والدراسة والخلاء فيما وراء البيت الكبير، حتى انتهى إلى سور بيت سعد الله المشرف على الخلاء من ناحية الشمال. واتجه نحو موضع في منتصف السور، وتحسّن الأرض حتى عثر على حجر فأزاحه ثم غاص في الممر الذي دأب على حفره - هو حنش - ليلة بعد أخرى. زحف على بطنه حتى نهايته، ثم عالج بيديه القشرة الرقيقة التي تسده ونفذ منها إلى حديقة بيت الفتوة. كمن وراء السور وألقى نظرة على المكان فرأى في البيت نافذة مغلقة تنبع بضوء خافت، أما الحديقة فقد غشّيها النوم والظلام إلا نور نافذة المنظرة الساهرة. ومن المنظرة تراست بين آونة

وأخرى عريبات الساهرين وضحكاتهم الغليظة. استل من صدره خنجرا ولبست متواياً والوقت يمر أثقل من الهموم. لكن الغرزة انففت عقب وصوله بنصف ساعة. فتح بابها وخرج الرجال تباعا نحو الباب الخارجي المفضى إلى الحارة والباب يتقدم بفانوس في يده. وأغلق الباب وعاد الباب متقدماً سعد الله نحو السلاملك. تناول عرفة من الأرض حجراً يسراه، وتسلل متقوساً والختجر بيمناه ثم كمن وراء نخلة حتى هم سعد الله بارتقاء أول درجة من درجات السلالم فانقض عليه وأغمد خنجره في ظهره فوق القلب. ندت عن الرجل صرخة ثم تفرض بناؤه.

التفت الباب مذعوراً لكن الحجر أصاب الفانوس فأطفاء وحطمها، ثم جرى عرفة مسرعاً عاجهة السور الذي جاء منه. وصرخ الباب صرخة مدوية. وسرعان ما تدافعت أقدام وتلاطمت أصوات في الداخل وفي آخر الحديقة. وعشر عرفة في جريه بقائم كأنه أصل شجرة مقطوعة، فسقط على وجهه وهو يحس بألم يهرسه في ساقه وكوعه، لكنه تغلب على ألمه وقطع بقية المسافة إلى النفق زحفاً. وارتفعت الأصوات واشتد وقع الأقدام. رمى بنفسه في النفق وزحف بسرعة حتى خرج إلى الخلاء. ونهض وهو يشن ثم اندفع شرقاً.

و قبل أن يدور مع سور البيت الكبير التفت وراءه فرأى أشباحاً تندفع نحوه وسمع صوتاً يصبح: «من هنا»! فضاعف من سرعته على رغم ألمه حتى بلغ نهاية سور الخلفي للبيت الكبير. وعندما عبر الفراغ الذي يفصل بين البيت الكبير وبين الناظر لمح أضواء الملاشيل وسمع ضجة فاندفع في الخلاء متسمتاً سوق المقطم. وشعر بأن الألم سيقهروه عاجلاً أو آجلاً، وبأن أقدام المطاردين تقترب وأصواتهم تتعالى صارخة في السكون «امسك». حلق. عند ذلك أخرج الزجاجة من عبه، الزجاجة التي قضى الشهور في تجربتها. ثم توقف عن الجري

واستقبل القادمين بوجهه ، وأحدَّ بصره حتى تراها له أشباحهم ثم قذف الزجاجة عليهم . وما هي إلا ثانية حتى دوى انفجار لم تعرفه أذن من قبل . وتابعت صرخات وتأوهات . وواصل جريه وقد كفت الأقدام عن مطاردته . وعند حافة الخلاء ارتمى على الأرض وهو يلهث وينش .

لبيت في ألم وعجز وحيدا تحت النجوم . ونظر وراءه فلم ير إلا ظلاماً وصمتاً . وجعل يمسح الدم السائل على ساقه بيده ثم جففها في الرمال . وشعر بأنه ينبغي أن يذهب مهما كلفه الأمر ، فقام معتمداً على يديه ، وسار متمهلا نحو الدراسة . وفي أول الدراسة رأى شبحاًقادماً فنظر نحوه بحذر وخوف ، ولكن القادر مربه دون أن يلتفت إليه فتهجد في ارتياح . ومضى راجعاً في نفس الدورة التي جاء بها . ولما اقترب من حارة الجبلاوي ترامت إلى أذنه ضجة حارة غير مألوفة في ذلك الهزيع من الليل . خليط من الأصوات الهادرة والبكاء والصرخات الغاضبة ونذر شر تتطاير في الظلام . تردد ملياً ثم تقدم متتصقاً بالجدران . وألقى نظرة من عين واحدة عند ركن الحارة فرأى خلقاً كثيراً متجمعاً في الآخر فيما بين بيتي الناظر وسعد الله على حين بدا حى قاسم خالياً مظلماً . وتسلل بحذاء الجدار حتى غيبة الربع .

ارتى بين عواطف وحنش ، ثم كشف عن ساقه الدامية فارتاعت عواطف وذهبت مسرعة لتعود بطبق القلة الملوء بالماء ، وراح تغسل الجرح وهو بعض على أسنانه حتى لا تفلت منه صرخة ألم . وساعدها حنش وهو يقول بقلق :

- الغضب يشتعل في الخارج كالنار .

فسألته عرفة بوجه متقبض :

- ماذا قالوا عن الانفجار؟

- وصف الذين كانوا يطاردونك ما وقع فلم يصدقهم أحد، لكنهم
وقفوا ذاهلين أمام الجراح التي أصابت الوجه والأعنق، وكادت
حكاية الانفجار تغطى على مقتل سعد الله !

فقال عرفة :

- قتل فتوة الحارة، وغدا يبدأ التناحر بين الفتوات على مكانه !
ثم نظر إلى زوجته المنهكمة في تضميد جراحه برقة وقال :
- عهد الفتوات موشك على الزوال، وأولهم قاتل أبيك !
لكنها لم تجب . وظلت عينا حنش تومنسان في قلق . ثم أستد عرفة
رأسه إلى يده من شدة الألم .

١٠٥

في باكر الصباح طرق طارق باب البدروم ، ولما فتحته عواطف رأت
أمامها عم يونس بباب بيت الناظر ، فحيته برقة ودعته إلى الدخول لكنه
قال وهو ثابت في مكانه :

- حضرة الناظر يطلب عم عرفة إلى مقابلته لاستشارة عاجلة !
ذهبت عواطف لإبلاغ عرفة دون أن تجد للدعوة العالية السرور
الخليق بها في غير الظروف التي تعانيها .
ومضت فترة قصيرة ثم جاء عرفة مرتديا خير ملابسه ، جلبها أبيض
ولا سة منقطة ومركتوباً نظيفا ، غير أنه كان يتوكأ على عصا لعرج طاري
غير خاف ، فرفع يده تحية وقال :
- نخت الأمر .

فسار الباب وهو يتبعه . وكانت الكابة تغشى الحارة من أولها إلى

آخرها، فالأعين قلقة كأنما تتساءل في خوف عما سيجيء به الغد من الكوارث، وأعوان الفتوات تجتمعوا في المقاهي يتشارون، على حين تتابع العويل والنواح في بيت سعد الله. ودخل بيت الناظر وراء الباب، فسارا في الممر المسقوف بعرشة الياسمين حتى بلغا السلاملك. وتخيل أوجه الشبه بين هذا البيت والبيت الكبير فوجدها كثيرة حتى ظن ألا اختلاف إلا في الدرجة، وقال لنفسه بحنق: «تقلدونه فيما ينفعكم لا فيما ينفع الناس؟!». وبشه الباب ليستاذن له ثم عاد ليشير إليه بالدخول فمضى إلى البهو الكبير حيث رأى الناظر قدري جالسا في انتظاره في أقصى المكان. وقف على بعد ذراع منه وهو ينحني احتراما حتى تقوس ظهره. ويدا لعيبيه من أول لحظة طويل القامة قوى البنيان متنعل الوجه باللحم والدم، ولما ابتسם إليه ردا على تحيته افتر فمه عن أسنان صفر قدرة لا تناسب بهاء منظره بحال. وأشار إليه أن يجلس إلى جانبه على ديوانه، لكن عرفة اتجه إلى أقرب مقعد وهو يقول:

- عفوا يا حضرة الناظر!

لكن الناظر أصر على دعوته فأشار إلى الديوان قائلا بلهفة وأمر معا:

- هنا.. اجلس هنا.

فلم يجد بدا من الجلوس إلى جانبه في أقصى الديوان وهو يقول لنفسه: لا شك في أنها حالة سرية! وتأكد ظنه حينما رأى الباب وهو يغلق باب البهو ولبث صامتا في حال خضوع والناظر يرميه بهدوء، ثم قال الناظر في نبرة هادئة كالمليحة:

- عرفة! لم قتلت سعد الله؟

تمهد البصر تحت البصر. وسابت المفاصل. ودار كل شيء. وانقلب

المستقبل ماضيا . ورأى الرجل ينظر إليه بعين الواثق فلم يشك في أنه عرف كل شيء كالقضاء والقدر . ثم لم يمهله فقال بشيء من الحدة :

- لا ترتعب لماذا قتلون إذا كنتم هكذا ترعبون ؟ تحالك مشاعرك ل تستطيع أن تخيبني ، وخبرني صراحة لم قتلت سعد الله ؟ وكراه الصمت فقال وهو لا يدرى ما يقول :

- سيدى .. أنا !

قال الناظر بحده :

- يا ابن الحقيقة أحسبتني أهذى ؟ أو أنتي أتكلم دون دليل ؟ أجنبى .. لماذا قتلتة ؟

وهو يتمزق من الحيرة واليأس جالت عيناه في أرجاء البهو بحركة لا معنى لها ، فقال الناظر بصوت بارد كالموت :

- لا مهرب يا عرفة ! وفي الخارج أناس لو علموا بأمرك لمزقوك بأسنانهم ولشربوا دمك .

وكان النواح يشتدد في بيت الفتوة ، أما آماله فقد ووريت في التراب . وفتح فمه دون أن يقول شيئا .

قال الناظر بقصوة :

- الصمت مهرب في متناول اليد ، سأدفع بك إلى الوحش في الخارج وأقول لهم هاكم قاتل سعد الله ، وإن شئت أقول لهم هاكم قاتل الجبلاوي !

هتف بصوت مبحوح :

- الجبلاوي !

- حافر الأنفاق وراء الأسوار الخلفية ! نجوت في المرة الأولى ووافت في الأخرى ، لكن لماذا قتلت يا عرفة ؟

وقال في يأس بلا قصد ولا معنى :
- برىء يا حضرة الناظر ، أنا برىء !
فقال في تهكم :

- إذا أعلنت تهمتك فلن يطالبني أحد بدليل . في حارتنا الإشاعة
حقيقة ، والحقيقة حكم ، والحكم هو الإعدام ، ولكن خبرني عما
دفعك إلى اقتحام البيت الكبير ؟ ثم قتل سعد الله ؟
هذا الرجل يعرف كل شيء . كيف ؟ لا يدرى لكنه يعرف كل شيء .
وإلا فلماذا صب عليه اتهامه دون أهل الحارة جميعا ؟

- هل كنت تقصد السرقة ؟
غض بصره في يأس لكنه لم يتكلم فهتف الناظر في غضب :
- انطق يا ابن الأفاعي !
- سيدى .

- لماذا تسعى إلى السرقة وأنت أفضل حالا من كثيرين ؟
فقال بنبرة الاعتراف اليائسة :
- النفس أمارة بالسوء .

ضحك الناظر بظفر ، أما عرفة فسائل نفسه في حيرة : عما جعل
الرجل يؤجل الفتك به إلى الآن ! بل لم يفض بسره إلى أحد الفتوات
بدلا من استدعائه على ذلك النحو الغريب ؟ وتركه الناظر لنفسه كأنما
يعدبه ، ثم قال :

- يا لك من رجل خطير !
- أنا رجل مسكون .

- أبعد في المساكن من يحوز سلاحا كسلاحك الذي هزى ببابايت ؟
لا يكفي ميت على فقد بصره . هذا الرجل هو الساحر حقا لا هو ،
وجعل الناظر يتلذذ يأسه مليا ثم قال :

- انضم أحد خدمي إلى مطارديك، وكان متأنراً عنهم فلم يصب سلاحك، ثم تبعك وحده في هدوء فلم يُشعرك بمطاردته الخفية، ثم عرفك عند الدراسة فلم يهاجمك خوفاً على نفسه من مفاجأتك، وسارع إلى فأخربني.

فقال عرفة بلاوعي:

- ألا يمكن أن يخبر أحداً غيرك؟

فقال مبتسماً:

- إنه خادم أمين.

ثم بنبرة ذات معنى:

- الآن حدثني عن سلاحك.

أخذت الغيوم تتكشف لนาطريه. الرجل يطعم فيما هو أثمن من حياته! لكن يأسه كان محبطاً. وأين المفر؟ قال بصوت منخفض:

- هو أبسط مما يتصور الناس!

فقصت نظرته وتجهم وجهه وقال:

- في وسعى أن أفتشر بيتك الآن لكتنى أتحاشى لفت الأنظار إليك،
ألا تفهم؟

وسكت ملياً ثم أردف:

- لن تهلك ما دمت تعطيني!

كان يتكلم ونذر الوعيد تتطاير من عينيه، فقال عرفة وقد طفت باليأس روحه:

- ستجدلى رهن مشيئتك.

- بدأت تفهم يا ساحر حارتنا، لو كان مقصدى قتلك، لكنت الساعة في بطون الكلاب.

ثم تنهنج وواصل حديثه قائلاً:

- دعنا من الجبالوى وسعد الله وحدثنى عن سلاحك ، ما هو؟
فقال بدهاء:

- زجاجة سحرية!

فحذجه بنظرة ارتياش وقال:
- أفصح!

فقال وهو يسترد شيئاً من الطمأنينة لأول مرة:
- لغة السحر لا يتكلمها إلا أهلها.

- ألا تفصح حتى ولو وعدتك بالسلامة؟
فضحك باطنه ولكنه قال بجد ظاهر:
- ما قلت إلا الحق.

فنظر الرجل إلى الأرض قليلاً ثم رفع رأسه متسللاً:
- أللديك منها كثير؟

- ليس لدى منها شيء الساعة!
فغض الناظر على أسنانه هاتفاً:

- يا ابن الأفاعى!
فقال عرفة ببساطة:

- فتش بيتي لترى صدقى بعينيك.
- أستطيع أن تصنع مثلها؟

فقال بثقة:
- بكل تأكيد.

فشبك ذراعيه على صدره من شدة الانفعال ، وقال:
- أريد منها كثيراً.

فقال عرفة :

- سيكون لك منها ما تشاء .

وبتبادل نظرة تفاهم لأول مرة ، وإذا بعرفة يقول بجرأة :

- سيدى ي يريد الاستغناء عن الفتوات الملائين .

فومضت بعينى الرجل نظرة غريبة وسأله :

- صارحنى بما دفعك إلى اقتحام البيت الكبير ؟

فقال عرفة ببساطة :

- لا شيء إلا حب الاستطلاع ، وقد ساءنى مقتل الخادم الأمين عن غير قصد منى .

فحذجه بنظره ارتياه وقال :

- تسببت في موت الرجل الكبير !

فقال عرفة بحزن :

- شد ما يتقطع قلبي حزنا لذلك .

فهز الناظر منكبه قائلاً :

- ليتنا نحيا مثله !

يا لك من منافق أثيم ! لا شيء يهمك إلا الوقف ! وقال :

- أمد الله في عمرك .

فعاد يسأله بارتياه :

- ألم تذهب إلا جريا وراء الاستطلاع ؟

- بلى .

- ولماذا قتلت سعد الله ؟

فقال بصراحة :

- لأنى مثلك أود القضاء على جميع الفتوات .

فابتسم الرجل وقال:
- إنهم شر مستحكم!

لكنك في الحق تبغضهم لما يأخذون من أموال الوقف، لا لشرهم.
- بالحق نطقت يا سيدى.

فقال بإغراء:
- سترى فوق ما كنت تحلم.

فقال عرفة بمكر:
- ولا غاية لى إلا ذلك.

فقال الناظر بارتياح:
- لا ترهق نفسك بالعمل نظير الملايم، تفرغ لسحرك في حمايتي،
وسيكون لك كل ما تشتهيه نفسك!

١٠٦

جلس ثلاثة على الكتبة، عرفة يقص ما حدث له وعواطفه
وحنش يتبعانه بانتباه وانفعال وفزع، حتى ختم عرفة حديثه الشير بقوله:
- لا اختيار لنا. إن جنازة سعد الله لم تخرج بعد، فإذا القبول وإما
الإبادة.

فقالت عواطف:
- وإنما الهرب.

- لا مهرب من عيونه التي تحيط بنا.
- لن تكون في كنفه أمنين.

تجاهل قولها كما يود أن يتتجاهل أفكاره وتحول إلى حنش قائلاً:
ـ مالك لأن تكلم؟
ـ فقال حنش بجدّ وحزن:

ـ عدنا إلى هذه الحرارة يوم عدنا بأعمال بسيطة محدودة، أنت وحدك المسئول عن التغيير الذي وقع بعد ذلك، عن تعليقنا بالأعمال الكبيرة، وكنت أعارض طموحك بادئ الأمر، ولكنني عاونتك دون تردد، وأخذت أقتتنع بآرائك رويداً رويداً، حتى لم يعد لي منأمل إلا أمل حارتنا في الخلاص والكمال. واليوم تفاجئنا بخطبة جديدة ستصبح بعدها آلة رهيبة لاستذلال حارتنا، آلة لا يمكن أن تقاوم ولا أن تبدي وإن جاز أن يُقاتل فتوة أو يُقتل.

ـ وقالت عواطف:

ـ ولا أمان لنا بعد ذلك، فقد ينال منك ما يريد ثم يتخلص منك بحيلة كما يدبّر الآن للفتوات.

ـ كان مقتنعاً في أعماقه بما يقولان ولا يكف عن التفكير فيه، لكنه قال وકأنما يحاور نفسه:

ـ سأجعله دائماً في حاجة إلى سحرى!

ـ فقالت عواطف:

ـ ستكون على خير الأحوال فتوته الجديد.

ـ فقال حنش مؤيداً:

ـ نعم، فتوة سلاحه زجاجة بدلاً من النبوت، واذكر مشاعره نحوه الفتوات لتعرف ما ستكون عليه نحوك.

ـ واحتدى عرفة غضباً فقال:

ـ ما شاء الله، كأنني الطامع وأنتما الزاهدان! إنما أنا الإيمان الذي أصبحتني به تؤمنان، وما سهرت الليالي في الحجرة الخلفية وما

عرضت نفسى للموت مرتين إلا لغير حارتنا . فإذا كتمنا تر فضان ما
فرض علينا دون اختيار فأشيرأ علىَّ بما يجب فعله .
ونظر إليهما بتحدى غاضب فلم ينفع منهما أحد . وكان الألم يعتصره
والدنيا تبدو كابوسا خانقا لعينيه . ودهمه شعور غريب بأن ما يعانيه ما
هو إلا انتقام لتهجمه القاسى على جده ، فازداد ألمًا وحزنا . وهمست
عواطف بتسلل يائس :

- الهرب !

فتساءل بحدة وحنق :

- وكيف الهرب ؟ !

- لا أدري ! لكنه لن يكون أصعب عليك من التسلل إلى بيت
الجبلاوي !

فتفاخ يائسا وقال بهدوء كالرثاء :

- الناظر الآن بانتظارنا ، عيونه حولنا ، كيف ندبر الهرب ؟

وكان صمت ، ياله من صمت ، كصمت القبر الذى يضم الجبلاوي
فقال بتشسف :

- لا أريد أن أحمل الهزيمة وحدى .

فتأنوه حنش قائلًا كالمعذر :

- لا خيار لنا .

ثم بحرقة :

- قد يلد المستقبل فرصة للنجاة .

فقال عرفة بلب شارد :

- من يدرى ؟ !

ومضى إلى الحجرة الخلفية وحنش في إثره . وأخذدا يعبثان بعض
القوارير بقطع من الزجاج والرمل وغيرها . وإذا به يقول :

- ينبغي أن تتفق على رموز للدلالة على خطوات أعمالنا السحرية .
وأن نسجل صورها في كراسة أمينة سرية حتى لا يتعرض جهودنا
للضياع أو يكون موتي نذير النهاية لهذه التجارب . ومن ناحية
أخرى أرجو أن يكون لديك الاستعداد لتعلم السحر ، فما ندرى
 شيئاً عما يخبئه القدر لنا !

وواصلًا عملهما بهمة عالية . وحانَتْ من عرفة التفاتة إلى
صاحبِه فرأه متوجهًا فلم يخف عليه سره ، لكنه قال مداراة للموقف
الغريب :

- ستقضى هذه القوارير على الفتوات !

فقال حنش فيما يشبه الهمس :
- لا لحسابنا ولا لحساب حارتنا .

فقال دون أن تكف يداه عن العمل :

- ماذا علمتك رباب الشاعر ؟ وُجد في الماضي رجال أمثال جبل
ورفاعة وقاسم ، فماذا يمنع أن يجيء أمثالهم في المستقبل ؟
فقال حنش متنهداً :

- كدت أحسبك في بعض الأوقات أحدهم .

فضحك عرفة ضحكة جافة مقتضبة وتساءل :

- وهل عدلت بك عن ذلك هزيمتني ؟

فلم يجُب ، فعاد الآخر يقول :

- لن أكون مثلهم في ناحية واحدة على الأقل ، وهي أنهم كانوا ذوي
أتباع من أولاد حارتنا ، أما أنا فلا يفهمنى أحد .

ثم وهو يضحك :

- كان في وسع قاسم أن يكتسب تابعاً قوياً بكلمة حلوة ، أما أنا

فتلزمني أعوام وأعوام حتى أستطيع أن أدرُب رجلاً على عملِي
وأجعل منه تابعاً.

وفرغ من تعية زجاجة فأحكم سدادتها وعرضها أمام ضوء المصباح
في إعجاب، ثم قال:

- هي اليوم ترعب الأفئدة وتدمي الوجوه بالجراح، وغداً قد تقتل
قبيلاً. قلت لك إنه ليس للسحر من نهاية!

١٠٧

مَنْ فتُوْتَهُ حَارَّتْنَا؟ مَضِيَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ عَنْهُ مَذْرُوقَ سَعْدِ اللَّهِ فِي
قَبْرِهِ. وَأَخْذَ كُلَّ فَرِيقٍ بِزَكْرِ رَجْلِهِ. فَأَلَ جَبْلٌ قَالُوا إِنْ يُوسُفَ أَقْوَى
فَتْوَاتِ الْحَارَّةِ وَأَوْثَقُهُمْ نَسْبًا بِالْجَبْلَوِيِّ. وَقَالَ آلُ رَفَاعَةِ إِنَّهُمْ حَىْ أَنْبَلَ
مِنْ عِرْفَتِهِ الْحَارَّةِ فِي تَارِيخِهِ، الرَّجُلُ الَّذِي دَفَنَ الْجَبْلَوِيَّ فِي بَيْتِهِ
وَبِيَدِيهِ. وَقَالَ آلُ قَاسِمٍ إِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَغْلُلُوا النَّصْرَ لِصَالِحٍ حِيمِ
وَلَكِنْ لِصَالِحِ الْجَمِيعِ فَكَانَتِ الْحَارَّةُ عَلَى عَهْدِ رَجْلِهِمْ وَحْدَةٌ لَا تَتَجَزَّأُ
يَسُودُهَا الْعَدْلُ وَالْأَخْوَةُ. وَكَالْعَادَةِ بَدَأَتِ الْخَلَافَاتُ هَمْسَا فِي الْغَرَزِ، ثُمَّ
تَطَايرَتْ فِي الْجَوِ فَثَارَ الْغَبَارُ وَتَحْفَزَتِ النَّفُوسُ لِشَرِّ الْمَهَالِكِ وَلَمْ بَعْدَ فَتُوْتَةٌ
يَسِيرَ بِمَفْرَدٍ، وَإِذَا سَهَرَ فِي قَهْوَةٍ أَوْ غَرْزَةٍ أَحْاطَ بِهِ الْأَتْبَاعُ مَدْجَجِينَ
بِالْبَنَابِيَّةِ. وَرَاحَ كُلُّ شَاعِرٍ يَدْعُو بِالرَّبِّيَّابِ إِلَى فَتُوْتَةِ حَيْهِ. وَنَجَّمُهُمْ أَصْحَابُ
الْدَّكَاكِينَ وَالْبَاعَةُ وَكَدْرُ التَّشَاؤْمِ وَجُوْهِهِمْ. وَتَنَاسَى النَّاسُ مَوْتَ
الْجَبْلَوِيِّ وَمَقْتَلَ سَعْدِ اللَّهِ بِمَا رَكِبُهُمْ مِنْ هُمْ وَتَوْجِسَ الْخُوفِ، وَحْتَ لَامِ
نَبُوَيَّةِ بِيَاعَةِ النَّابِتِ أَنْ تَقُولَ بِأَعْلَى صَوْتٍ:

- قَطَعَتِ الْعِيشَةُ وَيَا بَخْتَ مَنْ كَانَ الْمَوْتُ نَصِيبِهِ.

وذات مساء ترافق صوت من فوق سطح بحى آل جبل وهو
يصيح :

- يا أولاد حارتنا، اسمعوا واجعلوا العقل حكما بيتنا وبينكم، حتى
آل جبل أقدم أحبياء الحرارة، وجبل أول رجالها الكرام، فلا مذلة
لأحد إذا ارتضيتم يوسف فتوة حارتكم.

فتعالت أصوات الاستهزء من حبى آل رفاعة وأآل قاسم ، مصحوبة
بقذائف السب واللعن ، وما لبث أن تجمع الصغار أمام الربوع وراحوا
ينشدون :

يا يوسف يا وش القملة من قالك نعمل دى العملة
واشتدت القلوب غلظة وسوداً . ولم يؤجل وقوع الكارثة إلا أن
التناجر كان يقوم بين ثلاثة قوى متضادة معاً ، وأنه كان لا بد من أن يتحد
حياناً أو أن ينسحب من التنافس حتى مختاراً .

ووقيعت أحداث بعيداً عن الحرارة ذاتها . فقد التقى بائعان في بيت
القاضي ، أحدهما من آل جبل والأخر من آل قاسم ، فاشتبكا في معركة
حامية فقد فيها القاسمي أسنانه والجبلاني عيناً . وفي حمام السلطان
نشبت معركة أخرى بين نسوة من آل جبل وأآل رفاعة وأآل قاسم وهن
عرايا في المغطس فانغرست الأظافر في المخدود والأسنان في السواعد
والبطون والأيدي في الصفار ، وتتطايرت الأكواز وأحجار الحلك
وألياف التدليك وقطع الصابون .

وامحنت المعركة عن إغماء امرأتين وإجهاض ثلاثة وبضم أجساد لا
حصر لها بالدم . وعند ظهيرة اليوم نفسه ، عقب عودة المتعاركات تباعاً
إلى الحرارة ، استؤنفت المعركة من جديد من فوق الأسطح ، واستعمل
فيها الطوب والسباب الفاحش ، وسرعان ما امتلأت سماء الحرارة
بالقذائف وارتفع صراخها إلى السحاب .

وإذا برسول من قبل الناظر يتسلل خفية إلى يوسف فتوة آل جبل ويدعوه إلى مقابلة الناظر . وحرص الفتوة على أن يقابل الناظر دون أن يدرى به أحد . واستقبله الناظر بلطف وطلب إليه أن يعمل على تهدئة الخواطر في حيه وبخاصة أن ذلك الحى هو التالى موقعه لبيت الناظر . وعندما صافحه مودعا قال له إنه يتمنى أن يستقبله في المرة الآتية وهو فتوة الحارة كلها ! وخرج الرجل من بيت الناظر ثملا بتأيده الصريح له ، وأمن بأن الفتونة باتت في متناول يديه . وما لبث أن ألم حيه بالنظام . وتهامس الناس في حيه بما يدخله الغد لهم من سيادة وجاه . وتسربت من حيهم الأباء إلى بقية الحارة فهاجرت الخواطر .

ولم تمض أيام بعد ذلك حتى تقابل عجاج والسنطوري سرا فاتفقا فيما بينهما على القضاء على يوسف من ناحية ، ثم على الاقتراع على الفتونة بعد النصر من ناحية أخرى . وعند فجر اليوم التالى تجمعت الرجال من آل قاسم وآل رفاعة فهاجموا حى آل جبل ، فدارت معركة شديدة ، لكن يوسف وكثرة من أتباعه قتلوا وهرب الباقون ، وأذعن آل جبل للقوة يائسين . وحدّد العصر لإجراء القرعة المتفق عليها . وعند العصر هرع القاسمية والرفاعية رجالا ونساء إلى رأس الحارة أمام البيت الكبير ، وامتدت جموعهم جنوبا حتى بيت الناظر وشمالا حتى بيت الفتوة الذى سيصبح ملكا للفائز بالقرعة . وجاء السنطوري وعصابته كما جاء عجاج وعصابته فتبادلو تحيات السلام والتعاهد . وتعانق عجاج والسنطوري أمام الجميع ، وقال عجاج بصوت سمعه جميع المتطلعين :
ـ أنا وأنت أخوان ، وسبقى أخوين فى جميع الأحوال .

فقال السنطوري بحماس :

ـ على الدوام يا سيد الجدعان !

وقف الحيان متقابلين ، يفصل بينهما فراغ أمام مدخل البيت

الكبير . وجاء رجالان - أحدهما من آل قاسم والآخر من آل رفاعة -
بمقطف مليء بالقراطيس فوضعاه وسط الفراغ ثم تقهقر كلُّ إلى
قومه . وأعلن على الجميع أن القادوم هو رمز عجاج وأن الساطور هو
رمز السنطوري ، وأنه وضع غاذج مصغرة منها في القراطيس
مناصفة . وجئ بغلام ليأخذ - وهو معصوب العينين - من المقطف
قرطاسا . مد الغلام يده في صمت متواتر ثم استردها بقرطاس . فتحمه
وهو لا يزال معصوب العينين وتناول ما فيه ورفع به يده فهتف
القاسمية :

- الساطور .. الساطور .

مد السنطوري إلى عجاج يده فتناولها الآخر وشد عليها باسما .
وتعالى هتاف حار :

- يعيش السنطوري فتوة حارتنا .

ومن صفوف الرفاعية تقدم رجل إلى السنطوري مفتاح الذراعين ،
فتح له السنطوري ذراعيه ليعانقه ، لكن الآخر طعنه بسكين في قلبه
يمتهى القوة والسرعة . سقط السنطوري على وجهه قتيلا . سيطر
الذهول لحظة ثم انفجر الصياح والوعيد والغضب . وتلاقي الحبيان في
معركة دامية قاسية . لكن لم يكن هناك في القاسمية من يستطيع الوقوف
 أمام عجاج ، فسرعان ما نفذت إلى قلوبهم الهزيمة ، وسقط من سقط ،
 وجرى من جرى ، ولم يجئ المساء حتى كانت الفتونة قد تقررت
 لعجاج . وبينما ضجح حتى قاسم بالعويل ، انطلقت الزغاريد من حي
 رفاعة ، وراحوا يرقصون في الطريق حول فتوتهم - فتوة الحرارة - عجاج .
 وإذا بصوت يرتفع فوق الزغاريد صائحا :

- هُن ، اسمعوا ! اسمعوا يا غنم !

تطلعوا في عجب إلى مصدر الصوت فرأوا يونس بباب الناظر يسير

بين يدي الناظر نفسه الذى جعل يتقدم فى هالة من خدمه . مضى
عجاج نحو موكب الناظر وهو يقول :

- محسوبك عجاج فتوة الحارة وخدمك !

حدجه الناظر بنظرة ازدراء وقال فى الصمت الرهيب الذى غشى
الحارة جميعا :

- يا عجاج ، لا أريد فى الحارة فتوة ولا فتونة !

ذهل رجال آل رفاعة ، وسانت على شفاههم بسمات الظرف
والطرب ، وتساءل عجاج فى دهشة :

- لماذا يقصد حضرة الناظر ؟ !

فقال الناظر بقوه ووضوح :

- لا نريد فتونة ولا فتوة ، دعوا الحارة تعيش فى أمان .

فهتف عجاج ساخرا :

- أمان ؟ !

فسدد الناظر نحوه نظرة قاسية ، لكن الآخر تسأله فى تحدى :

- ومن ذا يحميك أنت ؟ !

وإذا بالقوارير تنهاى من أيدى الخدم على عجاج وأعوانه ، ودوى
الانفجارات يزلزل الجدران ، وشظايا الزجاج والرمال تصيب الوجوه
والأطراف وتفجر الدماء . واقتض الفزع على النفوس كما تتفقض
المحدثات على الفراخ ، فطاشت العقول وسابت المفاصل . وسقط عجاج
وأعوانه فأجهز الخدم عليهم . وتعالى الصوات فى حى آل رفاعة ،
وزغاريد الشماتة فى حىي آل جبل وآل قاسم . وتوسط يونس الحارة
داعيا الجميع إلى الإنصات حتى ساد الصمت ، ثم صاح قائلا :

- يا أولاد حارتنا ، جاءكم السعد والأمان بفضل حضرة الناظر أطال
الله بقاؤه ، فلا فتوة بذلكم أو يغتال أموالكم بعد اليوم .

وارتفعت أصوات الهتاف إلى السماء.

١٠٨

انتقل عرفة وأسرته بليل من بدرؤم حتى الرفاعية إلى بيت الفتوة على عين البيت الكبير. بذلك أمر الناظر وليس لأمره رد. وجدوا أنفسهم في مأوى كالحلم. وراحوا يطوفون بالحدائق الغناء والمناظرة الأنثقة، والسلاملك، والبهو، إلى غرف النوم والجلوس والسفرة في الدور الثاني والسطح وما يزدحم بجدرانه وأركانه من بيوت الدجاج وبلايلص الأزابق وأعشاش الحمام. ارتدوا لأول مرة ملابس فاخرة وتفسوا هواء نقىّاً، وتشعموا رائحة زكية. وراح عرفة يقول:

- صورة صغري من البيت الكبير ولكن بلا أسرار!

فتساءل حنش:

- وسحرك؟ ألا يعد من الأسرار؟

ولاح الذهول في عيني عواطف وهي تقول:

- لا يحلم أحد بشيء كهذا.

وتغير الثلاثة منظراً ولواناً ورائحة. ولكن لم يكدر المقام يستقر بهم حتى جاءهم جمع من الرجال ومن النساء، قال أولهم إنه الباب وثانيهم الطاهي وثالثهم البستانى ورابعهم مربى الطيور والأخريات للدار، فعجب عرفة لهم وسألهم:

- من أذن لكم بالملجيء؟

قال الباب إنابة عنهم:

- حضرة الناظر.

وسرعان ما دعى عرفة إلى مقابلة الناظر فذهب من فوره . ولما جلسا
جنبًا إلى جنب فوق الإيوان بالبهو قال قدرى :
- ستقابل كثيرا يا عرفة فلا يزعجك استدعائى لك .
الحق قد أفلق المكان والمجلس والرجل لكنه قال ب بشاشة :
- سيدى الخير والبركة !
- سحرك أصل الخير كله ، ترى هل أعجبتك الدار ؟
فقال عرفة في حياء :
- هي فوق الأحلام ، وبخاصة أحلام قوم فقراء مثلنا ، واليوم جاءنا
الخدم أشكالاً وألواناً !
فتفسر الناظر في وجهه وهو يقول :
- هم من رجالى أرسلتهم إليك ليخدموك وليحموك !
- يحموننى ؟!
فقال قدرى وهو يضحك :
نعم ، ألا تعلم أن الحرارة لا حدث لها إلا انتقالك إلى بيت الفتوة ؟
ويقولون فيما بينهم هو هو صاحب القوارير السحرية . وأهل
الفتوت موتورون كما تعلم ، والآخرون يموتون حسدا ، لذلك كله
فأنت في خطر محظوظ ، ونصيحتى إليك ألا تأمن أحداً أو تسير
بمفردك أو تبتعد عن دارك !
تجهم وجهه . ما هو إلا سجين يحيط به الغضب والمقت . واستدرك
قدرى قائلاً :
لكن لا تخف فإن رجالى حولك ، واستمتع بالحياة ما شئت في
بيتك وفي بيته . ماذا تخسر ؟ وما وراء ذلك إلا الخلاء والخرائب ؟
ولا تنس أن أهل حارتنا يقولون إن سعد الله قتل بالسلاح الذى قتل
به عجاج ، وإن الوسيلة التى نسلل منها القاتل إلى بيت سعد الله

- هي نفس الوسيلة التي تسلل منها إلى البيت الكبير من قبل ، فقاتل عجاج وسعد الله والجلوبي شخص واحد هو عرفة الساحر .
- فهتف عرفة متشنجاً :
- هذه لعنة مسلطـة على رأسي .
- قال الناظر في هدوء :
- لا تخـف ما دمـت في كنـفـي ومن حـولـك خـدمـي .
- أيها اللثيم الذي أوقعـتـي في سـجـنهـ ، ما أرـدـتـ السـحـرـ إـلـىـ للـقـضـاءـ
- علـيكـ لاـ خـدمـتكـ ، والـيـومـ يـقـتنـيـ منـ أـحـبـهـمـ وأـوـدـ خـلاـصـهـمـ وـلـعـلـيـ أـقـتـلـ
- بـيدـ أحـدـهـمـ . وـقـالـ بـرـجـاءـ :
- وزـعـ أـنـصـيـةـ الـفـتوـاتـ عـلـىـ النـاسـ يـرـضـواـعـنـكـ وـعـنـاـ !
- فضـحـكـ قـدـرـيـ هـازـنـاـ ثـمـ تـسـأـلـ :
- ولـمـ إـذـنـ كـانـ القـضـاءـ عـلـىـ الـفـتوـاتـ ؟
- وـأـرـدـفـ وـهـوـ يـتـفـحـصـ بـقـسـوةـ :
- إنـكـ تـلـمـسـ سـبـيلـاـ إـلـىـ رـضـاهـمـ ؟ دـعـكـ مـنـ هـذـاـ ، وـتـعـودـ مـثـلـيـ عـلـىـ
- مـقـتـ الآـخـرـينـ لـكـ ، وـلـاـ تـنسـ أـنـ مـلـاذـكـ الـحـقـ هـوـ رـضـايـ عنـكـ .
- قال في قنوط :
- كنت وما زلت في خدمـتكـ !
- ورفع الناظر رأسـهـ نحوـ السـقـفـ كـأـنـاـ يـتـسلـىـ بـتـأـمـلـ زـخـارـفـهـ ، ثـمـ أـعـادـ
- رأسـهـ إـلـيـهـ قـائـلاـ :
- أـرـجـوـ أـلـاـ يـلـهـيـكـ مـتـاعـ الـحـيـاةـ الـجـديـدةـ عـنـ سـحـرـكـ !
- فـهـزـ رـأـسـهـ بـالـإـيـجابـ فـقـالـ الرـجـلـ :
- وـأـنـ تـكـثـرـ مـاـ اـسـتـطـعـتـ مـنـ الـقـوـارـيرـ السـحـرـيـةـ !
- قال عـرـفـةـ بـحـذرـ :

- لسنا بحاجة إلى أكثر مما لدينا منها .
فدارى الآخر حنقه بابتسامة وقال :
- أليس من الحكمة أن ندخل منها عدداً موفوراً؟
لم يجب . ودهمه يأس . وتساءل هل جاء دوره هكذا سريعاً؟ وسأله
بغتة :
- سيدى الناظر ، إذا كان مقامى يضايقك فاسمح لي بالذهاب إلى غير
عوده .
فتظاهر الرجل بالانزعاج وتساءل :
- ماذا قلت يا رجل ؟
فقال وهو يواجهه بنظره صريحة :
- أنا أعلم أن حياتى رهن بحاجتك إلىـ .
فضحك الرجل ضحكة لا مرح فيها ثم قال :
- لا تظنين أستهين بذكائك ، وأعترف لك بسلامة تفكيرك ، لكن
كيف توهمت أن حاجتى إليك تقف عند القوارير؟ أليس فى وسع
سحرك أن يصنع أعا杰يب أخرى ؟
لكن عرفة واصل حديثه الأول قائلاً بجهاء :
- رجالك هم الذين أذاعوا سر ما قدمت لك من خدمات ، لست
أشك فى ذلك ، لكن يجب أن تذكر كذلك أن حياتك فى حاجة
إلىـ .
قطب الناظر متوعداً لكن عرفة قال دون تردد :
أنت اليوم لا فتوة لك ، ولا قوة عنك إلا بالقوارير ، وما لديك منها
لا يغنى عنك شيئاً ، فإذا مت أنا اليوم تبعتنى غداً أو بعد غد .
مال الناظر عليه كالوحش فجأة فطوق عنقه بيديه وشد عليه حتى

ارتعد جسمه . لكنه سرعان ما خفف من قبضته ، ثم سحبهما ، ثم ابتسم ابتسامة مقيمة وقال :

- انظر ما كانت ستدعوني إليه سلاطة لسانك ! بينما لا توجد لدينا دواع للخصوصية ، وفي وسعنا أن نستمتع بالنصر وبالحياة في سلام .
تنفس عرفة بعمق ليسترد روحه المذعورة على حين واصل الآخر حديثه قائلاً :

لا تخف على حياتك مني ، فسأحرص عليها حرصى على الحياة نفسها . تمنى بالدنيا ولا تنس سحرك الذى يجب أن تجنبني أزاهير ثماره ، وأعلم بأن من يغدر منا بصاحب فقد غدر بنفسه !

تجهم وجهها عواطف وحنش وهو يعيد على مسامعهما ذلك الحديث فى البيت الجديد . وبدا أن ثلاثتهم تعوزهم الطمأنينة الحقة فى ظل حياتهم الجديدة . لكنهم تناسوا أسباب قلقهم عند العشاء حول مائدة حفلت بما لذ و طاب من طعام شهى ونبيذ معتق . ولأول مرة ارتفع صوت عرفة وهو يضحك واهتز جذع حنش وهو يقهقه . ومضيا فى حياتهما كما شاءت الظروف . كانوا يعملان معا فى حجرة وراء الباب أعداها للسحر . ودأب عرفة على تسجيل الرموز التى اصطلمحا عليها فى كراسة لم يعلم بها سواهما أحد . ومرة قال له حنش فى أثناء العمل :

- يا لنا من سجناء !

قال له محدرا :

أخفض من صوتك فإن للحيطان آذانا .

مد حنش بصره نحو الباب فى حقد ثم عاد يقول فيما يشبه الهمس :

- أليس من الممكن أن تصنع سلاحا جديدا نقضى به عليه من حيث لا يدرى ؟

فقال عرفة بامتعاض :

-لن ينفع لنا أن نخبره سرا بين مؤلاة الخدم، فهو لن يخفى عليه شيء من أمورنا . وإذا قضينا عليه قضى علينا الموتورون من أهل حارتنا
قبل أن ندافع عن أنفسنا حيالهم !

-لماذا تعمل إذن بهذا الجد كله ؟

فتنهى قائلا :

-لأنه ليس لي إلا أن أعمل .

وكان يذهب عند الأصيل إلى بيت الناظر فيجالسه ويشاريه ، ثم يعود ليلا إلى داره فيجد أن حنس قد هيا له في الحديقة أو المشيرية غرزة صغيرة فيحششان معا . ولم يكن معدودا في الحشاشين من قبل ، ولكن التيار جرفه . وطارده الملل . وحتى عواطف أخذت تتلقّن تلك الأشياء . كان عليهم أن ينسوا الملل والخوف واليأس وإحساسا محزنا بالذنب ، كما كان عليهم أن ينسوا آمال الماضي العريضة . وعلى رغم ذلك فقد كان للرجلين عمل .

أما عواطف ، فما كان لها من عمل . كانت تأكل حتى تتحم ، وتنام حتى عل الرقاد ، وتقضي الساعات الطويلة في الحديقة مستمتعة بشتى ألوان جمالها . وذكرت أنها باتت تنعم بالحبابة التي تحسّر عليها أدهم . ما أثقلها من حياة . وكيف تعد مطلبا تذهب النفس حسرات عليه ! لعلها كانت تكون كذلك لو لم تكن سجنا ولم يكن ما يحيط بها عداوة وبغضاء . لكنها ستثبت سجنا مطوقا بالكراهية ، ولا مهرب منه إلا حول المجرمة ! ومرة تأخر عرفة في بيت الناظر فخطر لها أن تنتظره في الحديقة . وتقدمت قافلة الليل وراء حادى القمر وهي جالسة تصغى إلى أنقام الغصون ونقيق الصفادع .

وانتبهت إلى صوت الباب وهو يفتح فاستعدت للقاء القادم ، غير أن

حفيظ ثوب قادما من ناحية البدروم لفت إليه سمعها، ثم رأت من موقفها شبح خادمة على ضوء القمر مضت نحو الباب دون أن تدري بها. وتقدم عرفة كالمترنح فاتفتحت الخادمة ناحية الجدار المتند من السلاملك فلحق بها، ثم رأتهما يلتعمان وقد أخفاهما ظل الجدار من ضوء القمر.

١٠٩

انفجرت عواطف كما ينبغي لأمرأة من حارة الجبلاوي. انقضت على الكائن المتلاحم كاللبؤة فهوتوت بقبضتها على رأس عرفة فتراجع ذاهلا مترنحا حتى اختل توازنه فوقع، ثم أثبتت أظافرها في عنق الخادمة وانهالت على رأسها نطحا حتى مرق صراخها سكون الليل. وقام عرفة من سقطته لكنه لم يجرؤ على الدنو من المعركة. وجاء حنش مهرولا وفي أعقابه عدد من الخدم، فلما عرف الموقف على حقيقته صرف الخدم، وخلص بين المرأتين بكىاسة ولباقة حتى استطاع أن يعود بعواطف إلى البيت وهي تقذف بسيل من السباب والشتائم واللعنتا. ومضى عرفة مترنحا إلى المشربية المطلة على الخلاء وارتمى على شلتته وحيدا في الغرزة، ثم مد ساقيه وأسند رأسه إلى جدار وهو في شبه غيبة. وملحق به حنش بعد فترة قصيرة فاتخذ مجلسه أمامه حول المجمرة صامتا، ورمقه بنظرة سريعة ثم عاد ينظر إلى الأرض حتى قطع الصمت قائلا:

كان لأبد للفضيحة أن تقع.

فرفع إليه عينين خجلتين وقال معنا في الهرب:

-أشعل النار!

ولبنا في المشربية حتى قبيل الصباح . وذهبت الخادمة فحلت محلها أخرى . وبذا العواطف أن ذلك الجو المحيط بها يغري بزلة بعد أخرى . وأخذت تؤول كل حركة تصدر عن زوجها تأويلاً مبيعاً يتناسب مع ارتياها حتى انقلب الحياة جحيناً . فقدت العزاء الوحيد الذي كانت تتسلى به في سجنها المليء بالمخاوف . فلا البيت بيته ولا الزوج زوجها . سجين بالنهار وما خور بالليل . وأين عرفة الذي أحبته؟ عرفة الذي تحدى بالزواج منها السنطوري ، والذى عرض نفسه للهلاك مرات في سبيل الحرارة حتى ظنته رجلاً من رجال الرباب ، ما هو اليوم إلا وقد مثل قدرى ومثلما كان سعد الله . والحياة إلى جانبها عذاب مشتعل وخوف مؤرق .

وعاد عرفة ليلة من بيت الناظر فلم يجد لعواطف أثراً . وشهد الباب بأنه رأها تغادر البيت أول الليل ثم لم تعد . وتساءل عرفة ورائحة الخمر تتطاير مع أنفاسه :

-أين ذهبت يا ترى؟

فقال حنش بإشفاق :

-إن تكون في الحرارة فهي عند جارتها القديمة أم زنفل بائعة المفتقة .

فقال عرفة غاضباً :

-المرأة لا تؤخذ باللين ، هذه حكمة أهل حارتنا ، فلا هملها حتى تعود بنفسها ذليلة !

لكنها لم ترجع ، وانقضت عشرة أيام ، فقرر عرفة أن يذهب ليلاً إلى أم زنفل متوكلاً لا يشعر بذهابه أحد . وفي الميعاد المضروب تسلل من البيت متبعاً بحنش . وما كادا يقطعان خطوات حتى سمعاً أقداماً تتبعهما فالتفتاً ورأيما فرأيا خادمين من خدم البيت ، فقال عرفة لهما :

-ارجعوا إلى البيت.

فأجابه أحدهما:

.نحن نحرسك بأمر حضرة الناظر.

تغىز غبظاً لكنه لم يعقب . وساروا نحو ربع قديم في حي قاسم ، وصعدوا إلى طابق الأخير حيث توجد حجرة أم زنفل . طرق عرفة الباب مرات حتى فتح عن عواطف نفسها بوجه يعلوه النعاس . تبيّنت وجهه على ضوء مصباح صغير يدها فقطبـت متراجعة ، فتبّعها راداً وراء الباب . واستيقظت أم زنفل في ركن الحجرة وراحت تنظر بذهول نحو القادر . أما عواطف فقالت بحدة :

-ماذا جاء بك؟ ماذا تريـد؟ ارجع إلى بيتك المبارك عليك .

وهمست أم زنفل بازعاج وهي تحدق في وجهه :

-عرفة الساحر!

وقال عرفة لزوجته دون أن يلقى بالاً إلى المرأة المتزعجة :

-اعقلـى وتعالـى معـى .

فقالـت بالـحـلـةـ نفسـهاـ :

-لن أعود إلى سجنـكـ ، ولـنـ أـفـرـطـ فيـ رـاحـةـ البـالـ التـيـ أـجـدـهـاـ فيـ هـذـهـ الحـجـرـةـ .

-لكـنـكـ زـوـجـتـيـ .

فارتفـعـ صـوـتهاـ وهـىـ تـقـوـلـ :

-زـوـجـاتـكـ هـنـاكـ بـالـخـيـرـ وـالـبـرـكـةـ !

وـقـالـتـ أمـ زـنـفـلـ فـيـ نـبـرـةـ اـحـتـجـاجـ :

-اـتـرـكـيـهاـ لـنـوـمـهـاـ وـعـدـ فيـ الصـبـاحـ .

فـرـمـاـهـاـ بـنـظـرـةـ قـاسـيةـ دـوـنـ يـوـجـهـ لـهـاـ كـلـمـةـ وـاحـدـةـ ، ثـمـ نـظـرـ إـلـىـ

زـوـجـتـهـ قـائـلاـ :

- كل رجل وله زلة!

فهتفت:

- أنت نفسك زلة ولا كل الزلات.

فمال نحوها قليلاً وقال محركاً أحelan الرقة في أوتار صوته:

- عواطف. أنا لا يمكن أن أستغني عنك.

- لكنني أنا استغنيت!

فتساءل بامتعاض:

- تبيعيتنى لغلوطة أفلتت وأنا سكران؟

فهتفت بشجن:

- لا تعذر بالسكر، حياتك كلها أخطاء، وستحتاج إلى عشرات

الأعذار لتبررها، ولن أجني من ورائها إلا المتابع والعناد.

- هي على أي حال أفضل من الحياة في هذه الحجرة!

فابتسمت ابتسامة مريرة ساخرة وتساءلت:

- من يدرى؟ خبرني كيف ترك السجانون لتجيء إلى؟

- عواطف!

فقالت بإصرار:

- لن أعود إلى بيت لا عمل لي فيه إلا التثاؤب ومعاشرة عشيقات

زوجي الساحر العظيم.

وعينا حاول أن يثنوها عن إصرارها. قابلت لينه بالعناد، وغضبه

بالغضب، وسبه بالسب، فارتدى عنها يائساً، ثم غادر المكان متبعوها

بصاحبها والخدمين. وسأله حنش:

- ماذا أنت فاعل؟

فقال بامتعاض وفتور:

- ما نفعله كل يوم .
- سأله قدرى الناظر :
- هل من جديد عن زوجك ؟
- فأجاب وهو يتخذ مجلسه إلى جانبه :
- عنيدة كالبلغ ربنا يحفظ مقامك !
- فقال الناظر باستهانة :
- لا تشغل بالك بامرأة عندك خير منها !
- وجعل يتفحص عرفة باهتمام ، ثم سأله :
- هل تعرف امرأتك شيئاً من أسرار عملك ؟
- فبادره عرفة بنظرة مريبة ثم قال :
- السحر لا يعرفه إلا ساحراً
- أخشى أن . . .
- لا تخش شيئاً لا ظل له من الوجود .
- وامتد الصمت ثوانى فعاد يقول في جزع :
- لن تستند لها يد بسوء وأنا على قيد الحياة !
- فكظم الناظر غيظه ، وابتسم ، وأشار إلى الكأسين المشرعين داعياً
- وهو يقول :
- من قال إن يداً استند إليها بسوء ؟ !

١١٠

ولما توثقت الألفة بين قدرى وعرفة ، جعل يدعوه إلى سهراته الخاصة التي تبدأ عادة عند منتصف الليل . شهد عرفة سهرة عجيبة في البهو

الكبير، حفلت بكل ما لذ و طاب من مأكول و مشروب، و رقصت فيها نساء جميلات وهن عرايا حتى كاد عرفة أن يجن من الشراب والمنظر. في تلك السهرة رأى عرفة الناظر يعربد بلا حدود، مثل وحش مجنون. و دعاه إلى سهرة في الحديقة، في خميلة يحدق بها مجرى ماء مضاء الوجه بنور القمر. وكان بين أيديهما فاكهة ونبيذ، وأمامهما مليحتان: إحداهما لخدمة المجمرة ، والأخرى لخدمة الجوزة. و هب نسم الليل يحمل عرف الأزهار و نغم عود وأصواتا تغنى :

- يا عود قرنفل في الجنينة منعن

يعجب الجدعان الحشاشة المجدع

كانت ليلة بدرية يلوح قمرها مكتملا إذا مال غصن التوت الريان مع النسيم، أو يبدو أعيننا من الضياء خلل شبكة من الأغصان والأوراق إذا رجع الغصن إلى مستقره. و سرت من يد المليحة والجوزة نشوة إلى رأس عرفة فدار مع الأفلاك، وقال:

- رحم الله أدهم.

فقال الناظر باسما:

- ورحم الله إدريس، ماذا ذكر به؟

- مجلسنا هذا!

- كان أدhem يحب الأحلام، ولا يعرف منها إلا ما أدخله الجبلاوي في رأسه.

ثم وهو يضحك:

- الجبلاوي الذي أرحته أنت من عذاب الكبرا

انقبض قلب عرفة وانطفأت نشوته فغمغم محزونا:

- لم أقتل في حياتي إلا فتوة مجرما.

- و خادم الجبلاوي؟

- على رغم قتله .
فقال قدرى هازئا :
أنت جبان يا عرفة .

فهرب إلى القمر ينظر إليه خلل الغصون تاركا الغرزة لأنغام العود ،
ثم جعل يسترق النظر إلى يد المليحة وهي ترقص الحجر . وإذا بالناظر
يهتف به :

- أين أنت يا ابن المذهبول؟ !

فاللتفت نحوه باسمها وهو يسأل :

- أتسهر وحدك يا حضرة الناظر؟

- لا أحد هنا يلبي بمساهرتى .

- وحتى أنا لا سمير لي إلا حنش !

فقال قدرى باستهانة :

- عند درجة من السطول لا يهمك أن تكون وحدك .

تردد عرفة قليلا ثم تسأله :

- ألسنا في سجن يا حضرة الناظر؟

فقال الآخر بحدة :

- ماذا تريده ما دمنا مطوقين بأناس يقتلونا؟ !

وذكر كلمات عواطف وكيف فضلت مسكن أم زنفل على بيته ، فقال
متهدا :

- يا لها من لعنة !

- أحذر أن تفسد علينا صفونا .

فتناول الجوزة وهو يقول :

- لنصف الحياة إلى الأبد .

فضحك قدرى فائلا:

- إلى الأبد؟ حسبنا أن نضمن نفحة من نفحات الشباب مدى عمرنا
بفضل سحرك!

فملاً صدره من عبر الحديقة التطيب بنداؤة الليل العميق ثم قال:
- من حسن الحظ أن عرفة لا يخلو من فوائد!

ترك الناظر الجوزة ليد المليحة وهو يزفر دخانا كثيفا بدا مفضضا في
ضوء القمر ثم قال بحسرة:

- لم يدركنا الهرم؟ أللذ الطعام نأكله وأبهج الشراب نشربه وأطيب
العيش نهأ به، لكن الشيب يزحف في أوانه لا يرده شيء كأنه
الشمس أو القمر.

- لكن أقراص عرفة تحيل برودة الشيخوخة حرارة!

- ثمة شيء تقف أمامه عاجزا!
- ما هو يا سيدى؟

بذا الناظر حزينا في ضوء القمر، وتساءل:

- ما أبغض الأشياء إلى قلبك؟

لعله السجن الذي وضع فيه، لعلها الكراهية المحدقة به، لعله الهدف
الذى تنكب عنه، لكنه قال:

- ضياع الشباب!

- كلام، لا خوف عليك من ذلك.

- كيف وزوجي غاضبة؟

- سيجدن دائمًا سبباً أو آخر للغضب.

واشتتد هبوب النسيم مرة فارتفع حفيظ الغصون وتوهجهت الجمرات
في المجمرة. وتساءل قدرى:

- لماذا غوت يا عرفة؟

فرمقة بكابة ولم ينس فاردف الآخر:

- حتى الجبلاوى مات.

كأن إبرة انغرزت فى قلبه، لكنه قال:

. كلنا أموات وأبناء أموات.

فقال فى ضجر:

. لست فى حاجة إلى تذكيرى بما قلت.

- ليطل عمرك يا سيدى.

- طال أو قصر فالنهاية هى تلك الحفرة التى تعشقها الديدان.

فقال عرفة برقه:

. لا تدع الأفكار تكدر صفوك.

إنها لا تفارقنى. الموت.. الموت.. دائمًا الموت، يجئ فى أي لحظة، ولأنه الأسباب، أو بلا سبب على الإطلاق، أين الجبلاوى؟ أين الذين تتغنى بأعمالهم الرباب؟ هذا قضاء ما كان ينبغي أن يكون.

ولحظه عرفة فرأى وجهه شاحباً وعينيه تنطقان بالفزع، فبدأ التناقض صارخاً بين حاله وبين مجلسه، فداخله قلق وقال برقه:

. المهم أن تكون الحياة كما ينبغي.

فلوح بيده غاضباً وقال بحدة نعت الصفو نعياً:

. الحياة كما ينبغي وأحسن، لا ينقصها شيء، حتى الشباب تعиде الأعراض، ولكن ما جدوى ذلك كله والموت يتبعنا كالظل؟ كيف أنساه وهو يذكرنى بنفسه كل ساعة؟

سر لعذابه، لكنه سرعان ما سخر من مشاعره، وتتابع بد الحسناه

بשוק وحنان، وتساءل في سره: متى يضمن لي أن أرى القمر ليلة أخرى؟ ثم قال:

- لعلنا في حاجة إلى مزيد من الشراب!

- سفيق في الصباح.

وجد نحوه ازدراه. وظن أن ثمة فرصة متاحة فأراد أن يخطفها فقال:

- لو لا حسد المحرومين من حولنا لتغير مذاق الحياة في أفواهنا!

فضحك الناظر ضحكة ساخرة وقال:

- قول بالعجز أجرأ! هبنا استطعنا أن نرفع حياة أهل حارتنا إلى مستوى حياتنا فهل يقلع الموت عن اصطيادنا؟

فهز عرفة رأسه في تسلیم حتى خفت حدة الرجل، ثم قال:

- الموت يكثر حيث يكثر الفقر والتعاسة وسوء الحال.

- وحيث لا يوجد منها شيء يا أحمق.

قال وهو يبتسم:

- نعم، لأنّه معد مثل بعض الأمراض!

فضحك الناظر قائلاً:

- هذا أغرب رأي تدافع به عن عجزك.

قال متشجعاً بضحكة:

- نحن لا ندرى عنه شيئاً فلعله أن يكون كذلك، وإذا حستت أحوال الناس قل شره، فزادت الحياة قيمة وشعر كل سعيد بضرورة مكافحته حرساً على الحياة السعيدة المتاحة.

- ولن يجدي ذلك فتيلاً.

- بل سيجمع الناس السحرة ليتوفروا المقاومة الموت، بل سيعمل بالسحر كل قادر، هنالك يهدد الموت الموت.

وندت عن الناظر ضحكة عالية، ثم أغمض عينيه مستسلماً للحلم.
وتناول عرفة الجوزة وشد نفساً طويلاً حتى اشتعل الحجر. وعاد العود
بعد انقطاع يترنم وغنى الصوت الخنون «طوك يا ليل» فقال قدرى:
-أنت حشاش يا عرفة لا ساحر.

فقال عرفة ببساطة:

-بذلك نقتل الموت.

-لم لا تعمل أنت وحدك؟

-إنى أعمل كل يوم، ولكن ما أعجزنى وحدى أمامه.

واستمع الناظر إلى الغناء ملياً دون حماس ثم سأله:

-آه لو تنجح يا عرفة! أى شيء تفعله لو نجحت؟!

فقال وكأنما أفلت منه القول:

-أرد إلى الحياة الجبلاوي.

فلوى الرجل شفتيه بفتور وقال:

-هذا شأن يعنيك بصفتك قاتله!

فقطب عرفة متلماً وغمغم بصوت غير مسموع:

آه لو تنجح يا عرفة!

١١١

وعند الفجر غادر عرفة بيت الناظر. كان من السطلي في عالم
مسحور غائم المسموعات والمرئيات ولا تكاد تحمله قدماه. مضى ناحية
بيته في حارة غارقة في النوم مفروشة الأديم بضوء القمر. وعند متتصف

المسافة بين بيت الناظر وبينه . أمام باب البيت الكبير . اعترضه شبح لم يدر من أين أتى ، وقال له فيما يشبه الهمس :

ـ صباح الخير يا معلم عرفة !

ـ دهمه خوف لعله من المفاجأة اتبعت ، لكن تابعيه انقضى على الشبح وأمسكاه . وتفرس فيه فوضح لعينيه على رغم ذهولهما أنه شبح امرأة سوداء مرتدية جلباماً أسود يلفها من العنق حتى القدمين . أمر خادميه أن يتركاها فتركاها ثم سألها :

ـ مالك يا ولية ؟

ـ فقالت بصوت أكد أنها سوداء :

ـ أريد أن أحذثك على انفراد .

ـ لم ؟

ـ مكروبة تشکو إليك كربها !

ـ فقال بضمير وهو يهم بالذهاب :

ـ الله يحن عليك .

ـ فقالت بضراعة نافذة :

ـ وحياة جدك الغالي إلا ما سمحت لي .

ـ فحدجها بنظرة غاضبة لكنه لم يحول عن وجهها عينيه ! تسأله : أين ؟ ومتى رأى ذلك الوجه ؟ وإذا بقلبه يخفق خفقة أطارت السطل من رأسه . هذا الوجه الذي رأه على عتبة حجرة الج بلاوى وهو مختلف وراء المهد في الليلة المشئومة ! وهذه هي خادمة الج بلاوى التي كانت تشاركه حجرته ! وركبه خوف تخلخلت له مفاصله فحملق في وجهها فزعا .

ـ وسألة أحد الخادمين :

ـ نظردها ؟

فخاطبهما قائلًا :

ـ اذهبا إلى باب البيت وانتظرا.

انتظر حتى ذهبا، فخلالهما المكان أمام البيت الكبير، وراح يتفرس في وجهها الأسود الناحل وجبينها الضيق العالى وذقنها المدب والتجاعيد المحدقة بقبيها وجبيتها . وقال يطمئن نفسه : إنها من المؤكد لم تره تلك الليلة ، ولكن أين كانت منذ وفاة الجبلاوي؟ وماذا جاء بها؟ !
وسألهما :

ـ نعم يا ستي ؟

فقالت بهدوء :

ـ لا شكوى لي ، وإنما أردت أن أخلو إليك لأنفذه وصية !

ـ أي وصية ؟ !

فمال رأسها نحوه قليلاً وهي تقول :

ـ كنت خادمة الجبلاوي وقد مات بين يدي !

ـ أنت ؟ !

ـ نعم أنا فصدقني .

ولم يكن في حاجة إلى دليل فسألها بصوت مضطرب :

ـ كيف مات جدنا ؟

فقالت المرأة بنبرة حزينة :

ـ اشتد به التأثر عقب اكتشاف جثة خادمه ، وبغتة احضر فسارعت إليه لأسند ظهره المختل ! ذلك الجبار الذي دان له الخلاء !

زفر عرفة بصوت حار كدر سكون الليل ، وانخفض رأسه في حزن كأنما يداريه عن ضوء القمر ، وإذا بالمرأة ترجع إلى حديثها الأول قائلة :
ـ جئتكم تنفيذاً لوصيته .

فرفع رأسه إليها مرتعشاً، متسائلًا:
ـ ماذا عندك؟ نكلم.

فقالت بصوت هادئ كنور القمر:

ـ قال لي قبل صعود السر الإلهي: «اذهب إلى عرفة الساحر وأبلغيه
عني أن جده مات وهو راض عنه».

فانتفض عرفة كالملدوغ وهتف بها:

ـ يا دجالة! ماذا تذكرين؟!

ـ سيدى، حفظتك العناية.

ـ خبرينى أى لعبة تلعبين؟

فقالت ببراءة:

ـ لا شئ غير ما قلت، والله شهيد.

فسألها بارتياح:

ـ ماذا تعرفين عن القاتل؟

ـ لا أدري شيئاً يا سيدى، منذ وفاة سيدى وأنا طريحة الفراش، وأول
ما فعلت بعد شفائي أن قصدتك.

ـ ماذا قال لك؟

ـ اذهب إلى عرفة الساحر وأبلغيه عنى أن جده مات وهو راض عنه.
فقال عرفة بتحذ:

ـ كاذبة! أنت تعرفين يا ماكرة أنتي.. (ثم مغيراً نبرته) كيف عرفت
بمكاني؟!

ـ سألت عنك أول ما جئت، فقالوا لي إنك عند الناظر فلبست
أنظر.

ـ ألم يقولوا لك إنني قاتل الجبلاوي؟!

فقالت بارتباط :

- مقتل الجلاوى أحد! وما كان فى وسع أحد أن يقتله .
- بل قتله الذى قتل خادمه .

فهتفت بغضب :

- كذب وافتراء ، لقد مات الرجل بين يدي .

ووجد عرفة رغبة فى البكاء لكنه لم يسفع دمعة واحدة ، ورنا إلى المرأة بطرف منكسر ، فقالت ببساطة :

- فوتك بعافية .

فسألها بصوت غليظ متھشرج كأنه صوت ضميره المعدب :

- أنسقين على أنك صادقة فيما قلت؟

فقالت بوضوح :

- أقسم بربى وهو شهيد .

ومضت وألوان الفجر تخضر الأفق فأتبعتها ناظريه حتى اختفت ثم ذهب . وفي حجرة نومه سقط مغشيا عليه . وأفاق بعد دقائق فوجد نفسه متumba لحد الموت فنام ، لكن نومه لم يستمر أكثر من ساعتين ثم أيقظه القلق الباطنى . ونادى حنش فجاءه الرجل ، فقص علىه قصة المرأة والأخر يحملق في وجهه كالمزتعج ، فلما فرغ من قصته ضحك حنش قائلا :

- هنيئا لك سطلا الأمس .

فغضب عرفة وهتف به :

- لم يكن ما رأيت سطلا ، ولكن حقيقة لا شك فيها .

ـ قال حنش برجاء :

- نـ، أنت فى حاجة إلى نوم عميق .

- ألا تصدقني؟

- كلا طبعاً، وإذا ثمنت كما أود واستيقظت بعد حين فلن تعود إلى هذه القصة.

- ولم لا تصدقني؟

فضسحك قائلاً:

- كنت في النافذة وأنت تغادر بيت الناظر فرأيتك وأنت تقطع عرض الحارة نحو بيتك. وقفت قليلاً أمام باب البيت الكبير ثم واصلت السير يبتعد خادمك!

فوثب عرفة واقفاً وهو يقول بظفر:

- إلى بالخدمين.

فأشار حنش إليه محدراً ثم قال:

- كلا، وإنما شكا في عقلك.

فقال بإصرار:

- سأستشهد بهما على مسمع منك.

فقال حنش متولاً:

- لم يبق لنا إلا شيء من الكرامة حيال الخدم فلا تبده.

فلاحت في عيني عرفة نظرة جنونية، وراح يقول ذاهلاً:

- لست مجنوناً، وليس هو بالسلط! مات الجبلاوي وهو عنى راض.

فقال حنش بعطف:

- فليكن ولكن لا تدع أحداً من الخدم.

- إذا وقعت كارثة فستقع أول ما تقع فوق رأسك.

فقال بحلم:

- لا سمع الله ، فلندع المرأة لتحدثنا بنفسها ، أين ذهبت؟
 فقطب متذكرا ، ثم قال بإشراق :
 نسبت أن أسألها عن مسكنها !
 - لو كان حقيقة ما رأيت لما تركتها تذهب !
 فهتف عرفة بإصرار :
 - كان حقيقة ، لست مجنونا ، وقد مات الجبلاوي وهو عنى راض .
 فقال حنش بعطف :
 - لا تجهد نفسك فأنت في حاجة إلى الراحة .
 واقترب منه فربت رأسه ، وبخنو دفعه نحو الفراش ، وما زال به حتى
 أرقده . أغمض الرجل عينيه إعياء ، وما لبث أن نام نوما عميقا .

١١٢

قال عرفة بهدوء وتصميم :
 - قررت أن أهرب .

فدهش حنش دهشة فوق ما يطيق حتى توافت يداه عن العمل .
 ونظر بحذر فيما حوله ، وعلى الرغم من أن حجرة العمل كانت مغلقة
 فإنه بدا خائفا . ولم يكتثر عرفة لدهشته ، ولم تكف يداه عن العمل ،
 وراح يقول :
 - هذا السجن لم يعد يمدني إلا بأفكار الموت ، وكأن الطرب والشراب
 والراقصات ليست إلا ألحان الموت ، وكأنني أشم رائحة القبور في
 أصص الأزهار .
 فقال حنش بقلق :

- . لكن الموت نفسه ينتظرنا في الحرارة.
- سنهرب بعيداً عن الحرارة.
- ثم وهو ينظر في عيني حنش :
- وسنعود يوماً للننصر.
- إذا استطعنا الهرب !
- اطمأن لنا الأوغاد فلن يعجزنا الهرب.
- وواصل العمل ملياً في صمت، ثم تساءل عرفة :
- أليس هذا ما كنت تود؟!
- فتمسح حنش في حياء :
- كدت أنسى . . ولكن خبرني ما الذي دعاك اليوم إلى هذا القرار؟
- ابتسم عرفة وهو يقول :
- إن جدي أعلن رضاه عنى على رغم اقتحامي بيته وقتلني خادمه.
- فعاودت الدهشة وجه حنش وهو يتساءل :
- أنغامر بحياتك لحلم رأيته في السطّل؟
- سمه بماشاء، لكنني واثق من أنه مات وهو عنى راض. لم يغضبه الاقتحام ولا القتل، لكن لو اطلع على حياتي الراهنة لما وسعته الدنيا غضباً.
- ثم بصوت خافت :
- لذلك نبهني بلطف إلى سابق رضاه !
- فقال حنش وهو يهز رأسه عجباً :
- لم يكن من عادتك أن تتحدث عن جدنا باحترام.
- كان ذلك في الزمان الأول وأنا كثير الارتياب، أما وقد مات فحق للبيت الاحتراـم.

- الله يرحمه .

ـ وهيهات أن أنسى أنتي المشتبب في موته ، لذلك فعلت أن أعيده إلى الحياة إذا استطعت ، وإن تيسر لي النجاح فلن نعرف الموت .

ـ فرمي حنش بأسى وقال :

ـ لم يسعفك السحر حتى اليوم إلا بأفراص منشطة وقارورة مهلكة !

ـ نحن نعرف من أين يبدأ السحر لكن لا نستطيع أن تخيل أين ينتهي .

ـ وأجال بصره في الحجرة قائلاً :

ـ ستكلف كل شيء إلا الكراسة يا حنش ، فهي كنز للأسرار ، وأسأجعلها فوق صدري ، ولن نجد الهرب عسيراً كما تتورهم .

ـ ومضى عرفة كعادته مساء إلى بيت الناظر . وقبيل الفجر عاد إلى بيته . وجد حنش مستيقظاً في انتظاره فلبثا في حجرة النوم ساعة حتى يطمئناً إلى نوم الخدم . وتسللا معاً إلى السلاملك في خفة وحذر . وكان شخير الخادم النائم في شرفة السلاملك يتضاعد في انتظام ، فهبطا السلم ، واتجها نحو الباب . ومال حنش إلى فراش الباب فرفع بيده هراوة وهو يها عليه لكنها أصابت جسماًقطنياً فارغاً وأحدثت صوتاً مزعجاً في سكون الليل . ثبت لهما أن الباب ليس في فراشه . وخافا أن يكون الصوت قد أيقظ أحداً فلبثا وراء الباب بقلب خافق . ورفع عرفة المزلاج وفتح الباب على مهل ثم خرج وحنث في أثره . ورداً الباب وسارا الصق الجدران نحو ربع أم زنفل يخترقان ظلمة صامتة . واعتراضهما في متصرف الحرارة كلب رابض فوق مستطلاً ، وجرى نحوهما متثهماً ، وتبعهما خطوات ثم توقف وهو يتثاءب . ولما بلغا مدخل الربع قال عرفة همساً :

-ستنتظرنى هنا، وإذا رأيك شيء فصفرلى واهرب إلى سوق المقطم.

دخل عرفة الربع فاجتاز الدهلizi إلى السلم ورقى فيه حتى غرفة أم زنفل، ونقر على الباب حتى سمع صوت زوجته وهي تسأل عن الطارق فقال بسرعة وحرارة:

-أنا عرفة، افتحي يا عواطف.

ففتحت الباب فطالعه وجهها الشاحب من أثر النوم على ضوء مصباح صغير بيدها. قال مباشرة:

-اتبعيني، سنهرب معا.

وقفت تنظر إليه في ذهول على حين ظهرت وراء كتفها أم زنفل، فقال:

-سنهرب من الحرارة، سنعود كما كنا، أسرعى.

ترددت قليلاً، ثم قالت بنبرة لم تخل من غيظ:

-ما الذي ذكرت بي؟

قال باللهفة والهوجة:

-دعى الملام لجنه فللدقيقة الآن ثمنها.

وإذا بصفير حنش ينطلق وضجة ترمامي فهتف في فزع:

-الكلاب! ضاعت الفرصة يا عواطف.

وثب إلى رأس السلم فرأى في فناء الربع أضواء وأشباه فارتدى يائساً، وقالت عواطف:

-ادخل.

قالت أم زنفل بخشونة دفاعاً عن نفسها:

-لا تدخل.

- وما فائدة الدخول؟

وأشار إلى نافذة صغيرة بدهليز المسكن وسأل زوجته بسرعة:
ـ علام تطل؟

ـ المنور.

فاستخرج الكراسة من فوق صدره واندفع نحو النافذة منحياً عن سبيله أم زنفل، ثم رمى بها. وغادر المسكن مسرعاً فأغلق الباب وراءه. وصعد درجات السلم القليلة المؤدية إلى السطح وثبا. أطل من فوق سور على الحارة فرأها تعج بالأشباح والمشاعل. وترامت إلى أذنيه ضجة الصاعدين إليه. وجرى إلى سور الملائقة للربع المجاور من ناحية الجمالية فرأى أشباحاً تسبقه إليه وراء حامل مشعل. ارتد إلى سور الآخر الملائقة لأحد ربع الرفاعية فرأى من خلال باب سطحه أنوار مشاعل قادمة! وغلقه يأس خانق. وخيل إليه أنه سمع صراغ أم زنفل. ترى هل اقتحموا مسكنها؟ هل قبضوا على عواطف؟ وإذا بصوت عند باب السطح يصبح به:

ـ سلم نفسك يا عرفة!

وقف مستسلماً دون أن ينبس بكلمة. لم يتقدم منه أحد لكن الصوت قال:

ـ إذا رميتك بزجاجة انهالت عليك الزجاجات!

ـ فقال:

ـ لا شيء معنى.

انقضوا عليه فطوقوه. ورأى بينهم يونس بواب الناظر الذي اقترب منه وصاح به:

ـ يا مجرم.. يا لثيم.. يا كافرا بالنعمـة.

وفي الحارة رأى رجلين يسوقان أمامهما عواطف فقال بتسلل
حار:

- دعوها فلا شأن لها بي.
- لكن لطمة الموت هوت على صدغه فأسكنته.

١١٣

أمام الناظر الغاضب وقف عرفة وعواطف مقيدي اليدين إلى ظهريهما. انهال الناظر لطما على وجه عرفة حتى كلت يداه وصاح به:

- كنت تnadمني وأنت مبيت الغدر يا ابن الزانية!

فقالت عواطف بأعين دامعة:

- ما جاعنى إلا ليصالحنى!

فيصق الناظر على وجهها وصاح:

- اخرسى يا مجرمة.

فقال عرفة:

- إنها بريئة ولا ضلع لها في شيء.

- بل شريكك في قتل الجلاوى وسائر جرائمك.

ثم وهو يهدى:

- أردت الهرب وسأهربك من الدنيا كلها.

ونادى رجاله فجاءوا بجوالين. دفعوا عواطف فسقطت على وجهها فسرعان ما قيدوا قدميها وأدخلوهَا في الجوال وهي تصرخ ثم ربوا فوهته بربطًا محكما. وصاح عرفة بانفعال جنوني:

- اقتلنا كما تشاء ، سبقتك الحاقدون غدا .
- فضحك الناظر ضحكة باردة وقال :
- عندي من القوارير ما يحمينا إلى الأبد .
- فصاح عرفة :
- حنش هرب ، بكل الأسرار هرب ، وسوف يعود يوما بقوة لا تقاوم فيخلص الحارة من شرك .

فركله في بطنه فسقط يتلوى . وانقض عليه الرجال ففعلوا به ما فعلوه بزوجته ثم حملوا الجوالين خارجا ، ومضوا بهما نحو الخلاء . وما لبشت عواطف أن أغمى عليها ، ولكن بقى هو يعاني العذاب . إلى أين يسيرون بهما ؟ وماذا أعدوا لهما من ألوان الموت ؟ أيقتلونهما ضربا بالنبایت ؟ بالأحجار ؟ بالنار ؟ أم رميأ من فوق الجبل ؟ يا لهذه الدقائق الأخيرة من الحياة المشحونة بأفظع الآلام ! حتى السحر لا يستطيع أن يجد لهذا المأزق الخائق مخرجا . إن رأسه المثور من لطمات الناظر يرقد أسفل الجوال فيكاد أن يختنق . ولم يعد له من أمل في الراحة إلا بالموت . سيموت وقوت الآمال ، وربما عاش طويلا ذو القهقهة الباردة . وسيشتم به الذين ود لهم الخلاص . ولن يدرى أحد ماذا سيفعل حنش . والرجال الذين يحملونه إلى الموت صامتون ، لأنهم عن أحد هم كلمة ، فليس ثمة إلا الظلم ، وليس وراء الظلم إلا الموت ، وخوفا من هذا الموت انطوى تحت جناح الناظر فخسر كل شيء وجاء الموت . الموت الذي يقتل الحياة بالخوف حتى قبل أن يجيء . لورد إلى الحياة لصالح بكل رجل . . لا تخف . . الخوف لا يمنع من الموت ولكنه يمنع من الحياة . ولستم يا أهل حارتكم أحياكم ولن تناح لكم الحياة ما دمتم تخافون الموت .

وقال رجل من القتلة :

ـ هنا ..

فقال آخر من القتلة معتبرضاً:

- هناك الأرض طرية.

ارتعد قلبه على الرغم من أنه لم يفهم للكلام معنى، لكنها كانت لغة الموت على أي حال. واشتد به العذاب المتوقع حتى أوشك أن يصبح بهم أن اقتلوني، ولكنه لم يفعل. وفجأة هو الجوال إلى الأرض فشهق وارتطم رأسه بالأرض فهصر الألم عنقه وعموده الفقري. وانتظر بعد لحظة وأخرى انقضاض النبأيت أو ما هو أفعى. ولعن الحياة كلها من أجل الشر حليف الموت. وسمع يونس وهو يقول:

- احفروا بسرعة حتى نعود قبل الصبح.

لم يحفرون القبر قبل القتل؟ وخيل إليه أنه يحمل المقطم فوق صدره. وسمع أنيما ما لبث أن ميز فيه نبرة عواطف فندت عن جسده المقيد حركة عنيفة. ثم ملأت دقات الحفر أذنيه! فعجب من غلظة أكباد الرجال. وإذا بيونس يقول:

- سيلقى بكما إلى قعر الحفرة ثم يهال عليكم التراب دون أن يسكنكم إنسان بسوء!

فصرخت عواطف على رغم إعياها، وهتفت أعماقه بلغة لم يدرها أحد. ورفعتهما أيد شديدة، ثم رمت بهما إلى قعر الحفرة، فانهال التراب، وارتفع الغبار في الغسق.

١١٤

انتشر خبر عرفة في الحارة. لم يعرف أحد أسباب مصرعه الحقيقة، ولكن بالتخمين عرفوا أنه أغضب سيده فدفعه هذا إلى مصيره المحتوم. وذاع حيناً ما أن عرفة قتل بنفس السلاح السحرى الذى قتل

به سعد الله والجلالوى . وفرح الجميع لقتله على رغم مقتهم للناظر ، وكثير الشامتون من أهل الفتوات وأنصارهم ، فرحاً بالمقتل الرجل الذى قتل جدهم المبارك وأعطي ناظرهم الظالم سلاحاً رهيباً يستذلهم به إلى الأبد ! وبدا المستقبل قاتماً أو أشد فتامة مما كان بعد أن تركت السلطة في يد واحدة قاسية ، واحتفى الأمل فى أن ينشب بين الرجلين نزاع فيفضى إلى إضعافهما معاً وجلوء أحدهما إلى أهل الحرارة . وبدا أنه لم يبق لهم إلا الخضوع ، وأن يعتبروا الوقف وشروطه وكلمات جبل ورفاعة وقاسم أحلاً ما ضائعة قد تصلح الحاناً للرباب لا للمعاملة في هذه الحياة .

ويوماً اعترض رجل أم زنفل وهي ذاهبة إلى الدراسة فحياتها قائلاً :
ـ مساء الخير يا أم زنفل .

فمرقتها بنظره متفرضة مما عتمت أن قالت بدهشة :
ـ حنش ؟ !

فاقترب منها باسماً ثم سألاها :

ـ ألم يترك المرحوم شيئاً في مسكنك ليلة القبض عليه ؟

فقالت بلهجة من يقصد دفع الشبهة عن نفسه :

ـ لم يترك شيئاً !رأيته يرمي بأوراق إلى المنور ، فتسلىت إليه في نهار اليوم التالي فعثرت بين القاذورات على كراسة لا فائدة منها ولا عایدة فتركتها ورجعت .

ـ التمعت عيناً حنش بنور عجيب وقال بر جاء :

ـ مدى لي يدك حتى أغثر على الكرasse .

ـ فأجفلت العجوز وهي تهتف :

ـ ابعدوا عنى ، لولا رحمة ربنا لهلكت في المرة الماضية .

ـ فأودع يدها قطعة من النقود حتى سكن فزعها ، وواعدها آخر الليل حين تنام العيون . وفي الموعد المضروب تسلل بيار شادها إلى أسفل

المنور. وأشعل شمعة، وجلس القرفصاء بين أكواخ الزبالة وراح يفتش على كراسة عرفة. فرز الأكواخ ورقه ورقه خرقه، وتخللت أصابعه الرماد والتراب وبقايا المعسل وفتات الأطعمة المتنة، لكنه لم يعثر على ضالته. وصعد إلى أم زنفل فقال لها بيأس غاضب:

- لم أجد شيئاً.

فهتفت المرأة ساخطة:

- لا شأن لي بكم! إنكم تجيثون ثم تتبعكم المصائب!

- حلمك يا أمي!

- لم تترك لنا الأيام حلما ولا عقلا، خبرني ماذا يهمك في تلك الكراسة؟

فتردد حنش قليلا ثم قال:

- إنها كراسة عرفة.

- عرفة! الله يسامحه. قتل الجبلاوى، ثم أعطى الناظر سحره وذهب.

فقال حنش بحزن:

- كان من أولاد حارتنا الطيبين لكن الحظ خانه، كان يريد لكم ما أراد جبل وعرفة وقاسم، بل وأحسن مما أرادوا.

فحجدته المرأة بنظرة ارتياخ، ثم قالت بغية التخلص منه:

- لعل الزبائـل أخذـ الزبـالة الـتي تركـتـ الـكرـاسـةـ فـيـهاـ، فـفـتـشـ عـنـهاـ فـيـ مستـوـقـدـ الصـالـحـيـةـ.

وذهب حنش إلى مستوقد الصالحة وسأل عن زبائـل حـارـةـ الجـبـلاـوىـ، ثم سـأـلـهـ عـنـ زـبـائـلـ الـحـارـةـ، فـسـأـلـهـ الرـجـلـ:

- تبحث عن شيء ضائع؟ ما هو؟

-كراسة..

فلاحت في عين الزبالي نظرة مريبة ، لكنه قال وهو يشير إلى ركن في الحجرة الملائقة للحمام :

-أنت وحظك ، فإما تمجدها عندك وإما تكون في النار.

ومضى حنش يفتشر في الزبالية بصير وأمل . لم يبق له من أمل في الحياة إلا تلك الكراسة . هي أمله وأمل الحرارة . قتل عرفة السبي الحظ مغلوبيا على أمره ، لم يترك وراءه إلا الشر وسوء السمعة ، فهذه الكراسة جديرة بإصلاح أخطائه والقضاء على أعدائه وبعث الآمال في الحرارة المتجهمة . وإذا بالزبالي يسأله :

-ألم تعثر على مطلوبك؟

-أمهلني ربنا يكرمك .

فهرش الرجل إيطيه متسائلا :

-ما أهمية الكراسة؟

فقال حنش دفعا للقلق الذي انتابه :

-فيها حسابات محل وستراها بنفسك!

وواصل بحثه على رغم تزايد مخاوفه ، حتى سمع صوتا غير غريب عنه يقول :

-أين قدرة الفول يا متولى؟

، ارتعدت فرائصه لدى سماع صوت عم شنكل بياع الفول بالحرارة . لم يلتفت نحوه ولكنه تسأله في جزع : ترى هل لمحه الرجل؟ وهل يحسن به أن يهرب؟ وزادت سرعة يديه في التفتيش حتى بدا كالأرنب الذي يحضر مأوى له .

وعاد عم شنكل إلى الحرارة ليقول لكل من يصادفه إنه رأى حنش رفيق عرفة في مستودع الصالحة مكتبا على التفتيش في الزبالة عن كراسة

كما أخبره الزبالي. وما إن بلغ الخبر بيت الناظر حتى ذهب قوة من الخدم إلى المستودع، ولكنها لم تجد لخشن أثراً. ولما سئل الزبالي قال: إنه ذهب لبعض شأنه، ولما عاد كان حنش قد ذهب، ولم يدر إن كان عشر على ضالته أم لا.

ولا يدرى أحد كيف أخذ الناس يتهامسون فيما بينهم بأن الكراسة التي أخذها حنش ما هي إلا كراسة السحر التي أودعها عرفة أسرار فنونه وأسلحته، وأنها ضاعت في أثناء محاولته الهرب فحملت في الزبالة إلى مستودع الصالحة حيث عشر عليها حنش.

وانتشرت الأخبار من غرزة إلى غرزة بأن حنش سيتم ما بدأه عرفة ثم يعود إلى الحارة ليتقم من الناظر شر انتقام. وأكدت الأقوال والظنون أن الناظر وعد من يجيء بحنش حياً أو ميتاً بمكافأة كبيرة كما أعلن ذلك رجاله في المقاهى والغرز. فلم يعد أحد يشك في الدور المتظر أن يلعبه حنش في حياتهم. وارتقت في الأنفس موجة استبشار وتفاؤل قد نفذت بعيداً بزيد القنوط والمخنوع. وامتلأت القلوب عطفاً على حنش في مهجره المجهول، بل امتد العطف إلى ذكرى عرفة نفسه. وتنى الناس لو يتعاونون مع حنش في موقفه من الناظر لعلهم يحرزون بانتصاره عليه نصرالهم ولحارتهم، وضماناً لحياة خير وعدالة وسلام. وصمموا على التعاون ما وجدوا إليه سبيلاً باعتباره السبيل الوحيد إلى الخلاص، إذا كان من المسلم به أنه لا يمكن التغلب على القوة السحرية التي يحوزها الناظر إلا بقوة مثلها مما قد يعدها حنش.

ونما إلى علم الناظر ما الناس يتهامسون به فأوحى إلى شعراء المقاهى أن يتغنوا بقصة الجبلاوي، وبخاصة مقتله بيد عرفة، وكيف أن الناظر اضطر إلى مهادنته ومصادقته خوفاً من سحره حتى تمكّن منه فقتله انتقاماً للجحود الكبير.

ومن عجب أن تلقى الناس أكاذيب الرباب بفتور وسخرية، ويبلغ بهم العناد أن قالوا: «لا شأن لنا بالماضي، ولا أمل لنا إلا في سحر عرفة، ولو خيرنا بين الجبلاوى والسحر لاخترنا السحر».

ويوماً بعد يوم مضت حقيقة عرفة تكشف للناس. لعلها تسربت من ربع أم زنفل التي علمت بالكثير عنه من عواطف على عهد إقامتها عندها. ولعلها جاءت عن طريق حنش نفسه فيما كان يعرض للبعض عند مقابلته في الأماكن الثانية. المهم أن الناس عرفوا الرجل، وما كان ينشد من وراء سحره للحارقة من حياة عجيبة كال أحلام الساحرة. ووقدت الحقيقة من أنفسهم موقع العجب فأكبروا ذكره ورفعوا اسمه حتى فوق أسماء جبل ورقاعة وقاسم. وقال أنس: إنه لا يمكن أن يكون قاتل الجبلاوى كما ظنوا. وقال آخرون: إنه رجل الحرارة الأولى والأخير ولو كان قاتل الجبلاوى. وتنافسوا فيه حتى ادعاه كل حى لنفسه.

وحدث أن أخذ بعض الشبان من حارتنا يختفون تباعاً، وقيل في تفسير اختفائهم إنهم اهتدوا إلى مكان حنش فانضموا إليه، وإنه يعلمهم السحر استعداداً ليوم الخلاص الموعود. واستحوذ الخوف على الناظر ورجاله، فبשו العيون في الأركان، وفتشوا المساكين والدكاكين، وفرضوا أقسى العقوبات على أنفه الهفوات، وانهالوا بالعصى للنظر أو النكتة أو الضحكة، حتى باتت الحرارة في جو قائم من الخوف والحدق والإرهاب. لكن الناس تحملوا البغي في جلد، ولاذوا بالصبر. واستمسكوا بالأمل، وكانوا كلما أضر بهم العسف قالوا: لابد للظلم من آخر، وللليل من نهار، ولنرين في حارتنا مصرع الطفيان ومشرق النور، والعجائب.

هذه الشهادة

الشهادة التي توشك - أيها القارئ - أن تتبع سطورها القليلة، سبق نشرها «مقالة» في «الأهرام» يوم ٢٩ ديسمبر ١٩٩٤ ، أى منذ أكثر من عشر سنوات ، طرأت فيها على حياتنا الثقافية والسياسية أمور جسام ، ازدادت فيها تجاربنا الفردية والجماعية ثراء وتنوعاً ، وأحاطت بنا على مر شهورها وأيامها ، أحداث وتطورات كبرى ، داخل مصر ، وعلى امتداد عالمنا العربي وامتداد الدنيا كلها .. تغيرت بسببها نظرتنا إلى كثير من أمورنا الخاصة وأوضاعنا العامة .. ووقف بسببها كثير منا من نفسه وأمهه موقف المراجعة والتأمل ، والمجاهرة بالنقد لما يستحق النقد من أوضاعنا ، كما ارتفعت نبرة المطالبة بالإصلاح السياسي والاجتماعي والثقافي ، وانفتحت - بسبب ذلك كله - شرارة حوار بدأ ثم تصاعد ، ولا يزال دائراً بين جماعات الكتاب والمفكرين والباحثين من يطلق الناس عليهم «النخبة المثقفة» التي تفكّر للمجتمع كله ، وتطرح بين يديه فضيّاه وهوموه ، وتشتغل معه بطموحاته وتطلعاته وأماله في الغد القريب والمستقبل البعيد ..

لذلك ، حين عرضت على دار الشروق أن تجعل «هذه الشهادة» مقدمة لرواية «أولاد حارتنا» لكاتبنا الفذ الكبير «نجيب محفوظ» لم أتردد في قبول هذا الاقتراح ولكنني رأيت من الضروري أن أعيد قراءة هذه الشهادة ، وأن أعيد قراءة «أولاد حارتنا» مرة أخرى ، حتى أستوّق من أن ما سطره القلم عام ١٩٩٤ لا يزال - عند صاحبه على الأقل -

صالحا عام ٢٠٠٦ . وأن ما شهدت به في شأن هذه الرواية التي أحدثت في حياتنا الثقافية دوياً ظلت أصداها تتردد سنوات طويلة لازال موضع إيماني واقتناعي . . فلما فعلت ذلك، بدا لي أن ليس عندي ما أضيفه أو غيره من سطور هذه الشهادة . . إذ الأمر - في نهايته - يدور حول قضيتين لم يتحوال فكري ولم يتغير في شأنهما :

أولاًهما : أن من أصول النقد الأدبي التمييز الواجب بين الكتاب الذي يعرض فيه الكاتب فكرته ويحدد مواقفه، ملتزماً في ذلك بالحقائق التاريخية، والواقع الثابتة، دون افتئات عليها، ودون مداراة لما يراه في شأنها . . وبين الرواية التي قد يلجم أصحابها إلى الرمز والإشارة، وقد يدخل فيها الخيال إلى جانب الحقيقة العلمية، ولا بأس عليه في شيء من ذلك ، فقد كانت الرواية - قديماً وحديثاً - صيغة من صيغ التعبير الأدبي ، تختلف عن «الكتاب» والالتزام الصارم الذي يفرضه على مؤلفه . . وفي إطار «أولاد حارتنا» فإنني فهمت شخصية «عرفة» بأنها رمز للعلم المجرد . . وليس رمزاً لعالم بعيته ، كما فهمت شخصية «الجبلاوي» على أنها تعبير رمزي عن «الدين» وليس بحال من الأحوال تشخيصاً رمزاً للخالق سبحانه وهو أمر يتنزه عنه الأستاذ «نجيب محفوظ» ولا يقتضيه أي اعتبار أدبي فضلاً عن أن يستفيه أو يقبله .

القضية الثانية : حرية التعبير والموقف منها ، ذلك أنه مع التسليم بأن الحرفيات جميعها إنما تمارس في جماعة منظمة ، ولذلك لا يتأنى منها على التنظيم والتعبير إلا حرية واحدة هي حرية «الفكر والاعتقاد» بحسبانهما أمراً داخلياً يسأل عنه صاحبه أمام خالقه ، دون تدخل من أحد ، حاكماً كان ذلك الأحد أو محكوماً . . أما حين يتحوال الفكر إلى تعبير يذيعه صاحبه وينشره في الجماعة ، فإن المجتمع يسترد حقه في تنظيم ذلك التعبير دون أن يصل ذلك التنظيم إلى حد إهدار أصل الحق

ومصادرة جوهر الحرية، ذلك أن الهدف من إجازة هذا التنظيم إنما هو حماية حقوق وحرفيات أخرى فردية أو جماعية قد يمسها ويعتدى عليها إطلاق حرية الفرد في التعبير، وتنبعها على التنظيم والتقييد، وببقى مع ذلك صحيحاً أن الأصل هو الحرية، وأن التقييد استثناء عمليه الضرورة، والضرورة إنما تقدر بقدرتها، ومن شأن الاستثناء ألا يقاس عليه أو يتسع فيه.

وأهم من هذا كله.. أن الشهادة التي قدمتها ليست رأيًّا لي، وإنما هي تفسير كاتب «أولاد حارتنا» لما كتبه، وبيان واضح لا يحتمل التأويل لموقفه من القضايا الكبرى التي أثارتها تلك الرواية.. وهي - على كل حال - آخر ما صدر عن نجيب محفوظ، أمد الله في عمره، حول القراءة الصحيحة «لأولاد حارتنا» باعتبارها «رواية» للخيال والرمز فيها دور كبير.. ولنست «كتاباً» يقرأ قراءة حرفية للتعرف على موقف مؤلفه من القضايا التي بطرحها بعيداً عن الرمز والخيال..

وأدعوا الله تعالى أن تتسع عقولنا وقلوبنا لزيادة من حرية الكتاب والأدباء وسائر المفكرين في التعبير عن آرائهم، وإطلاق مواهبهم، بالصيغ الأدبية التي يختارونها، دون حجر أو وصاية أو مساعدة إلى الاتهام وإساءة الظن.. حتى لا «تكتم الشهادة» بيننا ونمرت، وحتى لا تتجدد الأفكار على أطراف الألسنة والأقلام.. فتحرم الجماعة من زاد ثقافي وعلمي تحتاج إليه، وهي تشق طريقها للابتعاث والنهضة وسط زحام حضاري وثقافي لا سابقة له في التاريخ.

د. أحمد كمال أبو المجد

٢٠٠٦
بنابر

حول «أولاد حارتنا»

حين وقع الاعتداء الغادر على أديب مصر وكاتبها الكبير نجيب محفوظ، كنت خارج مصر.. وحين عدت إليها طلبت من الصديق الأستاذ محمد سلماوى، وهو من تلامذته المقربين، أن يصحبنى إليه لنؤدى واجب الاطمئنان عليه.. ولكنه.. وسط شواغله الثقافية.. تأخر فى ترتيب تلك الزيارة حتى عاد الأستاذ نجيب محفوظ إلى بيته قبل أيام من عيد ميلاده الذى شاركه فى الاحتفال به كثيرون من محبيه ومقدريه.. وإذا بالأستاذ سلماوى يتصل بي ليخبرنى أنه رتب للزيارة موعداً فى الخامسة من مساء اليوم资料， وأننا سنذهب فى صحبته ومعنا المهندس إبراهيم المعلم، الذى تربى ووالده بالأستاذ نجيب محفوظ علاقات ود قديمة وموصولة، ومعنا كذلك الإذاعى والإعلامى المخضرم أحمد فراج.

وعلى باب نجيب محفوظ استقبلتني بالحفاوة المصرية المعهودة السيدة الفاضلة زوجته.. ثم جاء الأستاذ نجيب محفوظ فى خطوات ثابتة طمأنتنا على قرب اكتمال شفائه، وأخذ يرحب بنا فى ود شديد، ثم جلس بيننا.. وسادت فترة من صمت قصير، لأن أحداً منا لم يعد لهذا اللقاء أكثر من كلمات السؤال عن الصحة والتهئة بعيد الميلاد.. ثم بدا لي.. على غير ترتيب ولا إعداد.. أن أقطع هذا الصمت.. فوجدتني أقول: يا أستاذ نجيب، الحالون معك الليلة كلهم من قرائك، جيلنا كان يجد فى كتاباتك وروياتك شيئاً بين فن الأدب وفن التصوير،

وذلك بما نسجته في وصف القاهرة وحياة أهلها، وغاذجهم المختلفة من وشى دقيق عامر بالألوان مليء بالتفاصيل ، حتى ليكاد القارئ يسمع فيه أصوات الناس ويرى وجوههم ، ويتابع حركتهم في شوارع القاهرة وأزقتها ومساجدها ومقاهيها ، ويكاد دون أن يشعر . يدخل طرفا في علاقات بعضهم البعض .. وكم من مرة تعرف بعضا على أحياء القاهرة وشوارعها بما كان قرأه عنك في وصفها وتصوير حياة أهلها .. وأضفت : ثم إنك يا أستاذ نجيب تظل - في خواطرنا . قبل كل شيء وبعد كل شيء كتابا وأديبا مصريا خالصا ، لم تدرج كتاباته وأراؤه بتأثيرات غربية تنال من نكهتها المصرية ومذاقها العربي الأصيل ..

وبدا من قسمات وجه الأستاذ نجيب محفوظ وحركة يديه أنه يقبل هذا الوصف له ولكتاباته وأنه يرتاح إليه .. فشجعني ذلك على أن أقدم في الحوار خطوة أخرى ، فقلت : ويبقى أن نسألك عن رأي عبرت عنه منذ أسابيع قليلة حين بعثت برسالة وجيزة إلى الندوة التينظمتها الأهرام تحت عنوان « نحو مشروع حضارى عربى » ، فقد قلت للمشاركين في الندوة : إن أي مشروع حضارى عربى لا بد أن يقوم على الإسلام ، وعلى العلم .. ولقد وصلت رسالتك . على قصرها . واضحة وصريحة ومستقيمة ولا تحتمل التأويل ، ولكن يبقى . ونحن معك نسمع لك وننقل عنك . أن تزيد هذا الأمر تفصيلا ، تحتاج جميرا إليه وسط المبارزات الكلامية التي يجري فيها . ما يستحق الحزن والأسف . من ألوان تحريف الكلام وتزييف الآراء والافتئات على أصحابها ..

وفي حماسة شديدة ، وصوت جهير ونبرة قاطعة ، انطلق نجيب محفوظ يقول : وهل في تلك الرسالة جديد؟ .. إن أهل مصر الذين أدركناهم ، وعشنا معهم ، والذين تحدثت عنهم في كتاباتي كانوا يعيشون بالإسلام ، ويمارسون قيمة العليا .. دون ضجيج ولا كلام كثير .. وكانت أصالتهم تعنى هذا كله .. ولقد كانت السماحة وصدق

الكلمة وشجاعة الرأى وأمانة الموقف ودفع العلاقات بين الناس ، هي تعibir أهل مصر الواضح عن إسلامهم .. ولكن فى كلمتى إلى الندوة أضفت ضرورة الأخذ بالعلم ، لأن أى شعب لا يأخذ بالعلم ولا يدبر أموره كلها على أساسه لا يمكن أن يكون له مستقبل بين الشعوب .. إن كتاباتى كلها ، القديم منها والجديد ، تمسك بهذين المحورين : الإسلام الذى هو منبع قيم الخير فى أمتنا ، والعلم الذى هو أداة التقدم والنهضة فى حاضرنا ومستقبلنا .

وأحب أن أقول : إنه حتى رواية «أولاد حارتنا» التى أساء البعض فهمها لم تخرج عن هذه الرؤية . ولقد كان المغزى الكبير الذى توجت به أحداها .. أن الناس حين تخلىوا عن الدين مثلاً فى «الجلبلاوى» ، وتصوروا أنهم يستطيعون بالعلم وحده مثلاً فى «عرفة» أن يدبروا حياتهم على أرضهم (التي هي حارتنا) .. اكتشفوا أن العلم بغير الدين قد تحول إلى أداة شر ، وأنه قد أسلمهم إلى استبداد الحاكم وسلبهم حريةهم .. فعادوا من جديد يبحثون عن «الجلبلاوى» .

وأضاف : إن مشكلة «أولاد حارتنا» منذ البداية أننى كتبتها «رواية» ، وقرأها بعض الناس «كتاباً» ، والرواية تركيب أدبي فيه الحقيقة وفيه الرمز ، وفيه الواقع وفيه الخيال .. ولا يأس بهذا أبداً .. ولا يجوز أن تحاكم «الرواية» إلى حقائق التاريخ التى يؤمن الكاتب بها ، لأن كاتبها باختيار هذه الصيغة الأدبية لم يلزم نفسه بهذا أصلاً وهو يعبر عن رأيه فى رواية ..

وفي ثقافتنا أمثلة كثيرة لهذا اللون من الكتابة ، ويكتفى أن نذكر منها كتاب «كليلة ودمنة» ، فهو مثلاً يتحدث عن الحاكم ، ويطلق عليه وصف «الأسد» ولكنه بعد ذلك يدبر كتابته كلها داخل إطار مملكة الغابة وأشخاصها المستمدة من دنيا الحيوان .. متهدياً بالقارئ فى آخر المطاف إلى العبرة أو الحكمة التى يجريها على ألسنة الطير والحيوان .. وهذا هو

الهدف الحقيقي الذى يتوجه إليه كل كاتب صاحب رأى.. أيا كانت الصيغة التى يمارس بها كتاباته ..

قلت : الواقع أننى قرأت «أولاد حارتنا» منذ عدة سنوات ، وأذكر أننى تعاملت معها حينذاك على أنها رواية وليس كتابا ، ولذلك تفهمت ما امتلأت به من رموز تداخل فى صياغتها الخيال ، ولم أتصور أبدا أن كاتبها كان بهذا التداخل يحاول رسم صور تعبير عن موقفه من الحقائق التى يتناولها ذلك الخيال أو تشير إليها تلك الرموز . ولكن الذى استقر فى خاطرى على أى حال وبقى فى ذاكرتى منها إلى يومنا هذا ، والذى رأيته . معبراً عن موقف كاتبها الذى يريد إيصاله إلى قراءه . هو تسويع حلقات روايته الرمزية بإعلان واضح عن حاجة «الحارة» ، التى ترمز للمجتمع الإنسانى ، إلى الدين وقيمه التى عبر عنها الرمز مجرد (الجبلاوى) حتى وإن تصور أهل الحارة غير ذلك وهم معجبون ومفتونون «بعرفة» الذى يرمز إلى سلطان العلم مجرد والمنفصل عن القيم الهدادية والموجهة لأهل الحارة .

وتابع الأستاذ نجيب حديثه الأول قائلاً :

إننى حريص دائمًا على أن تقع كتاباتى فى الموقع الصحيح لدى الناس ، حتى وإن اختلف بعضهم معى فى الرأى ، ولذلك لما تبينت أن الخلط بين «الرواية» و«الكتاب» قد وقع فعلا عند بعض الناس ، وأنه أحدث ما أحدث من سوء فهم ، اشترطت ألا يعاد نشرها إلا بعد أن يوافق الأزهر على هذا النشر ، (ولا يزال هذا موقفى إلى الآن).

قلت : إننى أتفنى - يا أستاذ نجيب - أن يسمع الناس منك هذا الكلام الواضح الذى لا يحتمل التأويل ، ليعرفوه منك بدلا من أن يعرفوه من خلال شروح الآخرين ، وأذن لى أن أقول إنى كنت واحداً من الذين يجدون هذه المعانى التى حدثنا بها الآن حاضرة فى ثنايا كثير من

كتاباتك القديمة والجديدة، وكانت تعبرأً دقيقاً عن منهج جيلنا وجيل آبائنا في فهم الإسلام، فقد كانوا وكنا معهم. تتنفس الإسلام تنفساً ونحيا به في هدوء واطمئنان، دون أن نملأ مجالسنا ومجالس الآخرين بالكلام الكثير عنه.

وحيث أشافت الزيارة أن تحول بهذا الحوار العفو إلى ندوة، تدخل الأستاذ أحمد فراج قائلاً في حماسة: كم كنت أتمنى أن يسمع الناس - كل الناس - هذا الحوار الهادئ حول هذه القضايا الساخنة. وأرجو أن يأذن لي الأستاذ نجيب محفوظ بتسجيل هذا الكلام كله مرة أخرى في ندوة تليفزيونية قصيرة لا تتجاوز الدقائق العشر. . . توضع بها النقاط على الحروف، ويعرف الناس، الموافق منهم والمخالف، حقيقة رأي الأستاذ نجيب محفوظ الذي عبر عنه الآن، كما عبرت عنه رسالته الوجيزة إلى ندوة الأهرام.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: إنني شاكر ومقدر هذا الاهتمام، ولكنني أشفق على نفسي من فتح باب الأحاديث التليفزيونية. . . وأن لا أزال في نقاوه لا تحتمل مثل هذا المجهود. . . ولكنني - بدلاً من هذا - أقترح أن يكتب الدكتور كمال أبو المجد هذا الحوار الذي دار كما دار. . . وسأكون راضياً عن ذلك كل الرضا. . .

وفي إطار هذه الرغبة المؤثرة بإذن صريح من الأستاذ نجيب محفوظ وبشهادته ثلاثة من ضيوفه الكرام. . . ولدت فكرة هذا المقال. . . الذي هو عندي شهادة أرجو أن أدرأ بها عن كتابات نجيب محفوظ سوء فهم الذين يتجلون الأحكام ويتسرعون في الاتهام، وينسون أن الإسلام نفسه قد أدرج كثيراً من الظنوں السيئة فيما دعا إلى اجتنابه من آثام. . . كما أدرأ عن تلك الكتابات الصنيع القبيح الذي يصر به بعض الكتاب على أن يقرؤوا في أدب نجيب محفوظ ما يدور في رءوسهم هم من أفكار، وما يتمنون أن يجعلوه في تلك الكتابات، مانحين أنفسهم

قوامة لا يملكها أحد على أحد، فضلاً عن أن يملكها أحد منهم على كاتب له في دنيا الكتابة والأدب ما لنجيب محفوظ من القدم الثابتة، والتجربة الغنية، والموهبة الفذة النادرة التي أنعم بها عليه الله.

أدعوا الله أن يتم على أديبنا الكبير نعمة العافية حتى يمسك القلم من جديد مواصلاً عطاءه الأدبي الذي يغنى العقل والوجدان، وواهباً ما بقى من عمره المديد. بإذن الله. لتجلية الأمرتين العظيمتين اللذين أشار إليهما في رسالته إلى ندوة الأهرام: الدين، الذي به هداية الناس وراحة النفوس، والذي يفيء ألواناً من المحبة والسماحة ودفع العلاقات والتسابق إلى الخير، على حارتنا الكبيرة مصر.. والعلم، الذي تحيا به العقول، والذي هو مفتاح أمتنا، وكل أمة، إلى أبواب المستقبل التي تتزاحم اليوم أمامها شعوب الدنيا كلها لتكون لها مكانة في ساحتها التي تتشكل معالمها الجديدة يوماً بعد يوم.

د. أحمد كمال أبو المجد
الأهرام ٢٩ ديسمبر ١٩٩٤

أعمال نجيب محفوظ

١٩٣٢	ترجمة	١ - مصر القديمة
١٩٣٨	مجموعة قصصية	٢ - همس الجنون
١٩٣٩	رواية تاريخية	٣ - عبث الأفدار
١٩٤٣	رواية تاريخية	٤ - رادويس
١٩٤٤	رواية تاريخية	٥ - كفاح طيبة
١٩٤٥	رواية	٦ - القاهرة الجديدة
١٩٤٦	رواية	٧ - خان الخليلى
١٩٤٧	رواية	٨ - زقاق المدق
١٩٤٨	رواية	٩ - السراب
١٩٤٩	رواية	١٠ - بداية ونهاية
١٩٥٦	رواية	١١ - بين القصرين
١٩٥٧	رواية	١٢ - قصر الشوق
١٩٥٧	رواية	١٣ - السكرية
١٩٦١	رواية	١٤ - اللص والكلاب
١٩٦٢	رواية	١٥ - السمان والخريف
١٩٦٢	مجموعة قصصية	١٦ - دنيا الله
١٩٦٤	رواية	١٧ - الطريق

١٩٦٥	مجموعة قصصية	١٨ - بيت سين السمعة
١٩٦٥	رواية	١٩ - الشحاذ
١٩٦٦	رواية	٢٠ - ثرثرة فوق النبل
١٩٦٧	رواية	٢١ - ميرamar
١٩٦٧	رواية	٢٢ - أولاد حارتنا
١٩٦٩	مجموعة قصصية	٢٣ - خمارة القط الأسود
١٩٦٩	مجموعة قصصية	٢٤ - تحت المظلة
١٩٧١	مجموعة قصصية	٢٥ - حكاية بلا بداية ولا نهاية
١٩٧١	مجموعة قصصية	٢٦ - شهر العسل
١٩٧٢	رواية	٢٧ - المرايا
١٩٧٣	رواية	٢٨ - الحب تحت المطر
١٩٧٣	مجموعة قصصية	٢٩ - الجريمة
١٩٧٤	رواية	٣٠ - الكرنك
١٩٧٥	رواية	٣١ - حكابات حارتنا
١٩٧٥	رواية	٣٢ - قلب الليل
١٩٧٥	رواية	٣٣ - حضرة المحترم
١٩٧٧	رواية	٣٤ - الحرافيش
١٩٧٩	مجموعة قصصية	٣٥ - الحب فوق هضبة الهرم
١٩٧٩	مجموعة قصصية	٣٦ - الشيطان يعظ
١٩٨٠	رواية	٣٧ - عصر الحب
١٩٨١	رواية	٣٨ - أفراح القبة
١٩٨٢	رواية	٣٩ - ليالي ألف ليلة

١٩٨٢	مجموعة قصصية	رأيت فيما يرى النائم	٤٠
١٩٨٢	رواية	الباقي من الزمن ساعة	٤١
١٩٨٣	رواية	أمام العرش (حوار بين الحكماء)	٤٢
١٩٨٣	رواية	رحلة ابن فطومة	٤٣
١٩٨٤	مجموعة قصصية	التنظيم السري	٤٤
١٩٨٥	رواية	العايش في الحقيقة	٤٥
١٩٨٥	رواية	يوم قتل الزعيم	٤٦
١٩٨٧	رواية	حدث الصباح والمساء	٤٧
١٩٨٧	مجموعة قصصية	صباح الورد	٤٨
١٩٨٨	رواية	تشترى	٤٩
١٩٨٨	مجموعة قصصية	الفجر الكاذب	٥٠
١٩٩٥	مجموعة قصصية	أصداء السيرة الذاتية	٥١
١٩٩٦	مجموعة قصصية	القرار الأخير	٥٢
١٩٩٩	مجموعة قصصية	صدى السبان	٥٣
٢٠٠١	مجموعة قصصية	فتوة العطوف	٥٤
٢٠٠٤	مجموعة قصصية	أحلام فترة النقاوه	٥٥
٢٠٠٦	مسرحيات	المسرحيات	٥٦
٢٠٠٨	مختارات	حكمة الحياة	٥٧

أولاً دحاتن

هذه الرواية ثار حولها جدل لم يشر مثله حول رواية عربية معاصرة. أحد جوانب هذا الجدل كان يثور، ولا يزال، حول ما إذا كان نجيب محفوظ يرمي شخصيات روايته إلى الله تبارك وتعالى وللأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومسألة الصراع المفتعل بين العلم والدين وهي مسألة أجنبية عن ثقافتنا العربية والإسلامية.

والرمز كله يحمل التأويل، وما كان محتملاً للتأويل يجب حمله على أحسن وجوهه. وقد قال محفوظ نفسه إن الرواية تصور حارة مصرية تماماً، ووقفنا قدימה لصالح أبناء الحارة يتتصارع عليه فريقان أحدهما شرير والآخر طيب. والسؤال الذي كان يحاول توجيهه إلى حكام مصر من رجال الثورة هو: «مع أى فريق أنتم؟» وقال محفوظ في هذا السياق:

«الأمر الذي لا شك فيه أنتى في حياتى لم يأت إلى شك في الله، وإذا كنت قد بدأت أفهم الدين فهما خاصا في وقت المراهقة، فإننى قد فهمت الإسلام على حقيقته تماماً بعد ذلك. بل أعتقد جازماً وحازماً أنه لا نهضة حقيقية في بلد إسلامي إلا من خلال الإسلام».

وإذا كان هذا هو كلام محفوظ فلتمض المعركة الأدبية في طريقها إلى منتهاها أو لستimer إلى غير نهاية. لكن إيمان الكاتب، ورمز الرواية إلى الله سبحانه وتعالى وإلى رسوله، قطعت فيها جهيزه قول كل خطيب. فليقرأ القاريء كيف يشاء، وليفهم كيف يشاء، ولكنه مطالب لا يكذب رجلاً مسلماً أفضى إلى الله تبارك وتعالى بما قدم.

وقد قدم لغفته وثقافته خيراً كثيراً نرجو أن يعززه الله به خيراً.

محمد سليم العوا

ISBN 978-977-09-1534-9



9 789770 915349

دار الشروق
www.shorouk.com